تيسير الكريم المنان في سيرة

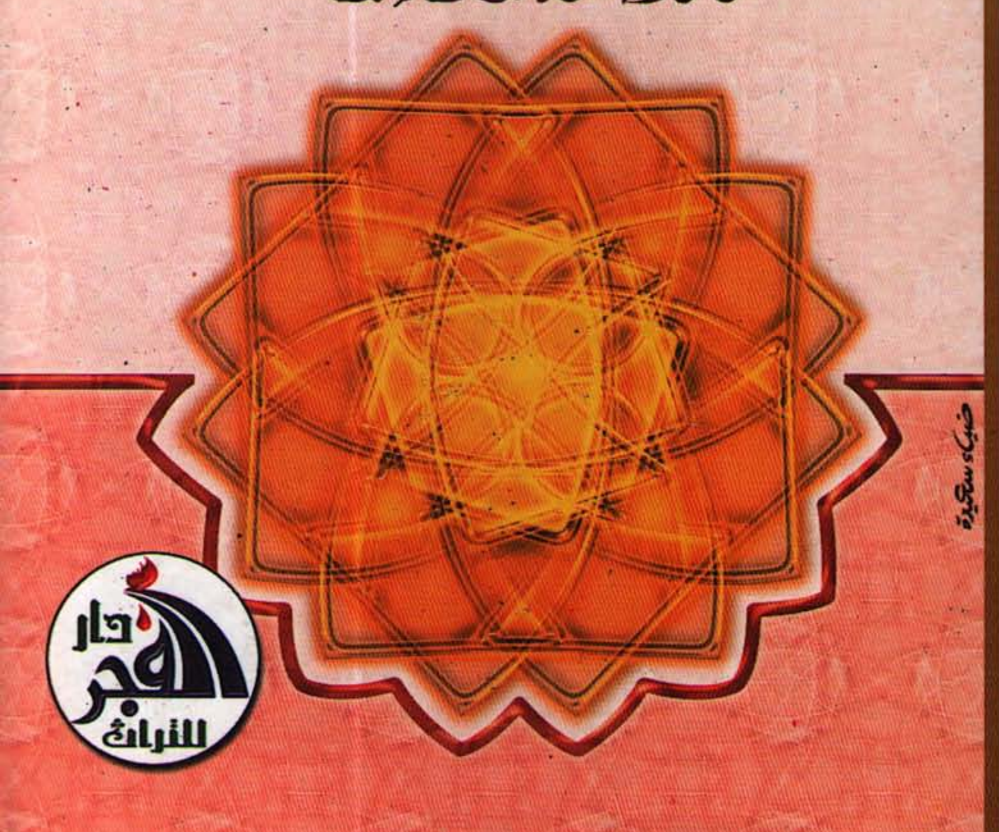
عثمان بن عفان

رضي الله عنه

شخصيته وعصره

تأليف

دكتور/ علي محمد محمد الصلابي



دار الفجر للتراث

سلسلة الخلفاء الراشدين

3

تاريخ الخلفاء الراشدين (٣)

تيسير الكريم المنان فى سيرة



رضى الله عنه

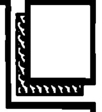
شخصيته وعصره

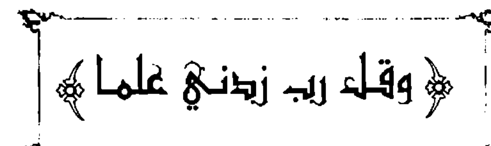
تأليف

دكتور / علي محمد محمد الصلابي

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر - القاهرة

* الكتاب : عثمان بن عفان شخصيته وعصره

* المؤلف : علي محمد محمد الصلابي

* الطبعة : الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

* الناشر : دار الفجر للتراث - القاهرة

* رقم الإيداع : ٢٦٥٥ / ٢٠٠٤

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر / القاهرة


تليفون: ٢٥١٤٧١٧٩ - تليفون وفاكس: ٢٥١٤٧٢٤٨

الإهداء

إلى العلماء العاملين.

والدعاة المخلصين.

وطلاب العلم المجتهدين.

وأبناء الأمة الغيورين.

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المؤلف

علي محمد محمد الصلاّبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

هذا الكتاب يتحدث عن شخصية عثمان بن عفان رضى الله عنه وعصره، وهو امتداد لما سبقه من كتب تحدثت عن الصديق والفاروق تبحث فى دراسة عهد الخلفاء الراشدين؛ لكى نستخرج الدروس والعبر، ونستوعب السنن والقوانين الإلهية فى حركة المجتمعات وبناء الدول ونهضة الشعوب، وتربية القادة، والأفراد العاملين لنشر دين الله بين الناس.

إن عودة الأمة لما كانت عليه فى قيادتها للبشرية منوط بسيرها على هدى النبى ﷺ وخلفائه الراشدين، فقد أخبر الحبيب المصطفى ﷺ عن المراحل التاريخية التى تمر بها الأمة فى مسيرتها فى الحياة، فقال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله

أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»(١).

إن معرفة عهد الخلافة الراشدة ومنهاج النبوة خطوة لا بد منها فى تحقيق الأهداف التى تسعى الأمة لتحقيقها فى هذه الحياة؛ فقد قال ﷺ: «عليكم بسنتى وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى»(٢).

إن تاريخ عصر الخلفاء الراشدين ملىء بالدروس والعبر، وهى متناثرة فى بطون الكتب والمصادر والمراجع سواء كانت تاريخية أو حديثية أو فقهية أو أدبية أو تفسيرية، فنحن فى أشد الحاجة لجمعها وترتيبها وتوثيقها وتحليلها، فتاريخ الخلافة الراشدة إذا أحسن عرضه يغذى الأرواح، ويهذب النفوس، وينور القلوب، ويبنى العقول، ويشحذ الهمم، ويقدم الدروس، ويسهل العبر، وينضج الأفكار، ويوضح معالم هذه الخلافة، وصفات قادتها، ونظام حكمها، وأخلاق جيلها وعوامل ازدهارها، وأسباب زوالها؛ فنستفيد من ذلك فى إعداد الجيل المسلم الذى يتربى على منهاج النبوة وفقه الخلافة الراشدة، ونتعرف على حياة عصر من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال فيهم رسول الله ﷺ: «خير أمتى القرن الذى بعثت فيهم...»(٣).

وقال فيهم عبد الله بن مسعود: من كان مستنًا فليستن بمن قد مات؛ فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا والله أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه،

---

(١) المسند (٤/ ٢٧٣)، والبزار رقم ١٥٨٨ رجاله ثقات.

(٢) سنن أبى داود (٤/ ٢٠١)، والترمذى (٥/ ٤٤)، حسن صحيح.

(٣) مسلم (٤/ ١٩٦٣ - ١٩٦٤).

فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم(١). فالصحابة قاموا بتطبيق أحكام الإسلام ونشروه فى مشارق الأرض ومغاربها فعصرهم خير العصور، فهم الذين علّموا الأمة القرآن الكريم ورووا السنن والآثار عن رسول الله ﷺ فتاريخهم هو الكنز الذى حفظ مدخرات الأمة فى الفكر والثقافة والعلم والجهاد، وحركة الفتوحات والتعامل مع الشعوب والأمم، فتجد الأجيال فى هذا التاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها فى الحياة على منهج صحيح، وهدى رشيد، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ودورها فى دنيا الناس.

إن التاريخ الإسلامى أصبح غرضًا ومرمًى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، يحاولون أن يوجدوا فجوة فى الإسلام وتاريخه الزاهر، حتى يتسنى لهم عزل الأجيال عن الإسلام وعقيدته وشريعته وقيمه وتراثه العلمى، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم فى المجتمع الإسلامى.

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن فى تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ، ولذلك يجب الحذر من كل رافضى كاذب، ومستشرق حاقد، وعلمانىٍّ جاهل، وكل من سار على نهجهم، ولا بد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد، والهجوم الشجاع على مناهج الكذابين والمنحرفين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة.

إن صياغة التاريخ الإسلامى بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة ضرورة ملحة لأبناء الأمة، وقد بدأت أقلام الباحثين والكتّاب تصوغ التاريخ من هذا المنظور وهم لم يبدءوا من فراغ؛ لأن الله حمى دينه وحمى أمة الإسلام فقيض لتاريخ الصحابة من يحقق وقائعه ويصحح أخباره، ويكشف الستار عن الوضاعين والكذابين من ملفقى الأخبار،

---

(١) شرح السُّنَّة للبغوى (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

ويرجع الفضل فى ذلك الجهد العظيم إلى الله ثم أهل السُّنَّة والجماعة من أئمة الفقهاء والمحدِّثين الذين حفلت مصادرهم بالكثير من الإشارات والروايات الصحيحة التى تنقض وترد كل ما وضعه الملفقون(١).

هذا، وقد سرت على أصول منهج أهل السُّنَّة، فعكفت على المصادر والمراجع القديمة والحديثة، ولم أعتمد فى دراسة عصر الخلفاء الراشدين على الطبرى وابن الأثير والذهبى وكتب التاريخ المشهورة فقط؛ بل رجعت إلى كتب التفسير، والحديث وشروحها، وكتب العقائد والفرق، وكتب التراجم والجرح والتعديل، وكتب الفقه، فوجدت فيها مادة تاريخيّة غزيرة يصعب الوقوف على حقيقتها فى الكتب التاريخية المعروفة والمتداولة، وقد شرعت فى هذا الكتاب بالحديث عن الخليفة الراشد عثمان ابن عفان رضى الله عنه الذى قال فيه رسول الله ﷺ: وأصدقها حياءً عثمان(٢). وقال فيه رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك بعد تقديمه النفقة العظيمة: «ما ضرّ عثمان بعد اليوم، ما ضَرَّ عثمان بعد اليوم»(٣)، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه(٤)، وحثّ الناس عند وقوع الفتنة أن يكونوا مع عثمان وأصحابه، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إنى سمعت رسول الله يقول: «إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافًا أو اختلافًا وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان»(٥).

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبى ﷺ لا يعدلون بأبى بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: «كنا فى زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم»(٦).

---

(١) المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ، د. محمد محزون، ص٤.
(٢) فضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل (١/ ٦٠٤) إسناده صحيح.
(٣) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥.
(٤) البخارى رقم ٣٦٩٥.
(٥) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيح.
(٦) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم: ٣٦٩٨.

* وقد قال فيه الشاعر النميرى:

عشيـة يدخلون بغير إذن ... على مُتوكِّلٍ أوفى وطابا
خليل محمد ووزير صـدق ... ورابع خير من وطئ الترابا [(١)]

* وقال فيه أبو محمد القحطانى:

لما قضى صديق أحمد نحبه ... دفع الخلافة للإمـــام الثانى
أعنى به الفاروق فرَّق عَنْوَةً ... بالسيف بين الكفر والإيمـان
هو أظهر الإسلام بعـــد خفـائه ... ومحا الظلام وباح بالكتمـان
ومضى وخلَّى الأمر شورى بينهم ... فى الأمر فاجتمعوا على عثمان
من كـــان يسهر ليلة فى ركعـــة ... وترًا فيكمـل ختمـــة القرآن

* إلى أن قال:

والويل للركب الذين سعوا إلى ... عثمان فاجتمعـوا على العصيان [(٢)]

إن حياة ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه صفحة مشرقة فى تاريخ الأمة، وقد قمت بتتبع أخباره وحياته وعصره وقمت بترتيبها وتنسيقها وتوثيقها وتحليلها؛ لكى تصبح فى متناول أبناء أمتى على مختلف طبقاتهم من علماء ودعاة وخطباء، وساسة ومفكرين، وقادة جيوش، وحكام، وطلاب علم، وعامة الناس؛ لعلهم يستفيدون منها فى حياتهم، ويقتدون بها فى أعمالهم فيكرمهم الله بالفوز فى الدارين.

لقد تحدثت فى هذا الكتاب عن اسم ذى النورين ونسبه وكنيته وألقابه وأسرته، ومكانته فى الجاهلية، وإسلامه، وزواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ، وابتلائه وهجرته للحبشة، وعن حياته مع القرآن الكريم وملازمته للنبى ﷺ وعن مواقفه فى

(١) البداية والنهاية (٧/٢٠٦).
(٢) نونية القحطانى، ص٢١ ـ ٢٥.

غزوات رسول اللهﷺ ، وعن حياته الاجتماعية بالمدينة، ومساهمته الاقتصادية فى بناء الدولة، وتتبعت أحاديث رسول اللهﷺ فى ذى النورين فيما ورد فى فضائله مع غيره، وما ورد عن رسول الله فى أخباره عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان، وتكلمت عن مكانته فى عهد الصديق والفاروق، وبينت قصة استخلافه وما قام به عبد الرحمن ابن عوف من عمل عظيم فى إشرافه على إدارة الشورى، ورددت على الأباطيل الرافضية التى دست فى قصة الشورى، فأثبت بطلانها وزيفها بالحجج العلمية والبراهين القوية والأدلة المنطقية، وذكرت أقوال أهل العلم فى أحقية عثمان بالخلافة وانعقاد الإجماع على خلافته، وشرحت منهج عثمان رضى الله عنه فى نظام الحكم من خلال رسائله للولاة وأمراء الجند وعامة الناس، ومواقفه فى الحياة، فقد وضح رضى الله عنه المرجعية العليا للدولة، وحق الأمة فى محاكمة الخليفة، وقواعد الشورى والعدل والمساواة والحريات وأهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياة المجتمعات، وقد أشرت إلى أهم صفات عثمان رضى الله عنه القيادية وذكرت تسع عشرة صفة من صفاته مع المواقف الدالة على تلك الصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وتحدثت عن المؤسسة المالية فبينت معالم السياسة المالية التى أعلنها عثمان عندما تولى الحكم، وأنواع النفقات العامة فى عهده، كصرف مرتبات الولاة، والجنود، والإنفاق على الحج، وتمويل إعادة بناء المسجد النبوى، وتوسعة المسجد الحرام، وإنشاء أول أسطول بحرى، وتحويل الساحل من الشعيبة إلى جدة، وتمويل حفر الآبار، ورواتب المؤذنين، وأشرت إلى أثر تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، وإلى حقيقة العلاقة بين عثمان وأقاربه والعطاء من بيت المال، وتكلمت عن مؤسسة القضاء وبعض الاجتهادات الفقهية لعثمان والتى أثرت فى المدارس الفقهية فيما بعد، وجمعت فتوحات عثمان المتناثرة فى كتب التاريخ، وقمت بترتيبها وتنظيمها وفق حركة الجيوش فى المشرق، وبلاد الشام، وفى الجبهة المصرية، والشمال الإفريقى، واستخرجت من حركة الفتوح دروسًا وعبرًا وفوائد، كتحقق وعد الله للمؤمنين، وتطور فنون الحرب والسياسة، والاهتمام بحدود الدولة، والحرص على وحدة الكلمة فى مواجهة العدو، وجمع المعلومات عن الأعداء، وترجمت لبعض

قادة الفتوح، كالأحنف بن قيس، وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلى، وسلمان بن ربيعة، وحبيب بن مسلمة الفهرى، وأشدت بأعظم مفاخر عثمان فى توحيده للأمة على قراءة المصحف العثمانى، ووضحت المراحل التى مرت بها كتابة القرآن الكريم، وتحدثت عن الباعث على جمع القرآن فى عهده، واستشارته لجمهور الصحابة، وعن عدد المصاحف التى أرسلها إلى الأمصار، وفهم الصحابة لآيات النهى عن الاختلاف، وعن مؤسسة الولاة، وأقاليم الدولة فى عهده، وسياسته مع الولاة وحقوقهم وواجباتهم، وأساليبه فى متابعة ولاته ومراقبتهم والاطلاع على أخبارهم وبينت حقيقة ولاة عثمان رضى الله عنهم وماذا لهم وماذا عليهم، وحقيقة علاقة عثمان بأبى ذر، وابن مسعود وعمار بن ياسر رضى الله عنهم جميعًا، وفصلت أسباب فتنة مقتل عثمان وأهمية دراسة وقائع هذه الفتنة، وتحدثت عن كل سبب من الأسباب فى فقرة مستقلة، كالرخاء وأثره فى المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعى، ومجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات، والورع الجاهلى، وطموح الطامحين، وتآمر الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد الخليفة الراشد المظلوم، واستخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس، وعن أثر السبئية فى أحداث الفتنة، والخطوات التى اتخذها عثمان رضى الله عنه لمعالجتها، كإرسال لجان تحقيق وتفتيش، وإرساله لكل الأمصار كتابًا شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين، ومشورته لولاة الأمصار وإقامة الحجة على المتمردين، والاستجابة لبعض مطالبهم، وبينت ضوابط التعامل مع الفتن من خلال فقه عثمان رضى الله عنه، كالتثبت، ولزوم العدل والإنصاف، والحلم والأناة، والحرص على ما يجمع، ونبذ ما يفرق، ولزوم الصمت، والحذر من كثرة الكلام، واستشارة العلماء الربانيين، والاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ فى الفتن، ووصفت احتلال أهل الفتنة للمدينة، وحصارهم لعثمان ودفاع الصحابة عنه ورفضه لذلك، وذكرت مواقف الصحابة من مقتل عثمان رضى الله عنه وما ورد من أقوالهم فى الفتنة.

إن هذا الكتاب يبرهن على عظمة ذى النورين، ويثبت للقارئ الكريم بأنه كان

عظيمًا بإيمانه وبعلمه وبخلقه وبآثاره، وكانت عظمته مستمدة من فهمه وتطبيقه للإسلام وصلته العظيمة بالله واتِّباعه لهدى الرسول الكريم ﷺ .

إن عثمان رضى الله عنه من الأئمة الذين يتأسى الناس بهديهم وبأقوالهم وأفعالهم فى هذه الحياة، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان، والعاطفة الإسلامية الصحيحة والفهم السليم لهذا الدين، فلذلك اجتهدت فى دراسة شخصيته وعصره حسب وسعى وطاقتى، غير مدع عصمة، ولا متبرئ من زلة، ووجه الله الكريم لا غيره قصدت، وثوابه أردت، وهو المسئول فى المعونة عليه، والانتفاع به، إنه طيب الأسماء، وسميع الدعاء.

هذا، وقد انتهيت من هذا الكتاب الساعة الثانية من فجر يوم الأربعاء بتاريخ ٨ من شهر ربيع الثانى لعام ١٤٢٣هـ الموافق ١٨/٦/٢٠٠٢م والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطَّلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] .

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

على محمد محمد الصَّلاَّبىّ

الفصل الأول

ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه
بين مكة والمدينة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وألقابه وصفته
وأسرته ومكانته فى الجاهلية

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه:

١ ـ **هو عثمان بن عفان** بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، [١] ويلتقى نسبه بنسب رسول الله ﷺ فى عبد مناف. وأمه أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ[٢]، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهى شقيقة عبد الله والد النبى ﷺ، ويقال إنهما ولدا توأمًا حكاه الزبير بن بكار، فكان ابن بنت عمة النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ ابن خال والدته، وقد أسلمت أم عثمان وماتت فى خلافة ابنها عثمان وأنه كان ممن حملها إلى قبرها[٣]، وأما أبوه فهلك فى الجاهلية.

٢ ـ **كنيته**: كان يكنى فى الجاهلية أبا عمرو، فلما ولد له من رقيّة بنت رسول الله غلام سماه عبد الله، واكتنى به، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله[٤].

٣ ـ **لقبه**: كان عثمان رضى الله عنه يلقّب بذى النورين وقد ذكر بدر الدين

(١) الطبقات، لابن سعد (٣/ ٥٣)، والإصابة (٤/ ٣٧٧)، رقم ٥٤٦٣.
(٢) التمهيد والبيان لمحمد يحيى الأندلسى، ص١٩.
(٣) الخلافة الراشدة والدولة الأموية، د. يحيى اليحيى، ص٣٨٨.
(٤) التمهيد والبيان، ص١٩.

العينى[١]، فى شرحه على صحيح البخارى: أنه قيل للمهلب بن أبى صفرة[٢]: لم قيل لعثمان ذو النورين؟ فقال: لأنّا لا نعلم أحدًا أرسل سترًا على بنتى نبى غيره[٣]، وقال عبد الله بن عمر بن أبان الجعفى: قال لى خالى حسين الجعفى: يا بنى، أتدرى لِمَ سُمى عثمان ذا النورين؟ قلت: لا أدرى. قال: لم يجمع بين ابنتى نبى منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة، غير عثمان، فلذلك سمى ذا النورين[٤]، وقيل قد سمى بذى النورين؛ لأنه كان يكثر من تلاوة القرآن فى كل ليلة فى صلاته، فالقرآن نور وقيام الليل نور[٥].

٤ ـ ولادته: ولد فى مكة بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح[٦]، وقيل ولد فى الطائف؛ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين[٧].

٥ ـ صفته الخَلْقية: كان رجلاً ليس بالقصير ولا بالطويل، رقيق البشرة، كث اللحية عظيمها، عظيم الكراديس[٨]، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، يصفِّر لحيته، وقال الزهرى: كان عثمان رجلاً مربوعًا، حسن الشعر، حسن الوجه، أصلع، أروَح الرجلين[٩]، أقنى[١٠]، خدل الساقين[١١]، طويل الذراعين قد كسا ذراعيه، جعد

(١) هو محمود بن أحمد بن موسى العينى، أبو محمد: من علماء التاريخ والحديث والفقه، له تآليف كثيرة، توفى ٨٥٥هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/ ٢٨٦). والضوء اللامع (١٠/ ١٣١).

(٢) هو المهلب بن أبى صفرة الأزدى العقلى، من الأمراء الأبطال، غزا الهند فى خلافة معاوية، وولى الجزيرة لابن الزبير، وحارب الخوارج فى عهد عبد الملك بن مروان، ثم ولى خراسان من قبله سنة ٧٩هـ وترجع شهرته إلى حرب الخوارج، توفى ٨٣هـ. وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٣).

(٣) عمدة القارى شرح صحيح البخارى (١٦/ ٢٠١).

(٤) سنن البيهقى ٧/ ٧٣، قال الدكتور عاطف لماضة: خبر حسن.

(٥) عثمان بن عفان ذو النورين ـ لعباس العقاد، ص٧٩.

(٦) الإصابة (٤/ ٣٧٧) رقم ٥٤٦٤.

(٧) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص٥٤.

(٨) الكراديس: جمع كردوس، وهو كل عظمين التقيا فى مفصل.

(٩) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٠). وأروح الرجلين: منفرج ما بينهما.

(١٠) أقنى: طويل الأنف مع دقة أرنبته، وحدب فى وسطه.

(١١) خدل الساقين: أى ضخم الساقين.

الشعر، أحسن الناس ثغرًا، جُمّته[١] أسفل من أذنيه، حسن الوجه والراجح أنه أبيض اللون، وقد قيل: أسمر اللون[٢].

ثانيًا: أسرته:

تزوج عثمان رضى الله عنه، ثمانى زوجات كلهن بعد الإسلام وَهُنَّ: رقية بنت رسول الله ﷺ وقد أنجبت له عبد الله بن عثمان، ثم تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة رقية، وتزوج فاختة بنت غزوان؛ وهى أخت الأمير عتبة ابن غزوان، وأنجبت لعثمان عبد الله الأصغر، وأم عمرو بنت جندب الأزدية؛ وقد أنجبت لعثمان: عمرًا، وخالدًا، وأبان، وعمر، ومريم، وتزوج فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومية؛ وأنجبت لعثمان: الوليد، وسعيدًا، وأم سعد، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية؛ وأنجبت لعثمان عبد الملك وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة الأموية؛ وأنجبت لعثمان، عائشة، وأم أبان، وأمّ عمرو، وقد أسلمت رملة، وبايعت رسول الله ﷺ، وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبيَّة وكانت على النصرانية وقد أسلمت قبل أن يدخل بها وحَسُنَ إسلامها[٣].

وأما أبناؤه فقد كانوا تسعة أبناء من الذكور من خمس زوجات وهم: عبد الله: وأمه رقية بنت رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بعامين، وأخذته أمُّهُ معها عندما هاجرت مع زوجها عثمان إلى المدينة، وفى أوائل أيام الحياة فى المدينة نقره الديك فى وجهه قرب عينه، وأخذ مكان نقر الديك يتسع حتى طمر وجهه حتى مات فى السنة الرابعة للهجرة، وكان عمره ست سنوات[٤]. وعبد الله الأصغر: وأمه فاختة بنت غزوان. وعمرو: وأمه أم عمرو بنت جندب، وقد روى عن أبيه، وعن أسامة ابن زيد، وروى عنه على بن الحسين، وسعيد بن المسيب، وأبو الزنّاد وهو قليل الحديث

---

(١) جمّته: مجتمع شعر الرأس.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٩٥)، صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، ص١٥.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤١)، والتمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، ص١٩. والأمين ذو النورين، لمحمود شاكر، ص٣٦٤.

(٤) الأمين ذو النورين، ص٣٦٥، والتمهيد والبيان، ص١٩.

وتزوج رملة بنت معاوية بن أبى سفيان، توفى سنة ثمانين للهجرة. وخالد: وأمه أم عمرو بنت جندب. وأبان: وأمه أم عمرو بنت جندب، كان إمامًا فى الفقه، يكنى أبا سعيد، تولى إمرة المدينة سبع سنين فى عهد عبد الملك بن مروان، سمع أباه وزيد بن ثابت له أحاديث قليلة منها ما رواه عن عثمان: «من قال فى أوَّل يومه وليلته: «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم لم يضره ذلك اليوم شىء أو تلك الليلة». فلما أصاب أبانَ الفالجُ قال: إنى والله نسيت هذا الدعاء ليمضى فىَّ أمر الله[١]. ويعتبر من فقهاء المدينة فى زمنه وقد توفى سنة خمس ومائة[٢]، وعمر: وأمه أم عمرو بنت جندب. والوليد وأمه فاطمة بنت الوليد ابن عبد شمس بن المغيرة المخزومية. وسعيد: وأمه فاطمة بنت الوليد المخزومية تولى أمر خراسان عام ستة وخمسين أيام معاوية بن أبى سفيان. وعبد الملك: وأمه أم البنين بنت عيينة بن حصن، ومات صغيرًا. ويقال: ولدت نائلة بنت الفرافصة ولدًا لعثمان سُمِّىَ عنبسة[٣].

وأما بناته، فهن سبع من خمس نساء. مريم: وأمها أم عمرو بنت جندب، وأم سعيد. وأمها فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية. وعائشة وأمها رملة بنت شيبة بن ربيعة ومريم بنت عثمان وأمها نائلة بنت الفرافصة. وأم البنين؛ وأمها أم[٤] ولد.

وأما شقيقة عثمان؛ فهى آمنة بنت عفان فقد عملت ماشطة فى الجاهلية، ثم تزوجت الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومى، وأسرت سريّةُ عبد الله بن جحش الحكم بن كيسان، وفى المدينة أسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله، حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، فى بداية السنة الرابعة للهجرة، وبقيت آمنة بنت عفان فى مكة على شِركِها حتى يوم الفتح، حيث أسلمت مع أمها وبقية أخواتها،

(١) سنن الترمذى، كتاب الدعوات، رقم ٣٣٨٥، حديث صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣). وتاريخ القضاعى، ص٣٠٨.

(٣) الأمين ذو النورين، ص٣٦٩.

(٤) التمهيد والبيان، ص٢٠.

وبايعت رسول الله ﷺ مع هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن ولا يزنين[١].

وأما إخوة عثمان من أمه فله ثلاثة إخوة وهم: الوليد بن عقبة بن أبى معيط، قتل أبوه يوم بدر صبرًا وهو كافر وخرج الوليد مع أخيه عمارة بعد الحديبية لرد أختهما أم كلثوم التى أسلمت وهاجرت، فأبى رسول الله ﷺ ردَّها، وأسلم الوليد يوم الفتح. وعمارة بن عقبة؛ تأخر إسلامه، وخالد بن عقبة[٢].

وأما أخواته من أمه فهن؛ أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، أسلمت بمكة، وهاجرت وبايعت رسول الله ﷺ، وهى أول من هاجر من النساء بعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية. وأم حكيم بنت عقبة، وهند بنت عقبة.

ثالثًا: مكانته فى الجاهلية:

كان رضى الله عنه فى أيام الجاهلية من أفضل الناس فى قومه؛ فهو عريض الجاه ثرىٌّ، شديد الحياء عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه، لم يسجد فى الجاهلية لصنم قط ولم يقترف فاحشة قط، فلم يشرب خمرًا قبل الإسلام وكان يقول: إنها تذهب العقل. والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يسمو به، لا أن يصارعه، وفى الجاهلية كذلك لم تجذبه أغانى الشباب ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورته»[٣]، ويرحم الله عثمان رضى الله عنه فقد يسر لنا سبيل التعرف عليه حيث قال: «ما تغنيت، ولا تمنيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولا شربت خمرًا فى جاهلية ولا إسلام، ولا زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام»[٤].

---

(١) الأمين ذو النورين، ص٣٤٦.

(٢) الأمين ذو النورين، ص٣٥٤.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى، لأحمد شلبى (٦١٨/١).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٦٠، ٦١) الخبر صحيح.

وكان رضى الله عنه على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وساح فى الأرض فرحل إلى الشام والحبشة وعاشر أقوامًا غير العرب فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره[١]، واهتم بتجارته التى ورثها عن والده، ونمت ثرواته وأصبح يعد من رجالات بنى أمية الذين لهم مكانة فى قريش كلها، فقد كان المجتمع المكى الجاهلى الذى عاش فيه عثمان يقدر الرِّجال حسب أموالهم، ويُهاب فيه الرجال حسب أولادهم وإخوتهم، ثم عشيرتهم وقومهم، فنال عثمان مكانة مرموقة فى قومه، ومحبة كبيرة. ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجمَّع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية فى عصره كانت تغنِّى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه، فقد كانت تقول:

أحبُّـك والرحمــن   حب قريش لعثمان[٢]

رابعًا: إسلامه:

كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام، ولم يعرف عنه تلكؤ أو تلعثم، بل كان سباقًا أجاب على الفور دعوة الصديق فكان بذلك من السابقين الأولين حتى قال أبو إسحاق: كان أول الناس إسلامًا بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة عثمان[٣]، فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال، ولعل سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجة لما حدث له عند عودته من الشام، وقد قصه رضى الله عنه على رسول الله ﷺ حين دخل عليه هو وطلحة بن عبيد الله فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن، وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله فآمنا وصدقا. فقال عثمان: يا رسول الله، قدمت حديثًا من الشام، فلما كنا بين معان والزرقاء ونحن كالنيام إذا مناد ينادينا: أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك[٤]، لا شك أن هذه الحادثة تترك فى نفس صاحبها أثرًا

---

(١) عبقرية عثمان، للعقاد، ص٧٢.
(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى (١/ ٦١٨).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩).
(٤) الطبقات، لابن سعد (٣/ ٥٥).

إيجابيًا لا يستطيع أن يتخلى عنه، عندما يرى الحقيقة ماثلة بين عينيه، فمن ذا الذى يسمع بخروج النبى ﷺ قبل أن يصل إلى البلد الذى يعيش فيه حتى إذا نزله ووجد الأحداث والحقائق تنطق كلها بصدق ما سمع به ثم يتردد فى إجابة الدعوة؟ لا يستطيع الإنسان مهما كان مكابرًا إلا أن يذعن للحق، ومهما أظهر الجفاء فإن ضميره لا يزال يتلجلج فى صدره حتى يؤمن به أو يموت فيتخلص من وخز الضمير، وتأنيبه، ولم تكن سرعة تلبيته عن طيش أو حمق، ولكنها كانت عن يقين راسخ، وتصديق لا يتطرق إليه شك[1]، فقد تأمل فى هذه الدعوة الجديدة بهدوء كعادته فى معالجة الأمور فوجد أنها دعوة إلى الفضيلة، ونبذ للرذيلة، دعوة إلى التوحيد وتحذير من الشرك، دعوة إلى العبادة وترهيب من الغفلة، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وترهيب من الأخلاق السيئة، ثم نظر إلى قومه، فإذا هم يعبدون الأوثان، ويأكلون الميتة، ويسيئون الجوار، ويستحلون المحارم من سفك الدماء وغيرها[2]، وإذا بالنبى محمد بن عبد الله ﷺ صادق أمين يعرف عنه كل خير، ولا يعرف عنه شر قط، فلم تعهد عليه كذبة، ولم تحسب عليه خيانة، فإذا هو يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى صلة الرحم، وحسن الجوار، والصلاة والصوم وألا يعبد غير الله[3]، فأسلم على يد أبى بكر الصديق، ومضى فى إيمانه قدمًا، قويًا هاديًا، وديعًا صابرًا، عظيمًا راضيًا، عفوًا كريمًا، محسنًا رحيمًا، سخيًا باذلاً، يواسى المؤمنين، ويعين المستضعفين، حتى اشتدت قناة الإسلام[4]، وفى إسلام عثمان قالت خالته سعدى بنت كريز:

هدى الله عثمانًا بقولى إلى الهدى	وأرشده واللهُ يهدى إلى الحق
فتابع بالرأى السديد محمـــدًا	وكان برأى لا يصدُّ عن الصـــدق
وأنكحـه المبعـوث بالحق بنتهُ	فكان كبدر مازج الشمس فى الأفق

---

(1) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص302.
(2) انظر: مرويات العهد المكى، لعادل عبد الغفور (2/ 805).
(3) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (1/ 37).
(4) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص53.

فـداؤك يا ابن الهاشميين مهجتى   وأنـت أميـن الله أُرسلـت للخلـق[١]

خامسًا: زواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ:

فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحًا شديدًا وتوثقت بينه وبينهم عُرى المحبة وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله ﷺ رقية: وقصة ذلك أن رسول الله ﷺ كان قد زوجها من عتبة بن أبى لهب، وزوّج أختها أم كلثوم من عتيبة ابن أبى لهب، فلما نزلت سورة المسد: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾ [المسد: ١ ـ ٥] قال لهما أبو لهب وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب): فارقا ابنتى محمد. ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامة من الله تعالى لهما، وهوانًا لابنى أبى لهب[٢]، وما كاد عثمان بن عفان رضى الله عنه يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار[٣]، فرحًا... وبادر فخطبها من رسول الله ﷺ فزوجها الرسول الكريم ﷺ منه، وزفتها[٤] أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة، وكانت هى تضاهيه قسامة وصباحة، فكان يقال لها حين زُفت إليه:

أحسن زوجين رآهما إنسان   رُقيةُ، وزوجهـا عثمـان[٥]

وعن عبد الرحمن بن عثمان القرشى: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته وهى تغسل رأس عثمان، فقال: يا بُنية أحسنى إلى أبى عبد الله، فإنه أشبه أصحابى بى خُلُقًا[٦].

ظنت أم جميل بنت حرب وزوجها أبو لهب أنهما بتسريح رقية وأم كلثوم رضى

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢١٠).
(٢) ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه، لمحمد رشيد رضا، ص١٢.
(٣) كاد يطير من شدة الفرح.
(٤) زفتها: قدمتها إلى زوجها.
(٥) أنساب الأشراف، ص٨٩.
(٦) رواه الطبرانى ورجاله ثقات قاله الهيثمى، المجمع رقم ١٤٥٠٠.

الله عنهما، سيصيبان من البيت المحمدى مقتلاً، أو سيوهنانه، ولكن الله ـ عز وجل ـ اختار لرقية وأم كلثوم الخير، ورد الشقيين أم جميل وأبا لهب بغيظهما لم ينالا خيرًا، وكفى الله البيت النبوى شرهما، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا[١].

سادسًا: ابتلاؤه وهجرته إلى الحبشة:

إن سنة الابتلاء ماضية فى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنة فى الصحابة الكرام وتحملوا من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فقد أوذى عثمان وعذب فى سبيل الله تعالى على يدى عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى أخذه فأوثقه رباطًا وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحُلُّك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان رضى الله عنه: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه[٢]، واشتد الإيذاء بالمسلمين جميعًا، وتجاوز الحد حيث قتل ياسر وزوجته سمية، والنبى يتألم أشد الألم ويفكِّر إلى أين يذهب المسلمون؟ ثم اهتدى رسول الله ﷺ إلى الحبشة حيث قال للمسلمين: «لو خرجتم إلى الحبشة، فإن بها ملكًا صالحًا لا يظلم عنده أحد»[٣]. وبدأت الهجرة والنبى ﷺ يتألم، وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلل سرًّا[٤] خارجة من مكة، ويركبون البحر، وخرج يمتطى بعضهم الدواب، والبعض يسير على الأقدام، وتابعوا السير حتى وصلوا ساحل البحر الأحمر، ثم أمَّروا عليهم عثمان بن مظعون، وشاءت عناية الله أن يجدوا سفينتين، فركبوا مقابل نصف دينار لكل منهم، وعلمت قريش فأسرعت فى تعقبهم إلى الساحل، ولكنهم كانوا قد أبحرت بهم السفينتان[٥]، وكان ممن هاجر إلى

---

(١) دماء على قميص عثمان، د. إبراهيم المتاوى، ص٨٤.
(٢) التمهيد والبيان، ص٢٢.
(٣) الهجرة فى القرآن الكريم، ص٢٩٠. والسيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٤١٣).
(٤) دماء على قميص عثمان، ص١٥. والطبقات (١/ ٢٠٤).
(٥) الطبقات (١/ ٢٠٤). وتاريخ الطبرى (٢/ ٦٩).

أرض الحبشة الهجرة الأولى والهجرة الثانية عثمان بن عفان ومعه فيهما امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان وصولهم للحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، فوجدوا الأمن والأمان وحرية العبادة، وقد تحدث القرآن الكريم عن هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤١]. وقد نقل القرطبى ـ رحمه الله ـ قول قتادة ـ رحمه الله ـ: المراد أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصارًا من المؤمنين[1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: يريد جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[2]، وقد استفاد عثمان رضى الله عنه من هذه الهجرة وأضاف خبرة ودروسًا لنفسه استفاد منها فى مسيرته الميمونة ومن أهم هذه الدروس والعبر:

١ ـ أن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله ـ جل شأنه ـ أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد؛ لأن السيطرة فى المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين، تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطلب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات[3].

٢ ـ وقد تعلم عثمان رضى الله عنه من هدى النبى ﷺ الشفقة على الأمة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٠٧).

(٢) المصدر نفسه (١٥/ ٢٤٠).

(٣) السيرة النبوية، للدكتور مصطفى السباعى، ص٥٧.

وظهرت هذه الشفقة عندما تولى الخلافة وقبلها لما كان فى المجتمع المدنى فى عهدى النبى ﷺ ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فقد رأى بعينه وبصيرة قلبه شفقة النبى ﷺ على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عن أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذى لا يظلم عنده أحد، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمنوا فى دينهم ونزلوا عنده فى خير منزل[1] ، فالرسول ﷺ هو الذى وجّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الذى اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته؛ كى يحميها من الإبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين فى كل عصر أن تخطط بحكمة وبُعد نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التى تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزاً من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسى للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم أى تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيده[2] .

٣ ـ وتعلم عثمان رضى الله عنه من هدى النبى ﷺ فى هجرة الحبشة أن الأخطار لا بد أن يتجشمها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما أن يكون خواص القائد فى منأى عن الخطر، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوى المكانة، فهو منهج بعيد عن نهج النبى ﷺ[3] ، ولهذا لما تولى ذو النورين الخلافة كان أقرباؤه فى مقدمة الجيوش، فهذا عبد الله بن أبى سرح فى فتوحات إفريقية، وذاك عبد الله بن عامر فى فتوحات المشرق، وألزم معاوية أن يركب البحر ومعه زوجته وأن يكون فى مقدمة الجيوش الغازية، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الفتوحات.

٤ـ كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمة[4] ، قال: رسول الله ﷺ : «صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله

---

(١) الهجرة فى القرآن الكريم، ص٣١٢.

(٢) التربية القيادية (١/ ٣٣٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٣٣)، والسيرة النبوية للصَّلاَّبى (١/ ٣٤٨).

(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٣١٤).

بأهله بعد لوط»[١].

ولما أشيع أن أهل مكة قد أسلموا، وبلغ ذلك مهاجرى الحبشة، أقبلوا حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فدخلوا فى جوار بعض أهل مكة، وكان فيمن رجع عثمان بن عفان وزوجه رقية رضى الله عنهما[٢]، واستقر المقام به حتى أذن الله بالهجرة إلى المدينة، ومنذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبى ﷺ حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها، ولا يغنى أحد فيها غناءه، شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعًا، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين[٣]، لقد كان ذو النورين على صلة وثيقة بالدعوة الكبرى من سنتها الأولى، فلم يفته شىء من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى ﷺ، ولم يفته شىء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين، ولم يفته بعبارة أخرى شىء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية[٤].

* * *

(١) المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٦٨) ضعيف الإسناد.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٤٠٢).

(٣) عثمان بن عفان، للعقاد، ص٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٨.

المبحث الثانى

حياة عثمان رضى الله عنه مع القرآن الكريم

كان المنهج التربوى الذى تربى عليه عثمان بن عفان وكل الصحابة الكرام هو القرآن الكريم، المنزل من عند رب العالمين، فهو المصدر الوحيد للتلقى؛ لذلك حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقى وتفرده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج الذى يتربى عليه الفرد المسلم والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة، فكانت للآيات الكريمة التى سمعها عثمان رضى الله عنه من رسول الله ﷺ مباشرة أثرها فى صياغة شخصية ذى النورين الإسلامية فقد طهّرت قلبه، وزكت نفسه، وتفاعلت معها روحه فتحول إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته(١)، وقد تعلق عثمان رضى الله عنه بالقرآن الكريم، وحدثنا أبو عبد الرحمن السُّلمى كيف تعلمه من رسول الله ﷺ، وله أقوال تدل على حبه الشديد للعيش مع كتاب الله تعالى فعن أبى عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان ابن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة(٢)، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقد روى عثمان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله: «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه»(٣)، وقد عرض القرآن الكريم كاملاً على رسول الله ﷺ قبل وفاته، ومن أشهر تلاميذ عثمان فى تعلم القرآن الكريم: أبو عبد الرحمن السُّلمى، والمغيرة بن

---

(١) السيرة النبوية، للصلابى (١/ ١٤٥).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٧٧).

(٣) البخارى، فضائل القرآن رقم ٥٠٢٧.

أبى شهاب، وأبو الأسود، وزِرّ ابن حُبَيْش [١]، وقد حفظ لنا التاريخ بعض أقوال عثمان رضى الله عنه فى القرآن الكريم حيث قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل [٢]، وقال: إنى لأكره أن يأتى علىَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله [٣] ـ يعنى المصحف ـ وقال: حُبِّب إلىَّ من الدنيا ثلاث: إشباع الجيعان، وكسوة العريان وتلاوة القرآن [٤]، وقال: أربعة ظاهرهن فضيلة وباطنهن فريضة: مخالطة الصالحين فضيلة والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلة والعمل به فريضة، وزيارة القبور فضيلة والاستعداد للموت فريضة، وعيادة المريض فضيلة واتخاذ الوصية منه فريضة [٥]، وقال رضى الله عنه: أضيع الأشياء عشرة: عالم لا يُسألُ عنه، وعلم لا يعمل به، ورأى صواب لا يقبل، وسلاح لا يستعمل، ومسجد لا يُصلى فيه، ومصحف لا يقرأ فيه، ومال لا ينفق منه، وخيل لا تُركب، وعلم الزهد فى بطن من يريد الدنيا، وعمر طويل لا يتزود صاحبه فيه لسفره [٦]. وكان رضى الله عنه حافظًا لكتاب الله، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، فقيل له فى ذلك فقال: إنه مبارك جاء به مبارك [٧]، وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم [٨] النظر فيه، وقالت امرأة عثمان يوم الدار: اقتلوه أو دعوه، فوالله لقد كان يحيى الليل بالقرآن فى ركعة [٩]، وقد ذكر عنه أنه قرأ القرآن ليلة فى ركعة لم يصل غيرها [١٠]، وقد تحقق فيه قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين للذهبى، ص٤٦٧.
(٢) الفتاوى (١١/ ١٢٢)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٢٥).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٥)، وفرائد الكلام، ص٢٧٥.
(٤) إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، ص٨٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٩٠. وفرائد الكلام، ص٢٧٨.
(٦) المصدر نفسه، ص٩١. وفرائد الكلام، ص٢٧٨.
(٧) البيان والتبيان (٣/ ١٧٧)، وفرائد الكلام، ص٢٧٣.
(٨) يديم: يطيل. والبداية والنهاية (٧/ ٢٢٥).
(٩) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٥).
(١٠) الخلافة الراشدة والدولة الأموية، ص٣٩٧.

لقد تشرب عثمان رضى الله عنه بالمنهج القرآنى وتتلمذ على يدى رسول الله ﷺ وعرف من خلال القرآن الكريم من هو الإله الذى يجب أن يعبده، وكان النبى ﷺ يغرس فى نفسه معانى تلك الآيات العظيمة، فقد حرص ﷺ أن يربى أصحابه على التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركًا أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عندما تصفى النفوس وتستقيم الفطرة، فأصبحت نظرة ذى النورين إلى الله ـ عز وجل ـ، والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الإنسان، وصراعه مع الشيطان مستمدة من القرآن الكريم وهدى النبى ﷺ .

* فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص موصوف بالكمالات التى لا تتناهى فهو سبحانه (واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا).

* وأنه سبحانه حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد فى القرآن الكريم[1] ، وأما نظرته للكون فقد استمدها من قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢] . وأما هذه الحياة مهما طالت فهى إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم فإنه قليل حقير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] .

وأما نظرته إلى الجنة، فقد استمدها من خلال الآيات الكريمة، فأصبح هذا التصور رادعًا له فى حياته عن أى انحراف عن شريعة الله فيرى المتتبع لسيرة ذى النورين عمق استيعابه لفقه القدوم على الله عز وجل، وشدة خوفه من عذاب الله

---

(١) منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية، ص١٠ ـ ١٦.

وعقابه، وسنرى ذلك فى صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى.

وأما مفهوم القضاء والقدر فقد استمده من كتاب الله وتعليم رسول الله ﷺ له، فقد رسخ مفهوم القضاء والقدر فى قلبه، واستوعب مراتبه فى كتاب الله تعالى، فكان على يقين بأن علم الله محيط بكل شىء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وأن الله تعالى قد كتب كل شىء كائن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وأن مشيئة الله نافذة وقدرته تامة، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وأن الله خالق كل شىء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقد ترتب على الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ فى قلبه لحقيقة القضاء والقدر، ثمار نافعة ومفيدة ظهرت فى حياته وسنراها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب، وعرف من خلال القرآن الكريم حقيقة نفسه وبنى الإنسان وأن حقيقة خلقه ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد وهو الخلقة الأولى من طين، حين سواه ونفخ فيه الروح. والأصل القريب وهو خلقه من نطفة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩]. وعرف أن هذا الإنسان خلقه الله بيده، وأكرمه بالصورة الحسنة والقامة المعتدلة، ومنحه العقل والنطق والتمييز وسخر له ما فى السموات والأرض، وفضله على كثير من خلقه، وكرمه بإرساله الرسل له، وأن من أروع مظاهر تكريم المولى ـ عز وجل ـ للإنسان أن

جعله أهلاً لحبه ورضاه، ويكون ذلك باتباع النبى ﷺ الذى دعا الناس إلى الإسلام لكى يحيوا حياة طيبة فى الدنيا ويظفروا بالنعيم المقيم فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعرف عثمان رضى الله عنه من خلال القرآن الكريم حقيقة الصراع بين الإنسان والشيطان وأن هذا العدو يأتى للإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله يوسوس له بالمعصية ويستثير فيه كوامن الشهوات، فكان مستعينًا بالله على عدوه إبليس وانتصر عليه فى حياته، وتعلم من قصة آدم مع الشيطان فى القرآن الكريم، أن آدم هو أصل البشر، وجوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله، وأن الإنسان له قابلية للوقوع فى الخطيئة، وتعلم من خطيئة آدم ضرورة توكل المسلم على ربه وأهمية التوبة والاستغفار فى حياة المؤمن، وضرورة الاحتراز من الحسد والكبر، وأهمية التخاطب بأحسن الكلام مع الصحابة لقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

لقد أكرم المولى ـ عز وجل ـ عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بالإسلام فعاش به وجاهد به من أجل نشره، واستمد أصوله وفروعه من كتاب الله وهدى النبى ﷺ، وأصبح من أئمة الهدى الذين يرسمون للناس خط سيرهم، ويتأسى الناس بأقوالهم وأفعالهم فى هذه الحياة، ولا ننسى أن عثمان بن عفان كان من كُتَّاب الوحى لرسول الله ﷺ[١].

* * *

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٢٢. والتبيين فى أنساب القرشيين، ص٩٤.

المبحث الثالث

ملازمته للنبى ﷺ فى المدينة

إن الرافد القوى الذى أثر فى شخصية عثمان رضى الله عنه وصقل مواهبه، وفجر طاقته، وهذب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ وتتلمذه على يديه فى مدرسة النبوة، ذلك أن عثمان رضى الله عنه لازم الرسول ﷺ فى مكة بعد إسلامه كما لازمه فى المدينة بعد هجرته، فقد نظم عثمان نفسه، وحرص على التلمذة فى حلقات مدرسة النبوة فى فروع شتى من المعارف والعلوم على يدى معلم البشرية وهاديها، والذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، فحرص على تعلم القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهرة من سيد الخلق أجمعين، وهذا عثمان يحدثنا عن ملازمته لرسول الله ﷺ فيقول:

«إن الله عز وجل بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمن، فهاجرت الهجرتين الأوليين، ونلت صهر رسول الله، ورأيت هَدْيه»[1] لقد تربى عثمان رضى الله عنه على المنهج القرآنى وكان المربى له رسول الله ﷺ وكانت نقطة البدء فى تربية عثمان لقاءه برسول الله ﷺ، فحدث له تحول غريب واهتداء مفاجئ بمجرد اتصاله بالنبى ﷺ؛ فخرج من دائرة الظلام إلى دائرة النور، واكتسب الإيمان، وطرح الكفر، وقوى على تحمل الشدائد والمصائب فى سبيل الإسلام وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ تملك قوى الجذب والتأثير فى الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر فى تاريخ الأرض، والعظمة دائمًا تحب، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإعجاب والحب، ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمته تلك، أنه رسول الله،

---

(١) فضائل الصحابة، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل (١/ ٥٩٧) إسناده صحيح.

متلقى الوحى من الله، ومبلغه إلى الناس، وذلك بُعْد آخر له أثره فى تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط كما يُحب العظماء من الناس، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التى تشمله من عند الله، فهو معه فى حضرة الوحى الإلهى المكرم، ومن ثم يلتقى فى شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئًا واحداً فى النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية، حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان فى نفسه، فيصبحان فى مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب الذى حرك الرعيل الأول من الصحابة هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذى تنطلق منه[1]، لقد حصل لعثمان رضى الله عنه وللصحابة ببركة صحبتهم لرسول الله ﷺ وتربيتهم على يديه أحوال إيمانية عالية، ولقد تتلمذ عثمان رضى الله عنه على يدى رسول الله ﷺ، فتعلم منه القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وأحكام التلاوة وتزكية النفوس قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وحرص على التبحر فى الهدى النبوى الكريم خلال ملازمته لرسول الله ﷺ فى غزواته وسلمه، وقد أمدته تلك المعايشة بخبرة ودربة ودراية بشئون الحرب ومعرفة بطبائع النفوس وغرائزها، وفى الصفحات القادمة سنبين بإذن الله تعالى مواقفه فى الميادين الجهادية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية مع رسول الله ﷺ فى العهد المدنى.

أولاً: عثمان رضى الله عنه فى ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ:

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة فى تثبيت دعائم الدولة الإسلامية فآخى بين المهاجرين والأنصار، فكل مهاجرى يتخذ أخًا له من الأنصار، فكان نصيب

(١) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، ص٣٤، ٣٥.

عثمان بن عفان فى المؤاخاة أوس بن ثابت(١)، ثم أقام النبى ﷺ المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود، وبدأت حركة السرايا، واهتم بالبناء الاقتصادى والتعليمى والتربوى فى المجتمع الجديد، وكان عثمان رضى الله عنه من أعمدة الدولة الإسلامية، فلم يبخل بمشورة أو مال أو رأى، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة بدر(٢).

١ ـ عثمان وغزوة بدر:

لما خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ مريضة بمرض الحصبة ولزمت الفراش، فى الوقت الذى دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة القافلة وسارع عثمان رضى الله عنه للخروج مع رسول الله ﷺ، إلا أنه تلقى أمرًا بالبقاء إلى جانب رقية رضى الله عنها لتمريضها، وامتثل لهذا الأمر بنفس راضية وبقى إلى جوار زوجته الصابرة الطاهرة رُقية ابنة رسول الله ﷺ إذ اشتد بها المرض، وطاف بها شبح الموت، كانت رقية رضى الله عنها تجود بأنفاسها وهى تتلهف لرؤية أبيها الذى خرج إلى بدر، ورؤية أختها زينب فى مكة، وجعل عثمان رضى الله عنه يرنو إليها من خلال دموعه، والحزن يعتصر قلبه(٣)، وودّعت نبض الحياة وهى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولحقت بالرفيق الأعلى، ولم ترَ أباها رسول الله ﷺ، حيث كان ببدر مع أصحابه الكرام، يعلون كلمة الله، فلم يشهد دفنها رضى الله عنها، وجُهِّزت رقية ثم حُمل جثمانها الطاهر على الأعناق، وقد سار خلفه زوجها عثمان وهو حزين، حتى إذا بلغت الجنازة البقيع، دفنت رقية هناك، وقد انهمرت دموع المشيعين وسوى التراب على قبر رقية بنت رسول الله ﷺ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله ﷺ يبشر بسلامة رسول الله ﷺ، وقتل المشركين، وأسر أبطالهم، وتلقى المسلمون فى المدينة هذه الأنباء بوجوه مستبشرة بنصر الله لعباده المؤمنين، وكان من بين المستبشرين وجه عثمان الذى لم يستطع أن يخفى آلامه لفقده رقية رضى الله عنها.

(١) الأمين ذو النورين، ص٤٠.
(٢) الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، ص٢٦٩.
(٣) نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، ص٤٩١ ـ ٥٠٤.

وبعد عودة الرسول ﷺ علم بوفاة رقية رضى الله عنها، فخرج إلى البقيع ووقف على قبر ابنته يدعو لها بالغفران[١].

لم يكن عثمان بن عفان رضى الله عنه ممن تخلفوا عن بدر لتقاعس منه أو هروب ينشده كما يزعم أصحاب الأهواء ممن طعن عليه بتغيبه عن بدر، فهو لم يقصد مخالفة الرسول ﷺ؛ لأن الفضل الذى حازه أهل بدر فى شهود بدر طاعة للرسول ومتابعة له، حازه عثمان رضى الله عنه، حيث خرج فيمن خرج مع رسول الله فردَّه ﷺ للقيام على ابنته فكان فى أجل فرض لطاعته لرسول الله بتخلفه عن بدر، وقد ضرب له بسهمه وأجره فشاركهم فى الغنيمة والفضل والأجر لطاعته لله ورسوله وانقياده لهما[٢]، فعن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: جاء رجل من مصر حج البيت فقال: يا ابن عمر إنى سائلك عن شيء فحدثنى أنشدك الله بحرمة هذا البيت هل تعلم أن عثمان تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ فقال: نعم، ولكن أما تغيبه عند بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ فمرضت رضى الله عنها، فقال له رسول الله ﷺ: لك أجر رجل شهد بدرًا وسهمه[٣]، وعن أبى وائل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال: أما يوم بدر فقد تخلفت على بنت رسول الله وقد ضرب رسول الله لى فيها بسهم. وقال زائدة فى حديثه: ومن ضرب له رسول الله ﷺ فيها بسهم فقد شهد[٤]. وقد عُد عثمان رضى الله عنه من البدريين بالاتفاق[٥].

٢ ـ عثمان وغزوة أحد:

فى غزوة أحد منح الله ـ عز وجل ـ النصر للمسلمين فى أول المعركة، وأخذت سيوف المسلمين تعمل عملها فى رقاب المشركين، وكانت الهزيمة لا شك فيها، وقُتل أصحاب لواء المشركين واحدًا واحدًا ولم يقدر أحد أن يدنو من اللواء، وانهزم

(١) دماء على قميص عثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٢٠.
(٢) كتاب الإمامة والرد على الرافضة، للأصبهانى، ص٣٠٢.
(٣) البخارى رقم ٣٦٩٨.
(٤) الإمامة والرد على الرافضة، ص٣٠٤.
(٥) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٤٧.

المشركون، وولولت النسوة بعد أن كن يغنين بحماس ويضربن بالدفوف، فألقين بالدفوف وانصرفن مذعورات إلى الجبل كاشفات سيقانهن. . ولكن مال ميزان المعركة فجأة، وكان سبب ذلك أن الرماة الذين أوكل إليهم النبى مكانًا على سفح الجبل لا يغادرونه مهما كانت نتيجة المعركة قد تخلوا إلا قليلاً عن أماكنهم، ونزلوا إلى الساحة يطلبون الغنائم لما نظروا المسلمين يجمعونها، وانتهز خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان القرشى فرصة خلو الجبل من الرماة، وقلة من به منهم، فكرّ بالخيل ومعه عكرمة بن أبى جهل، فقتلوا بقية الرماة ومعهم أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه الذى ثبت هو وطائفة قليلة معه، وفى غفلة المسلمين، وأثناء انشغالهم بالغنائم أطبق خالد ومن معه عليهم، فأعملوا فيهم القتل، فاضطرب أمر المسلمين اضطرابًا شديدًا، وانهزمت طائفة من المسلمين إلى قرب المدينة منهم عثمان بن عفان ولم يرجعوا حتى انفض القتال، وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبى ﷺ قد قتل، وفرقة ثبتت مع النبى ﷺ، أما الفرقة التى انهزمت وفرت فلقد أنزل الله فيها قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] . غير أن أصحاب الأهواء لا يرون إلا ما تهوى أنفسهم، فلم يروا من المتراجعين، إلا عثمان رضى الله عنه، فكانوا يتهمونه دون سائر المتراجعين من الصحابة، وهل يبقى وحده؟ ولو فعل لخاطر بنفسه[1] ، وبعد أن عفا الله عن المتراجعين فالحكم واضح جلىّ، لا لبس فيه ولا غموض، فلا مؤاخذة بعد ذلك على عثمان بن عفان رضى الله عنه[2] ؛ فيكفى أن الله عفا عنه بنص القرآن الكريم، وحياته الجهادية بمجموعها تشهد له على شجاعته رضى الله عنه.

٣ـ فى غزوة غطفان (ذى إمر):

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى غطفان، فخرجوا فى أربعمائة رجل ومعهم بعض الجياد، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه،

---

(١) الأمين ذو النورين، ص٤٩.

(٢) ذو النورين مع النبى ﷺ ، د. عاطف لماضة، ص٣٢.

فأصاب المسلمون رجلاً منهم (بذى القَصّة) يقال له جبار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ فأخبره مِنْ خبَرِهم، وقال: لن يلاقوك، لما سمعوا بمسيرك هربوا فى رؤوس الجبال وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم، وضمّه رسول الله ﷺ إلى بلال، ولم يلاق رسول الله ﷺ أحدًا، ثم أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيدًا، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة [١].

٤ ـ فى غزوة ذات الرقاع:

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من غطفان من ثعلبة وأنمار يريدون غزو المدينة، فخرج فى أربعمائة من أصحابه حتى قدم صرارًا، وكان رسول الله ﷺ قد استخلف على المدينة قبل خروجه عثمان بن عفان، ولقى المسلمون جمعًا غفيرًا من غطفان، وتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا، حتى صلَّى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف ثم انصرف بالناس، وقد غاب عن المدينة خمسة عشر يومًا [٢].

٥ ـ فى بيعة الرضوان:

عندما نزل رسول الله ﷺ الحديبية رأى من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم فيها نواياه السليمة بعدم الرغبة فى القتال، وحرصه على احترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية الخزاعى) وحمله على جمل يقال له (الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيرًا آخر بتبليغ قريش رسالة رسول الله ﷺ، ووقع الاختيار فى بداية الأمر على عمر بن الخطاب [٣]، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن الذهاب

---

(١) الروض الأنف (٣/ ١٣٧)، والطبقات، لابن سعد (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٢) الأمين ذو النورين، ص٥٢، ٥٣.

(٣) غزوة الحديبية لأبى فارس، ص٨٣.

إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه[١]، وعرض عمر رضى الله عنه رأيه هذا معززًا بالحجة الواضحة، وهى ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء، وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققًا بالنسبة إلى عمر رضى الله عنه، فقد أشار على النبى ﷺ بعثمان رضى الله عنه؛ لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ[٢]، وقال لرسول الله ﷺ: إنى أخاف قريشًا على نفسى، قد عرفت عداوتى لها، وليس بها من بنى عدى من يمنعنى، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم[٣]، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئًا، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة منى، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضى الله عنه فقال: اذهب إلى قريش فخبرهم أنَّا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدى، ننحره وننصرف، فخرج عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى أتى بلدح[٤]، فوجد قريشًا هناك فقالوا: أين تريد؟ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون فى دين الله كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون ويلى هذا منه غيركم فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم.. فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبدًا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا، فقام إليهم أبان بن سعيد بن العاص فرحب به وأجاره وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهم ممن لقى ببلدح، ومنهم من لقى بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمدًا لا يدخلها علينا

---

(١) المغازى (٢/ ٦٠٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٠٠).

(٣) المغازى (٢/ ٦٠٠).

(٤) مكان قريب من مكة.

يدًا[١]، وعرض المشركون على عثمان رضى الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى[٢]، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة وبشرهم بقرب الفرج والمخرج[٣]، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة[٤]، وتسربت شائعة إلى المسلمين مفادها أن عثمان قتل، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت[٥]، سوى الجد بن قيس وذلك لنفاقه[٦]، وفى رواية أن البيعة كانت على الصبر[٧]، وفى رواية على عدم الفرار[٨]، ولا تعارض فى ذلك لأن المبايعة على الموت تعنى الصبر وعدم الفرار[٩]، وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدى[١٠]، فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته[١١]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، فى أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم[١٢]، وقال النبى ﷺ بيده اليمنى: (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده[١٣]، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم رسول المبايعة تحت الشجرة ألفًا وأربعمائة صحابى[١٤]، وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم فى نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠). والسيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٤) غزوة الحديبية لأبى فارس، ص٨٥.
(٥) البخارى رقم الحديث ٤١٦٩.
(٦) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص٤٨٦.
(٧) البخارى رقم ٤١٦٩.
(٨) مسلم رقم ١٨٥٦.
(٩) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.
(١٠) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.
(١١) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ٤٨٦.
(١٢) زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(١٣) صحيح السيرة النبوية، ص٤٠٤.
(١٤) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص٤٨٢.

النبوية منها:

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

- قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٧، ١٨].

٣ - قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[١].

هذا الحديث صريح فى فضل أصحاب الشجرة فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما.. وتمسك به بعض الشيعة فى تفضيل عليّ على عثمان؛ لأن عليًا كان من جملة من خوطب بذلك وممن بايع تحت الشجرة، وكان عثمان حينئذ غائبًا، وهذا التمسك باطل؛ لأن النبى ﷺ بايع عنه، فاستوى معهم عثمان فى الخيرية المذكورة، ولم يقصد فى الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعض[٢].

وفى الحديبية ذكر المحب الطبرى اختصاص عثمان بعدة أمور منها: اختصاصه بإقامة يد النبى الكريمة مقام يد عثمان لما بايع الصحابة وعثمان غائب، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكة أسيراً من المسلمين، وذكر شهادة النبى لعثمان بموافقته فى ترك الطواف لما أرسله فى تلك الرسالة[٣]، فعن إياس بن سلمة

(١) مسلم (٣/ ١٤٨٥).

(٢) فتح البارى (٧/ ٤٤٣).

(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة، ص٤٩٠، ٤٩١.

عن أبيه أن النبى ﷺ بايع عثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لأبى عبد الله الطواف بالبيت آمنًا، فقال النبى ﷺ: لو مكث كذا ما طاف حتى أطوف[١].

وقد اتهم عثمان ظلمًا بأنه لم يبايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان وكان متغيبًا عنها!! فهذه من الاتهامات التى ألصقت بعثمان فى أحضان فتنة أريد بها تقويض أركان الخلافة خاصة[٢]، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله تعالى، وعن أنس قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان بعثه رسول الله إلى أهل مكة، فبايعه الناس، فقال: إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله فضرب بإحدى يديه على الأرض فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم[٣].

٦ ـ شفاعة عثمان بن عفان فى عبد الله بن أبى السرح فى فتح مكة:

لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبى السرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على الصحابة فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله؟! فقالوا: ما ندرى يا رسول الله ما فى نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك قال: إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة الأعين»[٤]، وجاء فى رواية: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله الناس إلا أربعة نفر، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة ابن أبى جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيسُ بن حُبابة[٥]، وعبد لله ابن سعد بن أبى السرح[٦]، فأما عبد الله فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حارث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عمارًا، وكان أشبَّ الرجلين، فقتله. وأما عكرمة

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٩١ وفى سنده ضعف.

(٢) ذو النورين مع النبى ﷺ، ص٣٢.

(٣) سير السلف الصالحين (١/ ١٨١)، إسناده ضعيف، والحديث صحيح، سنن الترمذى رقم (٣٧٠٢).

(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، ص١٠٩.

(٥) أضواء البيان فى تاريخ القرآن، لصابر أبى سليمان، ص٧٩.

(٦) أضواء البيان فى تاريخ القرآن، ص٧٩.

فركب فى البحر فأصابتهم ريح عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئًا ههنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجنى فى البر غيره، اللهم لك علىّ عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدًا حتى أضع يدى فى يده، ولأجدنّه عَفُوًا كريمًا، فجاء وأسلم، وأما عبد الله بن سعد ابن أبى السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبى ﷺ ثم ذكر الباقى كما مرّ معنا[١]، وعن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله ابن سعد بن أبى سرح يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان، فأجاره رسول الله[٢]، وذكر ابن إسحاق سبب أمر رسول الله بقتل سعد وشفاعة عثمان فيه فقال: وإنما أمر رسول الله بقتله لأنه كان قد أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى، فارتد مشركًا راجعًا إلى قريش، ففرّ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه للرضاعة، فغيّبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأنّ الناس وأهل مكة، فاستأمن له. قال ابن هشام: ثم أسلم بعد، فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر[٣].

٧ ـ غزوة تبوك:

فى العام التاسع الهجرى ولى هرقل وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية متلمظًا برغبة شريرة فى العدوان عليها والتهامها.. وأمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف، وترامت الأنباء إلى الرسول ﷺ فنادى فى أصحابه بالتهيؤ للجهاد، وكان الصيف حارًا يصهر الجبال، وكانت البلاد تعانى الجدب والعسرة، فإن قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل وخرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأججة، فمن أين لهم العتاد، والنفقات التى يتطلبها الجهاد..؟ لقد حض الرسول على التبرع. فأعطى كل قدر وسعه، وسارعت النساء بالحلى يقدمنه إلى رسول الله ﷺ يستعين به

(١، ٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٧، ٥٨).

فى إعداد الجيش.. بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتغنى أمام المتطلبات للجيش الكبير.. ونظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيئوا للقتال وقال: من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له؟ وما كاد عثمان يسمع نداء الرسول ﷺ هذا حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان، وهكذا وجدت العسرة الضاغطة (عثمانها المعطاء)(١). وقام رضى الله عنه بتجهيز الجيش، حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال.

يقول ابن شهاب الزهرى: قدّم عثمان لجيش العسرة فى غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتم بها الألف، وجاء عثمان إلى رسول الله فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبهًا بين يديه، فجعل الرسول يقلبها بيده ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين(٢). لقد كان عثمان رضى الله عنه صاحب القدح المعلى فى الإنفاق فى هذه الغزوة(٣)، وهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه(٤)، وعن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبى ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً(٥).

---

(١) فتح البارى (٧/٦٧). وخلفاء الرسول، ص٢٥٠. والعشرة المبشرون بالجنة، محمد صالح عوض، ص٥٣.

(٢) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥. وصحيح التوثيق، ص٢٦.

(٣) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٥.

(٤) سنن الترمذى رقم ٣٧٠٠.

(٥) سنن الترمذى رقم٣٧٠٢.

إنه يبدو وكأنه الممول الوحيد للأمة الجديدة!! ومضى الرسول ﷺ على رأس جيشه حتى وصلوا موطنًا يُدعى تبوك فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، وهناك جاءته الأنباء مبشرة بأن هرقل الذى كان يعد العدة للزحف من دمشق، قد ثلم الله عزمه، وغادر دمشق نافضًا يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النبى وأصحابه إليه، ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به عثمان، فهل استرجع من ذلك شيئًا؟ كلا.. وحشاه أن يفعل.. وقد ظل كما كان دومًا سريع التلبية لكل إيماءة من النبى ﷺ تعنى جديدًا من البذل، ومزيدًا من العطاء [١].

ثانيًا: من حياته الاجتماعية فى المدينة:

١ ـ زواجه من أم كلثوم سنة ٣هـ:

عرفت أم كلثوم رضى الله عنها بكنيتها، ولا يعرف لها اسم إلا ما ذكره الحاكم عن مصعب الزبيرى أن اسمها أمية، وهى أكبر سنًا من فاطمة رضى الله عنها [٢].

قال سعيد بن المسيب: تأيَّم عثمان من رقية بنت رسول الله ﷺ وتأيَّمت حفصة بنت عمر من زوجها، فمر عمر بعثمان، فقال: هل لك فى حفصة؟ وكان عثمان قد سمع رسول الله ﷺ يذكرها فلم يجبه، وذكر ذلك عمر للنبى ﷺ فقال: هل لك فى خير من ذلك؟ أتزوج حفصة، وأزوج عثمان خيرًا منها: أم كلثوم [٣]، وفى رواية البخارى: قال عمر: تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى وكان من أصحاب رسول الله فتوفى فى المدينة. فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، قال: فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى، فلبثت لياليَ، ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر الصديقَ رضى الله عنه، فلم يرجع إلىّ شيئًا، فكنت عليه أوجد منى على عثمان

(١) خلفاء الرسول، ص١٣٨. والعشرة المبشرون بالجنة، ص٣١.

(٢) الدوحة النبوية الشريفة، فاروق حمادة، ص٤٥، ٤٦.

(٣) مستدرك الحاكم (٤/٤٩). والآثار لأبى يوسف رقم ١٩٥٧.

فلبثت ليالىَ ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه فلقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىَّ، إلا أنى كنت علمت أن رسول الله قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله قبلتها[١].

وتروى أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها خبر زواج أم كلثوم من عثمان رضى الله عنه فتقول: لما زوج النبى ابنته أم كلثوم قال لأم أيمن: هيِّئى ابنتى أم كلثوم وزفيها إلى عثمان، وخفقى[٢] بين يديها بالدف، ففعلت ذلك، فجاءها النبى ﷺ بعد الثالثة فدخل عليها فقال: يا بُنية كيف وجدت بعلك؟ قالت: خير بعل[٣]، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ وقف عند باب المسجد فقال: يا عثمان هذا جبريل أخبرنى أن الله قد زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية، وعلى مثل صحبتها، وكان ذلك سنة ثلاث من الهجرة النبوية، فى ربيع الأول، وبنى بها فى جمادى الآخرة[٤].

٢ - وفاة عبد الله بن عثمان:

وفى جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة مات عبد الله بن عثمان رضى الله عنه - من رقية بنت رسول الله ﷺ -، وهو ابن ست سنين، فصلى رسول الله ﷺ عليه، ونزل حفرته والده عثمان[٥]، وهذه محنة عظيمة تعرض لها عثمان، وما أكثر المحن فى حياة الدعاة إلى الله تعالى.

٣ - وفاة أم كلثوم رضى الله عنها:

ولم تزل أم كلثوم عند عثمان رضى الله عنهما إلى أن توفيت فى شعبان سنة تسع من الهجرة، بسبب مرض نزل بها، وصلى عليها رسول الله ﷺ، وجلس على

---

(١) البخارى، كتاب النكاح، رقم ٥١٢٢.

(٢) خفق: اضطرب وتحرك.

(٣) السيرة النبوية، لأبى شهبة (٢/ ٢٣١). ودماء على قميص عثمان، ص٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه رقم ١١٠ وفيه عثمان بن خالد وهو ضعيف.

(٥) الكامل، لابن الأثير (٢/ ١٣٠)، ودماء على قميص عثمان، ص٢٢.

قبرها، وعن أنس بن مالك أنه رأى النبى ﷺ جالسًا على قبر أم كلثوم، قال: فرأيت عينيه تدمعان، فقال: هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا قال فانزل فى قبرها(١)، وعن ليلى بنت قانف الثقفية قالت: كنت فيمن غسّل أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند وفاتها، فكان أول ما أعطانا رسول الله ﷺ الحقو، ثم الدرع، ثم الخمار، ثم الملحفة، ثم أدرجت بعده فى الثوب الآخر، قالت: ورسول الله ﷺ عند الباب ومعه كفنها يناولنا إياه ثوبًا ثوبًا(٢)، وجاء عند ابن سعد أن على بن أبى طالب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد، قد نزلوا فى حفرتها مع أبى طلحة وأن التى غسلتها هى أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب(٣).

وقد تأثر عثمان رضى الله عنه وحزن حزنًا عظيمًا على فراقه لأم كلثوم، ورأى رسول الله ﷺ عثمان رضى الله عنه وهو يسير منكسرًا وفى وجهه حزن لما أصابه، فدنا منه وقال: لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان(٤)، وهذا دليل حب رسول الله ﷺ لعثمان، ودليل وفاء عثمان لنبيه وتوقيره، وفيه دليل على نفى ما اعتاده الناس من التشاؤم فى مثل هذا الموطن، فإن قدر الله ماض وأمره نافذ ولا رادّ لأمره(٥).

ثالثًا: من مساهمته الاقتصادية فى بناء الدولة:

كان عثمان رضى الله عنه من الأغنياء الذين أغناهم الله ـ عز وجل ـ وكان صاحب تجارة وأموال طائلة، ولكنه استخدم هذه الأموال فى طاعة الله ـ عز وجل ـ وابتغاء مرضاته وما عنده، وصار سبّاقًا لكل خير ينفق ولا يخشى الفقر، ومما أنفقه رضى الله عنه من نفقاته الكثيرة على سبيل المثال ما يأتى:

١ ـ بئر رومة:

عندما قدم النبى ﷺ المدينة المنورة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما

(١) البخارى، كتاب الجنائز رقم ١٣٤٢.

(٢) سنن أبى داود رقم ٣١٥٧.

(٣) الطبقات، لابن سعد (٨/ ٣٩). والدوحة النبوية، ص٤٨.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى (٩/ ٨٣)، إسناده حسن لما له من شواهد.

(٥) الخلفاء الراشدون، أعمال وأحداث. د. أمين القضاة، ص٧٣.

يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله ﷺ: من يشترى بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له فى الجنة[١]. وقال ﷺ: من حفر بئر رومة فله الجنة[٢].

وقد كانت رومة قبل قدوم النبى ﷺ لا يشرب منها أحد إلا بثمن، فلما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمد، فقال النبى ﷺ: (تبيعها بعين فى الجنة؟) فقال: يا رسول الله، ليس لى ولا لعيالى غيرها. فبلغ ذلك عثمان رضى الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبى ﷺ فقال: أتجعل لى فيها ما جعلت له؟ قال: نعم. قال: قد جعلتها للمسلمين[٣]، وقيل: كانت رومة ركية ليهودى يبيع المسلمين ماءها، فاشتراها عثمان بن عفان من اليهودى بعشرين ألف درهم، فجعلها للغنى والفقير وابن السبيل[٤].

٢ ـ توسعة المسجد النبوى:

بعد أن بنى رسول الله ﷺ مسجده فى المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه ليصلوا الصلوات الخمس، ويحضروا خطب النبى ﷺ التى يُصدر إليهم فيها أوامره ونواهيه، ويتعلمون فى المسجد أمور دينهم، وينطلقون منه إلى الغزوات ثم يعودون بعدها، ولذلك ضاق المسجد بالناس، فرغب النبى ﷺ من بعض الصحابة أن يشترى بقعة بجانب المسجد، لكى تزاد فى المسجد حتى يتسع لأهله، فقال ﷺ: من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة؟ فاشتراها عثمان بن عفان رضى الله عنه من صلب ماله[٥] بخمسة وعشرين ألف درهم، أو بعشرين ألفًا ثم أضيفت للمسجد[٦]، ووسع على المسلمين رضى الله عنه وأرضاه[٧].

---

(١) صحيح النسائى، للألبانى (٢/٧٦٦).

(٢) أخرجه البخارى رقم ٢٧٧٨ معلقًا وهو صحيح لشواهده.

(٣) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى (١٠/١٩٦).

(٤) فتح البارى (٥/٤٠٨)، والحكمة فى الدعوة إلى الله، ص٢٣١.

(٥) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/٢٠٩)، رقم ٢٩٢١.

(٦) صحيح سنن النسائى (٢/٧٦٦).

(٧) أعلام المسلمين لخالد البيطار (٣/٤١).

٣ ـ العسرة وعثمانها المعطاء:

عندما أراد رسول الله ﷺ الرحيل إلى غزوة تبوك حثّ الصحابة الأغنياء على البذل لتجهيز جيش العسرة الذى أعده رسول الله ﷺ لغزو الروم، فأنفق الأموال من صحابة رسول الله ﷺ كل على حسب طاقته وجهده، أما عثمان فقد أنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها[1]، وقد تمّ بيانها عند حديثنا عن موقفه فى غزوة تبوك.

* * *

(١) الحكمة فى الدعوة إلى الله، ص٢٣١.

المبحث الرابع

من أحاديث الرسول ﷺ فى عثمان بن عفان

أولاً: فيما ورد فى فضائله مع غيره:

١ ـ افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه:

عن أبى موسى رضى الله عنه قال: كنت مع النبى ﷺ فى حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح، فقال النبى ﷺ: افتح له، وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو أبو بكر، فبشرته بما قاله رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبى ﷺ: افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبى ﷺ فحمد الله. ثم استفتح رجل، فقال لى: افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان [(١)].

هذا الحديث تضمن فضيلة هؤلاء الثلاثة المذكورين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وأنهم من أهل الجنة، كما تضمن فضيلة لأبى موسى، وفيه دلالة على جواز الثناء على الإنسان فى وجهه إذا أمنت عليه الإعجاب ونحوه، وفيه معجزة ظاهرة للنبى ﷺ لإخباره بقصة عثمان والبلوى، وأن الثلاثة يستمرون على الإيمان والهدى [(٢)].

٢ ـ اسكن أُحُد فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان:

عن أنس رضى الله عنه قال: صعد النبى ﷺ أحدًا، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فَرَجَفَ، فقال: اسكن أحد ـ أظنه ضربه برجله ـ فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان [(٣)].

---

(١) البخارى رقم ٣٦٩٥.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) البخارى رقم (٣٦٩٧).

٣ ـ اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد:

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان على حراء، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد(١).

٤ ـ حياء عثمان رضى الله عنه:

عن يحيى بن سعيد بن العاص أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبى ﷺ وعثمان حدّثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مِرْطَ عائشة فأذن لأبى بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذنه له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة: اجمعى عليك ثيابك. فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله ما لى لم أركَ فزعت لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: إن عثمان رجل حَيِىٌّ، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلىَّ فى حاجته(٢).

٥ ـ استحياء الملائكة من عثمان:

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه قال محمد ـ أحد رواة الحديث ـ ولا أقول ذلك فى يوم واحد ـ فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهْتَشّ له ولم تُبَالِه، ثم عمر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبالِه، ثم دخل عثمان فجلستَ وسويت ثيابكَ! فقال: ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة(٣)، قال المناوى: مقام عثمان مقام

---

(١) مسلم رقم ٢٤١٧.

(٢) مسلم رقم ٢٤٠٢.

(٣) مسلم رقم ٢٤٠١.

الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره، مع نقص يجده فى النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلت رتبة عثمان كذلك، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه، كما أن من أحب الله أحب أولياءه، ومن خاف الله خاف منه كل شيء[١].

٦ـ أصدقها حياء عثمان:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرأها لكتاب الله أبى، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح»[٢].

ثانيًا: إخبار رسول الله عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان:

١ ـ من نجا من ثلاث فقد نجا:

عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال: من نجا من ثلاث فقد نجا، ثلاث مرات: موتى، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه[٣].

ومعلوم أن الخليفة الذى قتل مصطبرًا بالحق هو عثمان، فالقرائن تدل على أن الخليفة المقصود بهذا الحديث، هو عثمان بن عفان رضى الله عنه، وفى الحديث ـ والله أعلم ـ لفتة عظيمة إلى أهمية السلامة من الخوض فى هذه الفتنة حسيًا ومعنويًا، أما حسيًا فذلك يكون فى زمن الفتنة، من تحريض وتأليب وقتل وغير ذلك، وأما معنويًا فبعد الفتنة من خوض فيها بالباطل، وكلام فيها بغير حق، وبهذا يكون الحدث عامًا للأمة، وليس خاصًا بمن أدرك الفتنة[٤].

---

(١) فيض القدير للمناوى (٤/٣٠٢).

(٢) فضائل الصحابة، للإمام أحمد (١/ ٦٠٤) إسناده صحيح.

(٣) المسند (٤/٤١٩) (٥/٣٤٦) تحقيق: أحمد شاكر.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٤٤).

٢ ـ يقتل فيها هذا المقنع يومئذ:

عن ابن عمر قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمرّ رجل، فقال: يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلومًا، قال: فنظرت، فإذا هو عثمان بن عفان [١].

٣ ـ هذا يومئذ على الهدى:

عن كعب بن عجرة، قال: ذكر رسول الله فتنة فقربها فمر رجل مقنع رأسه فقال رسول الله ﷺ هذا يومئذ على الهدى، فوثبت فأخذت بضبعى عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: هذا [٢].

٤ ـ تهيج فتنة كالصياصى، فهذا ومن معه على الحق:

عن مرة البهزى قال: كنت عند رسول الله ﷺ ـ وقال بهز من رواة الحديث ـ قال رسول الله ﷺ تهيج فتنة كالصياصى، فهذا ومن معه على الحق. قال: فذهبت فأخذت بمجامع ثوبه، فإذا هو عثمان بن عفان رضى الله عنه [٣].

٥ ـ هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى:

عن أبى الأشعث قال: قامت خطباء بإيلياء فى إمارة معاوية رضى الله عنه فتكلموا، وكان آخر من تكلم مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقربها فمر رجل مقنع فقال: هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى، فقلت: هذا يا رسول الله؟ وأقبلت بوجهه إليه فقال: هذا، فإذا هو عثمان رضى الله عنه [٤].

٦ ـ عليكم بالأمين وأصحابه:

عن أبى حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان فى الكلام، فأذن له، فقام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنى سمعت

(١) فضائل الصحابة (١/ ٥٥١) إسناده حسن.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤).

(٣) المسند (٥/ ٣٣) له طرق تقويه.

(٤) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيح.

رسول الله يقول: إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافًا، أو قال: اختلافًا وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان بذلك[١] .

٧ ـ فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه:

عن عبد الله بن عامر عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى، فكان من آخر كلامه كلمة أن ضرب بين منكبيه وقال: يا عثمان إن الله ـ عز وجل ـ عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى، ثلاثًا[٢] .

٨ ـ إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً وإنى صابر نفسى عليه:

عن أبى سهلة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : ادعوا لى بعض أصحابى، قلت: أبو بكر؟ قال: لا، قالت: قلت: عثمان؟ قال: نعم، فلما جاء قال: تنحَّى، فجعل يُسَارّه[٣] ، ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر قلنا: يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهدًا وإنى صابر نفسى عليه[٤] ، وهذا الحديث يبين شدة محبة رسول الله لعثمان رضى الله عنه، وحرصه على مصالح الأمة بعده، فقد أخبره بأشياء تتعلق بهذه الفتنة التى ستنتهى بقتله، وحرص عليه الصلاة والسلام على سريّتها، حتى إنه لم يصل إلينا منها إلا ما صرح به عثمان رضى الله عنه أثناء الفتنة لما قيل له: ألا تقاتل؟ فقد قال: لا، إن رسول الله عهد إلىّ عهدًا، وإنى صابر عليه[٥] . ويظهر من قوله هذا أن النبى ﷺ قد أرشده إلى الموقف الصحيح، عند اشتعال الفتنة، وذلك أخذًا منه ﷺ بحجز الفتنة أن تنطلق. وفى بعض الروايات زيادة تكشف عن بعض مكنون هذه المسارّة، فقد جاء فيها أن النبى ﷺ

---

(١) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٠) إسناده صحيح.
(٢) فضائل الصحابة (١/ ٦٣١) إسناده صحيح.
(٣) من المسارة مفاعلة من السر: أى المناجاة.
(٤) فضائل الصحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح.
(٥) المصدر نفسه (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح.

قال له: وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك الله ـ عز وجل ـ فلا تفعل[١]، ومضمون هذا العهد الذى ذكره عثمان رضى الله عنه يتعلق بالفتنة والوصية بالصبر فيها وعدم الخلع، وإن كان يفهم من هذه الأحاديث بأنه سيكون خليفة يومًا ما. ويبدو أن هناك وصايا، وإرشادات تتعلق بهذه الفتنة، انفرد بمعرفتها عثمان رضى الله عنه، وذلك محافظة من النبى ﷺ على السِّرية فيها، ومما يبين ذلك أنه أمر عائشة رضى الله عنها بالانصراف[٢]، عندما أراد الإسرار بها لعثمان رضى الله عنه، كما أنه أسرَّ إليه إسرارًا، رغم خلو المكان من غيرهما، حتى تغير لونه، مما يدل على عظم المسرِّ به، وربط عائشة رضى الله عنها هذا الإسرار بالفتنة دليل واضح على أن هذه المسارة كانت حول الفتنة التى قتل فيها، كما أن الإسرار تضمن توجيهات منه ﷺ إلى عثمان ليقف الموقف الصحيح عند عرض الخلع، وأن النبى ﷺ لم يقتصر على الإخبار بوقوع الفتنة، فقد أخبر بذلك علانية فى أحاديث كثيرة كما تقدم، فإسراره يدل على أن هذا الإسرار تضمن أشياء أخرى زيادة على الإخبار عن وقوعها، ورغب عليه الصلاة والسلام بالمحافظة على سريتها لحكمة اقتضت ذلك ـ الله أعلم بها ـ، وهذا الحديث يفسر لنا جليًا سبب إصرار عثمان على رفض القتال أثناء الحصار، كما يفسر أيضًا سبب رفضه للتنازل عن الخلافة وخلعها عندما عرض القوم عليه ذلك، وهما موقفان طالما تساءل الباحثون والمؤرخون عن السبب الذى أدى عثمان إليهما واستشكلوهما[٣]، وحادث فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، من ضمن حوادث كثيرة أخبر رسول الله فى حياته بأنها ستقع بالغيب فإن علم الغيب صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ، ليست لأحد من خلقه، وإنما ذلك علم أطلعه الله عليه وأمره أن يبينه للناس[٤]؛ قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) فضائل الصحابة (١/ ٦١٣)، إسناده صحيح. والطبقات (٣/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٢) فقد قال لها النبى ﷺ: (تنحى) ومعنى التنحى: الانصراف، الفيروزآبادى، القاموس المحيط (٤/ ٣٩٦). ولسان العرب (١٥/ ٣١١).

(٣، ٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٤٨).

المبحث الخامس

ذو النورين فى عهد الصديق والفاروق

أولاً: فى عهد الصديق:

١ ـ من أهل الشورى فى مسائل الدولة العليا:

كان عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم فى أمهات المسائل فى خلافة أبى بكر، فهو ثانى اثنين فى الحظوة عند الصديق: عمر بن الخطاب للحزامة والشدائد، وعثمان بن عفان للرفق والأناة. وكان عمر وزير الخلافة الصديقية، وكان عثمان أمينها العام، وناموسها الأعظم وكاتبها الأكبر(١)، وكان رأيه مقدمًا عند الصديق، فبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردة، أراد أن يغزو الروم، وينطلق الجيش المجاهد إلى أطراف الأرض، فقام فى الناس يستشيرهم، فقال الألباء ما عندهم، ثم استزادهم أبو بكر فقال: ما ترون؟ فقال عثمان: إنى أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيت رأيًا لعامتهم صلاحًا، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين(٢)، فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم: صدق عثمان! ما رأيت من رأى فأمضه(٣)، ولما أراد الصديق أن يبعث واليًا إلى البحرين استشار أصحابه، فقال عثمان: ابعث رجلاً قد بعثه رسول الله إليهم فقدم عليه(٤) بإسلامهم وطاعتهم، وقد عرفوه وعرفهم وعرف بلادهم ـ يعنى العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه ـ فبعث الصديق العلاء إلى البحرين(٥).

---

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٥٨.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢/ ٦٣ ـ ٦٥). وأبو بكر الصديق للصَّلاَّبى، ص٣٦٤.

(٣) أبو بكر الصديق للصَّلاَّبى، ص٣٦٤.

(٤) أى على النبى ﷺ.

(٥) كنز العمال (٥/ ٦٢٠) رقم: (١٤٠٩٣) وتاريخ الطبرى (٤/ ١٢٢). والقيود الواردة على سلطة الدولة، عبد الله الكيلانى، ص١٦٩.

ولما اشتد المرض بأبى بكر استشار الناس فيمن يحبون أن يقوم بالأمر من بعده، فأشاروا بعمر، وكان رأى عثمان فى عمر: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله[١].

فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عَدَتْك[٢].

٢ ـ أزمة اقتصادية فى عهد الصديق:

عن ابن عباس قال: قحط المطر على عهد أبى بكر الصديق، فاجتمع الناس إلى أبى بكر فقالوا: السماء لم تمطر، والأرض لم تُنبت، والناس فى شدة شديدة، فقال أبو بكر: انصرفوا واصبروا، فإنكم لا تُمسون حتى يُفرجَ الله الكريم عنكم. قال: فما لبثنا أن جاء أجراء عثمان من الشام، فجاءته مائة راحلة بُرًا ـ أو قال طعامًا ـ فاجتمع الناس إلى باب عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم عثمان فى ملأ من الناس فقال: ما تشاءون؟ قالوا: الزمان قد قحط: السماء لا تمطر، والأرض لا تُنبت، والناس فى شدة شديدة، وقد بلغنا أن عندك طعامًا، فبعنا حتى نوسِّع على فقراء المسلمين. فقال عثمان: حبًا وكرامة، ادخلوا فاشتروا، فدخل التجار، فإذا الطعام موضوع فى دار عثمان، فقال: يا معشر التجار كم تربحوننى على شرائى من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر، قال عثمان: قد زادونى. قالوا: للعشرة خمسة عشر. قال عثمان: قد زادونى. قال التجار: يا أبا عمرو ما بقى بالمدينة تجار غيرنا فمن زادك؟ قال: زادنى الله ـ تبارك وتعالى ـ بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا. قال: فإنى أشهد الله أنى قد جعلت هذا الطعام صدقة على فقراء المسلمين[٣]، قال ابن عباس: فرأيت من ليلتى رسول الله ﷺ فى المنام وهو على برذون أبلق[٤] عليه حُلَّة من نور، فى رجليه نعلان من نور، وبيده قصبة من نور،

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩)، الخلفاء الراشدون، لمحمود شاكر، ص١٠١.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩).

(٣) الرقة والبكاء، لابن قدامة، ص١٩٠، والخلفاء الراشدون، لحسن أيوب، ص١٩١. وشهيد الدار، لأحمد الخروف، ص٢١.

(٤) الذى فيه سواد وبياض.

وهو مستعجل. فقلت: يا رسول الله قد اشتدّ شوقى إليك وإلى كلامك فأين تُبادر؟ قال: يا ابن عباس، إنّ عثمان قد تصدَّق بصدقة، وإن الله قد قبلها منه وزوَّجه عروسًا فى الجنة، وقد دُعينا إلى عرسه (١).

فهل يفتح الله تعالى آذان عبّاد المال، ومحتكرى قوت العباد شحًا وجشعًا إلى صوت هذه العظمة العثمانية حتى تدلف إلى قلوبهم فتهزها هزة الأريحية والعطف، وتوقظ فيها بواعث الرحمة والإحسان بالفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى وذوى الحاجات من أهل الفاقة والبؤس، الذين طحنتهم أزمة الحياة واعتصرت دماءهم شرابًا لذوى القلوب المتحجرة من الأثرياء؟ فما أحوج المسلمين فى هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحة عثمانية فى إنفاق الأموال على الفقراء والمساكين والمحتاجين تسرى بينهم تعاطفًا ومواساة وبرًا وإحسانًا (٢).

هذا موقف من مواقف الكرم والبرّ لعثمان رضى الله عنه، فقد كان رضى الله عنه من أرحم الناس بالناس، فهو يقرأ قول رب الناس: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: ٦] فيصدّه ذلك عن الطغيان، ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فيجعله ذلك من أبعد الناس عن النفاق والمنافقين.

ويقرأ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فيحمله ذلك على أن يكون من (٣): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) الرقة والبكاء، ص١٩٠.

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٥٢.

(٣) شهيد الدار، ص٢٢، ٢٣.

ثانيًا: فى عهد الفاروق:

كان عثمان ذا مكانة عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شىء رَمَوه بعثمان، وبعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمى الرديف ـ والرديف بلسان العرب هو الذى يكون بعد الرجل، والعرب تقول ذلك للرجل الذى يرجونه بعد رئيس) وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شىء ثلثوا بالعباس(١).

وقد حدث ذات مرة أن خرج عمر بالناس وعسكر بهم بما يُدعى (صِرارا) فجاء عثمان فسأله: ما بلغك؟ ما الذى تريد؟ فنادى عمر رضى الله عنه (الصلاة جامعة) ثم أخبر الناس عن عزمه فى غزو العراق(٢)، ولما ولى عمر الخلافة استشار وجوه الصحابة فى عطائه من بيت مال المسلمين، فقال له عثمان: كل وأطعم(٣). وعندما أرسل أبو عبيدة إلى عمر أن يقدم إلى بيت المقدس ليفتحه، فاستشار عمر الناس، فأشار عثمان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وقال لعمر: فأنت إن أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف، ولقتالهم مستعد، فلم يلبثوا إلى السير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية(٤)، وأشار علىٌّ بالمسير، فهوى عمر ما قال علىٌّ ليكون أخف وطأة على المسلمين فى حصارهم(٥).

لقد كانت مكانة عثمان رضى الله عنه فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كمكانة الوزير من الخليفة، وإن شئت فقل هى مكانة عمر من أبى بكر فى خلافته، وقد صنع الله لأبى بكر بوزارة عمر لخلافته ما يصنعه لخير أهله، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله؛ فقد كان أبو بكر أرحم الناس بالناس، وكان عمر أشدهم فى الحق، فمزج الله رحمة الصديق بشدة عمر، فكانت منهما خلافة الصدق وسياسة العدل، وقوم الحزم. وكان عثمان رضى الله عنه أشبه بالصديق فى رحمته،

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ٨٣)، المرتضى للندوى، ص١٣١.
(٢، ٣) عثمان بن عفان رضى الله عنه، الخليفة الشاكر الصابر، ص٦٣.
(٤) عثمان بن عفان رضى الله عنه، محمد حسين هيكل، ص٤٧ ـ ٤٨ نقلاً عن السياسة المالية لعثمان ابن عفان رضى الله عنه، ص٢٤.
(٥) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر، ص٦٣.

وكان عمر على سننه فى شدته، فلما تولى بعد أبى بكر جعل الله له فى وزارة عثمان خلافته عوضًا من رحمة الصديق ورفقه؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة فى أنظمة الحكم وسياسة الأمة أحكم سياسة وأعدلها، وقد عرف الناس هذه المكانة لعثمان فى خلافة عمر، فهو الذى أشار على عمر بفكرة الديوان وكتابة التاريخ كما جاء فى بعض الروايات.

١ ـ الديوان:

لما اتسعت الفتوحات وكثرت الأموال جمع عمر ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم فى هذا المال؛ فقال عثمان: أرى مالاً كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى يعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، فأقر عمر رأى عثمان، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدواوين[(١)]

٢ ـ التاريخ:

جاء فى بعض الروايات أن الذى أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ بالمحرم هو عثمان؛ وذلك أنهم لما اتفقوا بعد مشاورات على جعل مبدأ التاريخ الإسلامى من هجرة النبى ﷺ؛ لأنها فرقت بين الحق والباطل ـ تعددت الآراء فى أى الأشهر يجعل بداية للسنة، فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور فى العدة، وهو منصرف الناس من الحج؛ فرضى عمر ومن شهده من أصحابه رأى عثمان واستقر عليه الأمر، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام[(٢)]

٣ ـ أرض الخراج:

كان عثمان رضى الله عنه ممن أيدوا رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وإبقائها فيئًا للمسلمين وللذرية من بعدهم[(٣)]

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٠٣). وعثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٦٠

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه لصادق عرجون، ص٦٠

(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٢٥

٤ ـ حجه مع أمهات المؤمنين:

لما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة، بعث تلك السنة على الحج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، فحج بالناس، وحج مع عمر أيضًا آخر حجة حجها عمر سنة ثلاث وعشرين، وأذن عمر تلك السنة لأزواج النبى ﷺ فى الحج، فحُملن فى الهوادج، وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فكان عثمان يسير على راحلته أمامهنَّ فلا يدع أحدًا يدنو منهن، وينزلن مع عمر كل منزل، فكان عثمان وعبد الرحمن ينزلان بهنّ فى الشعاب، فيُقبلانهن الشعاب، وينزلان هما فى أذل الشعب، فلا يتركان أحدًا يمر عليهن[١]

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٤)، وأنساب الأشراف (١/ ٤٦٥، ٤٦٦). ومجلة البحوث الإسلامية، العدد العاشر، ص٢٦٣

الفصل الثانى

استخلاف ذى النورين ومنهجه فى الحكم وأهم صفاته الشخصية

المبحث الأول

استخلاف ذى النورين

أولاً: الفقه العمرى فى الاستخلاف:

استمر اهتمام الفاروق رضى الله عنه بوحدة الأمة ومستقبلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من آلام جراحاته البالغة، وهى بلا شك لحظات خالدة، تجلى فيها إيمان الفاروق العميق وإخلاصه وإيثاره [(١)]، وقد استطاع الفاروق فى تلك اللحظات الحرجة أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها فى اختيار الخليفة الجديد وكانت دليلاً ملموسًا، ومعلمًا واضحًا على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحدًا بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر فى الأمر مليًا وقرر أن يسلك مسلكًا آخر يتناسب مع المقام؛ فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبى بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادرًا وخصوصًا أن النبى ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلاً إلى أن أبا بكر أولى بالأمر من بعده، والصديق لما استخلف عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة ولم يخالف رأيه أحد منهم، وحصل الإجماع

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب للعانى، ص١٦١.

على بيعة عمر(١)، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى فى عدد محصور، وقد حصر ستة من صحابة رسول الله ﷺ كلهم يصلحون لتولى الأمر ولو أنهم يتفاوتون، وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته، وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة، وحدد الحكم فى المجلس والمرجح إن تعادلت الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات فى المجلس وعقاب من يخالف أمر الجماعة ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور فى مجلس أهل الحل والعقد(٢)، وهذا بيان ما أجمل فى الفقرات السابقة:

١ ـ العدد الذى حدده للشورى وأسماؤهم:

أما العدد فهو ستة وهم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم جميعًا. وترك سعيد بن زيد وهو من العشرة المبشرين بالجنة ولعله تركه لأنه من قبيلته بنى عدى(٣)، وكان عمر رضى الله عنه حريصًا على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة(٤).

٢ ـ طريقة اختيار الخليفة:

أمرهم أن يجتمعوا فى بيت أحدهم ويتشاوروا وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيرًا فقط وليس له من الأمر شىء، ويصلى بالناس أثناء التشاور صهيب الرومى وقال له: أنت أمير الصلاة فى هذه الأيام الثلاثة. حتى لا يولى إمامة الصلاة أحدًا من الستة فيصبح هذا ترشيحًا من عمر له بالخلافة(٥)، وأمر المقداد بن الأسود، وأبا طلحة الأنصارى أن يرقبا سير الانتخابات(٦).

---

(١) أوليات الفاروق، ص١٢٢.

(٢) أوليات الفاروق، ص١٢٤.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٤٢).

(٤) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص٩٨.

(٥) الخلافة والخلفاء الراشدون للبهنساوى، ص٢١٣.

(٦) أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، ص٦٤٨.

٣ ـ مدة الانتخابات أو المشاورة:

حددها الفاروق رضى الله عنه بثلاثة أيام وهى فترة كافية وإن زادوا عليها، فمعنى ذلك أن شقة الخلاف ستتسع، ولذلك قال لهم: لا يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير[١].

٤ ـ عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة:

أخرج ابن سعد بإسناد رجاله ثقات أن عمر رضى الله عنه قال لصهيب: صل بالناس ثلاثًا وليخل هؤلاء الرهط فى بيت فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه[٢]، فعمر رضى الله عنه أمر بقتل من يريد أن يخالف هؤلاء الرهط ويشق عصا المسلمين ويفرق بينهم، عملاً بقوله ﷺ «من أتاكم وأمركم جميع على رجل منكم، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[٣].

وما جاء فى كتب التاريخ من أن عمر رضى الله عنه أمرهم بالاجتماع والتشاور، وحدد لهم أنه إذا اجتمع خمسة منهم على رجل وأبى أحدهم فليضرب رأسه بالسيف وإن اجتمع أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما[٤]، فهذه من الروايات التى لا تصح سندًا فهى من الغرائب التى ساقها أبو مخنف ـ الرافضى الشيعى ـ مخالفًا فيها النصوص الصحيحة وما عرف من سير الصحابة رضى الله عنهم، فما ذكر أبو مخنف من قول عمر لصهيب: وقم على رءوسهم ـ أى أهل الشورى ـ فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رءوسهما[٥]: فهذا قول منكر وكيف يقول عمر رضى الله عنه هذا وهو يعلم أنهم هم الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو الذى اختارهم لهذا الأمر لعلمه بفضلهم وقدرهم[٦]، وقد ورد عن ابن سعد أن

(١) الطبقات، لابن سعد (٣/ ٣٦٤).
(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٤٢).
(٣) مسلم (٣/ ١٤٨٠).
(٤، ٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٦).
(٦) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، د. يحيى اليحيى ص١٧٥

عمر قال للأنصار: أدخلوهم بيتًا ثلاثة أيام فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم[١]، وهذه الرواية منقطعة وفى إسنادها (سماك بن حرب) وهو ضعيف وقد تغير بآخرة[٢].

٥ ـ الحكم فى حال الاختلاف:

لقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر معهم فى المجلس وأن ليس له من الأمر شىء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله ابن عمر فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ووصف عبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد؛ فقال عنه: ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه[٣].

٦ ـ جماعة من جنود الله تراقب الاختيار وتمنع الفوضى:

طلب عمر أبا طلحة الأنصارى وقال له: يا أبا طلحة إن الله ـ عز وجل ـ أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم[٤]، وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلاً منهم[٥].

٧ ـ جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل:

ومن فوائد قصة الشورى: جواز تولية المفضول مع وجود الأفضل، لأن عمر جعل الشورى فى ستة أنفس مع علمه أن بعضهم كان أفضل من بعض، ويؤخذ هذا من سيرة عمر فى أمرائه الذين كان يؤمرهم فى البلاد حيث كان لا يراعى الفضل فى الدين فقط، بل يضمُّ إليه مزيد المعرفة بالسياسة مع اجتناب ما يخالف الشرع منها،

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٤٢).
(٢) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص١٧٦.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٥).
(٤، ٥) المصدر نفسه (٥/ ٢٢٥).

فاستخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل من كلٍّ منهم فى أمر الدين والعلم، كأبى الدرداء فى الشام وابن مسعود فى الكوفة[١]

٨ ـ جمع عمر بين التعيين وعدمه:

جمع عمر بين التعيين، كما فعل أبو بكر ـ أى تعيين المرشح ـ وبين عدم التعيين كما فعل الرسول ﷺ ، فعين ستة وطلب منهم التشاور فى الأمر[٢]

٩ ـ الشورى ليست بين الستة فقط:

عرف عمر أن الشورى لن تكون بين الستة فقط، وإنما ستكون فى أخذ رأى الناس فى المدينة، فيمن يتولى الخلافة، حيث جعل لهم أمد ثلاثة أيام فيمكنهم من المشاورة والمناظرة لتقع ولاية مَنْ يتولى بعده عن اتفاق من معظم الموجودين حينئذ ببلده التى هى دار الهجرة، وبها معظم الصحابة وكلٌّ من كان ساكنًا فى بلد غيرها كان تبعًا لهم فيما يتفقون عليه، فما زالت المدينة حتى سنة ٢٣هـ مجمع الصحابة؛ بل لأن كبار الصحابة فيها، حيث استبقاهم عمر بجانبه ولم يأذن لهم بالهجرة إلى الأقاليم المفتوحة[٣]

١٠ ـ أهل الشورى أعلى هيئة سياسية:

إن عمر رضى الله عنه أناط بأهل الشورى وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحدًا من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذى اتخذه عمر، كما أن أحدًا من الصحابة الآخرين لم يثر أى اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التى بين أيدينا، فنحن لا نعلم أن اقتراحًا آخر قد صدر عن أحد من الناس فى ذلك العصر، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر، خلال الساعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته، وإنما رضى الناس كافة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفى وسعنا أن نقول إن عمر قد أحدث هيئة سياسية عليا، مهمتها انتخاب رئيس الدولة، أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستورى الجديد، الذى أبدعته عبقرية عمر

(١، ٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٩٧).

(٣) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٩٧).

لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التى أقرّها الإسلام، ولا سيما فيما يتعلق بالشورى؛ لأن العبرة من حيث النتيجة للبيعة العامة التى تجرى فى المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجه السؤال الذى قد يرد على بعض الأذهان وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما هو مستند عمر فى هذا التدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جماعة المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به، ولم يسمع صوت اعتراض عليه، حتى نتأكد أن الإجماع ـ وهو من مصادر التشريع ـ قد انعقد على صحته ونفاذه[1]، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغى أن نؤكد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّه نظام الحكم فى الإسلام فى العهد الراشدى، كما أن الهيئة التى سماها عمر، تمتعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله، وبلغها الرسول؛ فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة، من التقوى والأمانة[2].

هكذا ختم عمر رضى الله عنه حياته ولم يشغله ما نزل به من البلاء ولا سكرات الموت عن تدبير أمر المسلمين، وأرسى نظامًا صالحًا للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر فى القرآن الكريم والسنّة القولية والفعلية وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر ولم يكن عمر مبتدعًا بالنسبة للأصل، ولكن الذى عمله عمر هو تعيين الطريقة التى يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق رضى الله عنه، بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة فى ذلك الوقت[3].

ثانيًا: وصية عمر رضى الله عنه للخليفة الذى بعده:

أوصى الفاروق عمر رضى الله عنه الخليفة الذى سيخلفه فى قيادة الأمة بوصية مهمة قال فيها: أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، لظافر القاسمى (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٩).
(٣) أوليات الفاروق، ص١٢٧.

خيرًا أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرًا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم رده العدو، وجباة الفىء، لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم وأوصيك بأهل البادية خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشى أموالهم فترد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيرًا، أن تقاتل من وراءهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ما عليهم للمؤمنين طوعًا، أو عن يد وهم صاغرون، وأوصيك بتقوى الله، والحذر منه، ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله فى الناس، ولا تخشى الناس فى الله، وأوصيك بالعدل فى الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورك، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن فى ذلك بإذن الله سلامة قلبك، وحطًا لوزرك، وخيرًا فى عاقبة أمرك حتى تفضى فى ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك، وآمرك أن تشتد فى أمر الله، وفى حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك فى أحد الرأفة، حتى تنتهك منه مثل جرمه، واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ولا تأخذك فى الله لومة لائم، وإياك والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط لك اقترفت به إيمانًا ورضوانًا، وإن غلبك الهوى اقترفت به غضب الله، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمّة، وقد أوصيتك، وخصصتك ونصحتك فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالاً عليه نفسى وولدى، فإن عملت بالذى وعظتك، وانتهيت إلى الذى أمرتك أخذت منه نصيبًا وافرًا وحظًا وافيًا، وإن لم تقبل ذلك، ولم يهمك، ولم تترك معاظم الأمور عند الذى يرضى به الله عنك، يكن ذلك بك انتقاصًا، ورأيك فيه مدخولاً، لأن الأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس داع إلى كل مهلكة، وقد أضل القرون السالفة قبلك، فأوردهم النار وبئس المورود، وبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعدو الله، الداعى إلى معاصيه، ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظًا لنفسك، وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم، ورحمت

صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضر بهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلّها فتفقرهم، ولا تجمّرهم فى البعوث فينقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم هذه وصيتى إليك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام[1].

هذه الوصية تدل على بعد نظر عمر فى مسائل الحكم والإدارة، وتفصح عن نهج ونظام حكم وإدارة متكامل، فقد تضمنت الوصية أموراً غاية فى الأهمية، فحق أن تكون وثيقة نفيسة، لما احتوته من قواعد ومبادئ أساسية للحكم متكاملة الجوانب الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية يأتى فى مقدمتها:

١ ـ الحرص على تقوى الله وخشيته:

أ ـ الوصية بالحرص الشديد على تقوى الله، والخشية منه فى السر والعلن فى القول والعمل؛ لأن من اتقى الله وقاه، ومن خشيه صانه وحماه (أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له) (وأوصيك بتقوى الله والحذر منه.. وأوصيك أن تخشى الله).

ب ـ إقامة حدود الله على القريب والبعيد (لا تبال على من وجب الحق) (ولا تأخذك فى الله لومة لائم) لأن حدود الله نصت عليها الشريعة فهى من الدين، ولأن الشريعة حجة على الناس، وأعمالهم وأفعالهم تقاس بمقتضاها، وأن التغافل عنها إفساد للدين والمجتمع.

جـ ـ الاستقامة (استقم كما أمرت) وهى من الضرورات الدينية والدنيوية التى يجب على الحاكم التحلى بها قولاً وعملاً أولاً، ثم الرعية (كن واعظًا لنفسك) (وابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة).

٢ ـ الناحية السياسية وتضمنت:

أ ـ الالتزام بالعدل؛ لأنه أساس الحكم، ولأن إقامته بين الرعية، تحقق للحكم قوة وهيبة ومتانة سياسية واجتماعية، وتزيد من هيبة واحترام الحاكم فى نفوس الناس

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٣٩). والبيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٤٦).والكامل فى التاريخ (٢/ ٢١٠). والخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعانى، ص١٧١، ١٧٢.

(وأوصيك بالعدل) (واجعل الناس عندك سواء).

ب ـ العناية بالمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار؛ لسابقتهم فى الإسلام، ولأن العقيدة وما أفرزته من نظام سياسى، قام على أكتافهم، فهم أهله وحملته وحماته (أوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم).

٣ ـ الناحية العسكرية، وتضمنت:

أ ـ الاهتمام بالجيش وإعداده إعداداً يتناسب وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه لضمان أمن الدولة وسلامتها، والعناية بسد حاجات المقاتلين (التفرغ لحوائجهم وثغورهم).

ب ـ تجنب إبقاء المقاتلين لمدة طويلة فى الثغور بعيداً عن عوائلهم وتلافيًا لما قد يسببه ذلك من ملل وقلق وهبوط فى المعنويات، فمن الضرورى منحهم إجازات معلومة فى أوقات معلومة يستريحون فيها ويجددون نشاطهم خلالها من جهة، ويعودون إلا عوائلهم لكى لا ينقطع نسلهم من جهة ثانية (ولا تجمرهم فى الثغور فينقطع نسلهم) (وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رده العدو).

جـ ـ إعطاء كل مقاتل ما يستحقه من فيء وعطاء، وذلك لضمان مورد ثابت له ولعائلته يدفعه إلى الجهاد، ويصرف عنه التفكير فى شئونه المالية (ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم).

٤ ـ الناحية الاقتصادية والمالية، وتضمنت:

أ ـ العناية بتوزيع الأموال بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم، وتلافى كل ما من شأنه تجميع الأموال عند طبقة منهم دون أخرى (ولا تجعل الأموال دولة بين الأغنياء منهم).

ب ـ عدم تكليف أهل الذمة فوق طاقتهم إن هم أدوا ما عليهم من التزامات مالية للدولة (ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين).

جـ ـ ضمان الحقوق المالية للناس وعدم التفريط بها، وتجنب فرض ما لا طاقة لهم به (ولا تحمل منهم إلا عن فضل منهم) (أن تأخذ حواشى أموالهم فترد على فقرائهم)[1].

٥ ـ الناحية الاجتماعية، وتضمنت:

أ ـ الاهتمام بالرعية، والعمل على تفقد أمورهم وسد احتياجاتهم وإعطاء حقوقهم من فىء وعطاء (ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها).

ب ـ اجتناب الأثرة والمحاباة واتباع الهوى، لما فيها من أخطار تقود إلى انحراف الراعى، وتؤدى إلى فساد المجتمع واضطراب علاقاته الإنسانية (وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله) (ولا توثر غنيهم على فقيرهم).

جـ ـ احترام الرعية وتوقيرها والتواضع لها، صغيرها وكبيرها، لما فى ذلك من سمو فى العلاقات الاجتماعية، تؤدى إلى زيادة تلاحم الرعية بقائدها وحبها له (وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ووقرت عالمهم).

د ـ الانفتاح على الرعية، وذلك بسماع شكاواهم وإنصاف بعضهم من بعض وبعكسه تضطرب العلاقات بينهم ويعم الارتباك فى المجتمع (ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم).

هـ ـ اتباع الحق، والحرص على تحقيقه فى المجتمع وفى كل الظروف، والأحوال، لكونه ضرورة اجتماعية لا بد من تحقيقها بين الناس، (ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات) (واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق).

و ـ اجتناب الظلم بكل صوره وأشكاله، خاصة مع أهل الذمة؛ لأن العدل مطلوب إقامته بين جميع رعايا الدولة مسلمين وذميين، لينعم الجميع بعدل الإسلام (وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة).

---

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعانى، ص١٧٤ ـ ١٧٥.

ز - الاهتمام بأهل البادية ورعايتهم والعناية بهم (وأوصيك بأهل البادية خيرًا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام) [(١)].

حـ - وكان من ضمن وصية عمر لمن بعده: ألا يُقَرَّ لى عاملٌ أكثر من سنة، وأقروا الأشعرى أربع سنين [(٢)].

ثالثًا: منهج عبد الرحمن بن عوف فى إدارة الشورى:

١ - اجتماع الرهط للمشاورة:

لم يكد يفرغ الناس فمن دفن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع فى بيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقيل إنهم اجتمعوا فى بيت فاطمة بنت قيس الفهرية أخت الضحاك بن قيس؛ ليقضوا فى أعظم قضية عرضت فى حياة المسلمين - بعد وفاة عمر - وقد تكلم القوم وبسطوا آراءهم واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمة سواء رضيها الخاصة والكافة من المسلمين [(٣)].

٢ - عبد الرحمن يدعو إلى التنازل:

عندما اجتمع أهل الشورى قال لهم عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: جعلت أمرى إلى علىّ. وقال طلحة: جعلت أمرى إلى عثمان. وقال سعد: جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف. وأصبح المرشحون الثلاثة على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف. فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه، فأسكت الشيخان: فقال عبد الرحمن بن عوف: أفتجعلونه إلىّ والله علىّ أن لا آلو عن أفضلكما؟ قالا: نعم[(٤)].

---

(١) الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، للعانى، ص١٧٣ - ١٧٥.

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص١٠٢.

(٣) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٦٢، ٦٣.

(٤) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم ٣٧٠٠.

٣ ـ تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشورى:

بدأ عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اتصالاته ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشحين الستة صباح يوم الأحد، واستمرت مشاوراته واتصالاته ثلاثة أيام كاملة، حتى فجر يوم الأربعاء الرابع من المحرم، وهو موعد انتهاء المهلة التى حددها لهم عمر، وبدأ عبد الرحمن بعلى بن أبى طالب، فقال له: إن لم أبايعك فأشر علىّ، فمن ترشح للخلافة؟ قال علىّ: عثمان بن عفان، وذهب عبد الرحمن إلى عثمان وقال له: إن لم أبايعك، فمن ترشح للخلافة؟ فقال عثمان: على بن أبى طالب... وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصحابة الآخرين واستشارهم، وكان يشاور كل من يلقاه فى المدينة من كبار الصحابة وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتى للمدينة وشملت مشاورته النساء فى خدورهن، وقد أبدَيْنَ رأيهن، كما شملت الصبيان والعبيد فى المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف، أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشير بعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، وفى منتصف ليلة الأربعاء، ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى بيت ابن أُخته: المسور بن مخرمة، فطرق البيت، فوجد المسور نائمًا[١]، فضرب الباب حتى استيقظ فقال: أراك نائمًا فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بكبير نوم، انطلق فادع الزبير وسعداً فدعوتهما له: فشاورهما ثم دعانى فقال: ادع لى عليًا فدعوته فناجاه حتى ابهار[٢] الليل ثم قام علىٌّ من عنده... ثم قال: ادع لى عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح[٣].

٤ ـ الاتفاق على بيعة عثمان:

وبعد صلاة صبح يوم البيعة (اليوم الأخير من شهر ذى الحجة ٢٣ هـ / ٦ نوفمبر ٦٤٤) وكان صهيب الرومى الإمام إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف، وقد اعتم بالعمامة

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص١٠٦، ١٠٧.
(٢) ابهارّ: أى انتصف.
(٣) البخارى، كتاب الأحكام رقم ٧٢٠٧.

التى عممه بها رسول الله ﷺ؛ وكان قد اجتمع رجال الشورى عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، منهم: معاوية أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، وكانوا وافوا تلك الحجَّة مع عمر وصاحبوه إلى المدينة[١].

وجاء فى رواية البخارى: «... فلما صلى للناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أمَّا بعد يا علىُّ إنى قد نظرت فى أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً. فقال[٢]: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[٣]. وجاء فى رواية صاحب التمهيد والبيان أن على بن أبى طالب أول من بايع بعد عبد الرحمن بن عوف[٤].

٥ ـ حكمة عبد الرحمن بن عوف فى تنفيذ خطة الشورى:

نفذ عبد الرحمن بن عوف خطة الشورى بما دل على شرف عقله، ونبل نفسه، وإيثاره مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة ونفعه الفردى، وترك عن طواعية ورضا أعظم منصب يطمح إليه إنسان فى الدنيا، ليجمع كلمة المسلمين؛ وحقق أول مظهر من مظاهر الشورى المنظمة فى اختيار من يجلس على عرش الخلافة ويسوس أمور المسلمين؛ فهو قد اصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدبير ما كفل له النجاح فى أداء مهمته العظمى، وقد كانت الخطوات التى اتخذها كالآتى:

أ ـ بسط برنامجه فى أول جلسة عقدها مجلس الشورى فى دائرة الزمن الذى حدده لهم عمر؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء مجلس الشورى على أن يُدلوا

---

(١) شهيد الدار، ص٣٧.

(٢) قوله: فقال: «أى عبد الرحمن مخاطبًا عثمان».

(٣) البخارى، كتاب الأحكام، رقم (٧٢٠٧).

(٤) التمهيد والبيان، (ص٢٦).

برأيهم؛ فعرف مذهب كل واحد منهم ومرماه، فسار فى طريقه على بيِّنة من أمره.

ب ـ وخلع نفسه وتنازل عن حقه فى الخلافة ليدفع الظنون ويستمسك بعروة الثقة الوثقى.

جـ ـ أخذ فى تعرف نهاية ما يصبو إليه كل واحد من أصحابه وشركائه فى الشورى، فلم يزل يقلب وجوه الرأى معهم حتى انتهى إلى شبه انتخاب جزئى، فاز فيه عثمان برأى سعد بن أبى وقاص، ورأى الزبير بن العوام، فلاحت له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه.

د ـ عمد إلى معرفة كل واحد من الإمامين: عثمان، وعلىّ فى صاحبه بالنسبة إلى وزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر، فعرف من كل واحد منهما أنه لا يعدل صاحبه أحدًا إذا فاته الأمر.

و ـ أخذ فى تعرف رأى من وراء مجلس الشورى خاصة الأمة وذوى رأيها، ثم من عامتها وضعفائها، فرأى أن معظم الناس لا يعدلون أحدًا بعثمان، فبايع له، وبايعه عامة الناس (١).

لقد تمكن عبد الرحمن بن عوف بكياسته وأمانته واستقامته ونسيانه نفسه بالتخلى عن الطمع فى الخلافة والزهد بأعلى منصب فى الدولة، أن يجتاز هذه المحنة، وقاد ركب الشورى بمهارة وتجرد، مما يستحق أعظم تقدير (٢).

قال الذهبى: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض فى ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص (٣).

---

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٧٠، ٧١.

(٢) مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٠، ص٢٥٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٨٦).

وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى فى عهد الخلفاء الراشدين: وهى الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامة، ثم البيعة العامة [١].

رابعًا: أباطيل رافضية دست فى قصة الشورى:

هناك أباطيل شيعية وأكاذيب رافضية دست فى التاريخ الإسلامى منها فى قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلقفها المستشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين المحدثين، ولم يمحصوا الروايات ويحققوا فى سندها ومتنها، فانتشرت بين المسلمين.

لقد اهتم مؤرخو الشيعة الرافضة بقصة الشورى وتولية عثمان بن عفان الخلافة ودسوا فيها الأباطيل والأكاذيب، وألف جماعة منهم كتبًا خاصة، فقد ألف أبو مخنف كتاب الشورى، وكذلك ابن عقدة، وابن بابويه [٢]، ونقل ابن سعد تسع روايات من طريق الواقدى فى خبر الشورى وبيعة عثمان وتاريخ توليه للخلافة [٣]، ورواية من طريق عبيد الله بن موسى تضمنت مقتل عمر وحصره للشورى فى الستة ووصيته لكل من على وعثمان إذا تولى أحدهما أمر الخلافة، ووصيته لصهيب فى هذا الأمر [٤].

وقد نقل البلاذرى خبر الشورى وبيعة عثمان عن أبى مخنف [٥]، وعن هشام الكلبى منها ما نقله عن أبى مخنف ومنها تفرد به [٦]، وعن الواقدى [٧]، وعن عبيد الله بن موسى [٨]، واعتمد الطبرى فى هذه القصة على عدة روايات منها رواية أبى مخنف [٩]،

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٢٧٨.

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة (١٤/ ٢٤٦).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٦٣)، (٣/ ٦٧).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٤٠).

(٥ ـ ٧) أنساب الأشراف (٥/ ١٨، ١٩).

(٨) المصدر السابق (٥/ ٦).

(٩) أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز نور، ص٣٢١ وهو العمدة فى هذه الفقرة.

ونقل ابن أبى الحديد بعض أحداث قصة الشورى من طريق أحمد بن عبد العزيز الجوهرى[١]، وأشار إلى نقله عن كتاب (الشورى) للواقدى[٢]، وقد تضمنت الروايات الشيعية عدة أمور مدسوسة ليس لها دليل من الصحة، وهى:

١ ـ اتهام الصحابة بالمحاباة فى أمر المسلمين:

اتهمت الروايات الشيعية الصحابة بالمحاباة فى أمر المسلمين، وعدم رضا على بأن يقوم عبد الرحمن باختيار الخليفة، فقد ورد عند أبى مخنف وهشام الكلبى عن أبيه وأحمد الجوهرى أن عمر جعل ترجيح الكفتين إذا تساويتا بعبد الرحمن بن عوف، وأن عليًا أحس بأن الخلافة ذهبت منه؛ لأن عبد الرحمن سيقدم عثمان للمصاهرة التى بينهما[٣]، وقد نفى ابن تيمية أى ارتباط فى النسب القريب بين عثمان وعبد الرحمن فقال: فإن عبد الرحمن ليس أخًا لعثمان ولا ابن عمه ولا من قبيلته أصلاً، بل هذا من بنى زهرة وهذا من بنى أمية، وبنو زهرة إلى بنى هاشم أكثر ميلاً منهم إلى بنى أمية، فإن بنى زهرة أخوال النبى ﷺ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص الذى قال له النبى ﷺ: هذا خالى، فليرنى امرؤ خاله[٤]، فإن النبى ﷺ لم يؤاخ بين مهاجرى ومهاجرى، ولا بين أنصارى وأنصارى، وإنما آخى بين المهاجرين والأنصار فآخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى[٥]، وحديثه مشهور ثابت فى الصحاح وغيرها، يعرفه أهل العلم بذلك[٦]، وقد بنت الروايات الشيعية محاباة عبد الرحمن لعثمان للمصاهرة التى كانت بينهما، متناسية أن قوة النسب أقوى من المصاهرة من جهة، ومن جهة أخرى تناسوا طبيعة العلاقة بين المؤمنين فى الجيل الأول وأنها لا تقوم على نسب ولا مصاهرة، وأما كيفية

---

(١) شرح نهج البلاغة (٩/٤٩، ٥٠، ٥٨).

(٢) المصدر السابق (٩/١٥).

(٣) أثر التشيع على الروايات التاريخية، ص٣٢٢.

(٤) صحيح سنن الترمذى (٣/ ٢٢٠) رقم ٤٠١٨.

(٥) البخارى، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٧٨٠.

(٦) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

المصاهرة التى كانت بين عبد الرحمن وعثمان فهى أن عبد الرحمن تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط أخت الوليد[١].

٢ ـ حزب أموى وحزب هاشمى:

أشارت رواية أبى مخنف إلى وقوع مشادة بين بنى هاشم وبنى أمية أثناء المبايعة وهذا غير صحيح، ولم يرد ذلك برواية صحيحة ولا ضعيفة[٢]، وقد انساق بعض المؤرخين خلف الروايات الشيعية الرافضية وبنوا تحليلاتهم الخاطئة على تلك الروايات فصوروا تشاور أصحاب الرسول ﷺ فى تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائرى وأن الناس قد انقسموا إلى حزبين حزب أموى وحزب هاشمى، وهو تصور موهوم واستنتاج مردود لا دليل عليه، إذ إنه ليس نابعًا من ذلك الجو الذى كان يعيشه أصحاب رسول الله حينما كان يقف المهاجرى مع الأنصارى ضد أبيه وأخيه وابن عمه وبنى عشيرته، وليس نابعًا من تصور هؤلاء الصحب وهم يضحون بكل شىء من حطام الدنيا فى سبيل أن يسلم لهم دينهم، ولا من المعرفة الصحيحة لهؤلاء النخبة من المبشرين بالجنة، فالأحداث الكثيرة التى رويت عن هؤلاء تثبت أن هؤلاء كانوا أكبر بكثير من أن ينطلقوا من هذه الزاوية الضيقة فى معالجة أمورهم فليست القضية قضية تمثيل عائلى أو عشائرى، فهم أهل شورى لمكانتهم فى الإسلام[٣].

٣ ـ أقوال نسبت زوراً أو بهتانًا لعلى رضى الله عنه:

قال ابن كثير: وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره عن رجال لا يعرفون أن عليًا قال لعبد الرحمن خدعتنى، وإنك إنما وليته لأنه صهرك وليشاورك كل يوم فى شأنه، وأنه تلكأ حتى قال عبد الرحمن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة بما ثبت فى الصحاح فهى

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/١٢٧).

(٢) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص١٧٧، ١٧٨.

(٣) الخلفاء الراشدون، أمين القضاة، ص٧٨، ٧٩.

مردودة على قائليها وناقليها والله أعلم، والمظنون من الصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تميز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ومستقيمها وسقيمها ومبادها وقويمها، والله الموفق للصواب[١].

٤ ـ اتهام عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة:

وقد ذكر أبو مخنف فى روايته فى قضية الشورى عن عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة أنهما جلسا عند الباب، ورد سعد عليهما، فهذا يستغرب من رعاع الناس فضلاً عن الصحابة الكرام، وكيف يقول سعد لهما: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنا من أهل الشورى. وقد علم الناس أهل الشورى بأعيانهم واستفاض ذلك عندهم. وفى الحقيقة أن رواية أبى مخنف يناقض بعضها بعضًا وهى واضحة لمن تدبرها وقارنها بالأصول الصحيحة، وغرائبها أشهر من ذكرها، وقد أشار الدكتور يحيى اليحيى إلى نماذج وأمثلة تكفى لإسقاط هذه الرواية وعدم الاعتبار بها[٢]. هذه بعض الإشارات العابرة ذكرتها للتنبيه والتحذير من تلك السموم المبثوثة فى تراثنا التاريخى، والموروث الثقافى للأمة، فقد أثرت فى رجال الفكر والقلم والتاريخ.

خامسًا: أحقية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه:

لا يشك مؤمن فى أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه وصحتها، وأنه لا مطعن فيها لأحد إلا ممن أصيب قلبه بزيغ، فنقم على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما حل فى قلبه من الغيظ منهم، وهذا لم يحصل إلا من الشيعة الرافضة الذين جعلوا رأس مالهم فى هذه الحياة الدنيا هو سب الصحابة رضى الله عنهم وبغضهم، ولا قيمة لما يوجهونه من المطاعن على خلافة الثلاثة رضى الله عنهم لظهور بطلانه وأنها افتراءات لا تصح، وقد جاء فى جملة من النصوص القطعية الصحيحة والآثار الشهيرة التنبيه والإيماء إلى أحقية خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ومن ذلك[٣]:

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

(٢) مرويات أبى مخنف، ص١٧٩.

(٣) عقيدة أهل السنّة فى الصحابة (٢/ ٦٥٦).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه أنه من الذين استخلفهم الله فى الأرض ومكن لهم فيها، وسار فى الناس أيام خلافته سيرة حسنة؛ حيث حكم فيهم بالعدل وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهذه الآية تضمنت الإشارة إلى أحقية خلافته رضى الله عنه[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]. وجه الاستدلال بهذه الآية على أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه هو أن الداعى لهؤلاء الأعراب داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ وهو أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، فأبو بكر دعاهم إلى قتال الروم والفرس والترك فوجبت طاعة هؤلاء الثلاثة رضى الله عنهم بنص القرآن، وإذا وجبت طاعتهم صحت خلافتهم، رضى الله عنهم وأرضاهم[٢].

٣ ـ عن أبى موسى رضى الله عنه قال: إن النبى ﷺ دخل حائطًا وأمرنى بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة فإذا هو أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا هو عثمان بن عفان[٣]. هذا الحديث فيه إشارة إلى ترتيب الثلاثة فى الخلافة، وإخبار عن بلوى تصيب عثمان، وهذه البلوى حصلت له رضى الله عنه وهى حصاره يوم الدار حتى قتل آنذاك مظلومًا، فالحديث علم من أعلام النبوة وفيه الإشارة إلى كونه شهيدًا رضى الله عنه وأرضاه[٤].

---

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/ ٦٥٦).
(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٠٩ ـ ١١٠).
(٣) البخارى رقم ٣٦٩٥.
(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/ ٦٥٧).

٤ ـ روى أبو داود ـ رحمه الله ـ بإسناده إلى جابر بن عبد الله أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله، ونيط عمر بأبى بكر، ونيط عثمان بعمر، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه ﷺ[١].

٥ ـ وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة واختلاف أو اختلاف وفتنة. قال: قلنا يا رسول الله: فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه وأشار إلى عثمان[٢]. وهذا الحديث فيه معجزة ظاهرة للنبى ﷺ الدالة على صدق نبوته؛ حيث أخبر بالفتنة التى حصلت أيام خلافة عثمان وكانت كما أخبر، كما تضمن الحديث التنبيه على أحقية خلافة عثمان، إذ إنه ﷺ أرشد الناس إلى أن يلزموه، وأخبر بأنه حين وقوع الفتنة والاختلاف فالحق مع أمير المؤمنين، وأمرهم بالالتفاف حوله وملازمته، لكونه على الحق، والخارجون عليه على الباطل أهل زيغ وهوى، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه سيكون مستمراً على الهدى لا ينفك عنه[٣].

٦ ـ روى أبو عيسى الترمذى بإسناده إلى عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصًا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم[٤]. ففى هذا الحديث الإشارة إلى الخلافة واستعارة القميص لها وذكر الخلع ترشيح، أى: سيجعلك الله خليفة، فإن قصد الناس عزلك، فلا تعزل نفسك عنها لأجلهم لكونك على الحق، وكونهم على الباطل[٥].

٧ ـ وروى الترمذى بإسناده إلى أبى سهلة قال: قال لى عثمان يوم الدار: إن

---

(١) سنن أبى داود (٢/ ٥١٣).

(٢) المستدرك (٣/ ٩٩) ثم قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/ ٦٦٠).

(٤) فضائل الصحابة (١/ ٦١٣) إسناده صحيح.

(٥) الدين الخالص (٣/ ٤٤٦).

رسول الله ﷺ قد عهد إلىّ عهداً فأنا صابر عليه(1). فقوله: قد عهد إلىّ عهداً، أى: أوصانى أن لا أخلع بقوله: وإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم، فأنا صابر عليه، أي: على ذلك العهد(2).

8 ـ وروى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى أبى سهلة مولى عثمان عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ادعوا لى ـ أو ليت عندى ـ رجلاً من أصحابى. قالت: قلت: أبو بكر. قال: لا. قلت: عمر. قال: لا. قلت: ابن عمك علىّ. قال: لا. قلت: فعثمان: قال: نعم. قالت: فجاء عثمان فقال: قومى. قال: فجعل النبى ﷺ يسر إلى عثمان ولون عثمان يتغير. قال: فلما كان يوم الدار قلنا: ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلىّ أمراً فأنا صابر نفسى عليه(3).

فهذا الحديث والذى قبله فيهما دلالة على صحة خلافته، فمن أنكر خلافته ولم يره من أهل الجنة والشهداء وأساء الأدب فيه باللسان أو الجنان، فهو خارج عن دائرة الإيمان وحيز الإسلام(4).

9 ـ ومما دل على صحة خلافته وإمامته ما رواه البخارى بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كنا فى زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم(5)، وفى هذا إشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ ألهمهم وألقى فى روعهم ما كان صانعه بعد نبيه ﷺ من أمر ترتيب الخلافة(6).

قال ابن تيمية: فهذا إخبار عما كان عليه الصحابة على عهد النبى ﷺ من تفضيل

---

(1) فضائل الصحابة (1/ 605) إسناده صحيح. والترمذى (5/ 295).

(2) تحفة الأحوذى (10/ 209).

(3) فضائل الصحابة (1/ 605)، إسناده صحيح، والمستدرك (3/ 99) حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(4) الدين الخالص (3/ 446).

(5) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم 3698.

(6) عقيدة أهل السنة (2/ 664).

أبى بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وقد روى أن ذلك كان يبلغ النبى ﷺ فلا ينكره، وحينئذ فيكون هذا التفضيل ثابتًا بالنص، وإلا فيكون ثابتًا بما ظهر بين المهاجرين والأنصار على عهد النبى ﷺ من غير نكير، وبما ظهر لما توفى عمر فإنهم كلهم بايعوا عثمان بن عفان من غير رغبة ولا رهبة ولم ينكر هذه الولاية منكر منهم[١].

وكل ما تقدم ذكره من النصوص فى هذه الفقرة أدلة قوية كلها فيها الإشارة والتنبيه إلى أحقية خلافة عثمان رضى الله عنه، وأنه لا مرية فى ذلك ولا نزاع عند المتمسكين بالكتاب والسنّة والذين هم أسعد الناس بالعمل بهما وهم أهل السنّة والجماعة، فيجب على كل مسلم أن يعتقد أحقية عثمان رضى الله عنه وأن يسلم تسليمًا كاملاً للنصوص الدالة على ذلك[٢].

سادسًا: انعقاد الإجماع على خلافة عثمان:

أجمع أصحاب رسول الله ﷺ وكذا من جاء بعدهم ممن سلك سبيلهم من أهل السنّة والجماعة على أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أحق الناس بخلافة النبوة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولم يخالف أو يعارض فى هذا أحد بل الجميع سلم له بذلك لكونه أفضل خلق الله على الإطلاق بعد الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وقد نقل الإجماع على أحقية عثمان رضى الله عنه بالخلافة بعد عمر رضى الله عنه طائفة من أهل العلم بالحديث وغيرهم، ومن تلك النقول[٣]:

١ ـ ما رواه ابن أبى شيبة بإسناده إلى حارثة بن مضرب، قال: حججت فى إمارة عمر، فلم يكونوا يشكون أن الخلافة من بعده لعثمان[٤].

٢ ـ وروى أبو نعيم الأصبهانى بإسناده إلى حذيفة رضى الله عنه قال: إنى لواقف مع عمر تمس ركبتى ركبته فقال: من ترى قومك يؤمرون؟ قال: إن الناس قد أسندوا

(١) منهاج السنة (٣/ ١٦٥).
(٢) عقيدة أهل السنة (٢/ ٦٦٤).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٦٥).
(٤) المصنف (١٤/ ٥٨٨).

أمرهم إلى ابن عفان[1].

٣ ـ ونقل الحافظ الذهبى عن شريك بن عبد الله القاضى أنه قال: قبض النبى ﷺ فاستخلف المسلمون أبا بكر فلو علموا أن فيهم أحدًا أفضل منه كانوا قد غشوا، ثم استخلف أبو بكر عمر فقام بما قام به من الحق والعدل، فلما احتضر جعل الأمر شورى بين ستة، فاجتمعوا على عثمان، فلو علموا أن فيهم أفضل منه كانوا قد غشونا[2].

فهذه النقول فيها بيان واضح فى أن أصحاب النبى ﷺ قد اشتهر بينهم أولوية عثمان بالخلافة، وما زال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيًا لما سبق من علمهم بعض النصوص المشيرة إلى أن ترتيبه سيكون فى خلافة النبوة بعد الفاروق رضى الله عنه ولعلمهم أنه أفضل الناس على الإطلاق بعد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما[3].

٤ ـ روى ابن سعد بإسناده إلى النزال بن سبرة رضى الله عنه قال؛ قال عبد الله بن مسعود حين استخلف عثمان: استخلفنا خير من بقى ولم نأله ـ أى لم نقصر فى اختيار الأفضل ـ وفى رواية أخرى قال: أمرنا خير من بقى ولم نأل[4].

٥ ـ وقال الحسن بن محمد الزعفرانى: سمعت الشافعى يقول: أجمع الناس على خلافة أبى بكر واستخلف أبو بكر عمر، ثم جعل الشورى إلى ستة على أن يولوها واحدًا فولوها عثمان رضى الله عنهم أجمعين[5]، وقد نقل أبو حامد محمد المقدسى كلامًا عزاه للإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ أنه قال: واعلموا أن الإمام الحق بعد عمر رضى الله عنه عثمان رضى الله عنه بجعل أهل الشورى اختيار الإمامة إلى عبد الرحمن بن عوف واختياره لعثمان رضى الله عنه، وإجماع الصحابة رضى الله عنهم وصوبوا رأيه فيما فعله، وأقام الناس على محجة الحق وبسط العدل إلى أن

(١) كتاب الإمامة والرد على الرافضة، ص٣٠٦.
(٢) ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٣).
(٣) عقيدة أهل السنة (٢/ ٦٦٦).
(٤) الطبقات الكبرى (٣/ ٦٣).
(٥) مناقب الشافعى، للبيهقى (١/ ٤٣٤، ٤٣٥).

استشهد رضى الله عنه[١].

٦ ـ وذكر ابن تيمية عن الإمام أحمد أنه قال: لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على بيعة عثمان[٢].

٧ ـ وقال أبو الحسن الأشعرى: وثبتت إمامة عثمان رضى الله عنه بعد عمر بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر فاختاروه ورضوا بإمامته وأجمعوا على فضله وعدله[٣].

٨ ـ وقال عثمان الصابونى مبينًا عقيدة السلف وأصحاب الحديث فى ترتيب الخلافة بعد أن ذكر أنهم يقولون أولاً بخلافة الصديق ثم عمر قال: ثم خلافة عثمان رضى الله عنه بإجماع أهل الشورى وإجماع الأصحاب كافة ورضاهم به حتى جعل الأمر إليه[٤].

٩ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع العلماء المصلحين ـ: وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان لم يتخلف عن بيعته أحد. . . فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إمامًا، وإلا فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه على ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إمامًا، ولكن عمر لما جعلها شورى فى ستة: عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، ثم إنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم وبقى عثمان وعلى وعبد الرحمن لا يتولى ويولى أحد الرجلين، وأقام عبد الرحمن ثلاثًا حلف أنه لم يغمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان يشاور أمراء الأجناد، وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام، فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها، ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة كأيوب السختيانى وأحمد بن حنبل والدارقطنى وغيرهم: من قدم عليًا

(١) الرد على الرافضة، ص٣١٩، ٣٢٠.

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٦٦)، والسنة للخلال، ص٣٢٠.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة، ص٦٨.

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن الرسائل المنبرية (١/ ١٣٩).

على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم[1].

١٠ ـ وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ حاكيًا لإجماع الصحابة على خلافة عثمان رضى الله عنه: ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين فى أفضلهم ليوليه فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان حتى إنه قال لعلى: أرأيت إن لم أولك بمن تشير به علىّ؟ قال بعثمان، وقال لعثمان رضى الله عنه: أرأيت إن لم أولك بمن تشير به؟ قال بعلى بن أبى طالب، والظاهر أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر فى ثلاثة، وينخلع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل، والله عليه والإسلام ليجتهد فى أفضل الرجلين فيوليه، ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يستشير الناس فيهما ويجمع رأى المسلمين برأى رؤوس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا، مثنى وفرادى، ومجتمعين سرًا وجهرًا حتى خلص إلى النساء المخدرات فى حجابهن، وحتى سأل الولدان فى المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة فى مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان فى تقدم عثمان بن عفان رضى الله عنه فسعى فى ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا فى صلاة ودعاء واستخارة وسؤال من ذوى الرأى عنهم، فلم يجد أحدًا يعدل بعثمان بن عفان رضى الله عنه، فلما كان الليلة التى يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب رضى الله عنه، جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة وأمره أن ينادى له عليًا وعثمان رضى الله عنهما فناداهما فحضرا إلى عبد الرحمن فأخبرهما أنه سأل الناس فلم يجد أحدًا يعدل بهما أحدًا، ثم أخذ العهد على كل منهما أيضًا لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه بها رسول الله ﷺ وتقلد سيفًا، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودى فى الناس عامة الصلاة جامعة فامتلأ المسجد

(١) منهاج السنة (١/ ١٣٤).

بالناس حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس ـ وكان رجلاً حييًا رضى الله عنه ـ ثم صعد عبد الرحمن ابن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقوفًا طويلاً ودعا دعاءً طويلاً لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال: أيها الناس إنى سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما علىّ، وإما عثمان فقم إلى يا على، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم لا. ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى. قال: فأرسل يده وقال: قم إلى يا عثمان، فأخذ بيده وقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم. قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان. وقال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر قال: فقعد عبد الرحمن مقعد النبى ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء الناس يبايعونه، وبايعه على بن أبى طالب أولاً، ويقال ثانيًا[1].

فهذه النقول المتقدم ذكرها للإجماع عن هؤلاء الأئمة كلها تفيد إفادة قطعية أن البيعة بالخلافة تمت لعثمان رضى الله عنه بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولم يخالف أو يعارض فى ذلك أحد[2].

سابعًا: حكم تقديم علىّ على عثمان رضى الله عنه:

الذى عليه أهل السنّة أن من قدم عليًا على أبى بكر وعمر فإنه ضال مبتدع، ومن قدم عليًا على عثمان فإنه مخطئ ولا يضللونه ولا يبدعونه[3]، وإن كان بعض أهل العلم قد تكلم بشدة على من قدم عليًا على عثمان بأنه قال: من قدم عليًا على

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩ ـ ١٦١).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة (٢/ ٦٧١).

(٣) مجموعة الفتاوى (٣/ ١٠١، ١٠٢).

عثمان فقد زعم أن أصحاب الرسول ﷺ خانوا الأمانة حيث اختاروا عثمان على على رضى الله تبارك وتعالى عنهما[١].

وقال ابن تيمية: استقر أمر أهل السنّة على تقديم عثمان، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلى ـ ليست من الأصول التى يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة، لكن المسألة التى يضلل المخالف فيها هى مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علىّ، ومن طعن فى خلافة أحد هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله[٢].

وذكر أقوال أهل العلم فى مسألة تفضيل علىّ على عثمان:

فقال: فيها روايتان:

إحداهما: لا يسوغ ذلك، فمن فضل عليًا على عثمان خرج من السنّة إلى البدعة، لمخالفته لإجماع الصحابة؛ ولهذا قيل: من قدَّم عليًا على عثمان، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، يروى ذلك عن غير واحد؛ منهم أيوب السختيانى وأحمد بن حنبل والدارقطنى.

والثانية: لا يُبدَّع من قدم عليًا، لتقارب حال عثمان وعلىّ[٣].

* * *

(١) حقبة من التاريخ، لعثمان الخميس، ص٦٦

(٢) مجموعة الفتاوى (٣/ ١٠١، ١٠٢).

(٣) مجموعة الفتاوى (٤/ ٢٦٧).

المبحث الثانى

منهج عثمان بن عفان فى الحكم

عندما بويع عثمان رضى الله عنه بالخلافة قام فى الناس خطيبًا فأعلن عن منهجه السياسى مبينًا أنه سيتقيد بالكتاب والسنّة وسيرة الشيخين، كما أشار فى خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها خوفًا من التنافس والتباغض والتحاسد بينهم، مما يفضى بالأمة إلى الفرقة والخلاف، وكأن عثمان رضى الله عنه ينظر وراء الحجب ببصيرته النفّاذة إلى ما سيحدث فى هذه الأمة من الفتن بسبب الأهواء وتهالك الناس بعدما بويع[١] فقال: «أما بعد، فإنى كلفت وقد قبلت، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم علىَّ بعد كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ثلاثًا: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنّ أهل الخير فيما تسنّوا عن ملأ، والكفّ عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة، وإن الدنيا خضرة وقد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»[٢].

وأما قول بعض الناس بأن عثمان لما خطب أول خطبة أرتج عليه فلم يدر ما يقول حتى قال: أيها الناس، إن أول مركب صعب وإن أعش فستأتيكم الخطبة على وجهها، فهو شىء يذكره صاحب العقد[٣]، وغيره من يذكر طرف الفوائد، وأن إسناده غير صحيح[٤].

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٩٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٣).

(٣) المراد ابن عبد ربه الأندلسى، صاحب كتاب العقد الفريد، وهو كتاب فى طرق الأخبار والحكايات والنوادر، ولا يهتم بسند الخبر أو صحته.

(٤) خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، د. السّلمى ص٣٤، ٣٥ والخبر من طريق الواقدى وهو متروك.

أولاً: كتب عثمان إلى عمّاله وولاته وأمراء الجند وعامة الناس:

أقرّ عثمان رضى الله عنه عمّال عمر رضى الله عنه، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاملاً أخذاً بوصية عمر رضى الله عنه، والناظر فى الكتب التى بعث بها إلى الولاة وعمال المال وأمراء الأجناد يقف على النهج الذى أراد السير عليه وأخذ الأمة به[1].

١ ـ أول كتاب كتبه عثمان إلى جميع ولاته:

أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم، ثم العدو الذى تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء[2].

والملاحظ أن عثمان رضى الله عنه أكد فى هذا الكتاب الموجه إلى ولاته فى الأمصار واجبهم نحو الرعية، وعرّفهم أن مهمتهم ليست هى جمع المال، وإنما تتمثل فى رعاية مصالح الناس، ولأجل ذلك بين السياسة التى يسوسون بها الأمة، وهى أخذ الناس بما عليهم من الواجبات وإعطاؤهم حقوقهم فإذا كانوا كذلك صلحت الأمة، وإذا انقلبوا جباة ليس همهم إلا جمع المال انقطع الحياء وفقدت الأمانة والوفاء[3]، لقد كان فى كتاب عثمان للولاة: التركيز على قيم العدل السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى بإعطاء ذوى الحقوق حقوقهم: وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرعاية السياسية لا الجباية وتكثير الأموال[4].

ونبه على ما سيكون عند تغير الولاة من رعاة إلى جباة، بأن ذلك سبب فى تقلص

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٩٣).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٩٣).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ص٢٤٦.

مكارم الأخلاق التى مثَّل لها بالحياء والأمانة والوفاء، وذلك أن بين الراعى والرعية خيطًا ساميًا من العلاقات المتينة، ويؤكده ويثبته اتفاق الجميع على هدف واحد، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالى يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لإمامه من طاعة وولاء وأمانة ووفاء، ويبقى خُلُق الحياء الذى أشار إليه عثمان يُظِلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع فى الحرج. ثم يوصى عثمان ولاته بالعدل فى الرعية، وذلك بأخذ ما عليهم من الحقوق وبذل ما لهم من ذلك، ويشير إلى نقطة مهمة وهى أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء، وقد بين التاريخ أثر هذا الخلق الرفيع فى تفوق المسلمين الإدارى والحربى[١].

٢ ـ كتابه إلى قادة الجنود:

وكان أول كتاب كتبه إلى قادة الأجناد فى الفروج[٢]: أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغب عنا، بل كان على ملإٍ منا، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله بكم، ويستبدل لكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه[٣].

وفى هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة؛ لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسيرون على خط واحد، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام فى واقع الحياة. وقوله: وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملإٍ منا. إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على المنهج نفسه لوضوح الهدف لدى الجميع وقوله: «ولا تغيروا فيغير الله بكم» وَعْىٌ لسنن الله تعالى فى هذا الكون، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره، فإذا تغيروا فى ذلك

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٦٩).

(٢) الفروج: يعنى الأقاليم.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

غيّر الله ما بهم واستبدل بهم غيرهم فى الهيمنة والتمكين[١]، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. وذكرهم بأنه على علم بواجبه يؤديه ويقوم عليه ليتلاقى عمل الرعية وعمل الراعى فى الشعور بالواجب والقيام به ويشعر كل فرد أنه يعمل لأمته كما يعمل لنفسه[٢].

٣ ـ كتابه إلى عمال الخراج:

وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج:

أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يُسلَبُها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم[٣].

خص فى هذا الكتاب وزراء المال الذين يجبونه من أفراد الأمة لينفق فى مصالحها العامة، فبين لهم أن الله لا يقبل إلا الحق، والحق قائم على الأمانة والوفاء، ثم ميز صنفين من الرعية، هما ضعيفاها: اليتيم والمعاهد فحض على التجافى عن ظلمهما؛ لأن الله هو المتولى حمايتهما[٤]، ويذكرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى؛ لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين، وفى هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين[٥].

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٧٠).
(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص١٩٩.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).
(٤) عثمان بن عفان، رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص١٩٨.
(٥) التاريخ الإسلامى (٢٠/ ٣٧١).

٤ ـ كتابه إلى العامة:

أما بعد، فإنكم إنما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: الكفر فى العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا[1].

وفى هذا الخطاب نلاحظ: أن عثمان رضى الله عنه رغب عامة الأمة فى الاتباع، وترك التكلف والابتداع، وأنه حذرهم تغير الحال إذا اجتمعت لهم ثلاث خلال: تكامل النعم، الذى يبطر النفوس ويدفعها إلى الترف، ويصدها عن الاجتهاد والعمل، ويصرفها إلى الفراغ والكسل، حتى تفتر حيويتها وتخور عزائمها؛ وبلوغ أولادها من السبايا، وقد لمست الأمة فى تاريخها أثر هؤلاء فى المجتمع الإسلامى من الوجهة السياسية والاجتماعية والدينية؛ وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وإنما يريد عثمان بذلك ما فى طبائع الأعراب من جفاء وغلظ الأكباد فلا تبلغ هداية القرآن مكان الخير من أفئدتهم؛ وكذلك يريد ما فى الأعاجم من أخلاق موروثة، وعقائد متأصلة، وعادات قديمة تباعد بينهم وبين سنن القرآن فى الهداية، وقد ظهر أثر الأعراب فى فرقة الخوارج الذين كانت كثرتهم من أولئك الجفاة، فهم كانوا أقرأ الناس للقرآن، وأبعدهم عن هدايته، ثم ظهر فيمن عداهم أثر الأعاجم فيما ابتدعوه من مذاهب وتكلفوه من آراء كانت شراً على المسلمين فى عقائدهم، ومنهم أكثر الفرق الضالة التى لعبت فى تاريخ الإسلام أخطر دور[2].

ثانيًا: المرجعية العليا للدولة:

أعلن ذو النورين أن مرجعيته العليا لدولته كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والاقتداء بالشيخين فى هديهما؛ فقد قال: . . . ألا وإنى متبع ولست بمبتدع ألا وإنّ لكم علىّ بعد كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ثلاثًا: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم[3].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).

(٢) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص١٩٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٣).

١ ـ فالمصدر الأول هو كتاب الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

فكتاب الله تعالى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التى تتعلق بشئون الحياة، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بيَّن القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢ ـ المصدر الثانى: السنّة المطهرة:

الذى يستمد منها الدستور الإسلامى أصوله ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن[١].

٣ ـ الاقتداء بالشيخين:

قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر»[٢].

إن دولة ذى النورين خضعت للشريعة، وأصبحت سيادة الشريعة الإسلامية فيها فوق كل تشريع وفوق كل قانون، وأعطت لنا صورة مضيئة مشرقة على أن الدولة الإسلامية دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكام هذه الشريعة، والحاكم فيها مقيد بأحكامها لا يتقدم ولا يتأخر عنها[٣]، ففى دولة ذى النورين وفى مجتمع الصحابة، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، وطاعة الخليفة مقيدة بطاعته لله، قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف»[٤]، وهيمنة الشريعة على الدولة من خصائص الخلافة الراشدة، فحكومة الخلافة الراشدة تتميز عن الحكومات الأخرى بعدة خصائص منها:

* أن اختصاصات الحكومة (الخليفة) عامة، أى تقوم على التكامل بين الشئون

---

(١) فقه التمكين فى القرآن الكريم للصَّلاَّبى، ص٤٣٢.

(٢) صحيح سنن الترمذى (٣/ ٢٠٠).

(٣) نظام الحكم فى الإسلام، ص٢٢٧.

(٤) البخارى رقم ٧١٤٥.

الدنيوية والدينية.

* أن حكومة الخلافة ملزمة بتنفيذ أحكام الشريعة.

* أن الخلافة تقوم على وحدة العالم الإسلامى[(١)].

ثالثا: حق الأمة فى محاكمة الخليفة:

الأمر الذى لا شك فيه أن سلطة الخليفة ليست مطلقة، وإنما هى مقيدة بقيدين:

١ ـ ألا يخالف نصًا صريحًا ورد فى القرآن الكريم والسنّة، وأن يكون الإجراء الذى يتخذه متفقًا ـ فضلاً عن ذلك ـ مع روح الشريعة ومقاصدها.

٢ ـ ألا يخالف ما اتفقت عليه الأمة الإسلامية أو يخرج على إرادتها.

وأساس ذلك أن الخليفة نائب عن الأمة، منها يستمد سلطانه، ويرجع إليها فى تحديد هذا السلطان ومداه، فالأمة تستطيع فى كل وقت أن توسع من هذا السلطان وأن تضيق منه أو تقيده بقيود كلما رأت فى ذلك مصلحة أو ضمانًا لحسن القيام على أمر الله ومصلحة الأمة[(٢)]، ويكون ذلك من خلال مجلس شورى الأمة، وقد أكد عثمان رضى الله عنه حق الأمة فى محاسبة الخليفة فى قوله: إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوا رجلى فى القيد[(٣)]، وحينما أخذت طائفة عليه بعض أخطاء ـ فى زعمها ـ فى تصريفه لشئون الحكم وإسناد وظائفه، وتظاهرت عليه جموع منهم لمحاسبته على أعماله، فأذعن رضوان الله عليه لرغبتهم، ولم ينكر عليهم هذا الحق، وأبدى استعدادًا كريمًا لإصلاح ما عسى أن يكون أخطأه التوفيق فى إبرامه[(٤)].

---

(١) فقه الخلافة، للسنهورى، ص٨٠.

(٢) الدولة والسيادة، د. فتحى عبد الكريم، ص٢٦٨

(٣) مسند الإمام أحمد الموسوعة الحديثية، رقم ٥٢٤

(٤) الدولة والسيادة، ص٣٧٩

رابعًا: الشورى:

إن من قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام الحكم بالشورى قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

وقد اتخذ عثمان رضى الله عنه فى دولته مجلسًا للشورى يتألف من كبار أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار[١]، وقد طلب عثمان رضى الله عنه من العمال والقادة قائلاً: أما بعد فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ولا تبدلوا، ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم[٢]، فأخذ قادته بذلك فكانوا إذا هموا بالغزو والتقدم فى الفتوحات الإسلامية استأذنوه واستشاروه، فيقوم هو بدوره بجمع الصحابة واستشارتهم للإعداد والإقرار والتنفيذ ووضع الخطط المناسبة لذلك ومن ثم يأذن لهم[٣]، فقد قام عبد الله بن أبى سرح، بالكتابة إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه طالبًا منه أن يأذن له بأن يغزو أطراف إفريقية وذلك لقرب جزر الروم من المسلمين، فأجابه الخليفة عثمان إلى ذلك بعد المشورة وندب إليه الناس[٤]، كما أن معاوية بن أبى سفيان حين أراد فتح جزيرة قبرص وردوس فعل الشىء نفسه فى استشارة القيادة العليا المركزية وطلب الإذن بالسماح له، ولم يأته الجواب إلا بعد انعقاد مجلس الشورى وبحثه فى الموضوع، ومن ثم السماح له[٥]، وكان قادة الخليفة عثمان رضى الله عنه فى إدارتهم للمعارك الحربية يتشاورون فيما بينهم[٦]، كما شاور

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٧٧).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٧٧) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٣) فتوح مصر، ص٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٣.

(٥، ٦) الإدارة العسكرية (١/ ٢٧٨).

عثمان كبار الصحابة فى جمع القرآن، وفى قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان، وحول التدابير الكفيلة بقطع دابر الفتنة وفى مقام القضاء وغير ذلك من المواقف والأحداث التى سيأتى بيانها فى محلّها بإذن الله.

خامسًا: العدل والمساواة:

إن من أهداف الحكم الإسلامى الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامى التى تساهم فى إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد العدل والمساواة، فقد كتب ذو النورين إلى الناس فى الأمصار، أن ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، ولا يُذِلّ المؤمن نفسه، فإنى مع الضعيف على القوى ما دام مظلومًا إن شاء الله[1]، فقد كانت سياسته تقوم على العدل بأسمى صوره، فقد أقام الحد على والى الكوفة الوليد بن عقبة (أخوه لأمه)، عندما شهد عليه الشهود بأنه شرب الخمر، وعزله عن الولاية بسبب ذلك، وسيأتى تفصيل هذه القصة بإذن الله، وقبوله بتولية أبى موسى الأشعرى مكانه، لأن أهل الكوفة لم يوافقوا على تولية سعيد بن العاص خلفًا للوليد، وقد روى عنه أيضًا أنه غضب على خادم له يومًا فعرك أذنه حتى أوجعه، ولم يستطع أن ينام ليلته آنذاك إلا بعد أن دعا خادمه إلى مضجعه وأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه، وقد أبى الخادم فى بادئ الأمر، ولكن عثمان أمره ثانية فى حزم فأطاعه[2].

سادسًا: الحريات:

مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التى قام عليها الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، ويقضى هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحرية العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد كانت دعوة الإسلام لحرية الناس، جميع الناس دعوة واسعة وعريضة قلما تشتمل على مثلها دعوة فى التاريخ، وفى عهد الخلفاء الراشدين كانت الحريات العامة المعروفة فى أيامنا معلومة ومصونة[3]، كحرية العقيدة الدينية، وحرية التنقل، وحق الأمن، وحرمة المسكن، وحرية الملكية، وحرية الرأى.

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٤١٤).

(٢) نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، حمد محمد الصمد، ص١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٧، ١٥٨.

سابعًا: الاحتساب:

اهتم أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالاحتساب بنفسه كما أسنده إلى غيره، فقد ثبت قيامه رضى الله عنه بالاحتساب فى مجالات عدة منها:

١ ـ إنكاره على لبس الثوب المعصفر:

ومن احتسابه رضى الله عنه أنه أنكر على محمد بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لبسه الثوب المعصفر، فعن أبى هريرة قال: راح عثمان رضى الله عنه إلى مكة حاجًا، ودخلت على محمد بن جعفر بن أبى طالب امرأته، فبات معها حتى أصبح، غدا عليه ردع[1] الطيب، وملحفى معصفرة مفدمة[2]، فأدرك الناس بملل[3]، قبل أن يروحوا؛ فلما رآه عثمان رضى الله عنه انتهر وأفف، وقال: أتلبس المعصفر وقد نهى عنه رسول الله ﷺ[4].

٢ ـ إنكاره على قاصدات العمرة والحج وهن فى العدة:

ومن احتسابه رضى الله عنه أنه كان يرد النساء اللواتى كنّ يخرجن للعمرة أو الحج وهن فى العدة، فقد روى الإمام عبد الرزاق عن مجاهد قال: كان عمر وعثمان رضى الله عنهما يرجعان حواج ومعتمرات من الجحفة وذى الحليفة[5].

٣ ـ أمره بذبح الحمام:

ومن احتسابه أنه منع الناس من الانشغال فى طيران الحمام[6]، لما بدءوا فيه مع سعة العيش، وأمرهم بذبحه، فقد روى الإمام البخارى عن الحسن قال: سمعت عثمان رضى الله عنه يأمر فى خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام[7].

---

(١) ردع: لطخ وأثر.
(٢) مفدمة: مشبعة حمرة.
(٣) ملل: موضع بين مكة والمدينة.
(٤) المسند رقم ٥١٧. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر: تعليقات الشيخ على المسند (١/ ٣٨٤).
(٥) المصنف رقم ١٢٠٧١.
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٥).
(٧) الأدب المفرد، باب ذبح الحمام، رقم ١٣٠٧.

٤ ـ احتسابه على اللعب بالنرد:

كان عثمان رضى الله عنه ينهى عن اللعب بالنرد وأمرهم بتحريقه أو كسره ممن كان فى بيته، فقد روى الإمام البيهقى عن زبيد بن الصلت أنه سمع عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو على المنبر يقول: يا أيها الناس إياكم والميسر ـ يريد النرد ـ فإنها قد ذكرت لى أنها فى بيوت ناس منكم، فمن كان فى بيته، فليحرقها أو فليكسرها، وقال عثمان رضى الله عنه مرة أخرى وهو على المنبر: يا أيها الناس، إنى قد كلمتكم فى هذا النرد، ولم أركم أخرجتموها، فلقد هممت أن آمر بحزم الحطب، ثم أرسل إلى بيوت الذين هى فى بيوتهم فأحرقها عليهم(١).

٥ ـ إخراجه من يراه على شر أو يشهر سلاحًا من المدينة:

ومن احتسابه أيضًا أنه كان ينكر على من يراه على شر أو كان يحمل معه سلاحًا ويخرجه من المدينة، فعن سالم بن عبد الله رضى الله عنه قال: وجعل عثمان لا يأخذ أحدًا منهم على شر أو شهر سلاح عصا فما فوقها إلا سيّره(٢).

٦ ـ ضربه لمن استخف بعمّ النبى ﷺ:

ففى أيام خلافته ضرب رجلاً فى منازعة استخف فيها بالعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فقيل له عن مبررات ضربه؟ فقال: نعم، أيفخم رسول الله ﷺ عمه وأرخص فى الاستخفاف به، لقد خالف رسولَ الله ﷺ من فعل ذلك ومن رضى به منه(٣).

٧ ـ نهيه عن الخمر؛ لأنها أم الخبائث:

روى النسائى فى سننه والبيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلاً ممن خلا قبلكم يتعبّد، فَعَلِقَتْه

---

(١) السنن الكبرى، كتاب الشهادات (١٠/ ٢١٥).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦) معظم هذه الفقرة أخذتها من كتاب الحسبة فى العصر النبوى والعهد الراشدى للدكتور فضل إلهى.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٧).

امرأة أغوته، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنها تدعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفق كلما دخل بابًا أغلقَته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر فقالت: والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع على، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا، أو تقتل هذا الغلام، قال فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يَرِم حتى وقع عليها وقتل الغلام، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ويوشك أن يخرج أحدُهما صاحبه[1].

٨ ـ من خطب عثمان في المجتمع ومن حكمه:

أ ـ خطبة في الاستعداد ليوم المعاد:

يقول الحسن البصري رحمه الله: خطب عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله، فإن تقوى الله غُنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورًا لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى، وقد كان بصيرًا، وقد يكفي الحكيم جوامعُ الكلم، والأصم ينادى من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئًا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده[2].

وعن عثمان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجمّاء لتُقص من القرناء يوم القيامة»[3].

ب ـ التذكير بمكارم الأخلاق:

قال عثمان رضي الله عنه: إنا والله صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويشيّع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يُعلمونني به عسى ألا يكون أحدهم رآه قط[4].

---

(١) سنن النسائي، كتاب الأشربة، موسوعة فقه عثمان، ص٥٢.

(٢) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، ص١٠٧

(٣) الموسوعة الحديثية في مسند أحمد رقم ٥٢٠.

(٤) صحيح التوثيق في سيرة وحياة ذي النورين، ص١٠٧

جـ ـ من حكمه التى سارت بين الناس:

* قال رضى الله عنه: لو طهرت قلوبنا ما شبعتم من كلام ربكم[١].

* وقال رضى الله عنه: ما أسرّ أحد سريرةً إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه[٢].

* إن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[٣].

* وكان رضى الله عنه لا يقيم للدنيا وزنًا، فقال فيها: «هم الدنيا ظلمة فى القلب، وهم الآخرة نور فى القلب»[٤].

* ومن حكمه البالغة: يكفيك من الحاسد أنه يغتمٌ وقت سرورك[٥].

* وقال رضى الله عنه فى أيام الفتنة: أستغفر الله إن كنت ظلمتُ، وقد عفوتُ إن كنت ظُلِمتُ[٦].

* ومن حكمه ومواعظه رضى الله عنه: إن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه النعمة عيَّابون صغَّانون، يُرونكم ما تحبون، ويُسرُّون ما تكرهون، طغام مثل النعام[٧].

* ولما قدم عبد الله بن الزبير بفتح إفريقيـة، أمره عثمـان بن عفـان رضى الله عنه، فقام خطيبًا، فلما فرغ من كلامه، قال عثمان: انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهنّ، فإنى لم أرَ فى ولد أبى بكر الصديق أشبه به من هذا[٨]، وعبد الله بن الزبير أمه أسماء بنت أبى بكر، ويريد أن ابن الزبير كان شبيهًا بجده فى الشجاعة

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٣٦٣.
(٢) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص٢٦٩.
(٣) الكامل فى اللغة والأدب (١/ ١٥٧).
(٤) الاستعداد ليوم المعاد، ص٩.
(٥) مجموع الأمثال، للميدانى (٢/ ٤٥٣).
(٦) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧١.
(٧) مجمع الأمثال، للميدانى (٢٠/ ٤٥٣).
(٨) البيان والتبيين (٢/ ٩٥).

والإقدام والفصاحة(١).

* وقال رضى الله عنه: ما من عامل يعمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله(٢).

* وقال رضى الله عنه: إن المؤمن فى ستة أنواع من الخوف:

أحدها: من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان.

والثانى: من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة.

والثالث: من قبل الشيطان أن يبطل عمله، والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه فى غفلة بغتة، والخامس من قبل الدنيا أن يغتر بها وتُشغله عن الآخرة(٣).

* وقال رضى الله عنه: وجدت حلاوة العبادة فى أربعة أشياء: أولها فى أداء فرائض الله، والثانى فى اجتناب محارم الله، والثالث فى الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله، والرابع فى النهى عن المنكر اتقاء غضب الله(٤).

٩ ـ عثمان رضى الله عنه والشعر والشعراء:

لم تذكر لنا المصادر والمراجع سوى النزر القليل عن علاقة عثمان رضى الله عنه مع الشعر والشعراء، مع أن فترة خلافته كانت طويلة نسبيًا، ومن هذا القليل تبين لنا أنه كان ملتزمًا المنهج العام للعقيدة الإسلامية التى وضّح معالمها الرسول ﷺ والتى سلك طريقها سلفه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهم، ولا شك أن لكل منهم شخصيته الأدبية المميزة، فقد اشتهر أبو بكر بمعرفة الأنساب، وبعلمه الوافر وحسن مجالسته، وبروايته للشعر، واشتهر عمر بالحث على تعلم الشعر، وأنه لم تكن تعرض له قضية إلا تمثل ببيت شعر، أضف إلى ذلك أنه كان شاعراً، أما عثمان ابن عفان رضوان الله عليه فلم يؤثر عنه ذلك الانغماس الكبير فى الشعر، أو تلك العلاقة الحميمة مع الشعراء، وإذا كنا نعرف أن الشعراء كانوا يتهافتون على أبواب

(١) فرائد الكلام، ص٢٧١.

(٢) الزهد، للإمام أحمد، ص١٨٥.

(٣) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

الأمراء طمعًا برضاهم وبأعطيتهم، فإننا نرى أن الشعراء أيام عثمان، يتركون الحواضر ودار الخلافة ويؤثرون العودة إلى البادية[١]، وقد ذكرت كتب الأدب والتاريخ بعض الأبيات نسبتها إلى عثمان أو كان يتمثل بها، ومن هذه الأبيات ما يروى أنه قال:

واعلم أن الله ليس كصنعه صنيع ولا يخفى على ملحد

وكان كثيراً ما ينشد أبياتًا قالها ويطيل ذكرها لا تعرف لغيره:

تفنى اللذائذ ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار

يلقى عواقب سوءٍ من مغبَّتها لا خير فى لذة من بعدها نار[٢]

قال يوم دخل عليه الثائرون فى بيته ليقتلوه:

أرى الموت لا يبقى عزيزاً ولم يدع لعاد ملاذاً فى البلاد ومرتعا[٣]

وقال لما حوصر فى داره:

يُبيتُ أهل الحصن والحصن مغلق ويأتى الجبال الموت شمراخها العُلا[٤]

ويروى له أيضًا:

غِنى النفس يُغنى النفس حتى يكُفَّها وإن عَضَّها حتى يَضُرَّ بها الفقر

وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سيتبعُها يُسْرُ

ونلاحظ فى البيت الأخير، أنه يتضمن معنًى قرآنيًا، إن مع العسر يسراً، وهذا ليس غريبًا على الخليفة المسلم، الذى نشأ وترعرع فى أحضان محمد ﷺ فهو يعاقب على شعر الهجاء الذى يتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية، ويثنى على الشعر الحسن ويحب الاستماع إليه وكل ذلك ضمن المفاهيم الإسلامية[٥].

(١) أدب صدر الإسلام، واضح الصمد، ص٩٩.

(٢) شعراء الخلفاء، نبال تيسير الخماش، ص٢٧.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٢).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ١٩٢).

(٥) أدب صدر الإسلام، واضح الصمد، ص١٠٢.

وإذا كان الخليفة الراشد الثالث لم يهتم بالشعر، ولم يقرب إليه الشعراء، فإن مقتله من قبل الغوغاء فتح الباب على مصراعيه لازدهار الشعر السياسى الذى أصبح الأداة الصحافية الفاعلة فى العصور الإسلامية المتلاحقة، فعند مقتله بكاه كثير من شعراء الصحابة [١]. وسيأتى بيان ذلك بإذن الله.

* * *

(١) الأدب الإسلامى، د. نايف معروف، ص١٩٠.

المبحث الثالث

أهم صفاته

إن شخصية ذى النورين تعتبر شخصية قيادية وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى، ونجملها فى أمور ونركز على بعضها بالتفصيل؛ فمن أهم هذه الصفات: إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، والعلم الشرعى، والثقة بالله، والقدوة والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربانية استطاع أن يحافظ على الدولة ويقمع الثورات التى حدثت فى الأراضى المفتوحة، وينتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ومن أهم تلك الصفات التى نحاول تسليط الأضواء عليها فى هذا المبحث هى:

أولاً: العلم والقدرة على التوجيه والتعليم:

يعتبر عثمان رضى الله عنه من كبار علماء الصحابة فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيأتى الحديث عن اجتهاداته الفقهية فى المجال القضائى والمالى والجهادى بإذن الله تعالى، وكان رضى الله عنه حريصًا على اتباع هدى النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فعن عروة بن الزبير، أن عبيد الله بن عدى بن الخيار أخبره، أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا له: ما يمنعك أن تكلم خالك يكلم أمير المؤمنين عثمان فى الوليد بن عقبة وقد أكثر الناس فيما فعل؟ قال عُبَيد الله: فاعترضت لأمير المؤمنين عثمان حين خرج إلى الصلاة فقلت له: إن لى إليك حاجة هى نصيحة. قال: قال: يا أيها المرء إنى أعوذ بالله منك، قال: فانصرفت، فلما قضيت الصلاة جلست إلى المِسْور وابن عبد يغوث فحدثتهما بالذى

قلت لأمير المؤمنين، وقال لى، فقالا: قد قضيت الذى عليك، فبينما أنا جالس معهما جاءنى رسول أمير المؤمنين عثمان، فقال لى: قد ابتلاك الله، فانطلقت حتى دخلت على عثمان، فقال: ما نصيحتك التى ذكرت لى آنفًا؟ قال: فتشهدت ثم قلت له: إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ، ورأيت هديه وقد أكثر الناس فى شأن الوليد، فحق عليك أن تقيم عليه الحد، قال: فقال لى: ابن أختى أدركتَ رسول الله ﷺ؟ قال: فقلت: لا، ولكن خَلَصَ إلىّ من علمه واليقين ما يَخلُص إلى العذراء فى سترها. قال: فتشهد ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً بالحق، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمن بما بعث محمد ﷺ ثم هاجرت الهجرتين كما قلت، ونلت صهر رسول الله ﷺ وبايعت رسول الله ﷺ فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلف بعده أبو بكر فبايعناه فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلف عمر فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلفنى الله أفليس لى عليكم مثل الذى كان لهم علىّ؟ قال: فقلت: بلى، قال: فما هذه الأحاديث التى تبلغنى عنكم؟ فأما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه إن شاء الله بالحق، قال: فجلد الوليد أربعين سوطًا، وأمر عليًا بجلده فكان هو يجلده(١)، لقد لازم ذو النورين النبى ﷺ فاستفاد من علمه وهديه مما جعله من كبار علماء الصحابة رضى الله عنهم جميعًا، وكان رضى الله عنه قادراً على توجيه رعيته توجيهًا مفيداً، وتعليمهم واجباتهم ونقل آرائه النابعة من علمه وخبرته وتجاربه وممارسته إليهم حتى يرتقوا فى مجال الدعوة والتربية والتعليم والجهاد والاستعداد للقاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ومن توجيهات عثمان رضى الله عنه ما تضمنته خطبة خلافته التى قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ: إنكم فى دار قلعة، وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً، ألم

---

(١) فضائل الصحابة (١/٥٩٧) رقم ٧٩١ إسناده صحيح.

تلفظهم؟! ارموا الدنيا بالذى هو خير[١]، فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

ولقد كان المعنى الذى يدور حوله توجيه الخليفة الثالث رضى الله عنه فى هذه الخطبة هو الحض على الإقبال على الله والزهد فى الدنيا، وهذا هو المناسب لخطبته فى ذلك الوقت الذى ألقى فيه الإسلام بجرانه فى أقطار المعمورة، وفتحت البلدان وأقبلت الدنيا بنعيمها، وبدأ الناس فى التنافس فيها وبخاصة غير أصحاب رسول الله ﷺ فكان المقال مناسبًا للمقام[٢]، وقد روى عثمان رضى الله عنه أحاديث عن رسول الله ﷺ انتفعت بها الأمة، فهذا أبو عبد الرحمن السلمى يحدثنا عن حديث سمعه من عثمان فعمل به، فعن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عثمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه[٣]، قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان حتى كان الحجاج، قال: وذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا، وفى رواية عن شعبة قال أبو عبد الرحمن: فذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا وكان يعلم القرآن[٤]، وكان عثمان رضى الله عنه يروى أحاديث رسول الله للمسلمين كل فى محله ومناسبته، ومن هذه الأحاديث:

١ ـ أهمية الوضوء:

توضأ عثمان على البلاط، ثم قال: لأُحدِّثنَّكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن الوُضوء، ثم دخل فصلى، غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها»[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٣).

(٢) الكفاءة الإدارية فى السياسة الشرعية، للقادرى، ص٩٣.

(٣) البخارى رقم ٥٠٢٨.

(٤) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحيى، ص٤٢٠، ٤٢١.

(٥) الموسوعة الحديثية مسند أحمد رقم ٤٠٠، إسناده صحيح.

٢ ـ اتباعه لرسول الله ﷺ فى الوضوء:

عن حمران بن أبان عن عثمان بن عفان: أنه دعا بماء فتوضأ ومضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثًا، وذراعيه ثلاثًا ثلاثًا، ومسح برأسه وظهر قدميه، ثم ضحك، فقال لأصحابه: ألا تسألونى عما أضحكنى؟ فقالوا: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بماء قريبًا من هذه البقعة، فتوضأ كما توضأت ثم ضحك، فقال: ألا تسألونى ما أضحكنى؟ فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: إن العبد إذا دعا بوضوء فغسل وجهه، حط الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك،وإن مسح برأسه كان كذلك، وإن طهّر قدميه كان كذلك[١].

٣ ـ كفارات الوضوء:

عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ من أتمّ الوضوء كما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ، فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن[٢].

٤ ـ الوضوء وصلاة ركعتين ومغفرة الذنوب:

دعا عثمان بماء وهو على المقاعد، فسكب على يمينه فغسلها، ثم أدخل يمينه فى الإناء فغسل كفيه ثلاثًا، ثم غسل وجهه ثلاث مِرارٍ، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرار، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ نفسه فيهما، غفر الله له ما تقدم من ذنبه[٣].

٥ ـ كلمة الإخلاص وكلمة التقوى:

قال عثمان رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ حقًا من قلبه إلا حُرِّم على النار. فقال له عمر بن الخطاب: أنا أحدثك ما هى؟ هى كلمة الإخلاص التى ألزمها الله ـ تبارك وتعالى ـ محمدًا ﷺ وأصحابه،

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد رقم ٤١٥ صحيح لغيره.

(٢) المصدر نفسه رقم ٤٠٦ إسناده صحيح.

(٣) المصدر نفسه رقم ٤١٨ إسناده صحيح.

وهى كلمة التقوى التى ألَاَصَ(١) عليها نبىُّ الله ﷺ عمه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا الله(٢).

٦ ـ العلم بالله يدخل العبد الجنة:

عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»(٣).

٧ ـ الحسنات والباقيات:

عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يومًا وجلسنا معه، فجاءه المؤذِّن، فدعا بماء فى إناء، أظنه سيكون فيه مُدٌّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: ومن توضأ وضوئى هذا، ثم قال فصلًّى صلاة الظهر، غفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلًّى العصر غُفر له ما بينها وبين صلاة الظهر، ثم صَلى المغرب غُفر له ما بينها وبين صلاة العصر، ثم صلًّى العشاء غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهُنَّ الحسنات يُذهبن السيئات. قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: هنَّ: «لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٤).

٨ ـ خطورة الكذب على رسول الله ﷺ:

عن عثمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعمد علىَّ كذبًا، فليتبوأ بيتًا فى النار»(٥).

هذه بعض الأحاديث التى رواها عثمان عن رسول الله ﷺ، وتدل على علم

(١) ألاصَ: أداره عليها، وراوده فيها.
(٢) مسند أحمد رقم ٤٤٧ إسناده قوى.
(٣) مسند أحمد رقم ٤٦٤ إسناده صحيح.
(٤) مسند أحمد رقم ٥١٣ إسناده حسن.
(٥) مسند أحمد رقم ٥٠٧ إسناده صحيح.

عثمان وحرصه على الاستزادة من الهدى النبوى، وفقه الشريعة الغراء.

ثانياً: الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم فى عدة مواضع من القرآن الكريم، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقد بلغ رضى الله عنه فى حلمه وعفوه الغاية المثالية، وكان الخليفة الراشد عثمان بن عفان شديد الاقتداء فى أقواله وأفعاله وأحواله برسول الله ﷺ، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه لنفسه، ومن أوضح المواقف التى تدل على حلمه قصته فى حصار الثائرين عليه حيث أمر مَنْ عنده منَ المهاجرين والأنصار أن ينصرفوا إلى منازلهم ويدعوه وكانوا قادرين على منعه، وكان حلمه مبنيًا على شوقه إلى لقاء ربه، وإرادته حقن دماء المسلمين ولو بقتله[١].

ثالثاً: السماحة:

عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين: أن عثمان رضى الله عنه اشترى من رجل أرضًا فأبطأ عليه، فلقيه فقال: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنك غبنتنى فما ألقى من الناس أحدًا إلا وهو يلومنى، فقال: أوذلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا ومقتضيًا»[٢]. فهذا مثل رفيع فى السماحة فى البيع والشراء وهو يدل على ما جبل عليه عثمان رضى الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التى من أهمها الإيثار، ولا تستعبده الدنيا، فتجعل منه أنانيًا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس[٣].

---

(١) الكفاءة الإدارية، ص٦٥.

(٢) مسند أحمد رقم ٤١٠ حسن لغيره.

(٣) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨/ ١٢٦).

رابعًا: اللين:

امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بأن رزقه صفة اللين رحمة منه به وبعباده.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أفادت الآية الكريمة أن صفة اللين رحمة من الله يرزق بها من يشاء من عباده وأن الرسول ﷺ قد رزق هذه الصفة رحمة من الله به وبعباده الذين بعثه إليهم، ويفهم من الآية أن المتصف باللين يحبه الناس ويلتفون حوله ويقبلون منه ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه(١)، فاللين من الصفات الطيبة التى اتصف بها عثمان رضى الله عنه، فكان رضى الله عنه لينًا على رعيته، عطوفًا على أمته يخاف أن يصاب أحد دون علمه فلا يتمكن من تلبية حاجته، وكان يتتبع أخبار الناس، فينصر الضعيف، ويأخذ الحق من القوى، رضى الله عنه.

خامسًا: العفو:

عن عمران بن عبد الله بن طلحة: أن عثمان بن عفان رضى الله عنه خرج لصلاة الغداة فدخل من الباب الذى كان يدخل منه، فزحمه الباب فقال: انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف فقال له عثمان رضى الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك. قال: سبحان الله، ويحك عَلامَ تقتلنى؟ قال: ظلمنى عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إلىَّ فإن لم أنصفك ـ أو أعديك : على عاملى أردت ذلك منى؟ فقال لمن حوله: ما تقولون؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، عدوٌّ أمكنك الله منه، فقال: عبد همّ بذنب فكفَّه الله عنى، ائتنى بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلَّى عنه(٢)، فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال فى الرجال، وهو دليل على التجرد من حظِّ النفس، وتقلص

---

(١) الكفاءة الإدارية، ص٦٩.

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨/ ٢٢) نقلاً عن تاريخ المدينة المنورة، ص١٠٢٧، ١٠٢٨.

الأنانية، وضعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة، وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه فى الآخرة فإنه سياسة حكيمة فى الدنيا، إذ إن هذا الرجل الذى أراد الاعتداء لو أنه قتل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار صدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة، لكن العفو عنه يجعل أفراد قبيلته وأبناء بلده يعذلونه ويعنفونه على ما حاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها، ويكسب صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم[١].

سادسًا: التواضع:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

جعل المولى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صفة التواضع أول صفات عباده المؤمنين، ولقد كان الخليفة الراشد عثمان متصفًا بهذه الصفة وكانت هذه الصفة تنبع من إخلاصه لله سبحانه وتعالى، فعن عبد الله الرومى قال: كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل، فقيل له: لو أمرت الخادم كفاك، قال: لا، الليل لهم يستريحون فيه[٢]، فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالرحمة، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه فى الليل ولا يوقظ الخدم، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين، وإن مما ينبغى للمسلم الذى سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة فى العمل، وله مشاعر وأحاسيس فينبغى له أن يراعى مشاعره، وأن ييسر له الراحة كاملة فى النوم، وأن لا يشق عليه بعمل[٣]، وكان رضى الله عنه من تواضعه واحترامه لعمّ النبى ﷺ إذا مر به وهو راكب نزل حتى يزول العباس احترامًا وتقديرًا له[٤].

(١) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨/ ٢٢).

(٢) فضائل الصحابة رقم ٧٤٢ إسناده صحيح وهو رواية أخرى.

(٣) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨/ ٦٢).

(٤) التبيين فى أنساب القرشيين، ص١٥٣.

سابعًا: الحياء والعفة:

الحياء من أشهر أخلاق عثمان رضى الله عنه وما أحلاها تلك الصفة النبيلة التى زينه الله بها، فكانت فيه منبع الخير والبركة، ومصدر العطف والرحمة، فقد كان رضى الله عنه من أشد الناس حياءً(١)، فقد ذكر الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عثمان ابن عفان يومًا وشدة حيائه، فقال: إنه ليكون فى البيت، والباب عليه مغلق، فما يضع عنه ثوبه ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يُقيم صلبه(٢)، ومن حيائه رضى الله عنه: ما روته بُنانة، وهى جارية لامرأته تقول: كان عثمان إذا اغتسل جئته بثيابه، فيقول لى: لا تنظرى إلىَّ، فإنه لا يحل لك(٣)، وقد وردت الأحاديث النبوية التى تحدثت عن حيائه وقد ذكرتُها فى موضعها؛ وأما عن عفته وبعده عن مساوئ الأخلاق فحدث فى ذلك بما شئت ولا حرج، فإنه رضى الله عنه لم يعرف طريق الفحشاء فى الجاهلية ولا فى الإسلام، يقول عثمان رضى الله عنه: ما تغنيت، ولا تمنيت(٤)، ولا مسستُ ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا فى الإسلام، ولا زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام(٥).

ثامنًا: كرمه:

كان عثمان رضى الله عنه من أكرم الأمة وأسخاها وله فى ذلك مواقف ومآثر لا تزال غرة فى جبين التاريخ الإسلامى، فقد مرّ معنا ما قام به فى غزوة تبوك، وشراؤه لبئر رومة وتصدقه به على المسلمين وتوسيعه للمسجد النبوى فى عهد النبى ﷺ وتصدقه بالقافلة المحملة بالخيرات فى عصر الصديق رضى الله عنه، وكان رضى الله عنه يعتق كل جمعة رقبة فى سبيل الله منذ أسلم فجميع ما أعتقه ألفان وأربعمائة رقبة تقريبًا(٦)

---

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٤٨، ٤٩.

(٢) صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، ص٤٣.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٩) خبر لا بأس به.

(٤) تغنيت: من الغناء. تمنيت: من التمنى والكذب واختلاق الباطل.

(٥) صحيح التوثيق، ص٤٤.

(٦) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمى (١/ ٣٢٧).

وقد رُوى أنه كان له على طلحة بن عبيد الله ـ وكان من أجود الناس ـ خمسون ألفًا، فقال له طلحة يومًا: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال له عثمان: هو لك معونة على مروءتك(١)، لقد كان سخاء عثمان وجوده صفة أصيلة فى شخصيته الفذة رضى الله عنه، فقد وظف أمواله فى خدمة دين الله فلم يبخل فى تأسيس الدولة الإسلامية، والجهاد فى سبيل الله تعالى، وخدمة المجتمع ابتغاء رضوان الله تعالى.

تاسعًا: شجاعته:

يعد عثمان رضى الله عنه من الشجعان والدليل على ذلك:

١ ـ خروجه للجهاد فى سبيل الله، وحضوره المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ:

وإذا اتُّهم بتخلفه عن بدر فقد سبق أن قلنا: إن ذلك كان بأمر من رسول الله ﷺ، ثم عدَّه رسول الله ﷺ من الذين شهدوها، وأعطاه سهمه منها، ونال أجره ـ إن شاء الله ـ وليس بعد كلام رسول الله كلام.

٢ ـ سفارةُ رسول الله ﷺ إلى قريش فى الحديبية:

امتثل عثمان رضى الله عنه ـ كما مر معنا ـ طلب الرسول ﷺ وذهب إلى قريش، وهو يعرف ما أقدم عليه، غير أن رجولته وبطولته قد أبتا عليه إلا الامتثال والطاعة.

إن من يقبل السفارة فى مثل تلك الظروف لشجاع عظيم، وبطل من الأبطال النوادر، صحيح أنها أمر من رسول الله ﷺ، ولكنها فى الوقت نفسه شجاعة لا يمكن أن يقبل بها جبان بل رجل عادى(٢).

٣ ـ الفداء بالنفس:

عندما حوصر رضى الله عنه فى داره، طلب منه المارقون التنازل عن الخلافة لا خيار غيره، أو القتل، أو عزل ولاته وتسليم بعضهم فأصر على موقفه، مضحيًا بنفسه من أن تصبح الخلافة بيد ثلة تُزيح من ترغب، وتُعيِّن من تحبّ، أو تنزع

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٧).

(٢) الأمين ذو النورين، ص١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

الخلافة من صاحبها الذى اختارته الأمة، ويصبح ذلك قاعدة[١]، فأصر على موقفه وهو يرى الموت فى سيوف المحاصرين، وإن الذى يقف هذا الموقف لهو الشجاع وإنه لصاحب حق، ولن يقف هذا الموقف رجل جبان أو محب للدنيا أبدًا، فالحياة عند هؤلاء الجبناء أفضل من المكانة ومن الدنيا كلها[٢]، ولكن هذا الإصرار العجيب والعزيمة النافذة، والشجاعة الفائقة من عثمان رضى الله عنه ثمرة إيمان قوى بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واليوم الآخر وقر فى قلبه، وجعله يستهين بكل شىء فى هذه الحياة حتى بالحياة نفسها[٣].

٤ ـ المال:

إن الجهاد بالنفس اقترن مع الجهاد بالمال، وربما قدم عليه، قال تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٥].

وهناك آيات كثيرة تقرن المال بالنفس، وإن الذى ينفق المال فى سبيل الله بسخاء إنما هو مجاهد وشجاع، وقد أنفق عثمان رضى الله عنه الكثير حتى قال رسول الله ﷺ: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين[٤].

لقد كان عثمان رضى الله عنه شجاعًا لا يهاب الموت، جريئًا يواجه الباطل فى تحدٍّ سافر، حليمًا لا يجهله حمق الحمقى[٥].

عاشرًا: الحزم:

إن صفة الحزم فى شخصية ذى النورين أصيلة، ونجد الصديق رضى الله عنه عندما عرض عليه الإسلام قال له: ويحك يا عثمان!! إنك رجل حازم، ما يخفى عليك

---

(١) الأمين ذو النورين، ص١٩٧.

(٢) الأمين ذو النورين، ص١٩٧.

(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، محمد الوكيل، ص٣٠٤.

(٤) سنن الترمذى رقم ٣٧٨٥.

(٥) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٠٤.

الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التى يعبدها قومنا [١]. ، وفى سنة ٢٦هـ زاد عثمان فى المسجد الحرام، ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان فى بيت المال، فصيَّحوا بعثمان، فأمر بهم بالحبس، وقال: أتدرون ما جرأكم علىّ؟ ما جرأكم علىّ إلا حلمى، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيِّحوا به، ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأخرجوا [٢]، ومن المواقف التى تدل على حزمه؛ حمايته لنظام الخلافة من الضياع، فلم يجب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة، فكان بذلك يمثّل الثبات واستمرار النظام؛ لأنه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه لأصبح منصب الإمامة العظمى ألعوبة فى أيدى المفتونين الساعين فى الأرض بالفساد، ولسادت الفوضى واختلّ نظام البلاد، ولكان ذلك تسليطًا للرعاع والغوغاء على الولاة والحكام، لقد كانت نظرة عثمان رضى الله عنه بعيدة الغور، فلو أجابهم إلى ما يريدون لسنّ بذلك سنّة، وهى كلما كره قوم أميرهم خلعوه، ولألقى بأس الأمة بينها، وشغلها بنفسها عن أعدائها وذلك أقرب لضعفها وانهيارها، على أنه لم يجد سوى نفسه يفدى بها الأمة، ويحفظ كيانها وبنيانها من التصدع، ويدعم بهذا الفداء نظامها الاجتماعى، ويحمى سلطانها الذى تُساس به من أن تمتد إليه يد العبث والفوضى، ومما لا شك فيه أن هذا الصنع من عثمان كان أعظم وأقوى ما يستطيع أن يفعله رجل ألقت إليه الأمة مقاليدها، إذ لجأ إلى أهون الشرين وأخف الضررين ليدعهم بهذا الفداء نظام الخلافة وسلطانها [٣]، وسيأتى بيان ذلك فى محله بإذن الله.

الحادية عشرة: الصبر:

اتصف عثمان رضى الله عنه بصفة الصبر ـ ومن المواقف الدالة على هذه الصفة، ثباته فى الفتنة، إذ كان موقفه إزاء تلك الأحداث التى ألمت به وبالمسلمين المثل الأعلى لما يمكن أن يقدمه الفرد من تضحية وفداء فى سبيل حفظ كيان الجماعة، وصون كرامة الأمة، وحقن دماء المسلمين، فقد كان بإمكانه أن يقى نفسه ويخلِّصها لو أنه

(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه، لصادق عرجون، ص٤٧.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٠).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤٧٤).

أراد نفسه ولم يرد حياة الأمة، ولو كان ذاتيًا ولم يكن من أهل الإيثار لدفع بمن هَبَّ للذود عنه من الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين عن طاعته، ولكنه أراد جمع شمل الأمة، ففداها بنفسه صابرًا محتسبًا وقد أعلن عثمان رضى الله عنه أنه سيواجه الفتنة العارمة بالصبر الجميل[١]، ممتثلاً قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن عثمان رضى الله عنه كان قوى الإيمان بالله، كبير النفس، نفَّاذ البصيرة، نبيل الصبر، حيث فدى الأمة بنفسه، فكان ذلك من أعظم فضائله عند المسلمين[٢]، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس على من نال من عرضه وعلى من سعى فى دمه، فحاصروه وسعوا فى قتله وقد عرف إرادته لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من يطيعه أن لا يقاتلهم. . وقيل له: تذهب إلى مكة؟ فقال: لا أكون ممن ألحد فى الحرم، فقيل له: تذهب إلى الشام؟ فقال: لا أفارق دار هجرتى، فقيل له: فقاتلهم، فقال: لا أكون أول من خلف محمدًا فى أمته بالسيف، فكان صبر عثمان حتى قُتل من أعظم فضائله عند المسلمين[٣].

الثانية عشرة: العدل:

واتصف عثمان رضى الله عنه بصفة العدل، فعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أنه دخل على عثمان رضى الله عنه وهو محصور فقال له: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وهو ذا يصلى بنا إمام فتنة ـ عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى ـ وأنا أتحرج من الصلاة معه، فقال له عثمان: إن الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم[٤]، وروى ابن شبة بإسناده؛ قال:

---

(١) سير الشهداء، للسختيانى، ص٥٧، ٥٨.

(٢) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤٧٢).

(٣) منهاج السنّة (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٤) البخارى رقم ٦٩٥.

دخل عثمان بن عفان على غلام له يعلف ناقة ، فرأى في علفها ما كره، فأخذ بأذن غلامه فعركها، ثم ندم؛ فقال لغلامه: اقتص؛ فأبى الغلام، فلم يدعه حتى أخذ بأذنه فجعل يعركها، فقال له عثمان: شد حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ منه، ثم قال عثمان رضي الله عنه: (واهًا لقصاص قبل قصاص الآخرة) [1].

الثالثة عشرة: عبادته:

كان عثمان رضي الله عنه من المجتهدين في العبادة، وقد روى من غير وجه أنه صلّى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه [2]، ولهذا روينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩] قال: هو عثمان بن عفان [3]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦] قال: هو عثمان [4]، وكان رضي الله عنه يفتتح القرآن ليلة الجمعة، ويختمه ليلة الخميس [5]، وكان رضي الله عنه يصوم الدهر ويقوم الليل إلا هجعة من أوله [6].

الرابعة عشرة: خوفه من الله وبكاؤه ومحاسبته لنفسه:

فقد جاء في إحدى خطبه: أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نوراً لقبره، وليخش أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً [7]، وقد روى عنه قوله: لو أني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

---

(١) أخبار المدينة (٣/ ٢٣٦).
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٧٦)، وتاريخ الإسلام عهد الخلفاء، الذهبي، ص٤٧٦.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٧٩).
(٥) علو الهمة (٣/ ٩٣).
(٦) صفة الصفوة (١/ ٣٠٢).
(٧) صحيح التوثيق، ص١٠٧.

وكانت روحه ترتجف وعبراته تفيض عندما يذكر الآخرة، وعندما يتخيل نفسه وقد انشق قبره ونسل من جدثه إلى العرض والحساب[١]، فعن هانئ مولى عثمان، قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار وتبكى من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «والله ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفظع منه»، قال: وكان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، ثم قال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له بالتثبيت فإنه الآن يُسأل»[٢]، وهذا من فقه القدوم على الله الذى استوعبه عثمان رضى الله عنه وعاش به فى حياته، وما أحوجنا إلى هذا الفقه العظيم الذى به تحيا النفوس وتتفجر الطاقات.

الخامسة عشرة: زهده:

اشتهر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بأنه من أهل الغنى والثروة، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين فى الدنيا، فعن حميد بن نعيم؛ أن عمر وعثمان رضى الله عنهما دُعيا إلى طعام، فلما خرجا قال عثمان لعمر: قد شهدنا طعامًا لوددنا أنا لم نشهده، قال: لِمَ؟ قال: إنى أخاف أن يكون صنع مباهاة[٣]، فهذا فقه من عثمان رضى الله عنه بمجالات السخاء الإسلامى، فالسخاء فى الإسلام لا يكون بالتفاخر بالكرم والتباهى بنوع الطعام أو كثرته، وإنما يكون ببذل المال من غير إسراف ولا خيلاء مع شكر المنعم - جل وعلا - والتواضع للناس، وهذه النظرة من عثمان تعتبر من التزهيد بالجاه الدنيوية، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين فى ذلك[٤]، ومن زهد عثمان رضى الله عنه وتواضعه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال: أخبرنى الهمدانى أنه رأى عثمان بن

(١) نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٢٠٥.
(٢) فضائل الصحابة رقم ٧٧٣ إسناده حسن.
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص١٢٦.
(٤) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨/ ٤٨).

عفان على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة[١]، وكذلك ما أخرجه من حديث الهمداني قال: رأيت عثمان نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[٢]، كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت[٣].

فهذه أمثلة جليلة من زهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وحينما يكون الزاهد متوسطًا في المعيشة فإن زهده لا يلفت النظر كثيرًا ولا يثير العجب، ولكن حينما يكون غنيًا فإن زهده يكون مدهشًا للمتأملين وعبرة للمعتبرين، ذلك لأن كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات، فلا بد ليكون الغني زاهدًا من استيعابه لفقه القدوم على الله حتى يكون مهيمنًا على نفسه مذكرًا لقلبه، فتكبر الآخرة في عينه وتصغر الدنيا في نفسه، وهكذا كان عثمان رضي الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قوة إيمانه شهوته وهواه، فكان من أعظم الزاهدين وضرب من نفسه مثلاً لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والزهد في الدنيا[٤].

السادسة عشرة: الشكر:

كان عثمان رضي الله عنه كثير الشكر لله تعالى باللسان والجنان والأركان، دعي ذات يوم إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة، شكرًا لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم[٥].

السابعة عشرة: تفقد أحوال الناس:

كان رضي الله عنه ودودًا رءوفًا يسأل عن أحوال المسلمين، ويتعرف مشكلاتهم، ويطمئن على غائبهم، ويواسي قادمهم، ويسأل عن مرضاهم، فقد روى الإمام أحمد

(١، ٢) الزهد، ص١٢٧.

(٣) الزهد، ص١٢٩.

(٤) التاريخ الإسلامي (١٧، ١٨/ ٤٩).

(٥) علو الهمة (٥/ ٤٨١).

عن موسى بن طلحة، قال: رأيت عثمان بن عفان وهو على المنبر، وهو يستخبر الناس يسألهم عن أخبارهم وأسعارهم [١]، وروى ابن سعد فى الطبقات عنه أيضًا قال: رأيت عثمان بن عفان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران، فيجلس على المنبر، فيؤذن المؤذن، وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم وعن قادمهم وعن مرضاهم [٢]، وكان رضى الله عنه يهتم بشئون الرعية، ويصل ذوى الحاجة، ويفرض العطاء للمواليد من بيت المال [٣]، فقد رُوى عن عروة بن الزبير قال: أدركت زمن عثمان وما من نفس مسلمة إلا ولها فى مال الله حق يعنى بيت المال [٤].

الثامنة عشرة: تحديد الاختصاصات:

المراد بتحديد الاختصاص تقسيم وظائف العمل على العاملين، بحيث يكون كل موظف عالمًا بالعمل الذى كلفه ليقوم به دون تقصير فيه، ولا يتجاوزه إلى عمل آخر مسند إلى سواه، وتقسيم الوظائف سنّة كونية ربانية عمل بها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، ففى عهد عثمان رضى الله عنه وزعت الوظائف والأعمال على المسلمين كل فى ميدانه كما سيأتى بيانه بإذن الله، ففى مؤسسة القضاة، والمال، والجيش، وولاية الأمصار ظهرت الصفة القيادية فى تحديد الاختصاصات عند الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه، فقد تم تقسيم الأعمال وحددت قواعد بين العاملين كانت من أهم عوامل النجاح فى دولة الخلفاء الراشدين، وبذلك تعامل الخليفة الراشد عثمان مع السنتين الكونية والشرعية فى تحديد الاختصاصات [٥].

التاسعة عشرة: الاستفادة من أهل الكفاءات:

إن الإشادة بالأكفاء وإرشاد الأمة إلى احترامهم، وتكريمهم ووضعهم فى مواضعهم وعدم هضمهم حقوقهم، والاستفادة من طاقاتهم واختصاصاتهم، إن ذلك مما جعل

---

(١) فضائل الصحابة رقم ٨١٢ إسناده صحيح.
(٢) الطبقات (٣/ ٥٩).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٩٦).
(٤) المصنف فى الحديث لابن أبى شيبة (٣/ ١٠٢٣).
(٥) الكفاءة الإدارية، ص١١٧

أهل القرون المفضلة من سلف هذه الأمة ينالون العز والمجد والتمكين فى هذه المعمورة[١]، وقد ظهرت هذه الصفة فى شخصية عثمان رضى الله عنه عندما استفاد من كفاءات زيد بن ثابت واللجنة التى عينت معه فى جمع القرآن على حرف واحد.

هذه بعض الصفات التى لاحظتها فى شخصية عثمان رضى الله عنه، وهى محل قدوة وأسوة لقادة المسلمين وعوامهم لمن يريد أن يتبع هدى النبى ﷺ والخلفاء الراشدين فى هذه الحياة.

إن معرفة صفات الخلفاء الراشدين ومحاولة الاقتداء بهم، خطوة صحيحة لمعرفة صفات القادة الربانيين الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، فمن أسباب التمكين لهذا الدين العمل على إيجاد قادة ربانيين، جرى الإيمان فى قلوبهم وعروقهم وانعكست ثماره على جوارحهم وتفجرت صفات التقوى فى أعمالهم وسكناتهم وأحوالهم، فالقيادة الربانية الحكيمة هى التى تسعى لتحكيم شرع الله، وتفجير طاقات الأمة وتوجيهها وهى التى تحتضن الإسلام وتنهجه قلبًا وقالبًا، وجوهرًا ومنظرًا، وعقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وهى التى تصبح وتمسى وهمها عقيدتها وأمتها، وهى التى تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التى تواجهها وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية والخارجية.

* * *

(١) المصدر نفسه، ص١٥٧.

الفصل الثالث

المؤسسة المالية والقضائية فى عهد عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

المؤسسة المالية

لما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة لم يغير من سياسة عمر المالية، وإن كان قد سمح للمسلمين باقتناء الثروات وتشييد القصور وامتلاك المساحات الشاسعة من الأراضى، فقد زالت عن المسلمين شدة عمر والتى كانت ترهبهم وتخيفهم، والتى كانت تحول دون الكثير مما يشتهون، وكان عهده عهد رخاء على المسلمين [1].

أولاً: السياسة المالية التى أعلنها عثمان عندما تولى الحكم:

وجه عثمان رضى الله عنه كتابًا إلى الولاة، وكتابًا آخر إلى عمال الخراج، وأذاع كتابًا على العامة، وقد ذكرت نصوصها عند حديثى عن منهجه فى الحكم، وفى ضوء تلك النصوص تكون عناصر السياسة المالية العامة التى أعلنها ثالث الخلفاء الراشدين قد قامت على الأسس العامة التالية:

* تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية.
* عدم إخلال الجباية بالرعاية.
* أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين.
* إعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين.

---

(١) مبادئ الاقتصاد الإسلامى، لسعاد إبراهيم صالح، ص٢١٧.

* أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق، وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم.

* تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء.

* تفادى أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة[1].

ونفصل فيما يلى هذه الأسس:

١ ـ نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة:

مما لا شك فيه أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان عزم على تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية، فقد بويع رضى الله عنه على أساس تطبيق حكم الله وسُنَّة رسوله وسياسة الخليفتين قبله، وقد طبق أبو بكر رضى الله عنه ما نزل به القرآن وما سَنَّهُ رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالسياسة المالية وغيرها من الأحكام، وقام عمر بتطوير المؤسسة المالية ونظَّم قواعدها وأرسى مبادئها وزاد مواردها ورشَّد إنفاقها، ونهج عثمان طريقهم، واجتهد فى بعض الأمور القابلة للاجتهاد، فنفذ حكم الله فى الأرض فى قضايا الأموال وغيرها، فأشرف على دفع الزكاة لبيت المال، وتوزيعها على مستحقيها. وأهل الكتاب فى دفعهم الجزية لبيت مال الدولة الإسلامية يدخلون فى ذمتها تحميهم وتوفر لهم الأمان وتضفى عليهم سائر خدماتها العامة، والمجاهدون يغنمون الأموال ويرسلون خُمسها لبيت مال المسلمين، ويقوم بيت المال بتوزيعها على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرها من وجوه الإنفاق طبقًا لقوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأنفال: ٤١] وغير ذلك من مصادر الدولة المعروفة، وقد تميزت المالية العامة فى عهد ذى النورين والخلفاء الراشدين، بأنها مرتبطة بالإسلام وتطبيق تعاليمه وتحمى إيراداته، ويساند الإنفاق العام فيها على نشر راية الإسلام وخير المسلمين وهى مرشدة للإنفاق لأن تعاليم الإسلام تمنع الإسراف وتحاربه والله لا يحب المسرفين، وتمنع

(١) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، قطب إبراهيم، ص٦١.

السفهاء من التحكم فى الأموال، وهى مالية عامة خيرة؛ لأن بعض مواردها العامة توجه للبنية الضعيفة من الرعية، وهى نقية من الدنس، ولا تتضمن مواردها كسبًا من حرام؛ لأن الله لا يبارك الكسب الحرام.

٢ ـ عدم إخلال الجباية بالرعاية:

ينبه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى كتابه للولاة أن جباية أموال بيت المال كادت تطغى على الواجب الأول للولاة وهو رعاية الرعية، وذلك أن الجباية أحد واجبات الرعية المكلف بها رئيس الدولة الإسلامية فلا يصح أن تطغى على سائر الواجبات[1]، وقد استنبط الفقهاء من الهدى النبوى والعهد الراشدى تكاليف الرعاية أى واجبات الخليفة لتحقيق رعاية الأمة كما يلى:

قال الماوردى: والذى يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.

والثانى: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النّصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس فى المعاش وينتشروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرّمًا أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى فى إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

---

(١) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، ص٦٢.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه نصًا واجتهادًا، من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة(١)، وبإيجاز فإن واجبات الخليفة تتفرع عن شرطى عقد البيعة وهما حراسة الدين وسياسة الدنيا(٢) اللذين هما مهمة الرسول ﷺ الذى هو خليفته، وإن كان الماوردى والفراء المتعاصران قد تطابقت تحديداتهما لواجبات الإمام، فإنما ذلك اجتهاد منهما حسب حاجة الأمة فى عصرهما، ولا ينبغى أن تقتصر حقوق الأمة على ما عدده عالم من علمائها أو أكثر مهما بلغ من فضل وسعة علم ومهما كانت نظرته للموضوع شاملة هذا إن كان العالم معاصرًا، فكيف إن كانت آراؤه واجتهاده قد سبقتا بقرون(٣)، ولذا فينبغى أن تحدد واجبات الإمام بناءً على الشرطين العامين لصحة عقده وهما حراسة الدين وسياسة الدنيا، وينبغى أن تقوم لجان من علماء الأمة بتحديد ذلك لأهل زمانهم(٤).

هذه بعض تكاليف الرعاية كما أوردها الفقهاء، وهى قابلة للتطوير بما يلائم تطور الأزمان والعصور بحيث لا يخالف التطوير نصًا من نصوص القرآن أو حكمًا من أحكام الدين(٥).

---

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص١٦، ١٧.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص١٩١.
(٣) الخلافة بين التنظير والتطبيق، محمد المرداوى، ص٦٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٣.

٣ ـ أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين:

عمال الخراج نواب عن الدولة فى استئداء حقوق بيت المال، فإذا ما أخذوا ما على المسلمين بالحق أدوا واجبهم المنوط بهم، وإذا غالوا فى جباية حقوق بيت المال، ظلموا الممولين وألحقوا بهم الضرر وحمَّلوهم فوق ما يطيقون، والرسول ﷺ يحذر من المغالاة فى استئداء حقوق بيت المال، فقد نهى عن جباية كرائم الأموال فى الزكاة، وأمر بالتخفيف فى استئداء زكاة الثمر [١].

٤ ـ إعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق:

عطاء بيت المال للمسلمين إما أن يكون مباشرًا كصرف الزكاة للمستحقين لها وما يقضى به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين، أو يكون العطاء العام غير مباشر يتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للرعية، وهذه ينفق عليها من بيت مال المسلمين، وفى كلا العطاءين ينبغى أن يتسم العطاء بالحق، فلا يجوز فى العطاء المباشر أن تخالف الأسس التى تحددت لوضعه محاباة لبعض الأفراد أو حرمانًا أو نقصانًا للبعض الآخر دون مبرر، ولا يجوز أن يتأخر العطاء عن موعده بسبب تعقد الإجراءات أو كثرة الحجب التى تحجب أرباب الظلامات عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء لبحث ظلامتهم من تأخير العطاء أو قلته أو عدم وصوله إليهم، ولا يجوز فى العطاء غير المباشر المتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للشعب أن تكون المنفعة لفردٍ معين، بل يجب أن يعود نفعها على الأمة جمعاء [٢].

٥ ـ عدم ظلم أهل الذمة وأخذ ما عليهم لبيت المال بالحق، وإعطاؤهم حقوقهم بالحق كذلك:

لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند أخذ الجزية منهم؛ لأن أهل الكتاب من الذميين الذين يقيمون فى الدولة الإسلامية وهم فى ذمتها ورعايتها ما داموا يؤدون الجزية، وقد أوصى بهم رسول الله ﷺ فقد ولى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة،

---

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

فلما ولى عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»(١). واستنادًا لذلك فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين موته: أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرًا، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم(٢).

فإذا آذى عمال الجزية الذميين أو كلفوهم فوق طاقتهم أو عذبوهم، أو أخذوا الجزية من الشيخ الكبير الذى لا شىء له ولا يستطيع العمل، أو أخذوها من الذمى الذى أسلم، كان هذا لونًا من ألوان الظلم الذى نبه الخليفة الثالث فى كتابه عمال الخراج بعدم ارتكابه مستندًا فى ذلك لتعاليم الرسول ﷺ(٣).

هذا وعلاوة على الجزية يؤدى أهل الذمة الذين يزرعون أرض الخراج، وهى التى آلت للدولة الإسلامية كغنيمة نتيجة للفتح الإسلامى، ما يستحق عليها من خراج لبيت مال المسلمين، ويجب أن يراعى عمال الخراج الحق فى تحديد قيمته المستحقة على الأراضى التى يزرعها أهل الذمة، وذلك بمراعاة العوامل التى تحكم تحديده؛ لأن إغفالها كلها أو بعضها يوقع الظلم بأهل الذمة الذين يزرعونها وهذه العوامل أربعة:

* ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها.

* ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه.

* ما يختص بالسقى والشرب لأن ما التزم المئونة فى سقيه النواضح والدوالى لا يحتمل من الخراج ما يحتملة سقى السيوح والأمطار.

* أن لا يستقضى فى وضع الخراج غاية ما تحمله ليجعل فيها لأرباب الأرض بقية يجبرون بها فى النوائب والجوائع(٤).

هذا، وإذا كانت الدولة الإسلامية قد أبرمت عهدًا أو عقدت صلحًا مع أهل

(١) المنتخب من السنة، ص٢٦١.
(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٧.
(٣، ٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٧.

الكتاب، فواجب الدولة الإسلامية وعمال خراجها أن يلتزموا بما ورد بها من شروط، ومنها الشروط التى تحدد قيمة ما يدفعونه من جزية أو خراج؛ لأن المسلمين إذا أبرموا عقدًا أو عهدوا عهدًا التزموا بالوفاء بالعقود والعهود(١) .

٦ ـ عدم ظلم اليتيم:

لليتيم حقوق فى المال العام بنصوص القرآن الكريم، فهو من المستحقين لأموال الزكاة إن كان فقيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] .

ولليتيم نصيب فى خمس الغنائم تطبيقًا لقوله جل وعلا: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] ، ولليتيم نصيب فى عطاء بيت المال فقد كان يفرض للأطفال عمومًا ومنهم يتامى الأطفال، وإذا كان اليتيم غنيًا فيؤدى الزكاة المفروضة على أمواله إذا توفرت، وواجب المُصَدِّق أن يأخذ الزكاة بالحق والعدل حتى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم أو جزء منه بغير وجه حق(٢) .

٧ ـ تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] . وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] .

طالب الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه عمال الخراج أن يتحلوا بالأمانة وهى صفة لازمة لجميع من يشتغلون بالأموال العامة، وإذا لم تتوفر فيهم هذه الصفة جاروا على حقوق بيت المال، وجاروا على الممولين، وانتكست العلاقة بين

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٧.
(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٦٨.

بيت المال والممولين، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تنبه وتحض على التزام الأمانة، وطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلوا بالوفاء، وقد ورد الوفاء مطلقًا فى كتاب الخليفة فيشمل: الوفاء لبيت المال بمراعاة أخذ حقوقه كاملة من الرعية، والوفاء للممولين بعدم ظلمهم بالمغالاة فى تحديد الفرائض المالية المطلوبة منهم، والوفاء لأهل الذمة بالرفق وحسن المعاملة وتطبيق ما تضمنته شروط الصلح معهم من جزية وخراج دون زيادة(١).

٨ ـ أثر تكامل النعم على مسار الأمة:

لم يرد عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يترك العامة دون تبصيرهم، فحذرهم من أن تجذبهم الدنيا إلى ملاذها ومتاعها، وخشى أن أمر الأمة صائر إلى الابتداع بعد أن توفرت لهم ثلاث وهى: تكامل النعم، وبلوغ أولاد السبايا، وقراءة الأعاجم(٢)، فعثمان رضى الله عنه أدرك أن تكامل النعم لدى البعض سيميل بأولى النعم عن المسار السليم؛ لأن تكامل النعمة بزيادة الأموال لدى أفراد الرعية قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على الترف والفساد(٣)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦]

٩ ـ المقارنة بين السياسة العمرية والعثمانية:

هذه السياسة المالية التى أعلنها ذو النورين تكاد تتفق مع السياسة العامة المالية التى نفذها الفاروق حين ولى أمر المسلمين، فقد أعلن ونفذ: أن المال العام لا يصلحه إلا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع فى الباطل(٤)، فالسياسة العمرية والعثمانية فى المال تنبعان من مشكاة واحدة وهى مشكاة الإسلام ومبادئه وأصوله وقواعده(٥).

(١) المرجع نفسه، ص٦٩.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).
(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٧٠.
(٤) السياسة المالية لعمر بن الخطاب، قطب إبراهيم محمد، ص٢٣ وما بعدها.
(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٧٦.

ثانيًا: توجيهات عثمانية توضح للناس قواعد زكاتهم:

قال عثمان رضى الله عنه: هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤده حتى تخرجوا زكاة أموالكم، ومن لم تكن عنده لم تطلب منه، حتى يأتى بها تطوعًا، ومن أخذ منه حتى يأتى هذا الشهر من قابل، قال إبراهيم بن سعد: أراه يعنى شهر رمضان[١]، وقال أبو عبيد: وقد جاءنا فى بعض الأثر أن هذا الشهر الذى أراده عثمان هو المحرم[٢]. وبهذا القول أكد عثمان رضى الله عنه المبادئ التالية:

أ ـ مبدأ سنوية الزكاة؛ إذ يشترط لأداء الزكاة ما عدا زكاة الزروع حولان الحول، ويظهر ذلك من قول عثمان: أن من أخذ منه لا يؤدى زكاة عن أمواله حتى يأتى نفس الشهر فى السنة التالية فلا تتكرر عليه الزكاة فى عام واحد.

ب ـ إذا أخذنا بقول أبى عبيد أن الشهر الذى قصده عثمان هو شهر المحرم، فكأنه أراد أن تكون السنة المالية الإسلامية مطابقة للسنة الهجرية، فعلى المسلمين بعد مرور سنة هجرية كاملة على ما لديهم من أموال أن يسددوا ما عليها من زكاة فى أول السنة الهجرية التالية وهو شهر المحرم إذا توفرت شروطها.

جـ ـ ويدعو عثمان بن عفان رضى الله عنه الناس إلى حساب وعاء الزكاة، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتى تؤخذ الزكاة على الباقى[٣]؛ ولعل عثمان أراد أن يستحث الناس على أداء ما عليهم من ديون وفاء منهم للدائنين وتسهيلاً لحساب المال الخاضع للزكاة، وحتى يقطع بجدية الدين وعدم تطرق الصورية إليه[٤]

د ـ يقول عثمان رضى الله عنه: ومن لم تكن عنده لم تطلب منه حتى يأتى بها تطوعًا. وبذلك يفتح عثمان بن عفان الدعوة إلى التطوع فقد يرى بعض المسلمين أنه لا يستحق عليهم زكاة ومع ذلك يرون التطوع بأداء صدقات من أموالهم يؤدونها لبيت

(١) الأموال، لأبى عبيد، ص٥٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٣٥.
(٣) السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، ص٧٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٧٦

المال، فيقبلها منهم ويضمها إلى موارد الزكاة وتصرف الدولة منها على نفس مصارف الزكاة[١]، وقد يكون قول عثمان رضى الله عنه: ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتى يأتينا بها تطوعًا، أنه يقصد أن لا يجبى بيت المال صدقة الذهب والفضة إلا إذا أتى بها صاحبها لبيت المال، وأما الصدقة التى يكره الناس عليها ويجاهدون على منعها فهى صدقة الماشية والحرث والنخل، وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزكاة على ما يعرف بالأموال الباطنة، وهى أموال الذهب والفضة والتجارة، ولا يقبلها منهم إلا إذا أتى بها صاحبها تطوعًا[٢]، يقول فى ذلك أبو عبيد: ألا ترى أن رسول الله ﷺ قد كان يبعث مصدقيه إلى الماشية فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرضا، وكذلك كانت الأئمة بعده، وعلى منع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر، ولم يأت عن النبى ﷺ ولا عن أحد بعده أنهم استكرهوا الناس على صدقات الصامت، إلا أن يأتوا بها غير مكرهين، وإنما هى أماناتهم يؤدونها فعليهم فيها أداء العين والدين لأنها ملك أيمانهم وهم مؤتمنون عليها، وأما الماشية فإنها حكم يحكم بها عليهم، وإنما تقع الأحكام فيما بين الناس على الأموال الظاهرة وهى فيما بينهم وبين الله على الظاهرة والباطنة جميعًا[٣].

١ ـ رأيه فى زكاة دين الدائن:

عن السائب بن يزيد أن عثمان كان يقول: إن الصدقة تجب فى الدين الذى لو شئت تقاضيته من صاحبه، والذى هو ملىء تدعه حياء أو مصانعة ففيه الصدقة[٤].

وعن عثمان رضى الله عنه قال: زكه ـ يعنى الدين ـ إذا كان عند الملىء[٥].

فمن هذين القولين لعثمان بن عفان يبين أن الصدقة واجبة على الدين للدائن على المدين الملىء ويستطيع أن يحصل من المدين على دينه، ولكن يستحى أن يذكر المدين

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٧.

(٢) الأموال، لأبى عبيد، ص٥٣٧.

(٣، ٤) الأموال، لأبى عبيد، ص٥٣٧.

(٥) المنتخب من السنة (٦/ ١٠٣).

به أو أن الدائن يدع دينه للمدين مصانعة له، والمصانعة تعنى سكوت الدائن عن المطالبة بدينه نظير منفعة يحصل عليها من المدين[١].

٢ ـ اقتراضه من مصارف الزكاة وإنفاقه للمصالح العامة:

أخذ عثمان رضى الله عنه من أموال الزكاة، فأنفق منها فى الحرب وفى غير الحرب على المرافق العامة، فأنفق على الجهاد على أن يرد ذلك إذا اتسع المال لرده، ومن حق الإمام أن يقترض من مصرف لمصرف، لا يخالف بذلك الدين ولا يغير سنة موروثة ما دام مصممًا على أن يرد على أموال الصدقة ما أخذ منها[٢]، وتذهب بعض الآراء إلى أن أحد مصارف الزكاة وهو مصرف فى سبيل الله يعطى للغازى فى سبيل الله من أموال الزكاة؛ لأن انقطاعه للجهاد أقعده عن العمل والكسب، وليس هذا من باب التشجيع على البطالة فهذا الصنف قد آثر مصلحة الإسلام على مصلحة نفسه، وترك العمل لشخصه يعمل فى مجال أرحب وأوسع وهو العمل لإعلاء كلمة الله ونشر دينه فى المعمورة، ويرى بعض العلماء جواز صرف الزكاة فى المنافع العامة وما تقتضيه حاجات الأمة[٣].

٣ ـ الإنفاق من الزكاة على الطعام للفقراء وأبناء السبيل:

سنّ عثمان رضى الله عنه سنة جديدة، فكان يضع الطعام فى المسجد فى رمضان، وقال: للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد وابن السبيل والمعترين[٤]، والخليفة عثمان رضى الله عنه بذلك يكرم المسلمين من بيت المال، وفى ذلك اقتداء بالرسول ﷺ الذى كان أجود الناس وأجود ما يكون فى رمضان، وهذه السنة التى استنها عثمان ترغب المسلمين فى الاعتكاف فى المساجد، ما دام أكلهم معدًا، وفى ذلك تشجيع على إحياء سنة الرسول الكريم ﷺ فى الاعتكاف[٥].

---

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٧٩.
(٢) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه ص ٨٠.
(٣) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٨١.
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥). والمعتر: الفقير، المعترض للمعروف بدون سؤال.
(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان رضى الله عنه، ص٨٢، ٨٣.

٤ ـ إنشاء منازل للضيافة من أموال الزكاة:

بلغ عثمان أن أبا سمال الأسدى ومعه نفر من أهل الكوفة ينادى مناد لهم إذا قدم الميار[١]، أن من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزل فمنزله على أبى سمال، فاتخذ عثمان بعض الدور كمنازل للضيافة، ينزل بها الغرباء ممن ليس لهم منزل، ومن هذه الدور منزل عبد الله بن مسعود فى هذيل، وكان الأضياف ينزلون داره فى هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد[٢].

٥ ـ العطاء من بيت المال لكل مملوك:

مما زاد عثمان رضى الله عنه على يده أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة من كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم[٣]، والغالب على أن مصدر هذه الأموال التى وزعها عثمان على كل مملوك هو أموال الزكاة، باعتبار أن لهم فيها نصيبًا لأنهم أحد الثمانية مصارف التى حددتها آية الزكاة وهى مصرف: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠][٤].

ثالثًا: خمس الغنائم:

بدأ الجهاد فى عهد الرسول ﷺ واستمر فى عهد أبى بكر وعمر، وكذلك فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، وكانت نتيجة ذلك انتشار الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرة حققت غنائم كثيرة إلى بيت المال منها: الخمس، كما أنه آل إلى بيت المال جزية من آثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب، فهناك ارتباط إذًا بين بيت المال والفتوحات الإسلامية، فقد قام بيت المال فى عهد عثمان بتمويل هذه الفتوحات سواء بما كان يدفعه للجنود من مرتبات أو لشراء الأسلحة والعتاد بجانب التطوع بالأموال والأنفس، وإذا تحقق النصر فرضت الجزية

(١) الميار: جمع مائر، وهو جالب الميرة، والميرة: الطعام.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٣).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٥).

(٤) السياسة المالية لعثمان، ص٨٤.

على من لم يسلم من أهل الكتاب والخراج على الأرض التى أخذت عنوة، وإذا أسلم أهل البلاد سددوا الزكاة إذا بلغت أموالهم نصابًا وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الإسلام ولا يكمل إسلام المسلم إلا بأدائها، وهذه كلها تساهم فى زيادة الإيرادات العامة للدولة الإسلامية، وأحل الله للمسلمين غنائم الحرب ويوزع أربعة أخماسها بين الفاتحين والخمس الباقى يؤول لبيت مال المسلمين[1].

وفيما يلى بعض المسائل التى أسفر عنها تطبيق السياسة المالية العامة فى عهد عثمان ابن عفان بشأن خمس غنائم الفتوحات:

١ ـ لم يسهم للصبى من الغنائم فى عهد عثمان بن عفان:

عن تميم بن المهرى قال: شهدت فتح الإسكندرية فى المرة الثانية، فلم يسهم لى حتى كاد أن يقع بين قومى وبين قريش منازعة، فقال بعض القوم: أرسلوا إلى بصرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى، فإنهما من أصحاب رسول الله ﷺ فاسألوهما عن هذا، فأرسلوا إليهما فسألوهما، فقالا: انظروا فإن كان أنبت[2]، فأسهموا له، فنظر إلىَّ بعض القوم فوجدونى قد أنبت فأسهموا لى[3].

ومعنى ذلك أنه لا يسهم للصبى ولا للمرأة، إنما يرضخ لهم أى يعطون شيئًا قليلاً لمساعدتهم فى غزوات المسلمين، وهذا ما كان يطبق فى عهد رسول الله ﷺ[4].

٢ ـ السلب للقاتل فى عهد عثمان كما كان فى عهد رسول الله ﷺ:

السلب هو ما كان على القتيل فى الحرب وما كان من سلاح وما كان تحته من فرس، وقد قضى رسول الله ﷺ بالسلب للقاتل، فعن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: من قتل قتيلاً له بيّنة فله سلبه[5]، ومفاد هذا الحديث أنه لا يستحق

---

(١) السياسة المالية لعثمان، ص٨٦، ٨٧.
(٢) أنبت أى ظهر شعر فى وجهه.
(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص١٢١.
(٤) السياسة المالية لعثمان، ص٩٣.
(٥) البخارى، كتاب المغازى، رقم ٤٣٢٢.

للقاتل فى السلب إلا بعد أن يقيم البينة على أنه هو الذى قتله، حتى إذا تنازع اثنان كلّ منهما يدعى أنه قتله فالسلب لمن يقيم البينة منهما [١].

وقد حدث بعد انتقاض الإسكندرية وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى وأرسوا بالإسكندرية وتركهم عمرو حتى يسيروا إليه فيصيبون من مروا به فى البلاد فيخزى الله بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورهم، ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم فى البر والبحر، فحاربوا بالنشاب ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم والذين فى البر واستمروا فى حرب النشاب، وبرز بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا إلى البراز، فبرز له رجل من زبيد يقال له (حومل) يكنى أبا مذجح، فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف وألقى (حومل) رمحه وأخذ بسيفه، وجعل عمرو يصيح: أبا مذجح فيجيبه: لبيك. والناس على شاطئ النيل فى البر على تعبئتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيفين، ثم حمل عليه البطريق فاحتمله، ثم أخذ (حومل) خنجراً كان فى منطقته أو فى ذراعه فضرب به نحر عدوه، فأوتر قوته فأثبته، ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات (حومل) بعد ذلك بأيام - رحمة الله عليه - ثم شد المسلمون حتى ألحقوه بالإسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى [٢].

٣ - قيمة الغنائم ونصيب بيت المال فى أحد فتوحات عثمان:

من حديث عبد الملك بن مسلمة عن غيره قال: غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية فقسم بيننا الغنائم بعد إخراج الخمس، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار وللراجل ألف دينار، فقسم لرجل من الجيش توفى بذات الحمام فدفع لأهله بعد موته ألف دينار [٣]، ومن حديث لعثمان بن صالح وغيره قال: فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفًا، ومن المعروف أن يؤول الخمس

(١) السياسة المالية لعثمان، ص٩٣.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص١١٩، ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٥.

لبيت المال استنادًا إلى قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقد رفع نصيب الرسول ﷺ وذى القربى فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ ووجه إلى السلاح والكراع وسايره عمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعده فى التطبيق وكذا عثمان بن عفان رضى الله عنه، والأربعة أخماس الباقية من الغنائم توزع على الفاتحين بنسبة ٣ للفارس وفرسه، و١ للراجل، فمن الحديثين السابقين يمكن حساب قيمة الخمس الذى آل لبيت المال وكذلك قيمة الغنائم كلها، فبافتراض أن الفوارس عشر الجيش الذى بلغ عشرين ألفًا وأن الباقين من الراجلين يكون الحساب كالآتى:

٢٠٠٠ فارس × ٣٠٠٠ دينار = ٦٠٠٠,٠٠٠ دينار

١٨٠٠٠ رجل × ١٠٠٠ دينار = ١٨٠٠٠,٠٠٠ دينار

مجموع ما خص المحاربين = ٢٤ مليون دينار وهو ما يمثل أربعة أخماس قيمة الغنائم، ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أى = ٦مليون دينار، ويكون مجموع ما غنمه المسلمون = ٣٠ مليون دينار[1].

٤ ـ الإنفاق العام من خمس الغنائم:

ينفق خمس الغنائم طبقًا لنص الآية للرسول ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ بحق الخمس لكل منهم، وأن بعد موت الرسول ﷺ آل نصيبه ونصيب ذى القربى إلى بيت المال لينفق منها على الكراع والسلاح، وقد استنفد الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه نصيب رسول الله ﷺ وذى القربى الذى آل إلى بيت المال على الإنفاق على الكراع والسلاح لكثرة الفتوحات التى تمت فى عهده وما استلزمته من أسلحة وخيول[2].

---

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.

٥ ـ نجاح السياسة المالية فى تمويل فتوحات الإسلام فى عهد عثمان:

من ضمن التحديات التى واجهها عثمان رضى الله عنه انتكاس بعض البلاد المفتوحة، واستطاع عثمان رضى الله عنه إجبار البلاد التى نقضت العهد على الالتزام بعهودها مع الدولة الإسلامية والانصياع لحكمها، وفى ضوء ما تم من فتوحات جديدة فإنه يمكن القول إن تنفيذ السياسة المالية فيما يتعلق بهذه الفتوحات قد أسفر عن قيام المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان بالمطلوب منها، سواء من ناحية تمويلها لهذه الفتوح، أو بما حققته الانتصارات من غنائم كثيرة حصل بيت المال على نصيب منها، أو من موارد أخرى وهى زكاة من أسلم من أهل الأمصار وجزية من أبى الإسلام من أهل الكتاب وخراج أراضيهم [(١)].

رابعًا: الإيرادات العامة من الجزية فى عهد عثمان رضى الله عنه:

١ ـ استقرار المسائل الفنية للجزية فى عهد عثمان رضى الله عنه:

استقرت أحكام الجزية وقواعدها ونظام تطبيقها وتحصيلها فى عهد عمر بن الخطاب، ولذلك كان دور بيت المال فى عهد عثمان أن يتلقى ما يتم تحصيله من جزية بعد الاتفاق على قيمتها، وأن تقر الدولة ما تم عقده من صلح فى عهود سابقة أو إقرار صلح جديد، وأن تتكفل الدولة لمن أدوا الجزية بالحقوق التى تترتب على هذا الأداء [(٢)].

٢ ـ نماذج مما آل لبيت المال من إيرادات الجزية:

أ ـ غزا الوليد بن عقبة فى إمارته على الكوفة فى عهد عثمان أذربيجان وصالح أهلها على ثمانمائة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر فوطئهم بالجيش وانقادوا له وقبض منهم المال [(٣)].

---

(١) السياسة المالية لعثمان، ص٩٩.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص١٠٣.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٦).

ب ـ لما وجه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقية كان الذى صالحهم عليه بطريق إفريقية جرجير ألفى ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان الذى صالحهم عليه عبد الله ثلاثمائة قنطار ذهب (ولعل ذلك يعادل المبلغ الأول)[١].

جـ ـ صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين[٢].

د ـ صالح سعيد بن صالح أهل جرجان وكان يجبون أحيانًا مائة ألف ويقولون: هذا صلحنا، وأحيانًا مائتى ألف وأحيانًا ثلاثمائة ألف[٣].

هـ ـ غلب عبد الله بن عامر على نيسابور وخرج إلى سرخس، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم ابن حاتم الباهلى فصالح مرزبان مرو على ألفى ألف، وقال آخر صالحهم على ستين ألف درهم[٤].

و ـ سار الأحنف بن قيس إلى بلخ فحاصرهم فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضى منهم بذلك واستعمل ابن عمه وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه[٥].

٣ ـ عثمان بن عفان ينفذ كتاب الرسول ﷺ لأهل نجران:

كان النبى ﷺ قد أقر أهل نجران على شروط اشترطها عليهم واشترطوها هم، وكتب لهم بذلك كتابًا يوضح هذه الشروط، ومنها دفعهم الجزية ومقدارها، ثم جاءوا بعد الرسول ﷺ فكتب لهم أبو بكر رضى الله عنه كتابًا بهذه الشروط، ثم جاءوا من بعد أن استخلف عمر رضى الله عنه إليه وكان عمر قد أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق؛ لأنه خافهم على المسلمين وكتب لهم كتابًا[٦]، فلما قبض

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٥).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٦١).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٢٦١).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣١٨).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٧).
(٦) الخراج، لأبى يوسف، ص٧٤.

عمر رضى الله عنه واستخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه أتوه إلى المدينة، فكتب لهم إلى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التالى: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة سلام الله عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإن الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق، أتونى فشكوا إلى وأرونى شرط عمر لهم، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين، وإنى قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم، وتركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه، وإنى وفيت لهم بكل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوصِ بهم خيراً. فإنهم أقوام لهم ذمة، وكانت بينى وبينهم معرفة، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم والسلام»[١]، وكان ذلك فى النصف من شعبان سنة سبع وعشرين[٢].

ومما سبق يتضح:

أ ـ أن عثمان رضى الله عنه أوفى بعهد الرسول ﷺ وعهد صاحبيه رضى الله عنهما من بعده، وأن ذلك ينبع من مبدأ عام فى الإسلام وهو أن من عقد عقداً أو عهد عهداً، أو وعد وعداً أوفى به.

ب ـ خفف عثمان عنهم الجزية ووفى لهم بكل أرضهم، وطلب من عامله الوليد ابن عقبة أن يوفى لهم بما ورد فى كتاب عمر رضى الله عنه وأن يستوصى بهم خيراً لأنهم أقوام لهم ذمة[٣].

٤ ـ أهل الكتاب فى ذمة المسلمين ما داموا يؤدون الجزية:

بعد انتصار عمرو بن العاص فى الإسكندرية وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى، فجاءه أهل القرى ممن لم يكن نقض فقالوا: قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص (أى الروم) وأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم بين

---

(١) الخراج، لأبى يوسف، ص٧٤.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص١٠٥.

(٣) السياسة المالية لعثمان، ص١٠٥.

يديك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة، وقال بعضهم لعمرو: ما حل لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمتك، ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله(١)، فانظر كيف كان نظام الجزية يرتب حقوقًا تمسكوا بها وهى حمايتهم نظير ما يدفعون، بالرغم من أنهم لا يشتركون فى الدفاع عن البلاد مع المسلمين، وإنما يدفعونها نظير حقوق يحصلون عليها من الدولة الإسلامية، ومن هذه الحقوق حق الحماية وحق الرعاية، وقد أقرهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق ورد إليهم أموالهم(٢).

٥ ـ مشاركة أهل الذمة فى الأعباء العامة فى عهد عثمان:

ومما يذكر بشأن فتح الإسكندرية الثانى فى خلافة عثمان بن عفان مما يتصل بالجزية أن صاحب إخنا وكان اسمه (طلما) قدم على عمرو بن العاص، فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها؟

فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم، فغضب صاحب إخنا فخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسر فأتى به إلى عمرو، فقال له الناس: اقتله، فقال: لا. وقيل: إن عمراً لما أتى به سوره وتوجه وكساه برنس أرجوان، وقال له: ائتنا بمثل هؤلاء فرضى بأداء الجزية، فقيل لطلما: لو أتيت ملك الروم. فقال: لو أتيته لقتلنى وقال: قتلت أصحابى(٣).

وعندما نحلل قول عمرو بن العاص: إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم، نستنتج بعض المبادئ للسياسة المالية فى عهد عثمان بالنسبة لغير المسلمين منها:

أ ـ أهل الذمة يساهمون فى بيت مال المسلمين بما يؤدونه من جزية، فهم خزانة لبيت المال يحصل منها بيت المال على نصيبه فى أموالهم على هيئة جزية.

(١، ٢) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص١٠٢.

ب ـ أن هذا النصيب فى أموال أهل الذمة يتحدد فى ظل الأعباء الملقاة على الدولة، فإن كبر هذا العبء ارتفعت قيمة الجزية وإن خف هذا العبء خفت قيمة الجزية.

جـ ـ هذا التحول فى قيمة الجزية ارتفاعًا وانخفاضًا مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة المالية من مواطنى الدولة فى الأعباء، بحيث يساهم كل على قدر طاقته وبما يحقق العدالة فى توزيع الأعباء، وفى ظل الوصايا التى أوصى بها الرسول الكريم ﷺ بحسن معاملة أهل الذمة عامة[1].

خامسًا: الإيرادات العامة من الخراج والعشور فى عهد عثمان:

١ ـ الخراج:

امتدت فتوحات الإسلام فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزراعية للبلاد المفتوحة فى حوزة الدولة الإسلامية، وكان عمر رضى الله عنه قد اعتبرها فيئًا للمسلمين وأبقى عليها أهلها من أهل الكتاب الذين آثروا الإبقاء على دينهم يزرعونها ويؤدون عنها خراج الأرض لبيت مال المسلمين، وقد ساهم خراج هذه الأراضى فى زيادة إيرادات بيت المال فى عهد عثمان رضى الله عنه بسبب امتداد الفتوحات الإسلامية فى عصره[2].

٢ ـ عشور التجارة:

استقر نظام العشور فى عهد الفاروق على الأسس والقواعد التى وضعها عمر رضى الله عنه، وفى عهد عثمان بن عفان يبدو بصفة عامة أن إيرادات بيت المال زادت من عشور التجارة؛ نتيجة لزيادة رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التى تمت فى عهده، ونتيجة لزيادة الثروات لدى البعض مما زاد القوة الشرائية بصفة عامة خصوصًا فى السنوات الأولى فى عهد عثمان بن عفان التى اتسمت بالاستقرار، وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع وزيادة الطلب على السلع تدعو إلى

(١) السياسة المالية لعثمان، ص١٠٧.

(٢) السياسة المالية لعثمان، ص١١٣.

تنشيط استيرادها وخضوعها لعشور التجارة متى توفرت شروط الإخضاع، ومن العوامل التى أدت إلى زيادة حصيلة عشور التجارة فى عهد عثمان بن عفان ارتفاع الأسعار، وارتفاع أسعار السلع يؤدى بالتالى إلى زيادة حصيلة عشور التجارة منها؛ لأنها ضريبة قيمية تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة، وليست نوعية تؤخذ من نوع السلعة[١].

سادسًا: سياسة عثمان بن عفان فى إقطاع الأرض:

مضى أبو بكر رضى الله عنه فى تطبيق السياسة النبوية فى إقطاع الأراضى للناس طلبًا لاستصلاحها فقد أقطع الزبير بن العوام أرضًا مواتًا ما بين الجرف وقناة[٢]، وأقطع مجاعة بن مرارة الحنفى الخضرمة (قرية كانت باليمامة)[٣]، وأراد إقطاع الزبرقان بن بدر، ثم عدل عن ذلك لاعتراض عمر رضى الله عنه، كما أراد إقطاع عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس التميمى أرضًا سبخة (ليس فيها كلأ ولا منفعة) أرادا استصلاحها ثم عدل عن ذلك أخذًا برأى عمر فى عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام، «إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد أعز الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما، ومن الواضح أن اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضى، بل على أشخاص بعينهم لا يرى تأليفهم على الإسلام، وقد توسع عمر رضى الله عنه فى إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جريًا على السياسة النبوية، فقد أعلن: يا أيها الناس من أحيا أرضًا ميتًا فهى له[٤]، وهناك آثار ضعيفة تؤكد انتزاع عمر رضى الله عنه ملكية الأرض المقطعة إذا لم يتم استصلاحها[٥]، وتحدد رواية ضعيفة لذلك ثلاث سنوات من تاريخ الإقطاع، وقد ثبت إقطاع عمر رضى الله عنه لخوان بن جبير أرضًا مواتًا، وللزبير بن العوام أرض العقيق جميعها، ولعلى بن أبى طالب أرض ينبع، فتدفق فيها الماء

(١) السياسة المالية لعثمان، ص١٢٣.
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ١٠٤).
(٣) عصر الخلافة الراشدة، للعمرى، ص٢٢٠.
(٤، ٥) عصر الخلافة الراشدة، للعمرى، ص٢٢١.

الغزير، فأوقفها عليٌّ رضى الله عنه صدقة على الفقراء[1]، ولما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة توسع فى الإقطاع، وخاصة فى المناطق المفتوحة، حيث ترك عدد من الملاك أراضيهم فارين، فصارت صوافى تقوم الدولة باستثمارها، فأقطع عثمان رضى الله عنه منها خوفًا من بوارها[2]، ولكن الإمام أحمد يرى أنه أقطع من السواد أيضًا، ومما لا شك فيه أن الصوافى قد يقع كثير منها فى أرض السواد. وعلى أية حال فإن الإقطاع من الصوافى رفع غلتها من تسعة آلاف درهم (٩٠٠٠ درهم) سنويًا فى خلافة عمر رضى الله عنه إلى خمسين مليون درهم (٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) فى خلافة عثمان رضى الله عنه، مما يدل على نجاح سياسته فى إدارة الصوافى، وتذكر المصادر قائمة بأسماء الذين أقطعهم عثمان رضى الله عنه، ومعظمهم ليسوا من قريش، ومعظم الروايات فى إقطاع عثمان رضى الله عنه ضعيفة وهى بالجملة تثبت توسعه فى الإقطاع، ومن المفيد ذكر أسماء المقطعين وهم:

* عبد الله بن مسعود الهذلى (أرض بين نهرى بيل وبين السواد).
* عمار بن ياسر العنسى (أستينيا).
* خباب بن الأرت التميمى (صعنبى ـ قرية بالسواد).
* عدى بن حاتم الطائى (الروحاء ـ قرية من قرى بغداد على نهر عبس).
* سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى (قرية هرمز ببرِّ فارس).
* الزبير بن العوام.
* أسامة بن زيد الكلبى.
* سعيد بن زيد العدوى القرشى.
* جرير بن عبد الله البجلى (أرض على شاطئ الفرات).
* ابن هبار.

(١) عصر الخلافة الراشدة للعمرى، ص٢٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

* طلحة بن عبيد الله التميمى القرشى (النشاستبح) ضيعة بالكوفة.
* وائل بن حجر الحضرمى (أرض توالى قرية زرارة بالكوفة).
* خالد بن عرفطة القضاعى (أرض عند حمام أعين بالكوفة).
* الأشعث بن قيس الكندى (طيزناباذ ـ موضع بين الكوفة والقادسية).
* أبو مربد الحنفى (أرض بالأهواز على نهر تيرى).
* نافع بن الحارث بن كلدة الثقفى (قطيعة بشط عثمان بالبصرة).
* أبو موسى الأشعرى (قطيعة بحمام عمرة).
* عثمان بن أبى العاص الثقفى (شط عثمان بالبصرة).

ويبدو أن جلاء أهل هذه الأراضى عنها صيَّرها مواتًا، وأقطعها عثمان رضى الله عنه لإحيائها، ويبدو أن معاوية بن أبى سفيان أقطع قطائع فى سواحل الشام لتعميرها وإعدادها لمواجهة هجمات الروم، وكذلك أقطع قطائع بأنطاكية بأمر عثمان، وأخرى بقاليقلا[1]، وأما إقطاعه فدك لمروان بن الحكم فلم يعرف من طريق صحيحة، وقيل إن الذى أقطع فدك لمروان هو معاوية بن أبى سفيان[2].

إن سياسة عثمان فى إقطاع الأراضى ساهم فى زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤديه الجميع من زكاة على أموالهم إذا توافرت شروطها، وقد نجح مشروع عثمان فى إقطاع الأرض بدليل زيادة إيراد الدولة من أملاكها الخاصة فى العراق إذْ بلغت خمسين ألف ألف درهم بعد أن كانت ٩٠٠,٠٠٠ درهم فى عهد الفاروق[3].

سابعًا: سياسة عثمان فى حمى الأرض:

وهى أراضٍ خصصت لرعى الإبل والخيل التى تملكها الدولة، وقد استمرت حماية وادى النقيع فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حيث كان النبى ﷺ قد حماه

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٥.
(٣) السياسة المالية لعثمان، ص١١٨.

للخيل[1]، وطوله ثمانون كيلو متراً،، ويبدأ جنوب المدينة بـ ٤٠ كيلو متراً[2]، وقد كثرت المناطق المحمية فى خلافة عمر رضى الله عنه لكثرة ما تملكه الدولة من الإبل والخيل المعدة للجهاد، ومن ذلك حمى الربذة لنعم الزكاة، وعين عليه مولاه هنًى وأوصاه بالسماح لأصحاب الإبل القليلة بالرعى فيه دون الأغنياء، وحمى أرضًا فى ديار بنى ثعلبة رغم احتجاجهم على ذلك فقد أجابهم: البلاد بلاد الله تحمى لنعم مال الله[3]. ونهج عثمان نهج من سبقه فى الحمى بسبب اتساع الدولة وازدياد الفتوحات فى عهده، وقد اقتصر فى الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها، وعلى هذا فإن عثمان رضى الله عنه زاد فى الحمى لما زادت الرعية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة[4].

ولما كان أبو بكر وعمر قد حميا دون أن ينكر عليهما أحد ذلك، فإن عثمان وسع الحمى لكثرة إبل الصدقة وماشيتها وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصدقة فلا اعتراض على فعله[5]، بل ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان فى الحمى قد اشتهر بين الصحابة، فلم ينكر عليهم منكر، ويعتبر ذلك إجماعًا[6]، وقد حكى الإجماع ابن قدامة[7].

ثامنًا: أنواع النفقات العامة فى عهد عثمان:

١ ـ نفقات الخليفة:

كان عثمان رضى الله عنه لا يأخذ من بيت مال المسلمين شيئًا، فقد كان أكثر قريش مالاً وأجدهم فى التجارة فكان ينفق على أهله ومن حوله من ماله الخاص.

---

(١) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٢/ ٥٩٥).

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) الطبقات (٣/ ٣٢٦) والأثر صحيح.

(٤، ٥) نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى، د. مصطفى حلمى، ص٧٨.

(٦) نظام الأراضى فى صدر الدولة الإسلامية، ص١٦٩.

(٧) المغنى (٥/ ٥٨١).

٢ ـ صرف مرتبات الولاة من بيت المال:

فى عهد عثمان رضى الله عنه كانت الدولة الإسلامية مقسمة إلى ولايات وكان على كل ولاية وال يعينه الخليفة يأخذ مرتبه من بيت المال ويدير شئون الولاية طبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، وإذا لم يعين الخليفة ممثلاً له على بيت مال الولاية، فإنه يدخل فى اختصاص الوالى الإشراف على جباية موارد الولاية وهى الجزية والخراج وعشور التجارة ينفق منها على شئون الولاية، والفائض يرسله إلى بيت مال المسلمين فى المدينة، أما الزكاة التى تحصل من أغنياء الولاية فكانت تصرف على فقرائهم(١).

٣ ـ الإنفاق من بيت المال على مرتبات الجند:

كان بيت المال يدفع مرتبات للجند علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب فى الغنائم، وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية، فمثلاً بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد والى مصر الكتاب التالى لصرف مرتبات الجند المرابطين فى الإسكندرية: قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين، فألزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر(٢).

٤ ـ الإنفاق العام على الحج من بيت المال:

كان الإنفاق العام على الحج فى عهد عثمان رضى الله عنه من بيت المال، وكانت كسوة الكعبة من القباطى وهو ثياب من كتان من نسيج مصر(٣).

٥ ـ تمويل إعادة بناء المسجد النبوى من بيت المال:

كلم الناسُ عثمان بن عفانَ أول ما تولى الخلافة أن يزيد فى مسجد الرسول ﷺ، إذْ كان يضيق بالناس فى صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح وزيادة سكان المدينة زيادة عظيمة، فاستشار عثمان أهل الرأى فأجمعوا على هدم المسجد وبنائه وتوسيعه فصلى

(١) السياسة المالية لعثمان، ص١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٠، ١٤١.

عثمان الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ وأزيد فيه، وأشهد أنى سمعت رسول الله يقول: «منْ بنى مسجداً بنى الله له بيتًا فى الجنة»[(١)]، وكان لى فيه سلف وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب كان قد زاد فيه وبناه، وقد شاورت أهل الرأى من أصحاب رسول الله ﷺ، فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه، فحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له، فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه[(٢)].

٦ ـ تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال:

كانت الكعبة أيام الرسول ﷺ قائمة وليس حولها إلا فناء ضيق يصلى الناس فيه، وظل المسجد كذلك فى خلافة أبى بكر، وفى عهد عمر وسع المسجد فاشترى دوراً حول الكعبة وهدمها وأدخلها فى بيت الله الحرام وأحاطها بجدار قصير وأدخل إنارة المسجد ليلاً، وذلك لأن المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج بعد أن امتدت فتوحات الإسلام، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، فلما ضاق المسجد ثانية فى عهد عثمان احتذى بمثل عمر وأضاف إلى الكعبة دوراً اشترها وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع إلى قامة الرجل كما فعل عمر من قبل[(٣)]، كما كان الولاة يبنون المساجد فى ولايتهم وينفقون عليها من بيت مال الولاية، كما حدث عند بناء مسجد الرحمة بالإسكندرية، ومسجد فى إصطخر فى فتوحات المشرق[(٤)].

٧ ـ الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحرى:

ساهم بيت مال المسلمين فى إنشاء أول أسطول بحرى فى الإسلام فى عهد عثمان، وسيأتى دور هذا الأسطول فى الفتوحات الإسلامية بإذن الله تعالى عند حديثنا عن الفتوحات[(٥)].

---

(١) المسند رقم ٤٣٤ إسناده صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٦٠)، وتاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٧).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٠)، وذو النورين، محمد رشيد، ص٢٥.

(٤) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص١٤٧، ١٤٨.

(٥) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص١٤٨.

٨ ـ الإنفاق على تحويل الساحل من الشعيبة إلى جدة:

فى سنة ست وعشرين هجرية كلم أهل مكة عثمان رضى الله عنه أن يحول الساحل من الشعيبة، وهى ساحل مكة قديمًا فى الجاهلية، إلى ساحلها اليوم وهى جدة لقربها من مكة، فخرج عثمان إلى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها، ودخل البحر واغتسل فيه وقال: إنه مبارك، وقال لمن معه ادخلوا البحر للاغتسال ولا يدخل أحد إلا بمئزر، ثم خرج من جدة من طريق عسفان إلى المدينة وترك الناس ساحل الشعيبة فى ذلك الزمان واستمرت جدة بندرًا إلى الآن لمكة المشرفة[١].

٩ ـ تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين:

ومن الأعمال التى مولها بيت مال المسلمين فى عهد عثمان حفر بئر للشرب بالمدينة وتسمى بئر أريس وهى على ميلين من المدينة وكان ذلك فى سنة ثلاثين هجريًا، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر وكان بأصبعه خاتم رسول الله، فانسل الخاتم من أصبعه فوقع فى البئر، فطلبوه فى البئر، ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه، فجعل فيه مالاً عظيمًا لمن جاء به، واغتم لذلك غمًا شديدًا، فلما يئس من العثور على الخاتم صنع خاتمًا آخر مثله من فضة على مثاله وشبهه ونقش عليه (محمد رسول الله) فجعله فى أصبعه حتى قتل، فلما قتل ذهب الخاتم من يده فلم يدر من أخذه[٢].

١٠ ـ الإنفاق على المؤذنين من بيت المال:

كان عثمان رضى الله عنه أول من رزق المؤذنين من بيت المال، قال الإمام الشافعى: «قد أرزق المؤذنين إمام هدى عثمان بن عفان»[٣]، وقد جعل عثمان رضى الله عنه على الأذان جَعالة، ولا يستأجر استئجارًا[٤].

---

(١) ذو النورين عثمان بن عفان، محمد رشيد، ص٢٦.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦١). وتاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٤).

(٣، ٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٤.

١١ ـ تمويل أهداف الإسلام العليا:

يتضح من دراسة النفقات العامة السابقة من بيت المال أنها ساهمت فى تمويل الأهداف العليا للدولة الإسلامية، فضلاً عن الإنفاق العام على إدارة الدولة ومصالح الرعية، ثم الإنفاق على نشر الإسلام كى تكون كلمة الله هى العليا، وتم تمويل إنشاء أول أسطول بحرى للدولة الإسلامية، كما تم تعمير بيوت الله بالإنفاق على إقامة المساجد وتجديدها ورزق المؤذنين، والولاة، والقضاة، والجند، وعمال الدولة، كما تم الصرف على رحلات الحج إلى بيت الله الحرام، وكسوة الكعبة، وهى قبلة الإسلام والمسلمين، كما أن بيت مال المسلمين قدم أمواله لحفر الآبار ليشرب منها الغادى والرائح من مواطنى الدولة الإسلامية. ومن مصادر الدولة كالزكاة، وخمس الغنائم تم تمويل شرائح المجتمع الضعيفة فى الدولة الإسلامية وهم الفقراء والمساكين واليتامى ومساندة الغرباء وأبناء السبيل وفك الرقاب[١].

تاسعًا: استمرار نظام الأعطيات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

استمر نظام الأعطيات فى عهد عثمان رضى الله عنه، كما كان فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد اعتمد السابقة فى الدين أساسًا للعطاء وكتب بذلك لواليه على الكوفة بقوله: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل[٢]، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية فى عهده كثرت موارد الدولة المالية مما أدى ذلك بالخليفة عثمان رضى الله عنه أن يتخذ له الخزائن[٣]، فانعكس ذلك بدوره على العطاء فزاد فى أرزاق الجند بمقدار مائة درهم لكل منهم، فهو أول خليفة زاد الناس فى العطاء واستن به الخلفاء من بعده فى الزيادة[٤]، قال

(١) السياسة المالية لعثمان بن عفان، ص١٥٠.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٣٦ ـ ٦٨). والنجوم الزاهرة (١/ ٨٧).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).

الحسن: وشهدت منادى عثمان ينادى: يا أيها الناس اغدوا على كسوتكم فيأخذون الحلل، واغدوا على السمن والعسل قال الحسن: أرزاق دارّة وخير كثير وذات بين حسن، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا إلا يودُّه وينصره ويألفه[١]، واهتم الخليفة عثمان بأمور الثغور والمرابطة فيها فكان يأمر قادته بإجراء الأرزاق والعطاء ومضاعفته للجند المرابطين[٢].

عاشراً: أثر تدفق الأموال على الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

فى عهد عثمان كثر الخراج وأتاه المال من كل وجه، فاتخذ له الخزائن وأثر ذلك بدوره فى الأثر الاقتصادى والاجتماعى، فعن أبى إسحاق أن جده مر على عثمان فقال له: كم معك من عيالك يا شيخ؟ قال معى كذا، قال: قد فرضنا لك فى خمس عشرة - يعنى ألفًا وخمسمائة - وفرضنا لعيالك مائة مائة[٣]، وعن محمد بن هلال المدينى قال: حدثنى أبى عن جدتى أنها كانت تدخل على عثمان فافتقدها يومًا فقال لأهله: ما لى لا أرى فلانة؟ فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين ولدت الليلة غلامًا فقالت: فأرسل إلىّ بخمسين درهمًا وشقيقة سنبلانية ثم قال: هذا عطاء ابنك وهذه كسوته، فإذا مرت به سنة رفعناه إلى مائة[٤]، كما وسع رضى الله عنه على غيال أهل العوالى بالمدينة المنورة فى القوت والكسوة[٥]، وحين قام القائد قطن بن عمرو الهلالى بإعطاء الجيش الذى برفقته وعدده أربعة آلاف جندى أربعة آلاف درهم كتشجيع لهم، استكثر ذلك والى البصرة عبد الله بن عامر وكتب بالخبر إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه فأجازها، وقال: ما كان معونة فى سبيل الله فجائز. فصارت الجائزة اسم للعطية[٦].

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٩٣، ٩٤). وفصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص٥٢.

(٢) فتوح مصر، ص١٩٢، وفتوح البلدان للبلاذرى (١/ ١٥٢، ١٥٧).

(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٦٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٧٦٩).

(٥) الطبقات (٣/ ٣٩٨).

(٦) الأوائل، للعسكرى (٢/ ٢٦، ٢٧).

وقام عثمان بتوريث عطاء الجندى الإسلامى لورثته من بناته وزوجاته، فقد قال الزبير بن العوام للخليفة عثمان بعدما مات عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أعطنى عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال فأعطاه خمسة عشر ألفًا[١].

هذا وقد نشطت الحركة الزراعية والصناعية والتجارية فى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وبسبب ما منّ الله به على المسلمين من فتوح، أصبح أهل المدينة خاصة والمسلمون عامّة فى نعمة ويسار، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها الجزيرة العربية قبل الفتوحات الكبيرة، لقد اطلع المسلمون على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم، وبدأ هذا الاقتباس يتسع فى خلافة عثمان، فبنى بعض الصحابة الدور والمنازل الكبيرة، وساهم الأجانب الذين سُبُوا فى الفتوح فى تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية[٢].

الحادية عشرة: عثمان وأقاربه والعطاء من بيت المال:

اتهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه فى بيت المال وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتهام حملة دعائية باطلة قادها السبئيون والشيعة الروافض ضده، وتسربت فى كتب التاريخ وتعامل معها بعض المفكرين والمؤرخين على كونها حقائق، وهى باطلة لم تثبت لأنها مختلقة، والذى ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه لا من المثالب فيه:

١ - إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة وكان وصولاً للرحم[٣] يصلهم بصلات وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار، وقالوا بأنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم.. فأما حبى لهم فإنه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم... وإما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغية من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٠).
(٢) الحضارة العربية الإسلامية، د. وضاح الصمد، ص١١٤.
(٣) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص٨٢.

وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى[١]، وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا[٢]؟ وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى، فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك، وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب[٣]، فهذه النصوص وغيرها مما اشتهر عنه، وما صح من الأحاديث فى فضائله الجمة تدل على أن كل ما قيل فيه من إسرافه فى بيت المال وإنفاق أكثره على نفسه وأقاربه وقصوره حكايات بدون زمام ولا خطام.
ومع براءة عثمان مما نُسب إليه، إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن سهم ذوى القربى هو لقرابة الإمام[٤]، قال تقى الدين ابن تيمية: إن سهم ذوى القربى ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لقرابة الإمام كما قال الحسن وأبو ثور، وأن النبى ﷺ كان يعطى أقاربه بحكم الولاية فذوى القربى فى حياة النبى ﷺ ذوى قرباه، وبعد موته هم ذوى قربى من يتولى الأمر بعده، وذلك لأن نصر ولى الأمر والذب عنه متعين وأقاربه ينصرونه ويذبون عنه ما لا يفعله غيرهم، وقال: وبالجملة فعامة من تولى الأمر بعد عمر كان يخص بعض أقاربه إما بالولاية أو بمال[٥].

وقال: إن ما فعله عثمان فى المال له ثلاثة مآخذ: أحدها: أنه عامل عليه والعامل يستحق مع الغنى، والثانى: أن ذوى القربى هم ذوو قربى الإمام، والثالث: أن قرابة عثمان كانوا قبيلة كبيرة كثيرة ليسوا مثل قبيلة أبى بكر وعمر، فكان يحتاج إلى إعطائهم، وولايتهم أكثر من حاجة أبى بكر وعمر إلى تولية أقاربهما وإعطائهم. . . وهذا مما نقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه الاحتجاج به[٦].

٢ ـ جاء فى تاريخ الطبرى أن عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: إن فتح الله عليك بإفريقية فلك مما أفاء

(١) جاوزت أعمارهم.
(٢، ٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٦).
(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص٨٣.
(٥) منهاج السنة (٣/ ١٨٧، ١٨٨).
(٦) منهاج السنة (٣/ ٢٣٧). والدولة الأموية، لحمدى شاهين، ص١٦٣.

الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر وأوغلوا فى أرض إفريقية وفتحوها وسهلها وجبالها، وقسَّم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم وأخذ خمس الخمس وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وثيمة النضرى، فشكا وفد ممن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله، فقال لهم عثمان: إنما أمرت له بذلك فإن سخطتم فهو رد. قالوا: إنا نسخطه. فأمر عثمان عبد الله أن يرده فرده[1]، وقد ثبت فى السنّة تنفيل أهل الغَنَاء والبأس فى الجهاد[2].

٣ ـ وكان قد بقى من الأخماس والحيوان ـ فى فتح إفريقية ـ ما يشق حمله إلى المدينة فاشتراه مروان بمائة ألف درهم، ونقد أكثرها وبقيت منه بقية، وسبق إلى عثمان مبشرًا بالفتح، وكانت قلوب المسلمين فى غاية القلق خائفة من أن يصيب المسلمين نكبة من أمر إفريقية، فوهب له عثمان ما بقى جزاء بشارته، وللإمام أن يعطى البشير ما يراه لائقًا بتعبه وخطر بشارته، هذا هو الثابت فى عطية عثمان لمروان وما ذكروه من إعطائه خمس إفريقية فكذب[3]، لقد كان عثمان رضى الله عنه شديد الحب لأقاربه، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرم أو إساءة السيرة والسياسة فى أمور المال أو غيرها، وإنما دست فى كتب التاريخ أكاذيب باطلة كان خلفها الدعاية السبئية والشيعية الرافضية الظالمة ضد عثمان رضى الله عنه.

إن سيرة عثمان رضى الله عنه فى أقاربه تمثل جانبًا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦]، كما أنها تمثل جانبًا عمليًا من سيرة المصطفى ﷺ فقد رأى من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من منتقديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة الناس، وكان مما رأى شدة حب رسول الله ﷺ لأقاربه وبره بهم وإحسانه إليهم وقد أعطى عمه العباس ما لم يعط أحدًا عندما ورد

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٣).

(٢، ٣) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص٨٤.

عليه مال البحرين[١]، وولى عليًا وهو ابن عمه وصهره، ولعثمان وسائر المؤمنين فى رسول الله ﷺ أعظم القدوة[٢].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقد كان عثمان رضى الله عنه، كريم الأخلاق ذا حياء كثير، وكرم غزير، يؤثر أهله وأقاربه فى الله، تأليفًا لقلوبهم من متاع الدنيا الفانى لعله يرغبهم فى إيثار ما يبقى على ما يفنى، كما كان النبى ﷺ يعطى أقوامًا ويدع آخرين إلى ما جُعل فى قلوبهم من الهدى والإيمان، وقد تعنّت عليه بسبب هذه الخصلة أقوام كما تعنّت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ فى الإيثار[٣]، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم غنيمة بالجعرانة[٤]، إذ قال له رجل: اعدل، فقال: «شقيت إن لم أعدل»[٥]. ويحتج عثمان رضى الله عنه لبرّه أهل بيته وقرابته مخاطبًا مجلس الشورى بقوله: أنا أخبركم عنى وعما وليت، إن صاحبيَّ اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما سبيل احتسابًا، وإن رسول الله ﷺ كان يعطى قرابته، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدى فى شىء من ذلك لما أقوم به فيه فإن رأيتم ذلك خطأً فردوه[٦].

وقد رد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على من اتهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ مليون دينار ـ فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟

نعم كان يعطى أقاربه ويعطى غير أقاربه أيضًا، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأما هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانيًا: هذا من الكذب البيّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحدًا ما يقارب هذا المبلغ[٧].

(١) البخارى، كتاب الجزية.

(٢، ٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٠١).

(٤) ماء بين الطائف ومكة. وهى إلى مكة أقرب.

(٥) البخارى، كتاب فرض الخمس.

(٦) الطبقات الكبرى (٣/ ١٩٠).

(٧) منهاج السنة (٣/ ١٩٠).

المبحث الثاني

المؤسسة القضائية وبعض الاجتهادات الفقهية

يعتبر عهد ذى النورين امتداداً للعهد الراشدى الذى تتجلّى أهميته بصلته بالعهد النبوى وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة، والجانب القضائى فيه خاصة، امتداداً للقضاء فى العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه، وتظهر أهمية العهد الراشدى فى القضاء بأمرين أساسيين:

* المحافظة على نصوص العهد النبوى فى القضاء، والتقيد بما جاء فيه، والسير فى ركابه، والاستمرار فى الالتزام به.

* وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية الواسعة ومواجهة المستجدات المتنوعة (١).

استطاع الفاروق بتوفيق الله ثم عبقريته الفذة أن يطور مؤسسة القضاء للدولة الإسلامية، وأصبحت لها قواعد ونظم، استفاد منها الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه فى تعيين القضاة وأرزاقهم، واختصاصهم القضائى، ومعرفة صفات القاضى، وما يجب عليه، ومصادر الأحكام القضائية، والأدلة التى يعتمد عليها القضاة، كما أنه أصبحت هناك سوابق قضائية من الصديق والفاروق استفاد منها القضاة فى عهد عثمان رضى الله عنه.

عندما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة كان على قضاء المدينة يومئذ: على بن أبى طالب، وزيد بن ثابت، والسائب بن يزيد رضى الله عنهم، ويذكر بعض الباحثين أن عثمان لم يترك لأحد من هؤلاء القضاة الاستقلال بالفصل فى قضية من

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، للزحيلى، ص٨٣، ٨٤.

القضايا، كما كان الحال فى عهد عمر رضى الله عنه، بل كان ينظر فى الخصومات بنفسه، ويستشير هؤلاء وغيرهم من الصحابة فيما يحكم به، فإن وافق رأيهم رأيه أمضاه، وإن لم يوافق رأيهم رأيه نظر فى الأمر بعد ذلك، وهذا يعنى أن عثمان رضى الله عنه قد أعفى القضاة الثلاثة فى المدينة من ولاية القضاء وأبقاهم مستشارين له فى كل شجار يرفع إليه مع استشارة آخرين، ويرى بعضهم أنه لم يثبت نص صريح يفيد الإعفاء، وغاية ما ورد فى ذلك يدل على أن عثمان رضى الله عنه قد أقر قضاة عمر بالمدينة، ولكنه تحمل عنهم النظر فى كثير من القضايا الكبيرة مع استشارتهم فيها، ومنشأ هذا الخلاف تعارض الروايات الواردة فى ذلك:

* روى البيهقى فى سننه، ووكيع فى أخبار القضاة واللفظ له عن عبد الرحمن بن سعيد، قال: أخبرنى جدى، قال: رأيت عثمان بن عفان فى المسجد، إذ جاءه الخصمان قال لهذا: اذهب فادع عليًا، وللآخر: اذهب فادع طلحة بن عبيد الله، والزبير وعبد الرحمن، فجاءوا فجلسوا، فقال لهما: تكلما، ثم يقبل عليهم فيقول: أشيروا علىّ، فإن قالوا ما يوافق رأيه أمضاه عليهما، وإلا نظر، فيقومون مسلمين، ولا يعلم أن عثمان بن عفان استعمل قاضيًا بالمدينة، إلى أن قتل رضى الله عنه.

جاء فى تاريخ الطبرى عند الحديث على أعمال عثمان: وكان على قضاء عثمان يومئذ زيد بن ثابت، وهذا يشعر بأن عثمان أبقى زيدًا على ولاية القضاء، ويستلزم الإذن له بالفصل فى الخصومات، وما دام الجمع بين النصين ممكنًا، فإن الأخذ به أولى من الأخذ بأحد النصين فى غير المرجح، ويجمع بين النصين بأن عثمان أبقى قضاة المدينة للفصل فى بعض الخصومات، ولكن بعضها الآخر من معضلات القضايا جعله خاصًا به، مع استشارة أصحابه فيها، ومنهم قضاته[1].

وكان عثمان رضى الله عنه يعين القضاة على الأقاليم حينًا، مثل تعيينه كعب بن سور على قضاء البصرة، ويترك القضاء للوالى حينًا آخر مثل طلبه من واليه على البصرة أن يقوم بالقضاء بين الناس إضافة إلى عمل الولاية، وذلك بعد عزل كعب بن

(١) النظم الإسلامية (١/ ٣٧٨) وقائع ندوة أبو ظبى ١٤٠٥ هـ.

سور، وكذلك كان يعلى بن أمية واليًا وقاضيًا على صنعاء[١]، ويلاحظ أن بعض الولاة كانوا يختارون قضاة بلدانهم بأنفسهم، ويكونون مسئولين أمامهم ما يشير إلى ازدياد نفوذ الولاة فى خلافته من القضاة[٢]، والمأثور عن عثمان كتبه ورسائله إلى أمراء الأمصار، وإلى أمراء الأجناد بالثغور، وإلى عامة المسلمين، وهذا يدعو إلى غلبة الظن بأنه جعل القضاء من اختصاص الولاة يتولونه بأنفسهم، أو يعينون له من يستطيع القيام به[٣]، ففى الوقت الذى نجد فيه مراسلات كثيرة بين عمر وقضاة الأمصار نجد ندرة فى المراسلات فى عهد عثمان بينه وبين أولئك القضاة[٤].

* ابن عمر يعتذر عن القضاء:

قال عثمان لابن عمر: اقض بين الناس. قال: لا أقضى بين اثنين ولا أؤُمّ رجلين، أما سمعت النبى ﷺ يقول: «من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ؟» قال عثمان: بلى. قال: فإنى أعوذ بالله أن تستعملنى، فأعفاه، وقال: لا تُخبر بهذا أحدًا[٥].

* دار القضاء:

تذكر بعض كتب التاريخ أن من مآثر ذى النورين اتخاذه دارًا للقضاء، كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبى صالح مولى العباس، قال: أرسلنى العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته فى دار القضاء إلى آخر الحديث، فإذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ فى الإسلام دارًا للقضاء، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء فى المسجد كما هو مشهور[٦].

* أشهر القضاة فى خلافة عثمان:

١ - زيد بن ثابت (المدينة).

---

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص١٤٣.

(٢، ٣) النظم الإسلامية (١/ ٣٧٨).

(٤) الولاية على البلدان (٢/ ٩٢).

(٥) مسند الإمام أحمد رقم ٤٧٥ حسن لغيره.

(٦) أشهر مشاهير الإسلام (٤/ ٧٤٠).

٢ ـ أبو الدرداء (دمشق).

٣ ـ كعب بن سور (البصرة).

٤ ـ أبو موسى الأشعرى (البصرة بالإضافة إلى ولايته).

٥ ـ شريح (الكوفة).

٦ ـ يعلى بن أمية (اليمن).

٧ ـ ثمامة (صنعاء).

٨ ـ عثمان بن قيس بن أبى العاص (مصر) [١].

هذا وقد ترك الخليفة الراشد أحكامًا فقهية فى مجال القصاص، والجنايات والحدود والتعزير والعبادات والمعاملات كان لها الأثر الواضح فى المدارس الفقهية الإسلامية، وهذه بعض الأحكام التى أصدرها عثمان أو أفتى بها:

أولاً: فيما يتعلق بالقصاص والحدود والتعزير:

١ ـ أول قضية واجهت عثمان رضى الله عنه: قضية قتل:

أول قضية حكم فيها عثمان رضى الله عنه قضية عبيد الله بن عمر، وذلك أنه غدا على ابنة أبى لؤلؤة قاتل عمر، فقتلها، وضرب رجلاً نصرانيًا يقال له جفينة بالسيف فقتله، وضرب الهرمزان الذى كان صاحب تستر فقتله، وكان قد قيل إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر فالله أعلم[٢]، وكان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولى عثمان وجلس للناس كان أول ما تحوكم إليه فى شأن عبيد الله، فقال على: ما من العدل تركه، وأمر بقتله، وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك، قضية لم تكن فى أيامك فدعها عنك، فودى[٣] عثمان رضى الله عنه أولئك القتلى من

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص١٥٩، ١٦٠

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

(٣) ودى: وقع دية القتلى.

ماله؛ لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال، والإمام يرى الأصلح فى ذلك، وخلى سبيل عبيد الله[١]، وقد جاءت رواية فى الطبرى تفيد بأن القماذبان بن الهرمزان قد عفا عن عبيد الله، فعن أبى منصور، قال سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمر فيروز بأبى، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا فى هذه البلاد؟ فقال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما ولى عثمان دعانى فأمكننى منه، ثم قال: يا بنى، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما فى الأرض أحد إلا معى، إلا أنهم يطلبون إلىّ فيه، فقلت لهم: ألى قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله. فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبوه. فتركته لله ولهم، فاحتملونى، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم[٢]، ولا يوجد تعارض بين هذه الرواية والرواية الأخرى التى تذكر أن الخليفة عثمان عفا عن عبيد الله بن عمر وتحمل هو الدية الشرعية لورثة الهرمزان، لأنه يوجد فى فهم جميع الصحابة حق لابن الهرمزان فى القصاص، وقد استجاب لرجائهم له فى العفو على النحو السالف ذكره، كما أن عفو الخليفة يرجع إلى سلطة التحقيق فى الجريمة والحكم فيها هو للخليفة وليس لابن المقتول، فيكون عبيد الله قد اعتدى على حق الخليفة، ومن ثم فرواية العفو منه تنصرف إلى العفو بسبب هذا الحق، وهذه المخالفة من عبيد الله حيث أضاع على الدولة أمرًا مهمًا هو معرفة الخلايا التى تتصل بالجريمة من الجناة والأشخاص والجهات التى كانت خلف هذه المؤامرة، كما ينصرف العفو من الخليفة إلى من ليس لهم ولىٌّ وهم جفينة وابنة المجوسى القاتل، ولا يوجد خلاف فى الروايات والمصادر التاريخية على أن الخنجر الذى قتل به عمر بن الخطاب كان بيد الهرمزان وجفينة قبل الحادث، وقد شاهد ذلك اثنان من الصحابة وهما عبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن أبى بكر، ورواية عبد الرحمن بن أبى بكر تفيد أن القاتل أبا لؤلؤة كان مع هذين

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٣) إسناده لا يصح.

الشريكين يتناجون ثلاثتهم، فلما باغتهم سقط الخنجر من بينهم، وبعد قتل عمر وجدوا أنه نفس الخنجر الذى وصفه الشاهدان (١)، وبالتالى فالهرمزان وجفينة يستحقان القتل، أما ابنة أبى لؤلؤة الذى قتل نفسه ليخفى المشتركين معه، فهذه قتلت خطأ ولا يقتل فيها أحد، وقد رأى عبيد الله أنها من المشاركين فى القتل حيث كانت تخفى السلاح لأبيها (٢).

٢ ـ قتل اللصوص:

إن شبابًا من شباب أهل الكوفة ـ فى ولاية الوليد بن عقبة ـ نقبوا على ابن الحَيْسُمان الخزاعى، وكاثروه، فنذر بهم، فخرج عليهم بالسيف، فلما رأى كثرتهم استصرخ، فقالوا له: اسكت، فإنما هى ضربة حتى نريحك من روعة هذه الليلة ـ وأبو شُريح الخزاعى مشرف عليهم ـ فصاح بهم وضربوه فقتلوه، وأحاط الناس بهم فأخذوهم، وفيهم زهير بن جُندب الأزدى ومورِّع بن أبى مورِّع الأسدى، وشُبيل بن أبى الأزدى، فى عدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه، فمنع بعضهم بعضًا من الناس، فقتله بعضهم، فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه فى قتلهم، فقتلهم على باب القصر فى الرَّحَبة. وقال فى ذلك عمر بن عاصم التميمى:

لا تأكلوا أبدًا جيرانكم سَرَفًا ... أهل الزعارة فى ملك ابن عفانِ

وقال أيضًا:

إن ابن عفان الذى جرّبتم ... فطم اللصوص بمحكم الفرقان

ما زال يعمل بالكتاب مهيمنًا ... فى كل عنق منهم وبنان (٣)

٣ ـ رجل قتل تاجرًا لماله:

كان ذلك فى خلافة عثمان وكانت العقوبة: القتل قصاصًا (٤).

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥٥).

(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢١٨، ٢١٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٢).

(٤) عصر الخلافة الراشدة، ص١٥٣.

٤ ـ عقوبة الساحر:

حدث فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه أن جارية لحفصة سحرتها، فاعترفت الجارية بذلك، فأمرت حفصة بها عبد الرحمن بن زيد فقتلها، فأنكر ذلك عليها عثمان، فقال ابن عمر: ما تنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها واعترفت؟ فسكت عثمان، وعثمان لم ينكر على حفصة القتل، ولكنه أنكر عليها الافتئات على حق الإمام فى إقامة الحدود، فإن أمر الحدود إلى الإمام، وهذا ما يدل عليه قول ابن عمر: ما تنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها واعترفت؟ يعنى أن القضاء فيها واضح، وأن استحقاقها القتل لا تدفعه شبهة(١).

٥ ـ جناية الأعمى:

الأعمى قائده كالآلة، يتحرك بأمره، وهو مع مُجالسه غفل، يتحرك وهو قد يتردى فى حركته أو يتضرر، فلا يتوقع أنه يتحاشى إضرار غيره بحركته وهو لا يراه، ولذلك فإنه إذا ما جنى على قائده أو مَنْ جالسه دُون قصد فجنايته هدر، قال عثمان ابن عفان: أيما رجل جالس أعمى فأصابه الأعمى بشىء، فهو هدر(٢).

٦ ـ جناية المقتتلين على بعضهما:

قد يقع شجار بين الأشخاص فيجنى كل واحد من المتشاجرين على صاحبه، فإن حصل شىء من هذا فالواجب القصاص؛ لأن هذه الجناية جناية عمد، إذ الظاهر أن كل واحد منهما حريص على أن ينال من صاحبه، قال عثمان بن عفان رضى الله عنه: إذا اقتتل المقتتلان فما كان بينهما من جراح فهو قصاص(٣).

٧ ـ الجناية على الحيوان:

إذا وقعت الجناية على الحيوان فالواجب فيها الضمان بالقيمة، فعن عقبة بن عامر قال: قتل رجل فى خلافة عثمان بن عفان كلبًا لصيد لا يعرف مثله فى الكلاب،

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص٩٩.

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٠٠.

فقوم بثمانمائة درهم، فألزمه عثمان تلك القيمة، وأغرم رجلاً ثمن كلب قتله عشرين بعيراً(١).

٨ ـ الجناية على الصائل:

إذا صال شخص على مال شخص آخر أو على نفسه أو على عرضه فقتله المصول عليه أثناء اعتدائه فدمه هدر، فقد روى ابن حزم في المحلى أن رجلاً رأى مع امرأته رجلاً فقتله، فارتفع إلى عثمان، فأبطل دمه(٢).

٩ ـ استتابة المرتد وحدّه:

لا يقام الحد على المرتد حتى يستتاب ثلاثًا، فإن أصرّ على ردته قُتل، وحدث أن أخذ عبدُ الله بن مسعود بالكوفة رجالاً ارتدوا عن الإسلام وأخذوا يُنعِشون حديث مسيلمة الكذاب، فكتب فيهم إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فكتب عثمان إليه: أن اعرض عليهم دين الحق وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن قبلها وبرئ من مسيلمة فلا تقتله، ومن لزم دين مسيلمة فاقتله، فقبلها رجال منهم فتركوا، ولزم دين مسيلمة رجال فقتلوا(٣).

١٠ ـ إني قتلت فهل لي من توبة؟

قال رجل لعثمان: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه عثمان من أول سورة غافر: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ ـ ٣]، ثم قال له: اعمل ولا تيأس(٤)، والجدير بالذكر أن التوبة من الآثام إذا ارتكبت في حق العباد، لا بد فيها من أداء الحقوق لأصحابها أو تنازلهم عنها(٥).

---

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٠٢.

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٠.

(٤) سنن البيهقي (٨/١٧).

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٩٣.

١١ ـ حد الخمر:

المعروف أن رسول الله ﷺ قد عاقب الحر إذا شرب الخمر بأربعين جلدة، ضربه القوم بالنعال وأطراف الثياب امتهانًا له، وكذلك أبو بكر، وكذلك عمر فى أول خلافته، ثم لم يلبث أن زاد العقوبة بمشورة من الصحابة إلى ثمانين جلدة، لمّا رأى الناس يتحاقرون هذه العقوبة ولا يرتدعون بها، أما عثمان بن عفان فقد ثبت عنه أنه جلد الحر أربعين جلدة، وثبت عنه أنه جلده ثمانين جلدة، ولم يكن ذلك منه عن تشهٍّ أو هوى، ولكنه فرق بين الشاربين فلم يعاقب من كان شربه زَلّةً منه عقوبة من أدمن شربها، فجعل عقوبة من كان شربه لها أول مرة، وكانت منه زلة أربعين جلدة، وجعل عقوبة من اعتاد شربها ومن أدمن عليها ثمانين جلدة، وكأنه كان يجعل الأربعين الأولى حدًا، والأربعين الثانية تعزيرًا[1].

١٢ ـ إقامة الحد على أخيه من أمه: الوليد بن عقبة:

عن حصين بن المنذر، قال: شهدت عثمان بن عفان، وأتى بالوليد فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران، أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا علىّ قم فاجلده، فقال علىّ: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولّ حارّها من تولى قارّها[2]، فكأنه وجد عليه، فقال يا عبد الله بن جعفر قم فاجلده، فجلده وعلى يعدّ، حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبى ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنّة، وهذا أحب إلىّ[3]، ويؤخذ من هذا الحديث بأن سلف عثمان رضى الله عنهم نفذوا هذا الحد، وبأن للمنفذ أو المأمور أن ينيب عنه غيره، ويؤخذ منه ـ أيضًا ـ قوة عثمان فى الحق وأنه لا تأخذه فى الله لومة لائم، فالوليد بن عقبة بن أبى معيط أخوه لأمه[4]، وتنفيذ الأحكام الشرعية هو أحب أعمال الشرطة[5].

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان ص٩٣.
(٢) أى: ولّ شدتها وأوساخها من تولى هنيئها ولذاتها.
(٣) شرح النووى على صحيح مسلم، كتاب الحدود (١١/ ٢١٦).
(٤) ولاية الشرطة فى الإسلام، د. نمر الحميدانى، ص١٠٥
(٥) المصدر نفسه، ص١٠٤

١٣ ـ سرقة الغلام:

لا يقام حد السرقة إلا إذا كان السارق بالغًا عاقلاً مختاراً عالمًا بالتحريم، وقد أُتِيَ لعثمان بغلام سرق، فقال: انظروا إلى مؤتزره، فنظروا فلم يجدوه أنبت، فلم يقطعه(١).

١٤ ـ الحبس تعزيراً:

استعار ضابى بن الحارث البرجمى فى زمان الوليد بن عقبة من قوم من الأنصار كلبًا يدعى قَرْحان، يصيد الظباء، فحبسه عنهم، فنافره الأنصاريون واستغاثوا عليه بقومه فكاثروه، فانتزعوه منه، وردوه على الأنصار، فهاجمهم وقال فى ذلك:

تَجَشَّمَ دونى وَفد قرحان خطة ... تَضلُّ لها الوجناءُ وهى حسيرُ

فباتوا شباعًا ناعمين كأنما ... حباهم ببيت المرزُبان أميرُ

فكلبكم لا تتركوا فهو أُمُّكم ... فإن عقوق الأمّهات كبيرُ

فاستعدوا عليه عثمان، فأرسل إليه، فعزره وحبسه كما كان يصنع بالمسلمين، فاستثقل ذلك، فما زال فى الحبس حتى مات فيه(٢).

١٥ ـ حد القذف بالتعريض.

كان عثمان رضى الله عنه يقيم حد القذف بالتعريض به، فقد قال رجل لآخر: «يا ابن شامّة الوَذْر» ـ يعرض له بزنا أمه ـ فاستعدى عليه عثمان بن عفان، فقال الرجل: إنما عنيت كذا وكذا، فأمر به عثمان فجلد الحد ـ أى حد القذف ـ ولم يلتفت إلى تفسير مراده مما قال(٣).

١٦ ـ عقوبة الزنا:

إذا ثبت الزنا على رجل أو امرأة وكان حراً محصنًا، فإنه يعاقب بالرجم بالحجارة

---

(١) صحيح التوثيق، ص٧٧. وموسوعة فقه عثمان، ص١٧١

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٢٠).

(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٤٧.

حتى الموت، وقد زنت امرأة محصنة فى عهد عثمان بن عفان فقضى عثمان برجمها، ولم يحضر رجمها (١)

١٧ ـ التعزير بالنفي والطرد:

بلغ عثمان أن ابن الحبكة النَّهدى يعالج نيرنجا ـ قال محمد بن سلمة: إنما نيرج ـ أخذ كالسحر وليس به ـ فأرسل إلى الوليد بن عقبة ليسأله عن ذلك، فإن أقر به فأوجِعْه، فدعا به فسأله، فقال: إنما هو رفق وأمر يعجب منه، فأمر به فعزِّر، وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان، إنه قد جُدَّ بكم، فعليكم بالجد، وإياكم والهُزَّال، فكان الناس عليه، وتعجبوا من وقوف عثمان على مثل خبره، فغضب فنفر فى الذين نفروا، فضرب معهم، فكتب إلى عثمان فيه، فلما سيِّر إلى الشام من سيِّر، سيِّر كعب بن ذى الحبكة ومالك بن عبد الله ـ وكان دينه على دينه ـ إلى دُنباوَند فقال فى ذلك كعب بن ذى الحبكة للوليد:

لعَمْرى لئن طردتنى ما إلى التى	طمعت بهـا من سقطتى لسبيل
رجوتُ رجوعى يا ابن أروى ورجعتى	إلى الحقِّ دهراً غـال ذلك غُولُ
وإنَّ اغترابى فى البلاد وجـفوتى	وشتـمى فى ذات الإله قليـــلُ
وإن دُعــائى كلَّ يــوم وليلــة	عليـــك بدُنبـاوندِكُمْ لطــويل (٢)

١٨ ـ دفع الناس عن جنازة العباس:

عن عبد الرحمن بن يزيد أنه قال: لمّا أتى بجنازة العباس بن عبد المطلب إلى موضع الجنائز تضايق الناس فتقدموا به إلى البقيع، ولقد رأيتنا يوم صلّينا عليه بالبقيع، وما رأيت مثل ذلك الخروج على أحد من الناس قط، وما يستطيع أحد أن يدنو من سريره، وغلب عليه بنو هاشم، فلما انتهوا إلى اللّحد ازدحموا عليه، فأرى عثمان اعتزل وبعث الشرطة يضربون الناس عن بنى هاشم، حتى خلص بنو هاشم

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ١٦٤.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/٤١٩).

فكانوا هم الذين نزلوا فى حفرته ودلّوه فى اللحد[١]، وهذا يدل على كثرة رجال الشرطة آنذاك، ويعتبر عثمان رضى الله عنه لدى بعض المؤرخين[٢]، أول من اتخذ صاحب شرطة من الخلفاء، وقد أسند هذه المهمة فى المدينة إلى الصحابى الجليل المهاجر بن قنفذ بن عمير القرشى[٣]، وهذا يدل على عنايته بها، وأن صيتها قد ذاع فى عهده، وفى الكوفة كان عبد الرحمن الأسدى على شرطة سعيد بن العاص (واليها لعثمان)، كما كان نصير بن عبد الرحمن على شرطة معاوية بن أبى سفيان (والى عثمان على الشام)[٤].

وفى الحقيقة لا يُعلم خليفة فى الإسلام بعد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يقيم الحدود على القريب والبعيد، والشريف والوضيع والغنى والفقير، ولا يبالى، ويعطى كل ما يطلب منه من إصلاح أو حقوق كعثمان رضى الله عنه وكفاه فخراً أن ينتمى لحكم الخلافة الراشدة[٥].

ثانياً: فى العبادات والمعاملات:

١ ـ إتمام عثمان الصلاة بمنى وعرفات:

فى حج عام ٢٩هـ، صلَّى عثمان رضى الله عنه بمنى أربعًا، فأتى آت عبد الرحمن ابن عوف، فقال: هل لك فى أخيك؟ قد صلى بالناس أربعًا، فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين، ثم خرج حتى دخل على عثمان، فقال له: ألم تصل فى هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصل مع أبى بكر ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصل مع عمر ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى، قال: فاسمع منى يا أبا محمد[٦]، إنى أخبرت أن بعض

---

(١) الطبقات (٤/ ٣٢).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٩.
(٣) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص١٠٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٤٠٩).
(٦) أبو محمد كنية عبد الرحمن بن عوف، ص٢٦٨.

من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا فى عامنا الماضى: إن الصلاة للمقيم ركعتان، هذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلاً، فرأيت أن أصلى أربعًا لخوف ما أخاف على الناس، وأخرى قد اتخذت بها زوجة، ولى بالطائف مال، فربما اطلعته فأقمت فيه بعد الصَّدَر، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما من هذا شىء لك فيه عذر، أما قولك: اتخذت أهلاً، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت وتقدم بها إذا شئت، إنما تسكن بسكناك، وأما قولك: ولى مال بالطائف، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف، وأما قولك: يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون: هذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين وهو مقيم، فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمر، فضرب الإسلام بجرانه، فصلى لهم عمر حتى مات ركعتين. فقال عثمان: هذا رأى رأيته، فخرج عبد الرحمن فلقى ابن مسعود، فقال: أبا محمد، غير ما يعلم؟ قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم، فقال ابن مسعود: الخلاف شر، قد بلغنى أنه صلَّى أربعًا فصليت بأصحابى أربعًا، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغنى أنه صلَّى أربعًا فصليت بأصحابى ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذى تقول ـ يعنى نصلى معه أربعًا[1].

إن عثمان صنع ما صنع من إتمام الصلاة فى منى وعرفات، شفقة على ضعفاء المسلمين أن يفتنوا فى دينهم، فقد أبدى لفعله سببًا معقولاً حينما سأله عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه وعما دعاه إليه، فلما أطلعه عثمان رضى الله عنه على وجهة نظره، أخذ عبد الرحمن بقوله وأتم الصلاة بأصحابه، وكذلك صنع عبد الله بن مسعود وغيره من جمهور الصحابة، فتابعوه ولم يخالفوه؛ لأنه إمام راشد تجب متابعته فيما لم يخرج عن حدود الشريعة المطهرة، ولو كان فيما جاء به عثمان أدنى شبهة لمخالفة نص شرعى ما أمكن مطلقًا جمهور الصحابة أن يتابعوه[2]، والذى أبداه عثمان فى تحاوره مع عبد الرحمن بن عوف واحتج به لرأيه معقول المعنى، ولو تأمل

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٨).

(٢) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٩٢.

فيه نظّار فى أسرار الدين وحكم الشريعة لرأى أن إتمام الصلاة الذى انتهى إليه رأى عثمان أرجح حينئذٍ من قصرها، وقد حدث من الأمور ما لم يكن على عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر، فخاف عثمان أن يفتن الناس فى صلاتهم، ولا سيما جفاة الأعراب فى مضاربهم، ومن بعدت بلادهم فى أطراف الأرض، وقد لا يتصل بهم من أهل العلم من يعلمهم ويرشدهم، فأراد عثمان بما صنع حسم هذا الشر المخوف على كثير من ضعفاء المسلمين، وقد بالغ عثمان رضى الله عنه فى إبعاد الشبهة عن نفسه، فقال: إنه اتخذ بمكة أهلاً، وله بالطائف مال ربما نظر إليه وأقام فيه بعد انتهاء الموسم، فيكون حينئذٍ مقيمًا، ففرضه الإتمام، وذلك منه رضى الله عنه من دقيق النظر فى الدين، وفهم أسراره وحكمه[1].

وقد رأى جماعة من الصحابة إتمام الصلاة فى السفر منهم: عائشة، وعثمان، وسلمان وأربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ[2]، فعثمان رضى الله عنه لم يوجب القصر فى السفر، وإنما كان يجتهد كما رآه فقهاء المدينة ومالك والشافعى وغيرهما. ثم إنها مسألة اجتهادية ولذلك اختلف فيها العلماء فقوله فيها لا يوجب تكفيراً ولا تفسيقًا[3]، وأما قول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ الخلاف شر[4]. وفى رواية: إنى أكره الخلاف[5]، ففيه ترشيد لنا وتذكير على استحباب الخروج من الخلاف فى مسائل الاجتهاد، ويحسن بالمسلم أن يستحضرها ويحاول أن يقلل الخوض والجدال فى الفروع المختلف فيها[6]، إذ الظروف المحيطة بنا.. لا تساعدنا على إضاعة مزيد من الوقت الثمين فى الجدل والخلاف عما يجب أن نفعله لمواجهة التحديات الخطيرة[7] كما أن فى فعل ابن مسعود وابن عوف رضى الله عنهما من الصلاة خلف عثمان بيانًا لحرص الصحابة على الاجتماع والوحدة، وهذا خلق عظيم من أخلاق جيل النصر.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٩٤.

(٢) كتاب الإمامة والرد على الرافضة للأصبهانى، ص٣١٢.

(٣) الرياض النضرة، ص٥٦٦.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٢٦٨).

(٥) القواعد الفقهية للندوى، ص٣٣٦.

(٦) فقه الأولويات، لمحمد الوكيلى، ص١٦٩.

(٧) الفكر الإسلامى بين المثالية والتطبيق، كامل الشريف، ص٢٩.

٢ ـ زاد الأذان الثانى يوم الجمعة:

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدى»[١]، وهذه الزيادة من سنّة الخلفاء الراشدين، ولا شك أن عثمان من الخلفاء الراشدين ورأى مصلحة أن يزاد هذا الأذان؛ لتنبيه الناس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتسعت رقعة المدينة، فاجتهد فى هذا ووافقه جميع الصحابة واستمر العمل به لم يخالفه أحد حتى فى زمن على وزمن معاوية وزمنى بنى أمية وبنى العباس إلى يومنا هذا فهى سنّة بإجماع المسلمين[٢]، ثم هو له أصل فى الشرع، وهو الأذان الأول فى الفجر فقاس عثمان هذا الأذان عليه[٣]. لقد سن عثمان ذلك أخذًا من سنّة الرسول ﷺ وأذانه الذى شرعه فى الفجر قبل دخول الوقت لينبه النائم ويستعد اليقظان ومريد الصيام، فهو مستن بسنّة الرسول ﷺ وآخذ من طريقته، وقد اختلف أهل العلم: هل أوقعه قبيل دخول الوقت كما هو الحال فى الأذان الأول من الفجر أم أوقعه فى الوقت؟ ويميل الحافظ إلى أن وقوعهما كان إعلامًا بالوقت، قال فى فتح البارى: وتبين أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياسًا على بقية الصلوات فألحق الجمعة بها وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدى الخطيب. وفيه استنباط معنى من الأصل لا يبطله، وأما ما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها والذكر والصلاة على النبى ﷺ فهو فى بعض البلاد دون بعض، واتباع السلف الصالح أولى[٤]، وأما الذين قالوا إنه أحدث قبيل دخول الوقت، قالوا: لأن الغرض منه الإعلام بالجمعة والسعى إليها على غرار الأذان الأول فى الفجر، فلو كان بعد دخول الوقت لما أدى المعنى المطلوب إلا بتأخير الجمعة بعض الشىء وهو خلاف السنّة، وبه يُستغنى عما أحدثه الناس فى التذكير والذكر وغيرهما مما أشار إليه الحافظ ولم ينكره إلا بقوله: «واتباع السلف الصالح أولى»[٥].

---

(١) سنن أبى داود، كتاب السنة رقم ٤٦٠٧. وسنن الترمذى، كتاب العلم رقم٢٦٧٦.

(٢) حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، ص٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٤) فتح البارى (٤/ ٣٤٥).

(٥) السنة والبدعة، لعبد الله باعلوى الحضرمى، ص١٣٢، ١٣٣

٣ ـ اغتساله كل يوم منذ أسلم:

كان عثمان بن عفان يغتسل كل يوم منذ أسلم[١]، وقد صلى ذات يوم الصبح بالناس وهو جنب دون أن يدرى، فلما أصبح رأى فى ثوبه احتلامًا، فقال: كبرتُ والله إنى لأُرانى أجنبُ ولا أعلم، ثم أعاد الصلاة[٢]، ولم يُعد من صلَّى خلفه[٣].

٤ ـ سجود التلاوة:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى أن سجود التلاوة يجب على المكلف التالى للقرآن، وعلى الجالس لسماع القرآن، أما من سمعه من غير قصد فليس عليه سجود التلاوة، فقد مر رضى الله عنه بقاصّ، فقرأ القاص سجدة ليسجد معه عثمان، فقال عثمان: إنما السجود على من استمع، ثم مضى ولم يسجد[٤]. وقوله: على من استمع: يعنى على من قصد السماع، وقال رضى الله عنه: إنما السجدة على من جلس لها[٥]، وروى عن عثمان أن الحائض إذا استمعت السجدة تومئ بها إيماءً، ولا تتركها، ولا تسجد لها سجود الصلاة[٦].

٥ ـ صلاة الجمعة فى السواحل:

قال الليث بن سعد: كل مدينة أو قرية فيها جماعة أمروا بالجمعة، فإن أهل مصر وسواحلها كانوا يجمعون الجمعة على عهد عمر، وعثمان بأمرهما، وفيهما رجال من الصحابة[٧].

٦ ـ استراحة عثمان فى الخطبة:

عن قتادة أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يخطبون يوم الجمعة، حتى

---

(١) فضائل الصحابة رقم ٧٥٦ إسناده حسن.
(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٩٠
(٣) المصدر نفسه، ص١٩٢
(٤) الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، د. يحيى اليحيى، ص٤٤٤.
(٥، ٦) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٦٨
(٧) فتح البارى (٢/ ٤٤١).

شق القيام على عثمان، فكان يخطب قائمًا ثم يجلس، فلما كان معاوية خطب الأولى جالسًا، والأخرى قائمًا (1).

٧ ـ جعل القنوت قبل الركوع:

قال أنس: إن أول من جعل القنوت قبل الركوع ـ أى دائمًا ـ عثمان، لكى يدرك الناس الركعة (2).

٨ ـ أعلم الناس بأحكام الحج:

يقول محمد بن سيرين: كانوا يرون أن أعلم الناس بالمناسك عثمان بن عفان ثم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما (3).

٩ ـ النهى عن الإحرام قبل الميقات:

لما فتح عبد الله بن عامر خراسان قال: إن هذا نصر من الله لا بد لى من أن أشكره عليه، ولأجعلن شكرى لله أن أخرج من موضعى هذا ـ خراسان ـ محرمًا، فأحرم من نيسابور، وخلف على خراسان الأحنف بن قيس، فلما قضى عمرته أتى عثمان بن عفان، وذلك فى السنة التى قتل فيها، فقال له عثمان: لقد غررت بعمرتك حين أحرمت من نيسابور(4).

١٠ ـ سفر المعتدة للحج والعمرة:

المعروف أن المعتدة لا تبيت إلا فى بيتها، ولا تسافر إلا بعد انتهاء عدتها؛ لأن سفرها يقتضى مبيتها فى غير بيتها، والحج لا يخلو من سفر، ولذلك فإن عثمان كان يرى أن المعتدة لا يلزمها الحج ما دامت فى العدة، وكان رضى الله عنه يرجع المعتدة حاجة أو معتمرة من الجحفة وذى الحليفة(5).

---

(١) الخلافة الراشدة، ليحيى اليحيى، ص٤٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٤. وفتح البارى (٢/ ٥٦٩).
(٣) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١١٢.
(٤) سنن البيهقى (٥/ ٣١). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٧.
(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١١٢.

١١ ـ النهى عن متعة الحج:

نهى عثمان رضى الله عنه عن المتعة أو الجمع بينهما ليعمل بالأفضل لا ليُبْطِلَ المتعة. ولا يخفى على عثمان ومن دونه أن من أراد الإحرام فهو مخير بين الإفراد، والقِران، والتَّمَتُّع، ولكنه رضى الله عنه رأى الإفراد أفضل من الاثنين، فعن مروان ابن الحكم، قال: شهدت عثمان وعليًا رضى الله عنهما وعثمان ينهى عن المتعة وأن يُجمع بينهما، فلما رأى علىٌّ ذلك أهَلَّ بهما لبيك بعمرة وحجة، وقال: ما كُنتُ لأدع سنّة النبى ﷺ لقول أحد[1]، ولم ينكر عثمان على علىٍّ ذلك منه؛ لأن عليًا رضى الله عنه كان يخشى أن يحمل غيره النهى على الإبطال والتحريم، وإنما قال: ما كنت لأدع سنّة رسول الله ﷺ لقول أحد، ليظهر جواز ذلك وأنها سنّة ماضية، وكلاهما مجتهد مأجور[2]، وفى الحديث من الفوائد الظاهرة: مناظرة العلماء ولاة الأمر بقصد إشاعة العلم ومناصحة المسلمين، وسعة صدر الولاة، لاجتهاد العلماء فى المسائل التى يتسع معها الاجتهاد، وأن المجتهد لا يجبر مجتهدًا آخر باتباعه لسكوت عثمان عن على، وفيه أن العلم يسبق القول والعمل[3].

١٢ ـ أكل لحم الصيد:

لا يجوز للمحرم أن يأكل من الصيد الذى صاده هو، أو صاده غيره من الحلال[4]، فعن عبد الرحمن بن حاطب أنه اعتمر مع عثمان بن عفان فى ركب، فلما كان بالرّوحاء قدم لهم لحم طير ـ يعاقيب ـ فقال عثمان: كلوا، وكره أن يأكل منه، فقال عمرو بن العاص: أنأكل مما لست منه آكلاً؟! قال عثمان: لست فى ذلك مثلكم، إنما صيدت لى، وأميتت باسمى، أو قال: من أجلى[5]. وقد تكرر ذلك من عثمان مرة أخرى، كما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم فى يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أُتِىَ بلحم صيد

(١) البخارى، كتاب الحج رقم ١٥٦٣.

(٢، ٣) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص٨٦.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٠.

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٠.

فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: ألا تأكل أنت؟ قال: إنى لست كهيئتكم، إنما صيد من أجلى[1]

١٣ ـ كراهية الجمع بين القرابة فى الزواج:

أخرج الخلال من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه عن أبى بكر وعمر وعثمان أنهم كانوا يكرهون الجمع بين القرابة مخافة الضغائن[2].

١٤ ـ فى الرضاعة:

روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن شهاب قال: فرق عثمان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أرضعتهم[3]

١٥ ـ فى الخلع:

عن الرُّبَيِّع بنت معوذ قالت: كان بينى وبين ابن عمى كلام، وكان زوجها، قالت: فقلت له: لك كل شىء وفارقنى، قال: قد فعلت. فأخذ والله كل شىء حتى فراشى، فجئت عثمان وهو محصور، فقال: الشرط أملك، خذ كل شىء حتى عقاص رأسها[4]، وفى رواية اختلعت من زوجى بما دون عقاص رأسى فأجاز ذلك عثمان[5]

١٦ ـ يجب الإحداد على المعتدة لوفاة زوجها:

ومن الإحداد ترك الزينة، وترك المبيت فى غير البيت الذى توفى فيه زوجها إلا لضرورة، ويجوز لها أن تخرج نهاراً لقضاء حاجتها، ولكنها لا تبيت فى المساء إلا فى بيتها[6]، فعن فُريعة بنت مالك بن سنان أخت أبى سعيد الخدرى أنها جاءت إلى

(١) سنن البيهقى، (٥/ ١٩١). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٠.
(٢) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحيى، ص٤٤٩.
(٣) الفتح (٥/ ١٨).
(٤) الطبقات (٨/ ٤٤٨).
(٥) الخلافة الراشدة، د. يحيى اليحيى، ص٤٤٩.
(٦) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٤٤.

رسول الله ﷺ، فأخبرته أن زوجها خرج فى طلب أعبُد له، فقتلوه بطرف القُدوم، فسألت رسول الله أن أرجع إلى أهلى فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: نعم، قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ أو أمر بى فنوديتُ فقال: (كيف قلت؟) فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى، فقال: امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتابُ أجله، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلىَّ، فسألنى عن ذلك؟ فأخبرته، فاتبعه وقضى به[1]، ولذلك كان عثمان يتشدد فى أمر مبيت المرأة المعتدة خارج بيتها، فقد حدث أن امرأة توفى عنها زوجها زارت أهلها فى عدتها، فضربها الطلق، فأتوا عثمان فسألوه فقال: احملوها إلى بيتها وهى تطلق[2].

١٧ ـ لا تنكحها إلا نكاح رغبة:

جاء رجل إلى عثمان فى خلافته وقد ركب، فسأله، فقال: إن لى إليك حاجة يا أمير المؤمنين، فقال له عثمان: إنى الآن مستعجل فإن أردت أن تركب خلفى حتى تقضى حاجتك، فركب خلفه، فقال: إن لى جاراً طلق امرأته فى غضبه، ولقى شدة، فأردت أن أحتسب بنفسى ومالى فأتزوجها ثم أبتنى بها ثم أطلقها فترجع إلى زوجها الأول، فقال له عثمان: لا تنكحها إلا نكاح رغبة[3].

١٨ ـ طلاق السكران:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى أن كل ما يتكلم به السكران فهو هدر، فلا تصح عقوده، ولا فسوخه، ولا إقراره، ولا يقع طلاقه؛ لأنه لا يعى ما يقول ولا يريد ما يقول، ولا إلزام لغير إرادة[4]، قال عثمان رضى الله عنه: ليس لسكران ولا مجنون طلاق[5].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٤. والموطأ (٢/ ٥٩١).

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٨١.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٥٣. والفتاوى (١٤/ ٧٢).

(٥) الفتاوى (٣٣/ ٦١). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٥٣.

١٩ ـ هبة الوالد لولده:

إذا نحل الأب ولده نحلة، كان عليه أن يشهد على هذه الهبة، فإذا أشهد عليها اعتبر هذا الإشهاد قبضًا لها، وصح أن تبقى بعد ذلك فى يد الأب، فقد ورد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قوله: من نحل ولدًا له صغيرًا لم يبلغ أن يجوز نحلة، فأعلن ذلك وأشهد عليه فهى جائزة وإن وليها أبوه[١]، وأما إذا لم يشهد ولم يسلمه للولد فهى هبة غير لازمة، قال عثمان رضى الله عنه: ما بال أقوام يعطى أحدهم ولده العطية، فإن مات ولده قال: مالى وفى يدى، وإن مات هو قال: وهبته، لا يثبت من الهبة إلا ما حازه الولد من مال أبيه[٢].

٢٠ ـ الحجر على السفيه:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى الحجر على السفيه، فقد حدث أن اشترى عبد الله بن جعفر أرضًا بمبلغ ستين ألف دينار، فبلغ ذلك على بن أبى طالب، فقرَّر علىٌّ أن الأرض لا تساوى هذا المبلغ من المال، وأن عبد الله بن جعفر قد غُبن فيها غبنًا فاحشًا، بل إنه قد تصرف تصرفًا أخرق، وأعرب أنه سيتوجه نحو أمير المؤمنين عثمان بن عفان ليطلب منه الحجر على عبد الله بن جعفر لسفهه وإساءته التصرف فى ماله، فأسرع عبد الله بن جعفر إلى الزبير ـ وكان تاجرًا حاذقًا ـ وقال له: إنى ابتعت بيعًا كذا وكذا، وإن عليًا يريد أن يأتى عثمان فيسأله أن يحجر علىّ، فقال له الزبير: فأنا شريكك فى البيع، وأتى علىٌّ عثمان بن عفان فقال له: إن ابن أخى اشترى سبخة بستين ألفًا ما يسرنى أنها لى بنعلىَّ، فاحجر عليه، وقال الزبير لعثمان: أنا شريكه فى هذا البيع، فقال عثمان بن عفان لعلى بن أبى طالب: كيف أحجر على رجل فى بيع شريكه فيه الزبير[٣]؟ يعنى أننا لا نستطيع أن نحكم على جعفر بالسفه لتصرف تصرفه شريكه فيه الزبير؛ لأن الزبير لا يمكن أن يشارك فى تصرف تجارى أخرق لحذقه بالتجارة[٤].

---

(١) سنن البيهقى (٦/ ١٧٠). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٨٨.

(٢) الفتاوى (٣١/ ١٥٤).

(٣) سنن البيهقى (٦/ ٦٦١). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١١٩.

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١١٩.

٢١ ـ الحجر على المفلس:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يرى الحجر على المفلس، وإذا حُجر على مفلس اقتسم الدائنون ماله بنسبة ديونهم، لكن إن وجد بعض دائنيه سلعته التى باعه إياها بعينها عنده، جاز له أن يفسخ البيع ويأخذ سلعته[١]، فهو أحق بها من غيره[٢]

٢٢ ـ تحريم الاحتكار:

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يمنع الاحتكار وينهى عنه[٣]، ويظهر أن عثمان ابن عفان كان كسلفه عمر بن الخطاب لا يفرق فى تحريم الاحتكار بين الطعام وغيره؛ لأن نهيه عن الاحتكار كان عامًا، خاصة أن ما ورد عن رسول الله فى تحريم الاحتكار منه ما هو مطلق فى كل شىء، ومنه ما هو مقيّد ـ عند الجمهور ـ لعدم التعارض بينهما، بل يبقى المطلق على إطلاقه[٤]

٢٣ ـ ضوال الإبل:

روى مالك أنه سمع ابن شهاب يقول: كانت ضوال الإبل فى زمن عمر بن الخطاب، إبلاً مرسلة تناتج لا يمسها أحد، حتى إذا كان زمن عثمان بن عفان أمر بتعريفها ثم تباع، فإذا جاء صاحبها أعطى ثمنها[٥]، وقد كان فعل عمر تبعًا لحديث الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ، فسأله عما يلتقطه، فقال: اعرف عفاصها ووكاءها[٦] ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها، قال: فضالة الغنم يا رسول الله؟ قال: هى لك، أو لأخيك أو للذئب، قال: فضالة الإبل؟ قال: ما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها[٧]

---

(١) سنن البيهقى (٦/ ٤٦).

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١١٩

(٣) موطأ مالك (٢/ ٦٥١).

(٤) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص١٥

(٥) موطأ مالك، ص٦٤٨ ـ ٦٤٩، طبعة دار الآفاق الجديدة.

(٦) العفاص: الوعاء الذى تحفظ فيه النفقة. والوكاء: الخيط الذى يتربط به.

(٧) البخارى، كتاب اللقطة رقم٢٤٢٧، ٢٤٢٨، ٢٤٢٩.

وقد رأى الأستاذ الحجوى أن هذا الاجتهاد من عثمان بن عفان رضى الله عنه مبنى على المصلحة المرسلة؛ لأنه رأى الناس مدوا أيديهم إلى ضوال الإبل، فجعل راعيًا يجمعها، ثم تباع قيامًا بالمصلحة العامة[1]، غير أن الأستاذ عبدالسلام السليمانى رد على هذا القول بقوله: غير أنه من الصعب التسليم بمقالة الأستاذ الحجوى على إطلاقها؛ لأن المصلحة المرسلة هى التى لم ينص الشارع لا على اعتبارها ولا على إلغائها، فى حين أن النبى ﷺ قد نص على حكم ضوال الإبل فى الحديث المذكور أعلاه، فهى إذن مصلحة معتبرة نص عليها النبى بنفسه، فلا يصح أن يقال إن ما فعله عثمان من بيع ضوال الإبل يعد مصلحة مرسلة، فالمصلحة المرسلة لا تكون فى مقابلة النص.

والذى يظهر لنا أن اجتهاد عثمان فى هذه القضية بنى على المصلحة العامة فعلاً لكنها ليست مصلحة مرسلة، وأن هذه القضية من القضايا القابلة للاجتهاد، والتى يمكن أن يتغير حكمها بتغير الأزمنة والأحوال وبالنظر إلى ما يحقق مصلحة أصحاب ضوال الإبل؛ لأن علة الحكم فيها ـ على ما يظهر ـ هى المحافظة على هذه الإبل إما بأعيانها أو فى شكل ثمنها وكلا الأمرين مصلحة، ولا شك أن سيدنا عثمان بصنيعه هذا كان هدفه تحقيق المصلحة العامة؛ لأنه رأى أن ترك الإبل على حالها كما كان الأمر فى عهد النبى ﷺ وإلى زمن عمر يعرضها لضياع بعد أن تغيرت أخلاق الناس، وأصبحوا يمدون أيديهم لضوال الإبل، فرأى أن يقطع الطريق عليهم بما فعل، وهو اجتهاد سليم، وحكم (سديد) بلا ريب[2].

٢٤ ـ توريث المرأة المطلقة فى مرض الموت:

طلق عبد الرحمن بن عوف زوجته وهو مريض فورثها عثمان منه بعد انقضاء مدة عدتها، وقد روى أن شريحًا كتب إلى عمر بن الخطاب فى رجل طلق امرأته ثلاثًا وهو مريض، فأجاب عمر أن ورثها ما دامت فى عدتها، فإن انقضت عدتها فلا

(١) الفكر الإسلامى (١/ ٢٤٥).

(٢) الاجتهاد فى الفقه الإسلامى، ص١٤٣، ١٤٤

ميراث لها، فبعد أن اتفقا على أن طلاق المريض مرض الموت لا يزيل الزوجية كسبب موجب للإرث، جعل عمر حدًا لذلك وهو العدة، بينما لم يجعل عثمان حدًا لذلك، وقال: ترث مطلقها سواء مات فى العدة أو بعدها، وليس فى المسألة نص يرجع إليه، والباعث على الحكم هو معاملة الزوج بنقيض قصده؛ لأن الزوج بطلاقه فى مرض الموت يعتبر فارًا من توريث زوجته(١).

٢٥ ـ توريث المطلقة ما لم تنقض عدتها:

قال عثمان بن عفان: إذا مات أحد الزوجين قبل الحيضة الثالثة للمطلقة ورث الحى منهما الميت(٢)، ولا يمنع التوارث بينهما طول فترة العدة كما إذا حاضت المعتدة حيضة أو حيضتين ثم ارتفعت حيضتها، فقد طلق حبّان بن منقذ امرأته وهو صحيح، وهى ترضع ابنته، فمكثت سبعة عشر شهرًا لا تحيض، يمنعها الرضاع أن تحيض، ثم مرض حبان بعد أن طلقها سبعة أشهر أو ثمانية، فقيل له: إن امرأتك ترث، فقال: احملونى إلى عثمان، فحملوه إليه، فذكر له شأن امرأته، وعنده على بن أبى طالب وزيد بن ثابت، فقال لهما عثمان: ما تريان؟ فقالا: نرى أنها ترثه إن مات، ويرثها إن ماتت، فإنها ليست من القواعد من النساء اللائى يئسن من المحيض، وليست من الأبكار اللاتى لم يحضن، ثم هى على عدة حيضها ما كان من قليل أو كثير، فرجع حبّان إلى أهله فأخذ ابنته، فلما فقدت الرضاع حاضت حيضة، ثم حاضت أخرى، ثم توفى حبّان قبل أن تحيض الثالثة، فاعتدت عدة الوفاة وورثت زوجها حبان بن منقذ(٣).

٢٦ ـ توريث الحميل:

إذا سبيت امرأة من الكفار ومعها طفل تحمله مدعية أنه ولدها ـ وهو ما يسمى بـ(الحميل) ـ فإنها لا تصدّق بدعواها، ولا يجرى التوارث بينها وبينه إلا إذا أقامت

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى، للخضرى، ص١١٨. ونشأة الفقه الاجتهادى، محمد السايس، ص٢٧. والاجتهاد فى الفقه الإسلامى، ص١٤٢.

(٢) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٨.

(٣) سنن البيهقى (٧/٤١٩). وموسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٩.

البينة على أنه ابنها، وقد استشار عثمان فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأبدى كل منهم رأيه، وقال عثمان آنئذ: ما نرى أن نورِّث مال الله إلا بالبينات. وقال: لا يُورَّث الحَميل إلا ببينة[١].

هذه بعض اجتهادات ذى النورين أثرت فى المؤسسة القضائية فى مجال القصاص والحدود والجنايات والتعزير، كما أنه ساهم فى تطوير المدارس الفقهية الإسلامية باجتهاداته الدالة على سعة اطلاعه وغزارة علمه وعمق فهمه واستيعابه لمقاصد الشريعة الغراء، فهو خليفة راشد، أعماله تسترشد بها الأمة فى مسيرتها الطويلة لنصرة دين الله تعالى وإعزازه.

* * *

(١) موسوعة فقه عثمان بن عفان، ص٢٨.

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

• تمهيد:

شجّع خبر مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعداء الإسلام وخصوصًا فى بلاد الفرس والروم على الطمع فى استرداد ملكهم، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط فى العاصمة التى يقيم فيها وهى مدينة (فرغنة) عاصمة سمرقند، وأما زعماء الروم فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، وبدءوا فى عهد عثمان فى البحث عن الوسائل التى تمكنهم من استرداد ملكهم وكانت بقايا جيوش الروم فى مصر قد تحصنوا بالإسكندرية فى عهد عمر بن الخطاب فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن بفتحها، وكانت معززة بتحصينات كثيرة وكانت المجانيق فوق أسوارها وكان هرقل قد عزم أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلف أحد من الروم؛ لأن الإسكندرية هى معقلهم الأخير[١]، وفى عصر عثمان تجمع الروم فى الإسكندرية وبدءوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فيها، حتى وصل بهم الأمر إلى نقض الصلح واستعانوا بقوة الروم البحرية[٢]، فأمدوهم بثلاثمائة سفينة بحرية تحمل الرجال والسلاح، ولقد واجه عثمان ذلك كله بسياسة تتسم بالحسم والعزم وتمثلت فى الخطة الآتية:

١ ـ إخضاع المتمردين من الفرس والروم وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد.

٢ ـ استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم.

٣ ـ إقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية.

٤ ـ إنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامى إلى ذلك[٣].

---

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢٢١.

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٢٤.

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢٢٢.

كانت معسكرات الإسلام ومسالحه فى عهد عثمان هى عواصم أقطاره الكبرى؛ فمعسكر العراق الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام فى دمشق، بعد أن خلص الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان، ومعسكر مصر وكان مركزه الفسطاط، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات، ونشر الإسلام[١]

* * *

(١) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٩٩، ٢٠٠.

المبحث الأول

فتوحات عثمان فى المشرق

أولاً: فتوحات أهل الكوفة: أذربيجان ٢٤هـ:

كانت مغازى أهل الكوفة الرّى وأذربيجان وكان يرابط بهما عشرة آلاف مقاتل: ستة آلاف بأذربيجان، وأربعة آلاف بالرّى، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل، يغزو كل عام منهم عشرة آلاف، فيصيب الرجل غزوة كل أربعة أعوام، ولما أخلص عثمان رضى الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتفض أهل أذربيجان، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر، وثاروا على واليهم عقبة بن فرقد، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم، فجهز لهم قائده سلمان بن ربيعة الباهلى، وبعثه مقدمة أمامه فى طائفة من الجند، ثم سار الوليد بعده فى جماعة من الناس، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة، فأجابهم الوليد وأخذ طاعتهم، وبث فيمن حولهم السرايا وشن عليهم الغارات، فبعث عبد الله بن شُبيل الأحمسى فى أربعة آلاف إلى أهل موقان والببر والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم وسبى، ولكنهم تحرزوا منه فلم يفل حدهم، ثم جهز سلمان الباهلى فى اثنى عشر ألفًا إلى أرمينية فأخضعها وعاد منها ملىء اليدين بالغنائم، وانصرف الوليد بعد ذلك عائدًا إلى الكوفة[1]، ولكن أهل أذربيجان تمردوا أكثر من مرة فكتب الأشعث بن قيس والى أذربيجان إلى الوليد بن عقبة، فأمده بجيش من أهل الكوفة وتتبع الأشعث الثائرين وهزمهم هزيمة منكرة فطلبوا الصلح فصالحهم على صلحهم الأول، وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرة فوضع حامية من العرب وجعل لهم عطايا وسجلهم فى الديوان، وأمرهم بدعوة الناس إلى الإسلام، ولما تولى أمرها سعيد بن العاص عاد أهل أذربيجان وتمردوا على الوالى الجديد، فبعث إليهم جرير بن عبد الله

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٦).

البجلى فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم استقرت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها وتعلموا القرآن الكريم، وأما الرى فقد صدر أمر الخليفة عثمان رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى فى وقت ولايته على الكوفة، وأمره بتوجيه جيش إليها لتمردها، فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصارى فأعاد فتحها[١].

ثانيًا: مشاركة أهل الكوفة فى إحباط تحركات الروم:

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل، جاءه أمر من الخليفة عثمان نصه: «أما بعد، فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى يخبرنى أن الروم قد أجلبت[٢] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذى يأتيك فيه رسولى[٣]، والسلام» فقام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسنًا، ورد عليهم بلادهم التى كفرت، وفتح بلادًا لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إلىَّ أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى، فانتدب الناس، فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلى فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى وملئوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصونًا كثيرة[٤]، وفى جهاد الوليد وغزوه

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢٢٤.
(٢) أجلبت: تجمعت للحرب.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).
(٤) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

يقول بعض الرواة: رأيت الشعبى جلس إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، فذكر محمد غزوة مسلمة بن عبد الملك، فقال الشعبى: كيف لو أدركتم الوليد وغزوه وإمارته، إن كان ليغزو فينتهى إلى كذا وكذا، ما قصر ولا انتقض عليه أحد حتى عزل من عمله[١]

ثالثًا: غزو سعيد بن العاص طبرستان: ٣٠هـ:

غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير، وخرج عبد الله ابن عامر من البصرة يريد خراسان، فسبق سعيدًا ونزل أبرشهر، وبلغ نزوله أبرشهر سعيدًا. فنزل سعيد قومِيس، وهى صلح، صالحهم حذيفة بعد نهاوند، فأتى جرجان، فصالحوه على مائتى ألف، ثم أتى طَمِيسة، وهى كلها من طبرستان جرجان، وهى مدينة على ساحل البحر، وهى فى تخوم جرجان، فقاتله أهلها حتى صلى صلاة الخوف، فقال لحذيفة: كيف صلى رسول الله ﷺ؟ فأخبره، فصلى بها سعيد صلاة الخوف، وهم يقتتلون، وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه، فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصرهم، فسألوا الأمان، فأعطاهم على ألا يقتل منهم رجلاً واحدًا، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعًا إلا رجلاً واحدًا، وحوى ما كان فى الحصن، فأصاب رجل من بنى نهد سفطًا عليه قفل، فظن فيه جواهر، وبلغ سعيدًا، فبعث إلى النهدى، فأتاه بالسفط، فكسروا قفله، فوجدوا فيه سفطًا، ففتحوه، فإذا فيه خرقة صفراء وفيها أيران: كُميت وورد[٢]، وعندما قفل سعيد إلى الكوفة، مدحه كعب بن جعيل فقال:

فنعم الفتى إذْ جال جيلان دونه ... وإذ هبطوا من دَستَبَى ثم أبهرا
تعلم سعيـــد الخير أن مطيتى ... إذا هبطت أشفقت من أن تُعَقَّرا

---

(١) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص٢٠١.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢١٠).

كأنك يوم الشّعب ليث خفيّة   تجرّدَ من ليث العرين وأصْحَرا

تسوس الذى ما ساس قبلك واحد   ثمانين ألفًا دارعين وحُسَّرا[1]

رابعًا: هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان:

قدم ابن عامر البصرة ثم خرج إلى فارس فافتتحها، وهرب يزدجرد من وجُور - وهى أردشير خُرَّة - فى سنة ثلاثين، فوجه ابن عامر فى أثره مجاشع بن مسعود السُّلمى، فاتبعه إلى كرْمان، فنزل مجاشع السِّيرجان بالعسكر، وهرب يزدجرد إلى خراسان[2].

خامسًا: مقتل (يزدجرد) ملك الفرس ٣١هـ:

اختلف فى سبب ذكر قتله كيف كان ، قال ابن إسحاق: هرب يزدجرد من كرمان فى جماعة يسيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه، وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحاء[3]، على شط المَرْغاب[4]، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله[5]، وجاء فى رواية عند الطبرى: . . . بل سار يزدجرد من كرمان قبل ورود العرب إياها، فأخذ على طريق الطَّبَسَيْن وقُهِستان، حتى شارف مرو فى زهاء أربعة آلاف رجل، ليجمع من أهل خراسان جموعًا، ويكر إلى العرب ويقاتلهم، فتلقاه قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمرو، يقال لأحدهما براز والآخر سنجان، ومنحاه الطاعة، وأقام بمرو، وخص براز فحسده ذلك سنجان، وجعل براز يبغى سنجان الغوائل، ويوغل صدر يزدجرد عليه، وسعى سنجان حتى عزم على قتله، وأفشى ما كان عزم عليه من ذلك إلى امرأة من نسائه كان براز واطأها، فأرسلت إلى براز بنسوة زعمت بإجماع

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧١).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٨).

(٣) الأرحاء: جمع رحا، وهى الطاحون.

(٤) المَرْغاب: نهر بمرو.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٥).

يزدجرد على قتل سنجان، وفشا ما كان عزم عليه يزدجرد من ذلك، فنذر[١] سنجان، وأخذ حذره، وجمع جمعًا كنحو أصحاب براز، ومن كان مع يزدجرد من الجند، وتوجه نحو القصر الذى كان يزدجرد نازله، وبلغ ذلك براز، فنكص عن سنجان لكثرة جموعه، ورَعَبَ جمع سنجان يزدجرد وأخافه، فخرج من قصره متنكرًا، ومضى على وجهه راجلاً لينجو بنفسه، فمشى نحوًا من فرسخين حتى وقع إلى رحًا فدخل بيت الرحا، فجلس فيه كالاً[٢] لغبًا[٣]، فرآه صاحب الرحا ذا هيئة وطرة وبرزة كريمة، ففرش له، فجلس وأتاه بطعام فطعم، ومكث عنده يومًا وليلة، فسأله صاحب الرحا أن يأمر له بشىء، فبذل له منطقة مكللة بجوهر كانت عليه، فأبى صاحب الرحا أن يقبلها، وقال: إنما كان يرضينى من هذه المنطقة أربعة دراهم، كنت أطعم بها وأشرب، فأخبره أنه لا ورق معه، فتملقه صاحب الرحا، حتى إذا غفا قام إليه بفأس له فضرب بها هامته فقتله، واحتز رأسه، وأخذ ما كان عليه من ثياب ومنطقة، وألقى جيفته فى النهر الذى كان تدور بمائه رحاه، وبقر بطنه، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرفاء[٤]، كانت نابتة فى ذلك النهر لتجس جثته فى الموضع الذى ألقاه فيه، فلا يسفل فيعرف ويطلب قاتله وما أخذ من سلبه، وهرب على وجهه[٥]، وجاء فى رواية... وجاءت الترك فى طلبه فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته، وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كِسرى فى تابوت وحملوه إلى إصطخر[٦].

وقد ذكر الطبرى حديثين مطولين، وأحدهما أطول من الآخر يتضمن ضروبًا من الاضطرابات تقلب فيها، وأنواعًا من الدوائر دارت عليه حتى كانت منيته آخرها[٧]،

---

(١) نذر: علم.

(٢) كالاً: متعبًا.

(٣) لغبًا: متعبًا أشد التعب.

(٤) طرفاء: شجر.

(٥) خلافة عثمان، للسّلمى، ص٥٧.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/٢٩٧).

(٧) الاكتفاء، للكلاعى (٤/٤١٧).

وقد قال يزدجرد لمن أراد قتله فى بعض الروايات: ألا يقتلوه، وقال لهم: ويحكم، إنا نجد فى كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق فى الدنيا، مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلونى وائتوا بى إلى الدهقان، أو سرحونى إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلى من الملوك[١]. وكان مُلْك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين فى دَعَة، وباقى ذلك هاربًا من بلد إلى آخر، خوفًا من الإسلام وأهله، وهو آخر ملوك الفرس فى الدنيا على الإطلاق[٢]، فسبحان ذى العظمة والملكوت، الملك الحقَ الحى الدائم الذى لا يموت، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون[٣]، وقد قال رسول الله ﷺ فى ملوك الفرس والروم: «إذا هلك قَيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله»[٤].

سادسًا: تعاطف النصارى مع (يزدجرد) بعد مقتله:

بلغ قتل يزدجرد رجلاً من أهل الأهواز كان مُطرانًا على مرو، يقال له إيلياء، فجمع من كان قبله من النصارى، وقال لهم: إن ملك الفرس قد قتل، وهو ابن شهريار بن كسرى، وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التى قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها من غير وجه، ولهذا الملك عنصر فى النصرانية مع ما نال النصارى فى ملك جده كسرى من الشرف، وقبل ذلك فى مملكة ملوك من أسلافه من الخير، حتى بنى لهم بعض البِيَع، وسدد لهم بعض ملتهم، فينبغى لِنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدته شيرين إلى النصارى، وقد رأيت أن أبنى له ناووسًا[٥]، وأحمل جثته فى كرامة حتى أواريها فيه، فقال النصارى: أمرنا لأمرك أيها المطران تبع، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون، فأمر المطران فبنى فى جوف بستان

---

(١) المصدر نفسه (٤/٤١٨). وتاريخ الطبرى (٥/٣٠٢).

(٢) خلافة عثمان، د. محمد السلمى، ص٥٧.

(٣) الاكتفاء للكلاعى (٤/٤١٩).

(٤) مسلم فى الفتن رقم ٢٩١٨ ـ ٢٩١٩

(٥) الناووس: حجر منقور تجعل فيه جثة الميت.

المطارنة بمرو ناووسًا، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفنها، وجعلها فى تابوت، وحمله من كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به الناووس الذى أمر ببنائه له ووراوه فيه، وردموا بابه[١].

سابعًا: فتوحات عبد الله بن عامر ٣١هـ:

فى هذه السنة ٣١ هـ شخص عبد الله بن عامر إلى خراسان ففتح أبرشهر وطوس وبيورد ونسا حتى بلغ سرخَس، وصالح فيها أهل مرو، وقد جاء فى رواية عن السَّكن بن قتادة العُرَيْنى، قال: فتح ابن عامر فارس ورجع إلى البصرة، واستعمل على إصطخر شريك بن الأعور الحارثى، فبنى شريك مسجد إصطخر، فدخل على ابن عامر رجل من بنى تميم كنا نقول: إنه الأحنف ـ ويقال: أوس بن جابر الجُشَمىّ جُشَم تميم ـ فقال له: إن عدوك منك هارب، وهو لك هائب، والبلاد واسعة، فسر فإن الله ناصرك، ومعز دينه، فتجهز ابن عامر، وأمر الناس بالجهاز للمسير، واستخلف على البصرة زيادًا، وسار إلى كرمان، ثم أخذ إلى خراسان، فقوم يقولون: أخذ طريق أصبهان، ثم صار إلى خراسان، واستعمل على كرمان مجاشع ابن مسعود السُّلمىّ، وأخذ ابن عامر على مفازة وابَر، وهى ثمانون فرسخًا، ثم سار إلى الطَّبَسَين يريد أبْرَشهر، وهى مدينة نيسابور، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس، فأخذ إلى قُهِستان، وخرج إلى أبرشهر فلقيه الهياطلة، وهم أهل هَرَاة، فقاتلهم الأحنف فهزمهم، ثم أتى ابن عامر نيسابور[٢]، وجاء فى رواية: نزل ابن عامر على أبرشهر فغلب على نصفها عنوة، وكان النصف الآخر فى يد كنارَى، ونصف نسا وطوس، فلم يقدر ابن عامر أن يجوز إلى مرو، فصالح كنارَى، فأعطاه ابنه أبا الصلت بن كنارى وابن أخيه سليمًا رهنًا، ووجه عبد الله بن خازم إلى هراة، وحاتم ابن النعمان إلى مرو، وأخذ ابن عامر ابنى كنارى، فصار إلى النعمان بن الأفقم النصرى فأعتقهما[٣]، وفتح ابن عامر ما حول مدينة أبرشهر، كطوس وبيوَرْد، ونَسا

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٤).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٠٥).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٦).

وحُمران، حتى انتهى إلى سَرَخَس، وسرح ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوى - عدى الرِّباب - إلى بَيْهَق، وهو من أبرشهر، بينهما وبين أبرشهر ستة عشر فرسخًا، ففتحها وقُتل الأسود بن كلثوم؛ وكان فاضلاً فى دينه، وكان من أصحاب عبد الله بن عامر العنبرى، وكان ابن عامر يقول بعدما أخرج من البصرة: ما آسى من العراق على شىء إلا على ظماء الهواجر، وتجاوب المؤذنين، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم(١)، واستطاع ابن عامر أن يتغلب على نيسابور، وخرج إلى سرخس، فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلى، فصالح براز مرزبان مرو على ألفى ألف ومائتى ألف(٢).

ثامنًا: غزو الباب وبلنجر سنة اثنتين وثلاثين:

كتب عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى سعيد بن العاص: أن اغز سلمان الباب، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إن الرعية قد أبطر كثيرًا منهم البطنة، فقصر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنى خاش أن يُبتلوا، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، وكان لا يقصر عن بَلَنْجَر، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنجر، حصروها ونصبوا عليها المجانيق والعرادات(٣)، فجعل لا يدنو منها أحد إلا أعنتوه أو قتلوه، فأسرعوا فى الناس(٤)... ثم إن الترك اتّعدوا يومًا، فخرج أهل بلنجر، وتوافت إليهم الترك فاقتتلوا، فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة - وكان يقال له ذو النور - وانهزم المسلمون فتفرقوا، فأما من أخذ طريق سلمان بن ربيعة فحماه حتى خرج من الباب، وأما من أخذ طريق الخزر وبلادها، فإنه خرج على جيلان وجُرجان وفيهم سلمان الفارسى وأبو هريرة، وأخذ القوم جسد عبد الرحمن فجعلوه فى سَفَط، فبقى فى أيديهم، فهم يستسقون به إلى اليوم ويستنصرون به(٥).

(١، ٢) المصدر نفسه (٥/٣٠٧).

(٣) العرادة: آلة حربية كالمنجنيق ترمى بالحجارة المرمى البعيد لدك الحصون.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٣٠٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٣٠٩).

١ ـ مقتل يزيد بن معاوية:

غزا أهل الكوفة بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تئِم [١] فيهن امرأة، ولم ييتم فيهن صبى من قتل، حتى كان سنة تسع ـ من خلافة عثمان ـ قبل المزاحفة بيومين رأى يزيد بن معاوية أن غزالاً جىء به إلى خبائه، لم ير غزالاً أحسن منه حتى لف فى ملحفته، ثم أتى به قبر عليه أربعة نفر لم ير قبراً أشد استواء منه ولا أحسن منه حتى دفن فيه، فلما تفادى الناس على الترك رمى يزيد بحجر، فهشم رأسه، فكأنما زين ثوبه بالدماء زينة، وليس بتلطخ، فكان ذلك الغزال الذى رأى[٢]، وكان يزيد رقيقًا جميلاً ـ رحمه الله ـ، وبلغ ذلك عثمان، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! انتكث أهل الكوفة، اللهم تب عليهم وأقبل بهم[٣].

٢ ـ ما أحسن حمرة الدماء فى بياضك:

كان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض: ما أحسن حمرة الدماء فى بياضك، فأصيب عند الالتحام مع العدو بجراحة، فرأى قباءه كما اشتهى وقتل[٤].

٣ ـ ما أحسن لمع الدماء على الثياب:

كان القرَّشَع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب، فلما كان يوم المزاحفة قاتل القرَّشَع حتى خُرِّق بالحراب، فكأنما كان قباؤه ثوبًا أرضه بيضاء ووشيه أحمر، وما زال الناس ثبوتًا حتى أصيب، وكانت هزيمة الناس مع مقتله[٥].

٤ ـ إن هؤلاء يموتون كما تموتون:

كان الترك ـ فى تلك المعركة ـ قد اختفوا فى الغياض[٦]، وكانوا قد خافوا

---

(١) لم تئم امرأة: لم تفقد زوجها.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٠) أى فى نومه.
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣١١).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣١٠).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٠).
(٦) الغياض: جمع غيضة، وهى المواضع التى يكثر فيها الشجر ويلتف.

المسلمين، واعتقدوا أن السلاح لا يعمل فيهم! واتفق أن تركيًا اختفى فى غيضة ورشق مسلمًا بسهم فقتله، فنادى فى قومه، إن هؤلاء يموتون كما تموتون، فَلِم تخافوهم؟ فاجترأ الترك على المسلمين وخرجوا عليهم من مكانهم وأوقعوا بهم، واشتد القتال، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد(١).

٥ ـ صبراً آل سلمان:

جاء فى رواية أخرى: حين استشهد عبد الرحمن، أخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهلى وقاتل بها، ونادى منادٍ (صبراً آل سلمان!) فقال سلمان: أوترى جَزَعًا!! وخرج سلمان ومعه أبو هريرة الدوسى على جيْلان(٢)، فقطعوها إلى جُرجان(٣) منسحبًا من معركة خاسرة(٤)، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحى بلنجر(٥)، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقية باقية من جيش أخيه(٦).

وقد رجح هذه الرواية محمود شيث خطاب وقال: إن الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ، وذلك فى حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو وتكبدهم خسائر فادحة بالأرواح، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين، ليعيدوا الكرة ثانية على عدوهم، وقد جاء سلمان بن ربيعة مددًا لعبد الرحمن بأمر عثمان بن عفان، فليس من المعقول أن يبقى ومدده فى (الباب)، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرحمن هناك وهو يخوض معركة قاسية شرسة، يكون فيها القائد بأمس الحاجة إلى الجندى الواحد، فكيف يترك عبد الرحمن جيشًا كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه فى المعركة؟

إن المؤرخين القدامى كانوا يستعملون تعبير: (الهزيمة)، وهم يريدون بها تعبير

(١) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، محمود خطاب، ص١٥١

(٢) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان.

(٣) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٣٠٩). وقادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥١

(٥) معجم البلدان (٢/٢٧٨).

(٦) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥١

الانسحاب؛ ذلك لأن أكثرهم مدنيون لا يفرِّقون بين هذين التعبيرين: (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة فهو كارثة، و (الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خُطة مرسومة بقيادة واحدة فهو - أى الانسحاب - صفحة من صفحات القتال، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدداً وعُدداً، وعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون فى مثل هذا الخطأ فى التعبير، فلا يفرِّقون بين (الهزيمة)، و(الانسحاب)؛ لأن الفرق بين التعبيرين شاسع بعيد (١).

تاسعًا: أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ٣٢هـ:

لما قتل عبد الرحمن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتنازع حبيب وسلمان على الإمرة، وقال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال فى ذلك الناس: إذًا والله نضرب حبيبًا ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فيكم وفينا حتى قال فى ذلك رجل من أهل الكوفة وهو أوس بن مغراء:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نَرحَلُ
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أمير فى الكتائب مُقْبلُ
ونحن ولاة الثغر كنا حماته ... ليالى نرمى كل ثغر ونُنكل (٢)

وتغلب المسلمون على الفتنة بتوفيق الله، ثم بوجود أمثال حذيفة بن اليمان الذى كان على الغزو بأهل الكوفة، فقد غزا ذلك الثغر ثلاث غزوات، فقتل عثمان رضى الله عنه فى الثالثة (٣).

عاشرًا: فتوحات ابن عامر سنة اثنتين وثلاثين:

وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ، والطالقان، والفارياب، والجُوزجان، وطُخارستان، فقد بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو روذ، فحصر أهلها، فخرجوا إليهم

(١) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥٢، ١٥٣.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١١). والبداية والنهاية (٧/ ١٦٦).
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١١).

فقاتلوهم، فهزمهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حصنهم، فأشرفوا عليه، وقالوا: يا معشر العرب، ما كنتم عندنا كما نرى، ولو علمنا أنكم كما نرى لكانت لنا ولكم حال غير هذه، فأمهلونا ننظر يومنا، وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف، فلما أصبح غاداهم وقد أعدوا له الحرب، فخرج رجل من العجم معه كتاب من المدينة، فقال: إنى رسول فأمنونى، فأمنوه، فإذا رسول من مرزبان مرو ابن أخيه وترجمانه، وإذا كتاب المرزبان إلى الأحنف، فقرأ الكتاب، قال: فإذا هو إلى أمير الجيش، إنا نحمد الله الذى بيده الدول، يغير ما شاء من الملك، ويرفع من شاء بعد الذلة، ويضع من شاء بعد الرفعة: إنه دعانى إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدى، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة، فمرحبًا بكم وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى الصلح فيما بينكم وبيننا، على أن أؤدى إليكم خراجًا ستين ألف درهم، وأن تُقرُّوا بيدى ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبى حيث قتل الحية التى أكلت الناس، وقطعت السبيل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتى شيئًا من الخراج ولا تخرج المرزبة[1] من أهل بيتى إلى غيركم، فإن جعلت ذلك لى خرجتُ إليك، وقد بعثت إليك ابن أخى ماهك ليستوثق منك.

فكتب إليه الأحنف: بسم الله الرحمن الرحيم، من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مرو روذ ومن معه من الأساورة والأعاجم. سلام على من اتبع الهدى، وآمن واتقى، أما بعد، فإن ابن أخيك ماهك قدم علىّ، فنصح لك جهده، وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء، وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت على أن تؤدى عن أكرتك[2] وفلاحيك والأرضين التى ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبيل، والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عباده، وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه، وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من وراءك من أهل

(١) المرزبة: الرئاسة عند العجم. والمرزبان: الرئيس المقدم فيهم.

(٢) الأكرة: جمع أكار: الحراث.

ملتك، جار لك بذلك منى كتاب يكون لك بعدى، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوى الأرحام، وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم، ولك بذلك ذمتى وذمة أبى وذمم المسلمين وذمم آبائهم، شهد على ما فى هذا الكتاب جزء بن معاوية ـ أو معاوية بن جزء السعدى، وحمزة بن الهرماس، وحُميد بن الخيار المازنيَّان، وعياض بن ورقاء الأسيدى، وكتبه كَيسان مولى بنى ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس، ونقش خاتم الأحنف: نعبد الله [١].

الحادية عشرة: القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان، والطالقان والفاريان:

صالح ابن عامر أهل مرو، وبعث الأحنف فى أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرو روذ، وجمع له أهل طُخارستان، وأهل الجوزجان والطالقان والفاريان، فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفًا، وأتى الأحنف خبرهم وما جمعوا له، فاستشار الناس فاختلفوا فبين قائل: نرجع إلى مرو، وقائل: نرجع إلى أبْرشهر، وقائل: نقيم نستمد، وقائل: نلقاهم فنناجزهم؛ فلما أمسى الأحنف خرج يمشى فى العسكر، ويستمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة [٢]، أو يعجن، وهم يتحدثون ويذكرون العدو، فقال بعضهم: الرأى للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقى القوم حيث لقيهم ـ فإنه أرعب لهم ـ فيناجزهم. فقال صاحب الخزيرة أو العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم أتأمرونه أن يلقى حد العدو مصحرًا فى بلادهم، فيلقى جمعًا كثيرًا بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا [٣]؛ ولكن الرأى له أن ينزل بين المرغاب والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه، فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال، فضرب عسكره، وأقام فأرسل إليه أهل مرو أن يقاتلوا معه،

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٦).
(٢) الخزيرة: الحساء من الدسم والدقيق.
(٣) اصطلم: اقتلعه من أصله.

فقال: إنى أكره أن أستنصر بالمشركين، فأقيموا على ما أعطيناكم، وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم؛ فوافق المسلمين صلاة العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم، فقاتلوهم وصبر الفريقان حتى أمسوا والأحنف يتمثل بشعر ابن جُوَيّة الأعرجى:

أحقٌّ من لم يكره المنيـة حَزْوَّرٌ[1] ليس له ذرية[2]

وجاء فى رواية: . فقاتلهم حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رَسْكن ـ وهى على اثنى عشر فرسخًا من قصر الأحنف ـ وكان مرزبان مرو روذ قد تربص بحمل ما كانوا صالحوه عليه، لينظر ما يكون من أمرهم، فلما ظفر الأحنف سرح رجلين إلى المرزبان، وأمرهم ألا يكلماه حتى يقبضاه، ففعلا؛ فعلم أنهم لم يصنعوا ذاك به إلا وقد ظفروا، فحمل ما كان عليه[3]، وبعث الأحنف الأقرع بن حابس فى جريدة خيل[4]، إلى الجوزجان حيث بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم، فجال المسلمون جولة، فقتل فرسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم فقال كُثَيِّر النهشلى:

سقى مزنُ السحاب إذا استهلّت[5] مصـارع فتيـة بالجُوزَجـان

إلى القصرين من رُسْتاقِ خُـوط أقادهمُ هنـاك الأقرعـان[6]

الثانية عشرة: صلح الأحنف مع أهل بلخ ٣٢هـ:

سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصرهم، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضى منهم بذلك، واستعمل ابن عمه، وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم

---

(١) الحزور: الغلام القوى.

(٢، ٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٧)

(٤) جريدة الخيل: كتيبة الخيل التى لا رجالة فيها

(٥) استهلت السحابة: أمطرت واشتد مطرها

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٨)

ما صالحوه عليه، ومضى إلى خارِزْم، فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما تشاءون؟ فقالوا: قد قال عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فأمر الأحنف بالرحيل، ثم انصرف إلى بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحهم عليه وكان وافق وهو يجبيهم المهرجان، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عمّ الأحنف: هذا ما صالحناكم عليه؟ قالوا: لا، ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن ولِينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المهرجان، قال: ما أدرى ما هذا؟ وإنى لأكره أن أرده، ولعله من حقى، ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر فيه، فقبضه، وقدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا له مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتى به الأمير، فحمله إلى ابن عامر، فأخبره عنه، فقال: اقبضه يا أبا بحر، فهو لك، قال: لا حاجة لى فيه، فقال ابن عامر: ضمه إليك يا مسمار، فضمه القرشى وكان مضَمّا[1].

الثالثة عشرة: لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج محرمًا معتمرًا من موقفى هذا:

ولما رجع الأحنف إلى ابن عامر قال الناس لابن عامر: ما فتح على أحد ما قد فتح عليك، فارس وكرمان وسجستان وعامة خراسان! قال: لا جرم، لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج مُحرمًا معتمراً من موقفى هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان لامه على إحرامه من خراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذى يحرم منه الناس[2].

الرابعة عشرة: هزيمة (قارنْ) فى خراسان:

لما رجع ابن عامر من الغزو استخلف قيس بن الهيثم على خراسان، فأقبل قارن فى جمع من الترك، أربعين ألفًا، فالتقاه عبد الله بن خازم السُّلمى فى أربعة آلاف،

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٩).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣١٩).

وجعل لهم مقدمة ستمائة رجل، وأمر كُلاً منهم أن يجعل على رأس رُمحه نارًا، وأقبلوا إليهم فى وسط الليل فبيتوهم، فثاروا إليهم، فناوشتهم المقدمة، فاشتغلوا بهم، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين فأحاطوا بهم، فولى المشركون مدبرين، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاءوا، وقُتلَ قارن فيمن قُتل، وغنموا سبيًا كثيرًا، وأموالاً جزيلة، ثم بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر فرضى عنه، وأقره على خراسان، وذلك أنه كان قد احتال على الوالى السابق قيس بن الهيثم السلمى حتى أخرجه من خراسان، ثم تولى حرب قارن، فلما هزمه وغنم عسكره، رضى عليه ابن عامر، وأقره على ولاية خراسان[1].

وهكذا تصدى الخليفة الراشد عثمان لحركات التمرد فى المشرق وواصل فتوحاته ولم تفت تلك الثورات فى عضد المسلمين، ولم تنل من عزم الخليفة الذى كان كفئًا لها، حيث واجهها بالعزم والرأى، والسرعة فى تصريف الأمور، وتسيير النجدات، وإسناد كل عمل إلى من يحسنه، كما يظهر من تتبع الأحداث فى تاريخ الطبرى، وابن كثير والكلاعى، بما لا يدع شكًا فى أن اختيار عثمان للقادة الذين قاموا بهذه الانتصارات وتطويق هذه القلاقل كان اختيارًا موفقًا، مع العلم بأن أعباء الجهاد كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه الناجز، لامتداد خطوط القتال، وتعدد الفتن، وتباعد المسافات بين البلدان، إن علاج تلك المعضلات التى فاجأت عثمان رضى الله عنه بعد ولايته، وتصدى لها بالعزم والسداد والسرعة والحيطة والأناة لدليل على قوة شخصيته ونفاذ بصيرته، وكان له بعد ذلك أكبر الفضل - بعد الله - فى تثبيت مهابة الدولة بعدما أصابها الوهن والتخلخل عند مقتل - عمر رضى الله عنه - وكانت ثمرات تلك الوقفات الرائعة:

أ - إخضاع المتمردين وإعادة سلطة المسلمين عليهم.

ب - ازدياد الفتوحات الإسلامية إلى ما وراء البلاد؛ المتمردة منعًا لارتداد الهاربين إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها.

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ١٦٧).

جـ ـ اتخاذ المسلمين قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد التى خضعت للمسلمين.

فهل كانت تلك الفتوحات العظيمة والسياسة الحكيمة والضبط للأقاليم يمكن أن تتحقق لو كان عثمان رضى الله عنه ضعيفًا غير قادر على اتخاذ القرار[١]؟ كما يزعم من وقع وتورط فى روايات الرفض والتشيع والاستشراق ومن سار على نهجهم السقيم.

الخامسة عشرة: من قادة فتح بلاد المشرق فى عهد عثمان: الأحنف بن قيس:

كانت الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه عظيمة، فرأيت من المناسب أن نسلط الأضواء على بعض قادة الفتوح فى عهد عثمان رضى الله عنه، وبما أننى تحدثت عن فتوح المشرق، فلا بد إذن من إعطاء صورة مشرقة عن أحد قادة تلك الفتوح، فاخترت:

الأحنف بن قيس:

١ ـ نسبه وأهله:

هو أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصَين بن حَفَص بن عبادة التميمى[٢]، واسمه الضحاك. وقيل: صخر[٣]، وأمه حبَّة بنت عمرو بن قُرْط الباهلية[٤]، كان أخوها الأخطل بن قُرط من الشجعان، وقد قال الأحنف مفاخرًا بخاله هذا: ومن له خال مثل خالى[٥]؟

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).
(٢) جمهرة أنساب العرب، ص٢١٧. وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).
(٣، ٤) قادة فتح السند وأفغانستان، محمود خطاب، ص٢٨٥.
(٥) جمهرة أنساب العرب، ص٢١٢.

٢ ـ حياته:

كان من سادات التابعين وأكابرهم، وسيدًا مطاعًا فى قومه [١]، وسيد أهل البصرة [٢]، وكان موضع ثقة الناس جميعًا بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم، وكان أحد الحكماء الدهاة العقلاء [٣]، ذا دين وذكاء وفصاحة [٤]، وكان سيد قومه موصوفًا بالعقل والدهاء والعلم والحلم، يضرب بحلمه المثل، وقد قال فيه الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظللن مهابة منه خشوعا [٥]

وقال عنه خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف، والشرف يتبعه [٦]، وإليك بعض صفاته التى أثرت فيمن حوله:

أ ـ حلمه:

كان الأحنف حليمًا يضرب بحلمه المثل، سئل عن الحلم، ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر، وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: إنى لأجد ما تجدون، ولكنى صبور ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المِنقَرىّ [٧]؛ لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأتى القاتل مكتوفًا يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى! ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت: نقصت عددك وأوهنت عضدك وأشمتّ عدوك وأسأت لقومك. خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة! ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه [٨]، وقال رجل للأحنف: علِّمنى الحلم يا أبا بحر. فقال: هو الذل يا ابن أخى، أفتصبر عليه؟! وقال: لست حليمًا ولكننى أتحالم [٩]. ومن أخبار حلمه، أن رجلاً شتمه فسكت عنه، وأعاد الرجل فسكت عنه، وأعاد فسكت عنه، فقال

---

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٢٨٥.
(٢) الإصابة (١/ ١٠٣). وأسد الغابة (١/ ٥٥).
(٣ ـ ٥) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٤.
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٣).
(٧) الاستيعاب (٣/ ١٢٩٤).
(٨) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨).
(٩) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٦.

الرجل: والهفاه: ما يمنعه من أن يرد عليّ إلا هوانى عنده[١]. وكان يقول: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه[٢]، ولكن حلمه كان حلم القوى القدير لا حلم العاجز الضعيف، فقد قاتل فى بعض المواطن قتالاً شديداً، فقال له رجل: يا أبا بحر أين الحلم؟ فقال: عند الحى[٣].

ب ـ عقله:

كان الأحنف عاقلاً راجح العقل، قال مرة: من كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع: من كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه[٤].

وقال: العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير رفيق[٥]. وقال: ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندى، وكان يقول إذا ذكر عنده رجل: دعوه يأكل رزقه ويأتى عليه أجله[٦]، وشكا ابن أخيه وجع الضرس، فقال: ذهبت عينى منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد[٧]، وقال: ما نازعنى أحد فوقى إلاّ عرفت له قدره، ولا كان دونى إلا رفعت قدرى عنه، ولا كان مثلى، إلا تفضلت عليه[٨].

جـ ـ علمه:

كان عالمًا ثقة مأمونًا قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى[٩]، وروى عنه الحسن البصرى وعُروة بن الزبير وغيرهما[١٠]، وقد كان من الفقهاء البارزين أيام معاوية.

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢ ـ ٤) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٦، يعنى بها: تركته فى الدار.
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩).
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٢١).
(٧) المصدر السابق نفسه (٧/ ١٦).
(٨) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٧.
(٩) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٣).
(١٠) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٨.

د ـ حكمته:

كان حكيمًا ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، سئل عن المروءة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق ساعة، وقال:

وإذا جميل الوجـه لم يأت الجميل فما جماله؟!

ما خير أخـلاق الفتى إلاّ تقاه واحتمـاله

وسئل عن المروءة، فقال: العفة فى الدين، والصبر على النوائب، وبر الوالدين، والحلم عند الغضب، والعفو عن المقدرة [١].

وقال: رأس الأدب آلة المنطق، ولا خير فى قول إلاّ بفعل، ولا منظر إلا بمَخبر، ولا فى مال إلا بجود، ولا فى صديق إلا بوفاء، ولا فى فقه إلا بورع، ولا فى صدقة إلا بنيَّة [٢].

وقال: أحى المعروف بإماتة ذكره [٣]، وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئًا عرف به [٤]، وقال: جنبوا مجلسنا الطعام والنساء، فإنى لأبغض الرجل يكون وصافًا لفرجه وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه [٥].

وقال: السؤدد مع السَّواد. يريد: من لم يَطر له اسم على ألسنة العامة بالسؤدد، لم ينفعه ما طار له فى الخاصة [٦].

هـ ـ بلاغته:

كان فصيحًا مفوّهًا [٧]، خطب مرة فقال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٨.
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩ ـ ٢٠).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٣٣١).
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٨٨).
(٦ ـ ٧) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٩.

وربيعة: أنتم إخواننا فى الدين، وشركاؤنا فى الصهر وأشقاؤنا فى النسب، وجيراننا فى الدار، ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرف شنآن حسد صدوركم ففى أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم (١).

لقد كان حاضر البديهة قوى الحجة منطقيًا، جاء الأحنف إلى قوم يتكلمون فى دم، فقال: احكموا! فقالوا: نحكم بديتين! فقال: ذلك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم، غير أنى قائل لكم شيئًا: إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قضى بدية واحدة، وإن النبى ﷺ قضى بدية واحدة، وأنتم اليوم طالبون وأخشى أن تكونوا غدًا مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم لأنفسكم!، فقالوا: نردها دية واحدة (٢).

وسمع الأحنف رجلاً يقول: ما أبالى أمدحت أم ذممت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام (٣).

و ـ إيثاره:

كان الأحنف يحب لغيره ما يحبه لنفسه، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير والمعروف، ويرضى نفسه الرضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير، فعندما جاء الأحنف إلى عمر رضى الله عنه فى المدينة، عرض أمير المؤمنين عليه جائزة، فقال: يا أمير المؤمنين والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات، والعشيات للجوائز، وما حاجتى إلا حاجة من خلفى، فزاده ذلك عند عمر خيراً (٤).

ز ـ أمانته:

كان الأحنف أمينًا غاية الأمانة وقد مر بنا عندما استعمل ابن عمه على أهل بلخ وقد قبض ابن عمه ما صالحوه عليه من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٠٩.
(٢، ٣) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢).

وثياب، فقال ابن عمه لهم: هذا ما صالحناكم عليه؟ فقالوا: لا!! ولكن هذا شىء نضعه فى هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المهرجان[١]. فقال: ما أدرى ما هذا، وإنى لأكره أن أرده، ولعله من حقى ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر، فقبضه وقدم الأحنف فأخبره فسألهم عنه، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتى به الأمير، فحمله على عبد الله بن عامر فأخبره عنه فقال: اقبضه يا أبا بحر فهو لك، فقال الأحنف: لا حاجة لى فيه[٢]، لقد كان يتحرج حتى من الهدايا وكان يكتفى بسهمه من الغنائم[٣].

حـ ـ أناته:

كان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عمل إلا بعد أن يحسب له ألف حساب، قيل له: يا أبا بحر: إن فيك أناة شديدة، فقال: قد عرفت من نفسى عجلة فى أمور ثلاثة: فى صلاتى إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتى إذا حضرت حتى أغيّبها فى حفرتها، وابنتى إذا خطبها كفيئها حتى أزوجه[٤].

ط ـ ورعه:

كان الأحنف مؤمنًا ورعًا قوى الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته[٥]، وبسط حمايته القوية الأمينة على الدعاة الأولين[٦]، وثبت على عقيدته عندما ارتد أكثر قومه وأكثر العرب بعد وفاة النبى ﷺ، وجاهد للدفاع عنها ونشرها حق الجهاد وأبلى فى ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصرى عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه[٧]. قال الأحنف: حبسنى عمر

---

(١) المهرجان: أحد أعياد الفرس.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٩).

(٣) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٣.

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٦).

(٥) شذرات الذهب (١/ ٧٨).

(٦) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٤.

(٧) البداية والنهاية (٧/ ٣٣١).

ابن الخطاب عنده بالمدينة سنة، يأتينى كل يوم وليلة، فلا يأتيه عنى إلا ما يحب[١]، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف فى الاختبار العمرى ـ وما أصعبه وأدقه من اختبار ـ معه كتبًا إلى الأمير على البصرة، يقول: الأحنف سيد أهل البصرة[٢]، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يشاور الأحنف ويسمع منه[٣]، وقال له عمر بعد أن حبسه حولاً عنده: يا أحنف! قد بلوتك وخبرتك، فلم أر إلا خيرًا، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك[٤].

لقد كان الأحنف رجلاً صالحًا كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلى ويبكى حتى الصباح، وكان يضع أصبعه فى المصباح ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح، فكيف تصبر على النار الكبرى[٥]، وقيل له: إنك تكثر الصوم وإن ذلك يرق المعدة. فقال: إنى أعده لسفر طويل[٦]، واستعمل الأحنف على (خراسان)، فلما أتى فارس أصابته جنابة فى ليلة باردة فلم يوقظ أحدًا من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دمًا، فوجد الثلج، فكسره واغتسل[٧]، وكان قلّ ما خلا إلاّ دعا بالمصحف، وكان النظر فى المصاحف خلقًا فى الأولين[٨]، وكان فى دعائه: اللهم إن تغفر لى فأنت أهل ذاك، وإن تعذبنى فأنا أهل ذاك[٩]، ومن دعائه اللهم هبْ لى يقينًا تهوِّن به علىّ مصيبات الدنيا[١٠]. ومرت به جنازة فقال: رحم الله من أجهد نفسه لمثل هذا اليوم[١١]، وكان يقول: عجبت لمن

(١، ٢) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٤.

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٣٣١).

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤). وقادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٥.

(٧) المصدر نفسه (٧/ ٩٤).

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).

(٩) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٥ ترجمة الأحنف لخصتها من هذا الكتاب القيم مع الرجوع لبعض المصادر.

(١٠، ١١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦).

يجرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر[١].

هذه بعض صفات شخصية الأحنف استحوذ بها على ثقة الناس به وحبهم وتقديرهم له، وهذه الصفات تجعل من يتحلى بها شخصية قوية نافذة يندر وجودها بين الناس فى كل زمان ومكان، وقلما يجود بها الدهر إلا نادراً[٢]، لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه وقد تميز فى قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته على إعداد الخطط الصحيحة الناجحة وإعطاء القرارات السريعة الصائبة، كما كان لشجاعته الشخصية وإقدامه أثر كبير فى وضع تلك الخطط والقرارات فى حيِّز التنفيذ، لقد كان يبذل قصارى جهده فى إعداد خططه العسكرية وإعطاء ذوى الرأى، بل يتجول سرًا فى الليل بين عامة رجاله يتسمع أحاديثهم، فإذا وجد رأيًا سديداً يبدونه فيما بينهم، سارع إلى العمل به، لا يهمه أن يأخذ الحكمة من أى وعاء، وقد كان هذا القائد الميدانى فى عهد عثمان يقاتل عدوه بسيفه وعقله معًا، فقد كان على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام، حتى إنه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ويؤثرهم بالراحة والأمن؛ كما كان على جانب عظيم من الدهاء، فيوفر بدهائه على قواته كثيراً من الجهود والمشقات[٣].

لقد كان الأحنف رجلاً فى أمة، وأمة فى رجل... إنه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤].

* * *

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٣١).
(٢) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٦.
(٣) قادة فتح السند وأفغانستان ص٣٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٢.

المبحث الثانى

الفتوحات فى الشام

أولاً: فتوحات حبيب بن مسلمة الفهرى:

مر بنا أن الروم أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام، فأمدهم بثمانية آلاف عليهم سلمان بن ربيعة الباهلى، فظفر المسلمون بعدوهم بعد أن غزوهم فى أرض الروم فأسروا منهم وغنموا، وكان تحالف الروم والترك قد تجمع لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يُبيّت قائدهم الموريان - أى يباغته ليلاً - فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم فغلبهم، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه[1]، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية فى أرض أرمينية وأذربيجان ففتحها إما صلحًا أو عنوة[2].

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهرى من أبرز القادة الذين حاربوا فى أرمينيا البيزنطية، فقد أباد جيوشًا بأكملها للعدو، وفتح حصونًا ومدنًا كثيرة[3]، كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط وملطية وغيرها، وفى سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده قيس بن الحر العبسى الغزو فى الصيف التالى، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كى لا يفيد منها الروم[4].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٨).

(٢) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ٢٥٢.

(٣) حروب الإسلام فى الشام فى عهود الخلفاء الراشدين، ص٥٧٧.

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٥٣.

ثانيًا: أول من أجاز الغزو البحرى: عثمان بن عفان:

كان معاوية بن أبى سفيان وهو أمير الشام يلح على عمر بن الخطاب فى غزو البحر، ويصف له قرب الروم من حمص ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص، صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه، فكتب إليه عمرو: إنى رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، إن ركن خرّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق، فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية أن لا، والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا، وتالله لمسلم أحب إلىَّ مما حوت الروم فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك وقد علمت ما لقى العلاء منِّى، ولم أتقدم إليه فى ذلك[1]، ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى فى الروم ما رأى، فطمع فى بلادهم وفى فتحها، فلما تولى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث وألح به على عثمان، فرد عليه عثمان رضى الله عنه قائلاً: «أن قد شهدت ما رد عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته فى غزو البحر» ثم كتب إليه معاوية مرة أخرى يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه: «فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذونًا وإلا فلا»[2]، كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضى الله عنه أيضًا بقوله: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه»[3]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا فقد رمه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[4].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٨).
(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨).
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).
(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨).

ثالثًا: غزوة قبرص:

أعد معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازى، واتخذ ميناء عكا مكانًا للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه فى تلك الغزوة [١].

وأم حرام هذه هى صاحبة القصة المشهورة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يومًا فأطعمته، ثم جلست تفلى من رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: فقلت: ما يضحككَ يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتى عرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة ـ أو مثل الملوك على الأسرة». قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتى عرضوا علىّ فى سبيل الله»، كما قال فى الأولى. قال: «أنت من الأولين». فركبت أم حرام بنت ملحان البحر فى زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت [٢].

ورغم أن معاوية لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين [٣]، مما يدل على أن المسلمين قد هانت فى أعينهم الدنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبئون بها بالرغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون فى نعيمها.

إن المسلمين قد تربوا على أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه وإقامة العدل ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كل ما عداه وهم

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

(٢) البخارى رقم (٢٨٧٧).

(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٥٦.

يعتقدون أن هذه المهمة هى رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد فى سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصروا فى مهمتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم فسيمسك الله عنهم نصره فى الدنيا، ويحرمهم مرضاته فى الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هرعوا مع معاوية وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعل حديث أمر حرام قد ألم بخواطرهم فدفعهم إلى الخروج للغزو فى سبيل الله تصديقًا لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء فى سنة ثمان وعشرين من الهجرة (٦٤٩م)[١].

وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، ونزل المسلمون إلى الساحل، وتقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وألقت أم حرام على الأرض فاندقت عنقها فماتت[٢]، وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها فى أرض الجزيرة عنوانًا على مدى التضحيات التى تقدمها فى سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[٣].

واجتمع معاوية بأصحابه وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفارى وعبادة بن الصامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنى، وشداد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الأحبار بن ماتع، وجبير بن نفير الحضرمى[٤].

وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[٥]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا ويتموّنون منها إذا قل زادهم، وهى بهذه المثابة تهدد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم وخضوعها

(١) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٥٦.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

(٣ ـ ٥) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٥٧.

لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظل شوكة فى ظهورهم وسهمًا مسددًا فى حدودهم، ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصنوا فى العاصمة ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدم الروم للدفاع عنهم، وصد هجوم المسلمين عليها [1]

رابعًا: الاستسلام وطلب الصلح:

تقدم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسطنطينا) وحاصروها وما هى إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وأجابهم المسلمون إلى الصلح، وقدموا للمسلمين شروطًا، واشترط عليهم المسلمون شروطًا، وأما شرط أهل قبرص فكان فى طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطًا تورطهم مع الروم لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأما شروط المسلمين فهى:

١ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا هاجم سكانها محاربون.

٢ ـ أن يدل سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوهم من الروم.

٣ ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتى دينار فى كل عام.

٤ ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوهم عليهم.

٥ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يطلعوهم على أسرارهم [2].

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول فى معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام أو على الإسكندرية [3].

---

(١) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٥٧.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦١).

(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٥٨، ٣٥٩.

خامسًا: عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام:

استعمل معاوية بن أبى سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسى حليف بنى فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة فى البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج فى قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سُؤّال يعترُّون[1] بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم فى عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: فى المرفأ، قالوا: أى عدوة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد، فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدى، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا فترك ما كان يقول، ولزم: الغمرات ثم ينجلينا، وأصيب فى المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسى[2]، وقيل لتلك المرأة التى استثارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطانى كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[3].

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو فى وضع لا يضر بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التى أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر فى مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين، ولكنه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذى دوّخ المحاربين فى تلك البلاد، وهكذا كانت سماحة

---

(١) يعترون: يعترضون للناس دون أن يسألوهم.

(٢، ٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).

ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سببًا فى كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم لتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفى انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولى هذه المهمة، ثم نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضَعَفَتهم فيمد إليهم يد الحنان والعطف، ويسخُو لهم بالمال الذى هو من أعز ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقًا صبورًا، لا معنِّفًا، ولا مستكبرًا، وإذا ادلهمت الخطوب تفاءل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذى يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل والفوضى، وأما خليفته سفيان الأزدى فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن مما يُحفظ له أنه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذى كان أميره ينتهجه فى القيادة سارع فى التأسى به فى ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة وإن صدرت من جارية مغمورة، وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذى كان غالبًا فى الجيل الأول، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة فى إدارة أمور الأمة، فلله در أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم، وما أبعد غورهم وما أعظم وطأتهم فى الأرض على الجبارين، وما أعذب لمساتهم فى الأرض على المستضعفين والمساكين[1] .

سادسًا: القبارصة ينقضون الصلح:

فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومى عنيف أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص فعزم على

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٤٠٢).

الاستيلاء على الجزيرة ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجومًا عنيفًا فقتلوا وأسروا وسلبوا، هجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله ابن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وسبوا سبيًا كثيرة وغنموا مالاً جزيلاً[١]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[٢]، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط فى الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين؛ فبعث إليهم اثنى عشر ألفًا من الجنود ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة وأقام فيها مسجدًا، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم وظل الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أن أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخرونهم لمصالحهم فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين، وقال إسماعيل بن عياش: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[٣].

سابعًا: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء فى سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبى الدرداء رضى الله عنه حينما نظر إلى سبى الأعداء فبكى، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وعصوه صاروا إلى ما ترى[٤]، وجاء فى رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكى وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبى، وإذا سلط على قوم

(١) جولة تاريخية، ص٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) البلاذرى، ص١٥٨.

(٣) جولة تاريخية، ص٣٦١.

(٤) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٦).

السبى فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره(١).

إن ما تفوّه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة والفقه فى أمر الله تعالى، فهذا الصحابى الجليل يبكى حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباءوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة؛ لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا وتدبروا لكان فى دخولهم فى الإسلام بقاء ملكهم وعمران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام وإن هذا التفكير العميق من أبى الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك فى الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عينى هذا الرجل العظيم، ليعبر عما يجول فى نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التى اجتمع لها البقاء على الضلال والمآل السيئ بزوال الملك والوقوع فى الذل والهوان، وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون فى ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد فى الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الأسر والتشرد وتعرضهم للقتل فى الحياة الدنيا(٢).

ثامنًا: عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهما: شهدت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمونه فى الغنائم، فأخذ وبرة من بعير وقال: «ما لى مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم». فاتق الله يا معاوية واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحدًا أكثر من حقه، فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشام أفضل منك ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها واتق الله فيها. فقسمها عبادة بين أهلها وأعانه أبو الدرداء وأبو أمامة(٣).

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٧).

(٣) الرياض النضرة، ص٥٦١.

المبحث الثالث

فتوحات الجبهة المصرية

أولاً: ردع المتمردين فى الإسكندرية:

كبر على الروم خروج الإسكندرية من أيديهم، وظلوا يتحينون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم، فراحوا يحرضون من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، ذلك لأن الروم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستقرار فى بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم[1]، وصادف تحريض الروم لأهل الإسكندرية هوى فى نفوس سكانها فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان[2]، وكان عثمان رضى الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضى الله عنه عن مصر، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وفى أثناء ذلك وصل منويل الخصى قائد قوات الروم إلى الإسكندرية لإعادتها وتخليصها من يد المسلمين، ومعه قوات هائلة يحملهم فى ثلاثمائة مركب مشحونة بكل ما يلزم هذه القوات من السلاح والعتاد[3].

علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوات الغازية فإنه أعرف بحربهم، وله هيبة فى نفوسهم، فاستجاب الخليفة لطلب المصريين، وأبقى ابن العاص أميرًا على مصر[4]، ونهب منويل وجيشه الإسكندرية، وغادروها بعد أن تركوها قاعًا صفصفًا، ليعيثوا فيما حولها من القرى ظلمًا وفسادًا، وأمهلهم عمرو بن العاص ليمعنوا فى الإفساد، وليشعر المصريون بالفرق الهائل بين حكامهم من المسلمين، وحكامهم من

(١) الكامل، لابن الأثير.

(٢ ـ ٤) جولة تاريخية، ص٣٣٥.

الروم، ولتمتلئ قلوب المصريين على الروم حقدًا وغضبًا فلا يكون لهم من حبهم والعطف عليهم أدنى حظ، وخرج منويل بجيشه من الإسكندرية يقصد مصر السفلى دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، وعمرو كان له رأى آخر، فقد كان يرى أن يتركهم يقصدونه، ولا شك أنهم سينهبون أموال المصريين، وسيرتكبون من الحماقات فى حقهم ما يملأ قلوبهم حقدًا عليهم وغضبًا منهم، فإذا نهض المسلمون لمواجهتهم عاونهم المصريون على التخلص منهم، وحدد عمرو سياسته هذه بقوله: دعهم يسيروا إلىّ، فإنهم يصيبون من مروا به، فيُخزى بعضهم ببعض [١].

وقد صدق حدس عمرو، وأمعن الروم فى إفسادهم ونهبهم وسلبهم، وضج المصريون من فعالهم، وأخذوا يتطلعون إلى من يخلصهم من شر هؤلاء الغزاة المفسدين [٢].

وصل منويل إلى نقيوس: واستعد عمرو للقائه، وعبأ جنده، وسار بهم نحو عدوه الشرس، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل واستبسل الفريقان أيما استبسال، وصبر كل فريق صبرًا أمام خصمه مما زاد الحرب ضراوة واشتعالاً، ودفع بالقائد عمرو إلى أن يمعن فى صفوف العدو، ويقدم فرسه بين فرسانهم، ويشهر سيفه بين سيوفهم، ويقطع به هامات الرجال وأعناق الأبطال، وصاب فرسه سهم فقتله، فترجل عمرو وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب بقلوب كقلوب الأسود لا يهابون ولا يخافون قعقعة السيوف[٣]، وأمام ضربات المسلمين وهنت عزائم الروم وخارت قواهم، فانهزموا أمام الأبطال الذين يريدون إحدى الحسنيين، وقصد الروم فى فرارهم الإسكندرية لعلهم يجدون فى حصونها المنيعة وأسوارها الشاهقة ما يوارى عنهم شبح الموت الذى يلاحقهم[٤].

(١) جولة تاريخية، ص٣٣٦. وعثمان بن عفان، هيكل، ص٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٨.

(٤) البلاذرى، ص٦٩.

وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذى انتهك حرماتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمئونة[1].

ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية ضرب عليها الحصار ونصب عليها المجانيق وظل يضرب أسوار الإسكندرية حتى أوهنها وألح عليها بالضرب، حتى ضعف أهلها وتصدعت أسوارها وفتحت المدينة الحصينة أبوابها، ودخل المسلمون الإسكندرية، وأعملوا سيوفهم فى الروم يقتلون المقاتلين، ويأسرون النساء والذرية وهرب من نجا من الموت لاجئين إلى السفن ليفروا بها عائدين من حيث أتوا، وكان منويل فى عداد القتلى، ولم يكف المسلمون عن القتل والسبى حتى أمر عمرو بذلك لما توسط المسلمون المدينة، ولما لم يكن هناك من يقاوم أو يتصدى لهم[2]، ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد فى المكان الذى أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة[3]، وعادت إلى العاصمة العتيدة طمأنينتها، وعادت السكينة إلى قلوب المصريين فيها، فرجع إليها من كان قد فر منها أمام الزحف الرومى الرهيب، وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فر مع الفارين، وأخذ يرجو عمراً ألا يسىء معاملة القبط لأنهم لم ينقضوا عهدهم، ولم يتخلوا عن واجبهم، ورجاه كذلك ألا يعقد صلحًا مع الروم، وأن يدفنه إذا مات فى كنيسة يحنس[4].

وجاء المصريون من كل حدب وصوب إلى عمرو يشكرونه على تخليصهم من ظلم الروم، ويطلبون منه إعادة ما نهبوا من أموالهم ودوابهم معلنين ولاءهم وطاعتهم فقالوا: إن الروم قد أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا، ومن أقام بينة وعرف من له بعينه رده[5] عليه، وهدم عمرو سور الإسكندرية وكان ذلك فى ذلك سنة ٢٥ هـ،

(١ ـ ٣) جولة تاريخية، ص٣٣٨.

(٤، ٥) المصدر نفسه، ص٣٤٠.

وأصبحت الإسكندرية آمنة من جهاتها كلها رغم هدم سورها، فقد كان شرقيها فى قبضة المسلمين وكذلك جنوبها، وأما غربيها فقد أمنه عمرو بن العاص بفتح برقة وزويلة وطرابلس الغرب وصالح أهل هذه البلاد على الجزية، فكانوا يدفعونها طائعين، وأما شمالها فكان فى قبضة الروم، وقد تلقنوا درسًا على يد المسلمين لم يترك لهم فرصة للتفكير فى العودة، وحتى لو فكروا فى العودة فهيهات أن يدخلوها وليس لهم فيها نصير ولا معين، وقوات المسلمين تراقب البحر بكل يقظة واهتمام (١).

ثانيًا: فتح بلاد النوبة:

كان عمرو بن العاص قد شرع فى فتح بلاد النوبة بإذن من الخليفة عمر، فوجد حربًا لم يتدرب عليها المسلمون وهى الرمى بالنبال فى أعين المحاربين حتى فقدوا مائة وخمسين عينًا فى أول معركة، ولهذا قبل الجيش الصلح، ولكن عمرو بن العاص رفض للوصول إلى شروط أفضل (٢)، وعندما تولى ابن سعد ولاية مصر غزا النوبة فى عام إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديدًا، فأصيبت يومئذ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تر عين مثل يوم دُمقلة ... والخيل تعدو بالدروع مثقلة (٣)

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم الهدنة بقيت إلى ستة قرون (٤)، وعقد لهم عقدًا يضمن لهم استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية، ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوبة والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام (٥).

---

(١) جولة تاريخية، ص٣٤١.
(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢٢٩.
(٣) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/ ٦١، ٦٢، ٦٣).
(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص٢٢٩.
(٥) قادة الفتح لبلاد المغرب (١/ ٦١، ٦٢، ٦٣).

ثالثا: فتح إفريقية:

كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضى الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا فتح البلاد وإزالة الطاغوت الرومانى عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتفترق لهم الطرق، وتصبح حرية الاختيار فى متناول تلك الشعوب، وبعد تلك الحملة المباركة التى كانت سببًا فى دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية[1]، يقول الدكتور صالح مصطفى: «وفى سنة ٢٦هـ/ ٦٤٦م عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد رضى الله عنه وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[2]، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية ـ تونس ـ تمهيدًا لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التى تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعتادها، وموقعها الجغرافى الاستراتيجى، كتب حينئذ إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات المهمة عن إفريقية، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب، يقول الدكتور صالح مصطفى: ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان فى غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم فى ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبا الأعور سعيد بن زيد، الذى خالفه متمسكًا برأى عمر بن الخطاب فى ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين، ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين، وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليًا فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خيار شباب

---

(١) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، للصلابى، ص١٨٩.

(٢) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص٤٩.

آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل وكذلك الأنصار، فقد خرج فى تلك الغزوة الحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها فى غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائة رجل، ومن فيدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تامًا خطب عثمان فيهم، ورغبهم فى الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله، ويقال: إن عثمان رضى الله عنه قد أعان فى هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذى يقدر بعشرين ألفًا يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهرى، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامى أية صعوبة أثناء سيرهم فى برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابى الخراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر فى الوقت المناسب، ومما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، ما ذكر، أنه سُمِعَ يقول: قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد إلا أهل أنطابلس[1]، فإن لهم عهداً يوفى لهم به، كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: ولولا ما لى بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها[2].

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن عبد الله بن سعد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون فى جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسبًا لأى كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست فى ساحل ليبيا البحرى بالقرب

(١) أنطابلس: برقة.

(٢) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص٣٩.

من مدينة طرابلس، فما هى إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون فى طريقهم لفتح إفريقية[1]، وواصل عبد الله بن سعد السير إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه فى كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالى مائة وعشرين ألفًا، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول فى الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعًا لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده؛ وضاق الأمر بالمسلمين فنشبت المعركة بين الجمعين، وحمى الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغى جرجير على يديه[2].

ولما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضًا فى حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشىء، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب فى بعض الروايات، وفى البعض الآخر مائة قنطار، جزية فى كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم، وقبض المال، وكان فى شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عليهم، وانصرف راجعًا بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، أو سنة وشهرًا فى رواية أخرى[3].

وعندما وصل عبد الله بن سعد إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه، وقصد هو وأصحابه مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه

(١) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص١٩١ .
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٣ ، البداية والنهاية (٧/ ١٥٨).
(٣) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص١٩٤ .

الأموال التى معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التى وافته فى طرابلس من السفن التى غنمها المسلمون فى سورية وإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد: أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية فى الإسكندرية وسورية سليمة أن تكون لديهم سفن حربية، إما حاضرة، وإما سهلة الإنشاء[1]، بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم، وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامى هناك، وأقر أهلها على الإسلام أو الجزية[2].

رابعًا: بطولة عبد الله بن الزبير فى فتح إفريقية:

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان رضى الله عنه فسيَّر إليهم عبد الله بن الزبير فى جماعة ليأتيه بأخبارهم، فسار مُجدًا ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففتّ ذلك فى عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر، فإذا أُذِّن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم يَرَ ابن سعد معهم، فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادى جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى، وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر مناديًا ينادى: من أتانى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله[3]، ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله ابن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى أمداد متصلة وبلاد هى لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم فى باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من

---

(١) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص٤٦.
(٢) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص١٩٤.
(٣) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٨٨).

المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شُجعان المسلمين فى خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديدًا، فلما أُذِّن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم والمسلمون، فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبًا، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبد الله ابن سعد المدينة وحاصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن فى غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار، ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرًا إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل إفريقية ـ كما مر معنا ـ ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية(١).

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما موقف عظيم فى البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ حيث قال: لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفًا إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وفى جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير فى عشرين ومائة ألف وقيل فى مائتى ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون فى موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب

---

(١) الكامل لابن الأثير (٣/ ٤٥ ـ ٤٦).

على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألته أن يبعث معى من يحمى ظهرى، وأقصد الملك، فجهز معى جماعة من الشجعان، فأمر بهم فحموا ظهرى وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أنى فى رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس منى الشر، ففرَّ على برذونه فلحقته فصفعته برمحى، وذففت - يعنى أجهزت - عليه بسيفى، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فَرِقُوا وفرُّوا كَفِرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً عظيمة، وسبيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له: (سبيطلة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين[١].

إن ما قام به ابن الزبير نوعٌ من الطموح نحو المعالى المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعًا وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التى يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين فى عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟

إن الاحتمالات التى يمكن أن ترد فى مثل هذه المغامرة أن يدور فى خلَدَ المغامر أمران:

١ - أن ينجح فى هجومه فيقضى على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هى عادة الكفار، وفى ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

٢ - أن يتقبله الله شهيدًا، وفى ذلك الوصول إلى أسمى الأمانى، وأبلغ الدرجات التى يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن فى ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشىء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجرىء الفتاك، إذ إنه يكفى المغامر شجاعة أن يقذف

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٨).

بنفسه فى أتون المعركة الملتهب، إنه لا يقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها، ولقد كان ابن الزبير عندما وثب تلك الوثبة متجرداً من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة، طامحًا إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين فى سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة[١].

وقد جاء فى هذا الخبر أن البربر بعدما قتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقيِّض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد، وينقذهم من المآزق، فإن المسلمين قد وقعوا فى معضلة كبرى حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات فى العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء فى قول الراوى: فوقف المسلمون فى موقف لم يُر أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذى أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامى من عسرة كان يعانى منها[٢].

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه فى تلك المخاطرة، ولئن لم يَذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائى قد بقى مخلداً فى الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفى الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين[٣].

هذا وقد قدم المسلمون الغالى والرخيص فى فتوحات إفريقية واستشهد منهم الكثير، وممن توفى منهم غازيًا بإفريقية فى خلافة عثمان أبو ذُؤَيب الهُذلى وكان شاعراً مشهوراً، وهو الذى قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٠).
(٢ - ٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢).

وتجلُّدى للشّامتيــن أُريهــم أنى لريب الدهر لا أتضعضع(١)

خامسًا: معركة ذات الصوارى:

أصيب الروم بضربة حاسمة فى إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامى على سواحل المتوسط من رودس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية فى البر، فأذن عثمان رضى الله عنه لصد العدوان، فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بُسْر بن أرطاة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح فى مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامى، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا فى المعارك السابقة، فقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل فى معارك عديدة، فشوكة عدوهم فى أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوهم، خرج المسلمون إلى البحر وفى أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله وكسر شوكة الروم، ولقد كان لهذه المعركة التاريخية أسباب منها:

١ - الضربات القوية التى وجهها المسلمون إلى الروم فى إفريقية.

٢ - إصابة الروم فى سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.

٣ - خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا فى غزو القسطنطينية.

٤ - أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية برًا وعلى شواطئه فى بلاد الشام ومصر وساحل برقة.

٥ - كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كى تبقى لهم السيطرة فى المتوسط، فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى، عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٥٩.

٦ ـ محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم، وقد ثبت تاريخيًا مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.

هذه بعض أسباب معركة ذات الصوارى[1].

*** أين وقعت هذه المعركة؟**

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون له جوابًا موحدًا، فالمراجع العربية لم تحدد مكانها، باستثناء مرجع واحد ـ على ما نعلم ـ صرح بالمكان بدقة، وآخر قال: اتجه الروم إليه.

* فى (فتح مصر وأخبارها)[2]، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وقال: قد بلغنى أن هرقل قد أقبل إليكم فى ألف مركب . . . ولم يحدد مكان المعركة.

* (الطبرى)[3]، فى أخبار سنة ٣١ هـ، ربط حدوث ذات الصوارى بما أصاب المسلمون من الروم فى إفريقية، وقال: فخرجوا فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط.

* ولم يذكر (الكامل فى التاريخ)[4]، مكان الموقعة أيضًا، ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر فى إفريقية بالذات.

* وفى (البداية والنهاية)[5]: فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبى سرح من أصاب من الفرنج والبربر ببلاد إفريقية، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين فى جمع لهم لم ير مثله منذ كان الإسلام، خرجوا فى خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب.

---

(١) ذات الصوارى، شوقى أبو خليل، ص٦٠، ٦١.
(٢) المصدر نفسه، ص٦١.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٠).
(٤) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٨) طبعة البابى الحلبى القاهرة.
(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٦٣).

* (تاريخ الأمم الإسلامية)[١]، لم يذكر مكان الموقعة أيضًا[٢]، ورجح الدكتور شوقى أبو خليل أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية وذلك للأسباب التالية:

- كتاب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) يذكر صراحة: غزوة ذات الصوارى فى البحر من ناحية الإسكندرية[٣].

- تاريخ ابن خلدون يذكر[٤]: ثم بعث - ابن أبى السرح - السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبى السرح من إفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازيًا إلى الإسكندرية فى ستمائة مركب.

- ربطت المراجع العربية التى لم تحدد موقع المعركة، بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم فى شمال إفريقية بالذات.

- الأسطول الرومى صاحب ماض عريق، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصوارى، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل الإسلامية، ولذلك رجح الدكتور شوقى أبو خليل مجىء الأسطول الرومى إلى شواطئ الإسكندرية؛ لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم ومكاتبة أهلها لملكهم السابق، وهو بذلك يقضى أيضًا على الأسطول الفتى فى مهده، الذى شرع العرب فى بنائه بمصر، فتبقى للروم السيطرة والسطوة فى مياه المتوسط وجزره.

- المراجع الأجنبية تعرف ذات الصوارى بموقعة (فونيكة)، وفونيكة هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح فهى تحدد الموقع تمامًا[٥].

* **أحداث المعركة:**

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم - فى ذات الصوارى - فالتقينا فى

---

(١) (٢/ ٢٩)، للشيخ الخضرى.

(٢) ذات الصوارى، ص٦٢.

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٨٠).

(٤) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٦٨).

(٥) ذات الصوارى، ص٦٤.

البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا - أى لصالح مراكب الروم - فأرسينا ساعة، وأرسوا قريبًا منا، وسكتت الريح عنا، قلنا للروم: الأمن بيننا وبينكم، قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم(١)، كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم ننزل إلى الساحل فنقتتل، حتى يُكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر.

قال مالك بن أوس: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء، الماء، الماء. وهذا يُظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم فى النصر لممارستهم أحواله وفنونه، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنصر فيه، خصوصًا وأنهم يعلمون حدثان عهد المسلمين به(٢).

بات الفريقان تلك الليلة فى عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: أشيروا علىَّ؟ فقالوا: انتظر الليلة بنا لنرتب أمرنا ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويذكرونه، ويتهجدون، فكان لهم دوى كدوى النحل على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس فى سفنهم وأصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع فى القتال، ولكن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، لما فرغ من صلاته إمامًا بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأى والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة: فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برية على الرغم من أنهم فى عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الفدائيون، أو - رجال الضفادع البشرية فى عرفنا الحالى - إلى الماء، وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم، ربطوها بحبال متينة، فصار ١٢٠٠ سفينة فى عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها، متصلة مع بعضها فكأنها قطعة أرض ستجرى عليها المعركة، وصَفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحى السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصًا سورة الأنفال، لما فيها من معانى الوحدة والثبات والصبر(٣).

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٢).

(٢) ذات الصوارى، ص٦٦.

(٣) ذات الصوارى، ص٦٧.

وبدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء، الماء، الماء، وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق وكان قاسيًا على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة، فاصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحمر وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنها كانت يرموكًا ثانية على الروم[1]، ووصفها الطبري بقوله: إن الدم كان غالبًا على الماء في هذه المعركة[2]، حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي السرح، كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينة رومية، ألقت إلى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها، وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد، بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه[3].

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيرًا في أيدي المسلمين، كما ذكر ابن عبد الحكم، لكنه تمكن من الفرار لما رأى قوته تنهار وجثث جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل، لقد رأى أسطوله الذي تأمل فيه خيرًا ونصرًا وإعادة كرامة، يغرق قطعة بعد قطعة، ففر مدبرًا والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجر خيبة وفشلاً، فوصل جزيرة صقلية[4]... وألقت به الريح هناك، فسأله أهلها عن أمره، فأخبرهم فقالوا: شمّت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم[5]، فقتلوه، وخلوا من كان معه من في المراكب[6].

---

(١) ذات الصواري، ص٦٧.

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٩٣).

(٣) ذات الصواري، ص٦٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٦٨).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٨).

(٦) ذات الصواري، ص٦٨.

* نتائج ذات الصوارى:

١ ـ كانت ذات الصوارى أول معركة حاسمة فى البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتى الصبر والإيمان والجلد والفكر السليم، بما تفتق عنه الذهن الإسلامى من خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صوارى وشُرُع سفن الأعداء، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

٢ ـ كانت ذات الصوارى حدًا فاصلاً فى سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم فى استرداد هيبتهم، أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون فى عرض هذا البحر، الذى كان بحيرة رومية، وانتهى اسم (بحر الروم) إلى الأبد واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

٣ ـ قتل قسطنطين، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان حدثًا صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة روما (القسطنطينية) فيما بعد.

٤ ـ الإعداد الروحى قبل المعركة، أو ما يسمى بالتوجيه المعنوى فى أيامنا هذه، له قيمته فى تحقيق النصر، حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذى بات ليله فى تهجد وذكر، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هيأ الأسباب، يلقى الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شىء، وهذه المعارك التى نصف أحداثها التاريخية، هى وصفة طبية نعرضها للتطبيق والنهج، لنستفيد منها فى حياتنا، فحياة الصحابة ما هى إلا للقدوة، وسيرة للأتباع[1].

٥ ـ أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، وصار الأسطول الإسلامى سيد مياه البحر المتوسط، وهذا الأسطول ليس للتسلط والقرصنة، بل للدعوة إلى الله وكسر شوكة المشركين، ونشر الحضارة المنبثقة عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

---

(١) ذات الصوارى، ص٧١، ٧٢.

٦ ـ عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها فى البحار ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة ـ فيما بعد ـ فعرفوا الأسْطُرْلاب (البوصلة الفلكية) وطوروها إلى المدى الذى استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال كرستوف كولومبس، أمريكو فيسبوشى فى اكتشافاتهم[1].

٧ ـ لقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق فى العَدد والعُدد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة فى الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثى عهد بركوب البحر والقتال البحرى، ولكن الله ـ تعالى ـ أعلى المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور؛ لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته فى الأرض، وإن مما يُشاد به فى هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب، وهى بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستقتالهم فى الحروب فى سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم[2].

سادساً: أهم الدروس والعبر والفوائد فى فتوحات عثمان رضى الله عنه:

١ ـ تحقيق وعد الله للمؤمنين:

قال ابن كثير فى حديثه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: . . . ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية فى مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

---

(١) ذات الصوارى، ص٧٦.

(٢) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٤٠٧).

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، وقوله ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله»[١]. وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد فى زمان عثمان رضى الله عنه[٢].

٢ ـ التطور فى فنون الحرب والسياسة:

كانت الحروب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض، يراد تملكها أو بسبب اعتداء يقع على بلد أو قبيلة، ولكنها فى عهد النبوة والعهد الراشدى أصبحت بسبب المبادئ فالمسلمون يريدون أن تكون عقيدتهم هى السائدة والمهيمنة فى الأرض، فاصطدمت بعقائد فاسدة ومنحرفة كعقائد المشركين والمجوس، على أن هذا لم يكن كل شىء فى التطور الحربى، بل نجد لونًا جديدًا آخر وهو ما كان يعرضه المجاهدون المسلمون على أعدائهم من: الإسلام أو الجزية أو المناجزة ونتج عن تلك الفتوح سياسة فذة أرضت جميع الشعوب، إلا من كان فى قلبه حقدًا على العدل والمساواة ممن كانت تحدثهم نفوسهم بالفتن والعصيان، وهؤلاء اضطروا المسلمين أحيانًا إلى الشدة معهم والتنكيل بهم[٣].

٣ ـ بدء التجنيد الإلزامى فى عهد عمر رضى الله عنه واستمراره فى عهد عثمان رضى الله عنه:

كانت معركة القادسية من أسباب اتخاذ الفاروق لقرار التجنيد الإلزامى، فقد أمر عماله على الأقاليم بإحضار ـ كل فارس ذى نجدة أو رأى أو فرس أو سلاح، فإن جاء طائعًا وإلا حشروه حشرًا وقادوه مقادًا، واستعجلهم فى ذلك بحزمه المشهور قائلاً: لا تدعوا أحدًا إلا وجهتموه إلى، والعَجَل العجل[٤]، وكان عمر يفكر فى التجنيد الإلزامى الموقوف للجهاد، فلما دوّن الديوان، ورتب للمسلمين أرزاقهم

---

(١) مسلم، كتاب الفتن، رقم ٢٩١٨ ـ ٢٩١٩.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢١٦).

(٣) عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد الحميد بخيت، ص٢١٦.

(٤) إتمام الوفاء، ص٧٠.

السنوية، خرجت فكرته إلى حيز الوجود، واقترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامى الرسمى، وحُدّدت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين، وعندما أذن عثمان لمعاوية بالغزو بحرًا أمره أن يخيّر الناس ولا يكرههم، حتى لا يذهب أحد إلى هذا الضرب من الغزو إلا طائعًا مختارًا، أما التجنيد برًا لإتمام حركة الفتوح فقد ظل فى عهده إلزاميًا على أصحاب الرواتب والأرزاق من الجنود النظاميين(١).

٤ ـ اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية:

ترتب على توسع الدولة الإسلامية فى عهد عثمان رضى الله عنه الاستمرار فى سياسة تحصين الثغور للحفاظ على حدود الدولة الإسلامية من مهاجمة الأعداء سواء كان ذلك بشحنها بالجند المرابطين أو بناء الحاميات الدفاعية المختلفة بها، فكان أول كتاب كتبه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خلافته لأمراء الأجناد فى الثغور لحماية حدود الدولة الإسلامية، قوله: أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملإٍ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنى أنظر فيما أكرمنى الله النظر فيه، والقيام عليه(٢)، وتسهيلاً وتيسيرًا للعملية الإدارية جمع الخليفة عثمان رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان الشام والجزيرة، وولاية ثغورهما فى إدارة موحدة، وكلفه بغزو ثغر شمشاط بنفسه أو أن يولى ذلك من يرتضيه من كبار قواده من أصحاب الخبرة والشجاعة الراغبين فى الجهاد والحرب مع الروم(٣)، كما كتب أيضًا لمعاوية بن أبى سفيان أن يلزم ثغر أنطاكية قومًا وأن يقطعهم القطائع به ففعل ذلك(٤)، وكان رضى الله عنه يهتم بأمر الثغور ويبعث من يستعلم له عن بعضها(٥)،

---

(١) النظم الإسلامية، لصبحى الصالح، ص٤٨٩.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٦٦).

(٤) فتوح البلدان (١/ ١٧٥).

(٥) الخراج، لابن قدامة، ص٤١٣.

وعندما غزا معاوية بن أبى سفيان عمورية وجد الحصون التى فيها بين ثغر أنطاكية وثغر طرسوس خالية من مقاتلة الروم، فجعل بها جماعة من جند الشام والجزيرة وقنسرين وأمرهم بالوقوف عندها لتحمى ظهره أثناء انسحابه وانصرافه من غزواته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى[١] الصائفة وأمره بفعل الشىء نفسه، وكانت ولاة الصوائف والشواتى إذا دخلوا بلاد الروم فعلوا ذلك حيث يخلفون بها جندًا كثيفًا إلى خروجهم من أرض العدو[٢]، وقد أبلى معاوية بن أبى سفيان فى أثناء إدارته للسواحل الشامية وفى تحصينها بلاءً حسنًا[٣].

وكتب عثمان رضى الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبى السرح يأمره بالحفاظ على ثغر الإسكندرية بإلزام الجند المرابطة به وأن يجرى عليهم أرزاقهم وأن يعقب بين المرابطين من أجل أنه لا يضر بهم التجمير فقال له: قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فألزم الإسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر[٤]، وكان من عادة قادة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا تقدموا فى الفتوح واستولوا على حصون العدو قاموا بترميمها كمن سبقهم من القادة، ثم إسكانها جند المسلمين من المرابطين بالإضافة إلى استحداثهم لتحصينات دفاعية جديدة، فمن تلك الحصون التى قام بترميمها معاوية بن أبى سفيان حصون الفرات وهى سميساط[٥]، وملطية[٦]، وشمشاط، كمخ[٧]، وقاليقلا[٨]، وهى حصون استولى عليها المسلمون عند فتحهم لأرمينية فى عهد عثمان رضى الله عنه وقاموا بترميمها وإسكانها الجند[٩].

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٦٧).
(٢، ٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٦٧).
(٤) فتوح مصر، ص١٩٢.
(٥) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات.
(٦) ملطية: من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهى للمسلمين.
(٧) كمخ: مدينة بالروم بينها وبين أرزنجان يوم واحد. معجم البلدان (٤/ ٤٧٩).
(٨) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحى خلاط ثم من نواحى منازجرد.
(٩) من تاريخ التحصينات، لمحمد عبد الهادى، ص٤٣٤.

ففى قاليقلا قام القائد حبيب بن مسلمة الفهرى بإسكان ألفى رجل وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطين بها[١]، وقد كلف الخليفة عثمان رضى الله عنه القائد حبيب ابن مسلمة بأن يقيم بثغور الشام والجزيرة لإدارتها وحمايتها[٢]، وعندما فتح البراء بن عازب رضى الله عنه ثغر قزوين رتب فيهم خمسمائة رجل من جند المسلمين، وعين عليهم قائداً وأقطعهم أرضًا وضياعًا لا حق فيها لأحد فعمروا وأجروا أنهارها وحفروا آبارها[٣]، وحين فتح سعيد بن العاص طميسة[٤]، جعل بها مرابطة من ألفى رجل وعين عليهم قائداً[٥]، إلى غير ذلك من التحصينات التى أنشئت بالثغور فى إدارة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه والتى كانت تشحن بالجند لحماية حدود الدولة الإسلامية[٦]، وعنى الخليفة عثمان رضى الله عنه فى إدارته بأمر الصوائف والشواتى حيث عمل على تسييرها وتسهيل أمرها فى كل عام وكان يتولاها كبار قادته وولاته أمثال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه الذى بنى جسرًا بمنبج[٧]، لمرور الصوائف عليه فلم يكن قبل إذ. وقد فوض الخليفة عثمان رضى الله عنه واليه معاوية فى غزو الروم وتولى قيادة الصائفة من يختاره، فولى معاويةُ سفيانَ بن عوف الذى لم يزل على الصوائف فى عهد عثمان رضى الله عنه،ولم تقتصر حملات الصوائف والشواتى على الحدود البرية بل شملت كذلك البحر فى عهد عثمان رضى الله عنه[٨].

٥ ـ قسمة الغنائم بين أهل الشام والعراق:

استطاع حبيب بن مسلمة أن يهزم الروم فى أرمينية قبل وصول مدد الوليد بن عقبة من الكوفة، وغنم أهل الشام غنائم كثيرة، وبعد وصول مدد أهل الكوفة اختلفوا فى

---

(١) فتوح البلدان (١/ ٢٣٤).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٤١).
(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٦٩).
(٤) طميسة: بلدة من سهول طبرستان.
(٥) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٦٩).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٠).
(٧) منبج: بلد قديم.
(٨) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٠).

أمر الغنائم مما جعل حبيبًا يكتب بذلك إلى معاوية رضى الله عنه، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان رضى الله عنه يخبره بذلك فحكم عثمان بن عفان رضى الله عنه على أهل الشام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم، فلما ورد كتاب الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه على حبيب بن مسلمة قرأه على جند أهل الشام، فقالوا: السمع والطاعة لأمير المؤمنين، ثم إنهم قاسموا أهل العراق وغنموا[1].

٦ ـ الحرص على وحدة الكلمة فى مواجهة العدو:

فى عهد عثمان رضى الله عنه استخلف عبد الله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السلمى، حيث خرج منها فجمع (قارن) جمعًا كثيرًا من ناحية الطبسين وأهل بادغيس وهراة وقسهتان فأقبل فى أربعين ألفًا فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم قائلاً له: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلى البلاد فإنى أميرها ومعى عهد من ابن عامر، إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها ـ وأخرج كتابًا قد افتعله عمدًا ـ فكره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد[2]، أحب قيس بن الهيثم بفعله هذا أن يجمع الكلمة بدلاً من تفريقها حتى لا يحدث الفشل والوهن للجنود، فتكون الهزيمة وقد تم النصر للمسلمين على الأعداء بحمد الله[3].

٧ ـ شرط ما يحتاج إليه الجنود فى بنود الصلح:

فى عهد عثمان رضى الله عنه زادت الفتوحات الإسلامية اتساعًا مما جعل قادته يشترطون فى بعض عهودهم للصلح بأن تكون من المواشى والطعام والشراب لإعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وتموين وميرة حتى تساعدهم فى فتوحاتهم، فلا يتكلفون عناء حمل الميرة من القيادة المركزية ويستغنون عن طلبها؛ ليكونوا على الحرب أوفر وعلى منازلة العدو أقدر[4].

---

(١) الفتوح ابن أعثم (١/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية (١/ ١٨٩) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٤) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٦٦، ١٦٧).

٨ ـ جمع المعلومات عن الأعداء:

استمرت الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان رضى الله عنه يهتم بالأخبار ويتقصاها بنفسه[١]، وسار قادته على منوال من سبقهم من القادة بالاعتناء بأمر العيون وتقصى أخبار العدو[٢]، كما أنهم جعلوها شرطًا من شروط المعاهدات بينهم وبين المعاهدين حيث طلبوا منهم بأن ينصحوا وينذروا المسلمين بسير عدوهم إليهم ومعاونتهم بأن يكونوا عليهم جواسيس وإبلاغ المسلمين بتحركاتهم[٣].

٩ ـ عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى من قادة الفتوح فى عهد عثمان:

كان عبد الرحمن قائدًا عَقَدِيًا من الطراز الرفيع، وكان لتمسكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وعلمه بأمور الدين؛ لذلك بقى قائدًا لمنطقة (باب الأبواب) وواليًا عليها منذ وفاة سُراقة بن عمرو حتى استشهد، ولم يعزل من منصبه على الرغم من تبدل الخلفاء وتغير الولاة والقادة فى الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر، وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة، فلا يخون ولا يغدر ولا يضرب من الخلف[٤]، وكان لسيرته الحسنة فى منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثر أىُّ أثر فى استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام فى تلك الربوع، فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الإسلام والفتح شمالاً، فثبت الإسلام فى تلك الأصقاع النائية فى وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرنًا حتى اليوم[٥]، ومن مواقفه الخالدة التى سطرها على صفحات التاريخ، عندما خرج بالناس حتى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار: ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أريد (بَلَنْجَرَ) والترك. قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب) قال عبد الرحمن: لكنا لا نرضى منهم ذلك حتى نأتيهم فى ديارهم.

---

(١) الطبقات (٣/ ٥٩).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية (١/ ٤٠٣).

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٥٦.

وتالله إن معنا لأقوامًا لو يأذن أميرنا فى الإمعان لبلغت فيهم (الرّدْم)[١]، قال الملك: وما هو؟ فأجابه عبد الرحمن: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا فى هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم فى الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيِّرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم[٢]، وقد غزا عبد الرحمن (بلنجر) غزاة فى عهد عمر بن الخطاب، فقال الترك: ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهرب منه الترك وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر، بعد أن بلغ بخيله (البيضاء) على رأس مائتى فرسخ من (بلنجر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد[٣]. ومن الواضح أن معنويات المسلمين كانت عالية جدًا، لتتابع انتصاراتهم، ولتمسكهم بدينهم، كما أن معنويات الأمم التى حاربوها كانت منهارة؛ لأن المسلمين غلبوا الأمم التى قاتلوها، لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا، فلم يحدث قتال فعلى فى هذه الغزوة، فلم يسقط من المسلمين شهيدٌ[٤]، لقد كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم، وكان تصرفه مع المغلوبين، له الأثر فى استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الإسلام، فقد كان وفيًا غاية الوفاء أمينًا غاية الأمانة، فقد أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصين) مع هدايا - وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده - فعاد الرسول من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد، وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين، بينها ياقوتة حمراء ثمينة، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله فى مجلس عبد الرحمن، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن، ولكن عبد الرحمن ردها فورًا إلى الملك بعد أن نظر إليها، فهتف الملك متأثرًا، وقال: «لهذه - يعنى الياقوتة - خير من هذا البلد - أى باب الأبواب - وايم الله لأنتم أحب إلىَّ حكامًا من آل كسرى، فلو كنتُ فى سلطانهم، ثم

---

(١) الرّدم: قيل سد الصين.

(٢) الكامل لابن الأثير (٣/٢٩ - ٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/١٤٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/١٤٦).

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥٠.

بلغهم خبرها، لانتزعوها منى!!! وايم الله، لا يقوم لكم شىء ما وفيتم ووَفَى ملككم الأكبر»[١].

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشد العجب ويدهش أشد الدهشة بأمانة القائد المسلم ووفائه، فقد عاش هذا الملك عمره كله فى دوامة عنيفة من الخيانة وفى جو مشحون بالغدر، فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق، لم يتمالك نفسه أن نسى ملكه المضاع وملوكه الغابرين، فعبّر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجابًا بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء[٢].

كان عبد الرحمن يعلم أن الاستيلاء على الياقوتة التى لا تقدر بثمن ليس من حقه شخصيًا ولا من حق بيت مال المسلمين، فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان؛ فقد كان عبد الرحمن كريمًا مضيافًا، شهمًا غيورًا، ورعًا تقيًا، متفقهًا فى الدين تقيًا، لا يملك شيئًا من حطام الدنيا على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازيًا وواليًا، وقد استشهد فى عام اثنين وثلاثين للهجرة فى منطقة (بلنجر)[٣]، ويعتبر عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى من قادة الفتح فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقد كانت له صحبة وقد أسلم متأخرًا.

١٠ ـ سلمان بن ربيعة الباهلى من قادة الفتوح فى عهد عثمان:

كان هذا الصحابى الجليل أول من قضى بالكوفة، فقد بعثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاضيًا بالكوفة قبل شُرَيح، فلما ولى سعد بن أبى وقاص الكوفة الولاية الثانية فى أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضًا، وقد شهد القادسية فقضى بها، ثم قضى بـ (المدائن)، وليس كل إنسان يصلح للقضاء خاصة فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أو يصلح لأهل الكوفة التى كانت حينذاك تعجّ برجالات العرب وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاط شتى من أمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/١٤٨).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥٤.

(٣) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٥٤.

أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدين الحنيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقلية راجحة متزنة، وشخصية قوية نافذة، مما جعله موضع ثقة الناس جميعًا، كما أنه تولى المقاسم فى فتح (المدائن) وفى غزوة (الباب) أيضًا، مما يدل على تمتعه بالنزاهة المطلقة، كان رجلاً صالحًا يحج كل سنة، روى عنه بعض كبار التابعين، وكان مثالاً نادرًا للخلق القويم، كريمًا مضيافًا شهمًا غيورًا وفيًا صادقًا محبًا للخير، يحب للناس ما يحب لنفسه، ولم يترك حين استشهاده دينارًا ولا دارًا، بعد أن عاش كل حياته مجاهدًا وقاضيًا وأميرًا.

وقد كان متفوقًا على زملائه فى الصفات القيادية، فعندما بعث عثمان بن عفان رضى الله عنه كتابًا إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشام بقيادة رجل ممن تُرْضَى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، لم يتردد الوليد لحظة فى اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا فى الكوفة، ذلك لأن سلمان كان حقًا مثالاً رائعًا من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، لقد كان شجاعًا مقدامًا سريعًا إلى النجدة خبيرًا بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها وله تجارب طويلة فى قيادة الرجال، وكان أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور[1]، مما يدل على أنه كان من الرماة الماهرين، وكان ماهرًا فى الفروسية، خبيرًا بالخيل، وكان يلى الخيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان عمر قد أعد فى كل مصر من أمصار المسلمين خيلاً كثيرة معدة للجهاد، وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلامية، ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدِّين لقتاله[2]، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة[3].

وكان شجاعًا فى فروسية، قال سلمان: «قتلت بسيفى هذا مائة مستلئم[4]، كلهم

(١) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٩).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٦٩.

(٣) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧).

(٤) المستلئم: الجندى الذى لبس عدته وأصبح جاهزًا للقتال.

يعبد غير الله، ما قتلت رجلاً منهم صبرًا».

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله ـ الذى يعبد غير الله ـ لا يقتله فى ساحة القتال صبرًا، بل يُنذره ثم يصاوله مصاولة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدرًا، ولا يكون صبرًا[١]، لقد كان مثالاً للمجاهد الصادق المحتسب، الذى يجاهد لتكون كلمة الله هى العليا، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه، وأخيراً سقط مضرجًا بدمائه ولم يسقط السيف من يده، إنه قدوة حسنة لكل جندى ولكل قائد فى ماضيه المشرّف المجيد، وفى أعماله الفذة الخالدة[٢]، هذا وقد استشهد سنة اثنتين وثلاثين هجرية أو سنة ثلاث وثلاثين هجرية[٣]، «الفقيه المحدث، القاضى العادل، الأمين النزيه، الإدارى الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهلى)[٤].

١١ ـ حبيب بن مَسلمة الفهرى من قادة الفتوح فى عهد عثمان:

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحًا مرة، ومددًا مرة أخرى، وكان النصر حليفه فى كل معركة خاضها، قدم على النبى ﷺ، وهو بالمدينة غازيًا، وكان يومئذ صغيرًا، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده وهو يناهز العشرين من عمره القصير[٥]، وحين رآه عمر بن الخطاب صلب العود وقوى البدن، جربه تجربة عملية ليرى أى نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعفّ عن المال، وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد الذى يتغلغل حب الجندية فى أعماق نفسه، وقد تولى قيادة كردوس فى معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدل على ظهور سماته القيادية مبكرًا وهو فى ريعان الشباب، وولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عجم (الجزيرة) إداريًا

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٧٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٧١ .

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٧٢ .

(٥) كان عمره يوم تولى منصب قيادة منطقة الجزيرة وإدارتها ٢٨ سنة.

وقائدًا، وليس من السهل أن يولى عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع؛ لأن عمر كان يلتزم بصفات معينة فى القائد قل أن تتوفر فى الرجال، وأخيرًا ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه (أرمينية) و (أذربيجان)، وهى مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظرًا لشدة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية والمتقدمة[١]، ومارس القيادة والإدارة فى عهد عثمان رضى الله عنه، ولقد كان شجاعًا غاية الشجاعة، مقدامًا غاية الإقدام: لما توجه لقتال (الموريان) كان فى ستة آلاف، وكان (الموريان) فى سبعين ألفًا، فقال حبيب لمن معه: إن يصبروا وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم، وإن يصبروا وتجزعوا فإن الله مع الصابرين، ولقيهم ليلاً، فقال: اللهم أجِّل لنا قمرها، واحبس عنا مطرها، واحقن دماء أصحابى، واكتبهم شهداء، ففتح الله له[٢]، فكان من أسباب انتصاره على عدوه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم الليلى الذى باغت به العدو وجعل معنوياته تنهار ثم يولى الأدبار[٣]، وكان مثالاً شخصيًا حيًا لرجاله من الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام: يقول لهم: اتبعونى، ولا يبقى فى الخطوط الخلفية مؤثرًا السلامة والعافية، وحين عزم أن يُبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟ قال: سرادق موريان أو الجنة، وبيّت حبيب عدوه وقتل من صادفه فى طريقه؛ فلما أتى السرادق، وجد امرأته قد سبقته إليها[٤]؛ فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته بطلة يقتفى الأبطال آثارها فى التضحية والفداء[٥]، وكان يستشير رجاله ويتقبل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأى دونهم، بل كان يتنصت ليتلقف آراء رجاله، ويطبق ما رآه حسنًا، وينفذ ما يجده صوابًا، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك وفى أثنائها وبعدها، فقد سمع يومًا أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعل الله فيه لنا وله نصرًا وفرجًا إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن

---

(١) تولى (أرمينية) و(أذربيجان) وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).

(٣) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٨٩.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

ينادى بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل فى جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أن المدد قد جاءهم، فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرعب[١]، ونادى حبيب بالخيول، فوجهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوه فى السحر، فحمل وحمل أصحابه، فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة[٢].

كان حبيب صاحب كيد، يفكر ويُقدِّر ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبنى بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

إن أعمال حبيب الجهادية خطط مدبرة، ولم تكن خططًا ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه فى أخطر ساحات القتال فى الفتح، وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها، كان حبيب مؤمنًا حقًا صادق الإيمان، وكان إذا لقى عدوًا أو ناهض حصنًا يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[٣].

لقد كان حبيب قائدًا فذًا، جمع مزايا القائد الفذ: الطبع الموهب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية[٤]، والثقة بالله القوى العزيز.

إن حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلامى خدمات لا تُنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة الفتوح فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقد توفى هذا القائد الفذ سنة اثنتين وأربعين هجرية، فكان عمره يوم توفى أربعًا وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة فى تعداد السنوات، كثيرة فى تعداد جلائل الأعمال، قصيرة فى عمر الزمن، باقية آثارها على مرّ الدهور وتوالى السنين والقرون، رضى الله عن الصحابى الجليل، الإدارى الحازم، السياسىّ المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مسلمة الفِهرى[٥].

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).
(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٩٠ .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).
(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، ص١٩٢ .
(٥) المصدر نفسه، ص١٨٧ .

المبحث الرابع

أعظم مفاخر عثمان جمع الأمة على مصحف واحد

أولاً: المراحل التى مرّت بها كتابة القرآن الكريم:

١ ـ المرحلة الأولى: فى العهد النبوى:

ثبت بالدليل القاطع أن رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن الذى ينزل عليه، وثبت أنه كان له كاتب أو كُتَّاب يكتبون الوحى، حتى شُهر زيد بن ثابت بلقب (كاتب النبى ﷺ لاختصاصه بكتابة الوحى)، وبوّب البخارى فى كتاب (فضائل القرآن) (باب كتّاب النبى ﷺ) وذكر فيه حديثين:

الأول: أن أبا بكر رضى الله عنه قال لزيد: إنك كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ[١].

والثانى: عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [النساء:٩٥] قال النبى ﷺ: «ادعُ لى زيداً وليجئ باللوح والدواة والكتف، أو الكتف والدواة»[٢]. وكان النبى ﷺ يكتب القرآن فى مكة أيضًا قبل الهجرة، وممن كتب له عبد الله بن سعد بن أبى السرح ثم ارتد، ثم أسلم عام الفتح، وله فى ذلك قصة مشهورة ـ قد ذكرتها ـ والمعروف أن الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا كتبة، فلعلهم كانوا يكتبون القرآن فى مكة، ومما يدل على أن القرآن كان مكتوبًا فى مكة قصة إسلام عمر ابن الخطاب ودخوله على أخته، وبيدها صحيفة فيها سورة طه، وقد أعلم الله تعالى فى القرآن الكريم بأنه ـ أى القرآن ـ مجموع فى الصحف فى قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة:٢]، وقد توفى رسول الله ﷺ، والقرآن كله مكتوب،

---

(١) البخارى، كتاب فضائل القرآن، رقم ٤٩٨٦.

(٢) البخارى، كتاب تفسير القرآن، رقم ٤٥٩٣.

لكنه غير مجموعٍ فى موضع واحدٍ، وكان مكتوبًا على العُسُب واللخاف ومحفوظًا فى صدور الرجال، ومع حفظه فى الصحف وفى الصدور، كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ كل عام مرة، فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه[١].

ويحتمل أن النبى ﷺ لم يجمع القرآن فى مصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية[٢].

٢ ـ المرحلة الثانية: فى عهد أبى بكر رضى الله عنه:

كان من ضمن شهداء المسلمين فى حرب اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضى الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بجمع القرآن حيث جمع من الرقاع والعظام والسعف ومن صدور الرجال[٣]، وأسند الصديق هذا العمل العظيم إلى الصحابى الجليل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، يروى زيد بن ثابت رضى الله عنه فيقول: بعث إلىَّ أبو بكر رضى الله عنه لمقتل أهل اليمامة[٤]، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر[٥] يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن[٦] كلها، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ[٧]؟!! فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل،

---

(١) البخارى، كتاب فضائل القرآن، رقم ٤٩٩٨.

(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، ص٢٤٠ نقلاً عن فتح البارى (٩/ ١٢).

(٣) حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، لأحمد سعيد، ص١٤٥.

(٤) يعنى وقعة يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وأعوانه.

(٥) استحر: كثر واشتد.

(٦) أى فى الأماكن التى يقع فيها القتال مع الكفار.

(٧) يحتمل أن يكون إنما لم يجمع القرآن فى المصحف.

ولا نتهمك[١]، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه[٢]، قال زيد: فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىّ مما كلفنى به من جمع القرآن، فتتبعت القرآن من العسب[٣]، واللخاف[٤]، وصدور الرجال، والرقاع، والأكتاف[٥]، قال: حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨]، حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبى بكر فى حياته حتى توفاه الله، ثم عمر فى حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم[٦].

- **ونستخلص من المرحلة الثانية فى جمع القرآن بعض النتائج:**

ـ أن جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه نظرًا لموت العديد من القراء فى حروب الردة، وهذا يدل على أن القراء والعلماء كانوا وقتئذ أسرع الناس إلى العمل والجهاد لرفع شأن الإسلام والمسلمين بأفكارهم وسلوكهم وسيوفهم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ينبغى الاقتداء بهم لكل من جاء بعدهم.

ـ أن جمع القرآن تم بناءً على المصلحة المرسلة، ولا أدل على ذلك من قول عمر لأبى بكر ـ حين سأله: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟: إنه خير، وفى بعض الروايات أنه قال له: إنه والله خير ومصلحة للمسلمين، وهو نفس ما أجاب به أبو بكر زيد بن ثابت حين سأل نفس السؤال، وسواء صحت الرواية التى جاء فيها لفظ المصلحة أو لم تصح؛ فإن التعبير بكلمة خير، يفيد نفس المعنى، وهو مصلحة المسلمين فى جمع القرآن، مبنيًا على المصلحة المرسلة أول الأمر، ثم انعقد الإجماع

(١) هذه الصفات التى جعلت زيدًا يتقدم على غيره فى هذا العمل.
(٢) أى: من الأشياء التى عندك وعند غيرك.
(٣) العسب: هو جريد النخيل.
(٤) اللخاف: جمع لخفة: وهى صفائح الحجارة.
(٥) الرقاع: جمع رقعة وهى قطع الجلود، الأكتاف: جمع كتف وهو العظم الذى للبعير أو الشاة.
(٦) البخارى رقم ٤٩٨٦.

على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصريح أو الضمنى، وهذا يدل على أن المصلحة المرسلة يصح أن تكون سندًا للإجماع بالنسبة إلى من يقول بحجيتها كما هو مقرر فى كتب أصول الفقه.

ـ وقد اتضح لنا من هذه الواقعة كذلك كيف كان الصحابة يجتهدون فى جو من الهدوء يسوده الود والاحترام، هدفهم الوصول إلى ما يحقق الصالح العام لجماعة المسلمين، وأنهم كانوا ينقادون إلى الرأى الصحيح وتنشرح قلوبهم له بعد الإقناع والاقتناع، فإذا اقتنعوا بالرأى دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية، وبهذه الروح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهادية(١).

• ما المقومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة؟

اختار أبو بكر رضى الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهى:

أ ـ كونه شابًا، حيث كان عمره ٢١ سنة، فيكون أنشط لما يطلب منه.

ب ـ كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحًا، فقد يسر له سبيل الخير.

جـ ـ كونه ثقة، فليس هو موضعًا للتهمة، فيكون عمله مقبولاً، وتركن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

د ـ كونه كاتبًا للوحى، فهو بذلك ذو خبرة سابقة فى هذا الأمر، وممارسة عملية له، فليس غريبًا عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه(٢).

هـ ـ ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضى الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبى ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت،

---

(١) الاجتهاد فى الفقه الإسلامى، عبد السلام السليمانى، ص١٢٧.

(٢) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمى، ص٧٣.

وأبو زيد[١]، وأما الطريقة التى اتبعها زيد فى جمع القرآن فكان لا يثبت شيئًا من القرآن إلا إذا كان مكتوبًا بين يدى النبى ﷺ، ومحفوظًا من الصحابة، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة، خشية أن يكون فى الحفظ خطأ أو وهم، وأيضًا لم يقبل من أحد شيئًا جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ، وأنه من الوجوه التى نزل بها القرآن[٢]، وعلى هذا المنهج استمر زيد رضى الله عنه فى جمع القرآن حذرًا متثبتًا مبالغًا فى الدقة والتحرى[٣].

● الفرق بين المكتوب فى العهد النبوى، وعهد الصديق:

الفرق بين المكتوب فى العهد النبوى، وما كتب فى عهد أبى بكر، أن القرآن كان مكتوبًا فى العهد النبوى، مفرقًا فى الصحف والألواح والعُسُب، والكرانيف والقصب، وأدوات أخرى، ولم تكن مجموعة سوره فى خيط واحد . . . وأما الذى تم فى أيام أبى بكر، فهو كتابة القرآن فى صحف كل سورة أو سورٍ فى صحيفة مرتبة آياتُه على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فكانت مهمة زيد بن ثابت، أن يكتب ما كان مكتوبًا فى العهد النبوى فى صحفٍ، كل سورة فى صحيفة مرتبة فيها الآيات ترتيبًا توقيفيًا[٤].

٣ ـ المرحلة الثالثة فى جمع القرآن: فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

● الباعث على جمع القرآن فى عهد عثمان:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قدم على عثمان رضى الله عنه، وكان يُغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣١).
(٢) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، ص٧٤.
(٣) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق، ص٣٦٠.
(٤) المدينة فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٢٤١).

إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصُّحف ننسخُها فى المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف، ردّ عثمان رضى الله عنه الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كُلِّ أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[1] .

ويؤخذ من هذا الحديث الصحيح أمورٌ منها:

أ ـ أن السبب الحامل لعثمان رضى الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعًا مرتبًا فى صحف أبى بكر الصديق، إنما هو اختلاف قراء المسلمين فى القراءة اختلافًا أوشك أن يؤدى بهم إلى أخطر فتنة فى كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعى والسياسى والخلقى، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتى خير من قراءتك فأفزع ذلك حذيفة، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف فيستشرى بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيمس نص القرآن، وتحرَّف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذى وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها فى كتابها.

ب ـ أن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعًا فى صحف ومضمومًا فى خيط، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقًا تامًا على أن ما فى تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبى ﷺ فى آخر عرضة على أمين الوحى جبريل عليه السلام؛ وأن تلك الصحف ظلت فى رعاية الخليفة الأول أبى بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يول عهده أحدًا معينًا فى خلافة المسلمين، وإنما جعل الأمر شورى فى الرهط المصطفين بالرضا من رسول الله ﷺ، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم

---

(١) البخارى، كتاب فضائل القرآن رقم ٤٩٨٧ .

المؤمنين رضى الله عنها، وأن عثمان اعتمد فى جمعه على تلك الصحف، وعنها نقل مصحفه (الرسمى) وأنه أمر أربعة من أشهر قراء الصحابة إتقانًا لحفظ القرآن ووعيًا لحروفه وأداء لقراءاته وفهمًا لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين، وواحدًا أنصاريًا، وهو زيد ابن ثابت صاحب الجمع الأول فى عهد الصديق بإشارة الفاروق، وفى بعض الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبىّ بن كعب، وآخرون من قريش والأنصار(١).

جـ - ونأخذ من هذا: أن الفتوحات فى عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأن القرار العسكرى يصدر من المدينة، وأن الولايات الإسلامية كلها كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان فى عهده، بل يدلُّ على أن هناك إجماعًا من الصحابة والتابعين فى جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة، لرفع اختلاف الناس فى قراءة القرآن، يدل على أن القضايا الشرعية الكبرى، كان يُستشار فيها الخليفة فى المدينة، وأن المدينة ما زالت دار السنّة ومجمع فقهاء الصحابة(٢).

ثانيًا: استشارة جمهور الصحابة فى جمع عثمان:

جمع عثمان رضى الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم فى الأمر، وفيهم أعيان الأمة، وأعلام الأئمة، وعلماء الصحابة وفى طليعتهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وعرض عثمان رضى الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه؛ فأجابوه إلى رأيه فى صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس فى أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الذى يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين(٣).

---

(١) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٧١.
(٢) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٢٤٤).
(٣) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٧٥.

إن عثمان رضى الله عنه لم يبتدع فى جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه، كما أنه لم يصنع ذلك من قبل نفسه إنما فعله عن مشورة للصحابة رضى الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل وقالوا: نِعْمَ ما رأيت، وقالوا أيضًا: قد أحسن ـ أى فى فعله فى المصاحف[١].

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبى ﷺ حين مَشَقَ[٢] عثمان رضى الله عنه المصاحف فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه[٣]، وكان علىٌّ رضى الله عنه ينهى من يعيب على عثمان رضى الله عنه بذلك ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا فى عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا ـ أو قولوا خيرًا ـ فوالله ما فعل الذى فعل ـ أى فى المصاحف ـ إلا عن ملأ منا جميعًا أى الصحابة. . . والله لو وليت لفعلت مثل الذى فعل[٤].

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرد عن الهوى، أن الواجب على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذى صنعه عثمان رضى الله عنه وحفظ به القرآن الكريم[٥].

قال القرطبى فى التفسير: وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءة المشهورة عن النبى ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأيًا سديدًا موفقًا[٦].

ثالثًا: الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضى الله عنهما:

قال ابن التين: الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشيته أن يذهب شىء من القرآن بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعًا فى موضع

---

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٧٨).

(٢) مشق هو: الحرق (لسان العرب: ١٠/ ٣٤٤).

(٣) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ٩٤) إسناده حسن لغيره.

(٤) فتح البارى (٩/ ١٨) إسناده صحيح.

(٥) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٧٨).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٨).

واحد، فجمعه فى صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة، حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم دفعًا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة، وقال القاضى أبو بكر الباقلانى: لم يقصد أبو بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين، إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد.

وقال الحارث المحاسبى: المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات، فأما قبل ذلك، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق، وقد قال علىٌّ رضى الله عنه: لو وليت لعملت بالمصاحف التى عمل بها عثمان[1].

وقال القرطبى: فإن قيل: فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له: إن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة: أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا فى القراءة، لتفرق الصحابة فى البلدان، واشتد الأمر فى ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه[2].

---

(1) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص178.
(2) الجامع لأحكام القرآن (1/87).

رابعًا: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

ذهب الشيخ المحقق صادق عرجون ـ رحمه الله ـ إلى أن: صحف الصديق التى كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين لم تكن جامعة للأحرف السبعة التى وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرف منها، هو الذى وقعت به العرضة الأخيرة، واستقر عليها الأمر فى آخر حياة رسول الله ﷺ، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن وتمازج الناس وتوحدت لغاتهم؛ قال الإمام الطحاوى: إنما كانت السعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم؛ لأنهم كانوا أميين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ـ وسّع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقًا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها، قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد[١]، وقال الطبرى: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزًا لهم ومرخصًا لهم فيه، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد ـ أجمعوا على ذلك إجماعًا شائعًا، وهم معصومون من الضلالة[٢]. وهذا الحرف الذى كتبت به صحف الإجماع القاطع ونقل عنه المصحف الإمام ـ جامع لقراءات القراء السبعة وغيرها، مما يقرأ به الناس ونقل متواترًا عن رسول الله ﷺ؛ لأن الأحرف الواردة فى الحديث غير هذه القراءات[٣]، قال القرطبى: قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها، وإنما هى راجعة إلى حرف

(١ ـ ٣) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٨٠.

واحد من تلك السبعة، وهو الذى جمع عليه المصحف[١]، وأقرب الآراء إلى الفهم - عند ظننا - فى معنى الأحرف إنما هو الرأى القائل بأنها هى أفصح لغات العرب وأشهرها، وهى مبثوثة فى القرآن كله، وإليه ذهب القاسم بن سلام، وابن عطية فى جماعة من الأجلاء، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال مما ذكره السيوطى فى الإتقان فى معنى الأحرف[٢].

خامسًا: عدد المصاحف التى أرسلها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار:

لما فرغ عثمان رضى الله عنه من جمع المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذى أرسله إلى الآفاق، وقد اختلفوا فى عدد المصاحف التى فرقها فى الأمصار: فقيل: إنها أربعة، وهو الذى اتفق عليه أكثر العلماء، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية، أما كونها أربعة فقيل: إنه أبقى مصحفًا بالمدينة وأرسل مصحفًا إلى الشام ومصحفًا إلى الكوفة ومصحفًا إلى البصرة، وأما كونها خمسة فالأربعة المتقدم ذكرها، والسادس اختلف فيه، فقيل: جعله خاصًا لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين، وأما كونها سبعة، فالستة المتقدم ذكرها والسابع أرسله إلى اليمن، وأما كونها ثمانية فالسبعة المتقدم ذكرها، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه وهو الذى قتل وهو بين يديه[٣]، وبعث رضى الله عنه مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكى، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامى، وأبو عبد الرحمن السلمى مع المصحف الكوفى، وعامر بن قيس مع المصحف البصرى، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدنى[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٩).

(٢) الإتقان للسيوطى (١/ ١٤٤ - ١٤٨).

(٣) أضواء البيان فى تاريخ القرآن، ص٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٨.

سادسًا: موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان:

لم يثبت أن ابن مسعود رضى الله عنه خالف عثمان فى ذلك، وكل ما روى فى ذلك ضعيف الإسناد، كما أن هذه الروايات الضعيفة التى تتضمن ذلك تثبت أن ابن مسعود رضى الله عنه رجع إلى ما اتفق عليه الصحابة رضى الله عنهم فى جمع القرآن، وأنه قام فى الناس وأعلن ذلك[١]، وأمرهم بالرجوع إلى جماعة المسلمين فى ذلك، وقال: إن الله لا ينتزع العلم انتزاعًا، ولكن ينتزعه بذهاب العلماء، وإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه، فإن الحق فيما اجتمعوا عليه. . وكتب بذلك إلى عثمان[٢]، وقد ورد عن ابن كثير رجوع ابن مسعود إلى الوفاق[٣]، وأكد الذهبى ذلك فقال: وقد ورد أن ابن مسعود رضى وتابع عثمان ولله الحمد[٤]. ولا يلتفت إلى ما كتبه طه حسين فى قضية المصحف وعلاقة عثمان مع ابن مسعود وما ساقه بأسلوب مسموم، فيه أفكار أخذها من أساتذته المستشرقين[٥] والذين اعتمدوا على روايات ضعيفة ورافضية فى تشويه علاقة الصحابة ببعضهم رضى الله عنهم جميعًا.

إن ابن مسعود رضى الله عنه الذى ترك صلاة القصر فى منى خشية من الخلاف والفتنة ومتابعة للخليفة، هل يتوقع منه أن يصعد المنبر، ويحرض الناس على الخلاف، وهو القائل: إن الخلاف شر[٦].

إن مؤرخى الروافض زوروا روايات ونسبوها لابن مسعود وموقفه من عثمان رضى الله عنهما، وأظهروا ـ فى تلك الأكاذيب ـ الصحابة قومًا متنازعين متباغضين، متعنتين متفاحشين فى القول، وهى روايات ساقطة لا تثبت أمام النقد الهادئ

---

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٧٨).

(٢) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٧٩).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٩).

(٥) الفتنة الكبرى (١/ ١٥٩).

(٦) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٨٠).

الموضوعي، ويرفضها الذوق المؤمن والعقل الفطن[١]، وقد زعمت الرافضة كذبًا وزورًا؛ بأن ابن مسعود كان يطعن على عثمان ويكفره ولما حكم عثمان ضربه حتى مات، وهذا كذبٌ بَينٌ على ابن مسعود، فإن علماء النقل يعلمون أن ابن مسعود ما كان يكفر عثمان، بل لما بويع عثمان بالخلافة، صار عبد الله بن مسعود من المدينة إلى الكوفة ولما وصل إليها، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب مات ـ فلم نرَ يومًا أكثر نشيجًا من يومئذ ـ وإنا اجتمعنا أصحاب محمد، فلم نأل عن خيرنا ذي فُوقٍ، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان فبايعوه[٢]، وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرفيعة لعثمان بن عفان في قلب ابن مسعود وعند جميع الصحابة، أولئك الذين مدحهم الله تعالى ورضي عنهم، وهم خير من فقه قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فقول عبد الله بن مسعود صدق لا يعدو الحقيقة، كما أنه نابع عن قناعته وصادر عن محض إرادته؛ ما قاله خوفًا ولا خشية، ولم يقذف به هكذا رخيصًا للاستهلاك والتغرير، أو ليحوز مكانة ومنصبًا في الخلافة الجديدة، وإذًا فمن بدهيات الأمور وأولياتها أن ليس ثمة حقد أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر، وإذا حدث شيء فإنما هو من أجل الحق وصالح المسلمين[٣]، ويندرج تحت فقه النصيحة وآدابها وتأديب الخليفة لرعيته، وأما ما زعم الروافض ومن سار على نهجهم من أن عثمان ضرب ابن مسعود حتى مات، فهذا كذب باتفاق أهل العلم، قال أبو بكر بن العربي: وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور[٤]، فلا وجه للرافضة بالطعن على عثمان بقصة ابن مسعود هذه فإنه لم يضربه عثمان ولم يمنعه عطاءه، وإنما كان يعرف له قدره ومكانته، كما كان ابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة[٥].

---

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عبد الستار الشيخ، ص٣٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٦٣).

(٣) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عبد الستار الشيخ، ص٣٢٤.

(٤) العواصم من القواصم، ص٦٣.

(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (٣/ ١٠٦٦).

سابعًا: فهم الصحابة لآيات النهى عن الاختلاف:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالصراط المستقيم هو القرآن والإسلام والفطرة التى فطر الله الناس عليها، والسبل هى الأهواء والفرق والبدع والمحدثات، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، يعنى: البدع والشبهات والضلالات(١).

ونهى الله - سبحانه وتعالى - هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ونهى الأمة أن تكون من المشركين، الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، فقال عزّ من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣٢].

وأخبر - سبحانه وتعالى - أن الرسول ﷺ بريء من الذين يفرقون دينهم ويكونون شيعًا وأحزابًا(٢)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ويظهر من قصة جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه مدى فهم الصحابة رضى الله عنهم لآيات النهى عن الاختلاف، حيث إن الله نهى عن الاختلاف وحذر منه، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضى الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف فى قراءة القرآن، فرحل فورًا إلى المدينة النبوية، وأخبر عثمان رضى الله عنه، بما رأى وبما سمع، فسرعان ما قام عثمان يخطب الناس؛ يحذرهم من مغبة هذا

(١) تفسير مجاهد، ص٢٢٧.

(٢) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل، ص٤٩.

الخلاف، ويشاور الصحابة رضى الله عنهم فى الحل لهذه المحنة التى بدأت بالظهور، وفى مدة قصيرة يحسم الأمر ويغلق باب الخلاف الذى كاد أن ينفتح، بجمع الصحف ونسخها فى مصحف واحد من المصادر الموثوقة جدًا، وبإغلاق باب الفتنة هذا فرح المسلمون، بينما اغتاظ المنافقون الذين كانوا قد استبشروا ببوادر الخلاف التى كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، ويسعون إلى تحقيقها، ولما حسم الخلاف، ولم يجد أولئك طريقًا إلى استنهاضه، ازداد حقدهم على عثمان رضى الله عنه، وسعوا فى التشنيع عليه وتصوير حسنته هذه سيئة، وتلمسوا فى سبيل إثبات ذلك خيوط العنكبوت الواهية، ليطعنوا فيه ويسوغوا خروجهم عليه بها، مظهرين للناس أن هذه الحسنة سيئة تستوجب الخروج عليه[1].

إن الصحابة رضى الله عنهم لم يتركوا كل قارئ على قراءته الصحيحة، بل جمعوهم على قراءة واحدة، فاجتمع شملهم وتوحد صفهم، وهذا درس عظيم نستلهمه من دراستنا لتاريخ عهد الخلفاء الراشدين، الحافل بالعبر والدروس ومواطن القدوة[2].

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم»[3].

إن طريق الاعتصام بحبل الله أن نلتزم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهذا الأصل من آكد الأصول فى هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وهذا الأصل العظيم: وهو الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به فى كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبى ﷺ فى مواطن عامة وخاصة[4].

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم

(١) فتنة مقتل عثمان بن عفان (١/ ٨٢).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٨٣).
(٣) مسند أحمد (١/ ٢، ٢٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٩).

والفتهم، ونهيا عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه، مما ترتب عليه تفرق فى الصفوف، وضعف فى الاتحاد، وأصبحوا شيعًا وأحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون(١).

إن وحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعى، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر، فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفيقيًا؛ لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، قال الشيخ عبد الرحمن السعدى ـ رحمه الله ـ الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم فى عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفى تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثانى، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم، وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب فى كل وقت وزمان(٢)، ثم أفرد فصلاً بعنوان: الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة(٣)، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم، قال: فإن من أعظم الجهاد السعى فى تحقيق هذا الأصل فى تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية(٤).

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد؛ لأن هذه الخطوة مهمة جدًا فى إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى فى أبهى صورة فى جمع عثمان رضى الله عنه للأمة على مصحف واحد.

---

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، للصلابى، ص٣٠٧.

(٢ ـ ٤) وجوب التعاون بين المسلمين، ص٥.

الفصل الخامس

مؤسسة الولاة فى عهد عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

أقاليم الدولة فى عهد عثمان وسياسته مع الولاة

أولاً: مكة المكرمة:

توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وواليه على مكة خالد بن العاص بن هشام ابن المغيرة المخزومى [١]، وقد أبقاه عثمان رضى الله عنه فترة من الوقت يصعب تحديدها ثم قام بعزله، ولم ترد أخبار عن سبب ذلك، إضافة إلى صعوبة تحديد أهم أعماله، وقد قام عثمان رضى الله عنه بعد عزله بتولية على بن ربيعة بن عبد العزى، ثم قام عثمان رضى الله عنه بعد ذلك بتولية مجموعة من الأمراء على مكة يصعب تحديد فترات ولايتهم منهم عبد الله بن عمرو الحضرمى، الذى كان أحد عمال عثمان على مكة، كما أن النصوص تثبت أن عثمان رضى الله عنه قد أعاد خالد بن العاص ابن هشام على مكة مرة أخرى، وتؤكد بعض المصادر أن عثمان توفى وخالد على مكة، فقام على رضى الله عنه بعزله وتولية غيره [٢]، وهذه الرواية على ما يبدو أثبت من الروايات التى تذكر أن عبد الله بن الحضرمى هو الوالى على مكة حين قتل عثمان [٣]، وقد تميزت مكة فى عهد عثمان بالهدوء المستمر رغم ما وقع فى بعض الأمصار من فتنة فى أواخر عهد عثمان [٤].

---

(١) تجريد أسماء الصحابة، ص١٥١.

(٢) الولاية على البلدان، (١/ ١٦٦).

(٣) نهاية الأرب للنويرى (٢/ ٢٧).

(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٦٧).

ثانيًا: المدينة النبوية:

تعد المدينة المنورة من أهم المدن الإسلامية فى عهد عثمان، وبها مركز الخلافة، وإليها تفد الوفود من مختلف الأمصار، والأجناد الإسلامية، ويقيم بها كثير من شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار، وبذلك تكتسب أهمية خاصة، وقد كان عثمان بحكم خلافته مقيمًا بها ويتفقد أحوالها حتى إنه كان يسأل عن أسعار المواد الغذائية وعن أخبار الناس(١)، وكان عثمان رضى الله عنه إذا سافر إلى الحج يستخلف أحد الصحابة على المدينة حتى يرجع، وكثيرًا ما كان يستخلف زيد بن ثابت رضى الله عنه(٢)، وكان فى المدينة بيت مال وديوان للأعطيات كغيرها من الأمصار، وتعتبر المدينة من أكثر الأمصار الإسلامية هدوءًا خلال عصر عثمان سوى ما حدث فى أيامه الأخيرة من اضطراب الأحوال فيها بعد وصول جيوش الفتنة وحصار عثمان وخروج بعض كبار الصحابة منها(٣).

ثالثًا: البحرين واليمامة(٤):

توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى البحرين عثمان بن أبى العاص الثقفى فأقره عثمان عليها فترة من الوقت، وتدل الروايات على أن عثمان بن أبى العاص كان على ولاية البحرين بعد مبايعة عثمان بثلاث سنين أى سنة ٢٧هـ بدليل مشاركته بجيشه مع جيش البصرة فى بعض الفتوح(٥)، ويبدو أن التعاون الذى بدأ بين ولاية البحرين وولاية البصرة فى عهد عمر أخذ يشتد ويقوى فى عهد عثمان، خصوصًا بعد تولية (عبد الله بن عامر بن كريز)(٦) على البصرة، حيث أصبح عامل البحرين أحد القواد التابعين لعبد الله بن عامر والى البصرة، كما أن النصوص التاريخية تفيد

---

(١) تاريخ المدينة (٣/ ٩٦١، ٩٦٢).

(٢، ٣) الولاية على البلدان (١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٤) البحرين: كانت تطلق على المناطق التى تشمل إمارات الخليج العربى والجزء الشرقى من المملكة العربية السعودية عدا الكويت، أما اليمامة، فكانت فى بلاد نجد.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٥٩ والولاية على البلدان (١/ ١٦٩).

(٦) الطبقات لابن سعد (٥/ ٤٤).

تبعية ولاية البحرين للبصرة ـ إلى حد ما ـ واندماجها معها بحيث أصبح ابن عامر يعين العمال عليها من قبله[١]، ويؤكد أحد الباحثين هذا التعاون فى قوله: وفى زمن الخليفة عثمان بن عفان ألحقت البحرين بالبصرة عندما أصبحت الأخيرة قاعدة لفتوح فارس وجنوب إيران، فصار ولاتها تابعين لأمير البصرة، وقد عزّز هذا صلة البصرة بالبحرين ووثقها[٢]، وقد ذكر من ولاة عثمـان على البحرين: مروان بن الحكم، وعبد الله بن سوار العبدى، وقد توفى عثمان وعبد الله على البحرين[٣]، وقد كان للبحرين فى أيام عثمان دور كبير فى بعث الأجناد لفتوح شرق فارس، كما كان لواليها عثمان بن أبى العاص دور كبير فى تلك الفتوح[٤].

وقد كانت الأوضاع داخل البحرين مستقرة حتى وفاة عثمان، وأما اليمامة فقد كانت فى عهد عمر رضى الله عنه تابعة لولاية البحرين وعمان إلى حد كبير، بل إن والى البحرين هو الذى كان يبعث عليها الأمراء أحيانًا، أما فى عهد عثمان رضى الله عنه فالذى يبدو أن اليمامة كان عليها والٍ من قبل عثمان مباشرة، وقد ورد ذكره فى أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان مباشرة، إذ وصلته بعض الكتب فى تلك الفترة ممن غضبوا لمقتل عثمان[٥].

رابعًا: اليمن وحضرموت:

توفى عمر رضى الله عنه وعامله على اليمن (يعلى بن مُنيَّة) وكان فى طريقه إلى المدينة بناء على طلب عمر، إذ جاءه كتاب من عثمان يخبره بوفاة عمر وبيعة الناس لعثمان واستعماله من قِبَل عثمان على صنعاء، فاستمر على صنعاء إلى وفاة عثمان رضى الله عنه[٦]، وكان على مدينة الجند عبد الله بن ربيعة الذى استمر واليًا عليها طيلة عهد عثمان رضى الله عنه[٧]، ويبدو أن هناك ولاة آخرين كانوا على بقية مدن

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٦٩).
(٢) البحرين فى صدر الإسلام، عبد الرحمن بن النجم، ص١٤١.
(٣ ـ ٥) الولاية على البلدان (١/ ١٧٠).
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٢).
(٧) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٩.

اليمن، ولكن المصادر الرئيسية ركزت على هذين الواليين فى الغالب، كما أن المصادر لم تفصل القول فى أحداث اليمن خلال عصر عثمان، كما يقل إيرادها للمراسلات بين عثمان وولاته فى اليمن سوى ما ذكره من أوامر عامة مرسلة لكافة الولاة [١]، وقد اشتهر عن أهل اليمن خلال عصر عثمان طاعتهم وانقيادهم لولاتهم؛ يدل على ذلك ما روى من أن عثمان رضى الله عنه بعث رجلاً ثقفيًا إلى اليمن فلما عاد سأله عثمان عن أهلها، فقال: رأيت قومًا ما سئلوا أعطوا حقًا كان أو باطلاً [٢]، ومن المعروف أن العديد من القبائل اليمنية هاجرت خلال الفتوح فى أيام عمر بن الخطاب إلى الأمصار الإسلامية الجديدة سواء فى العراق أو مصر أو الشام، وبالتالى فإن صلات اليمن وأهلها بهذه الأمصار كانت مستمرة، كما أن الهجرات ـ ولو بشكل فردى من اليمن إلى بقية الأمصار ـ لم تتوقف طيلة عهد عثمان، حيث نجد لأناس من يهود اليمن دوراً خطيراً فى أحداث الفتنة التى قامت أواخر عهد عثمان، واستشهد فيها عثمان رضى الله عنه، وعلى رأس هؤلاء الوالغين فى الفتنة (عبد الله بن سبأ)، وبعد مقتل عثمان رضى الله عنه ترك اليمن عدد من ولاتها وقدموا إلى الحجاز للمشاركة فيما يجرى من أحداث ومنهم يعلى بن منية وعبد الله بن ربيعة [٣].

خامسًا: ولاية الشام:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة، كان معاوية رضى الله عنه واليًا على معظم الشام فأقره عثمان عليها [٤]، كما أقر بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم كاليمن والبحرين ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث وضمت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالى المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدهم نفوذًا، وقد كان فى بداية خلافة عثمان ولاة آخرون منهم، عمير بن سعد الأنصارى وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبى سفيان فى المكانة لدى

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٧١).

(٢) تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، لحسن سليمان، ص٧٩.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٢).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٥٥.

عثمان رضى الله عنه إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه وضم ولايته إلى معاوية بن أبى سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التى ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (١)، كما توفى علقمة بن محرز، وكان على فلسطين فضم عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، فاجتمعت الشام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان حتى توفى عثمان وهو عليها كما هو معروف (٢)، وقد كانت فترة ولاية معاوية على الشام مليئة بالأحداث، كانت الشام من أهم مناطق الجهاد، ومع أن الشام فى داخلها قد استقرت أوضاعها وسادها الإسلام وقلت محاولات الروم إثارة القلاقل فيها، إلا أن الشام كانت متاخمة لأرض الروم وبالتالى كان المجال مفتوحًا أمام معاوية للجهاد فى تلك النواحى، وقد تحدثنا عنها فيما مضى، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة فى هذا الاجتماع وجهها إلى عثمان (٣)، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

سادسًا: أرمينية:

بدأت الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى أرمينية لأول مرة فى عهد عثمان رضى الله عنه، حيث توجه أول جيش إسلامى إلى تلك المنطقة من بلاد الشام - وهى من أقرب الولايات إليها - يقوده حبيب بن مسلمة الفهرى وقوامه حوالى ثمانية آلاف مقاتل، واستطاع هذا الجيش أن يفتح العديد من المواقع فى أرمينية، إلا أنه أحسّ بالخطر نتيجة تجمع حشود من الروم لمساعدة الأرمن فى حروبهم ضد المسلمين، فطلب المساعدة من الخليفة الذى أمر بتسيير جيش من الكوفة قوامه ستة آلاف رجل تقريبًا،

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٣).

(٣) الولاية على البلدان (١/ ١٧٦).

ويقوده سلمان بن ربيعة الباهلى[١]، وقد حدث نزاع بعد ذلك بين حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة، وقف الخليفة عثمان عليه، فقام بالكتابة إلى القوم وحل المشكلة التى بينهما[٢]، ويبدو أن سلمان بن ربيعة تولى قيادة الجيوش الإسلامية حيث كتب إليه عثمان بإمرته على أرمينية[٣]، ثم توغل سلمان بن ربيعة فى أرمينية ثم بلاد (الخزر)[٤] فاتحًا ومنتصراً، حتى وقعت معركة حامية بين جيشه وقوامه عشرة آلاف رجل وجيش ملك الخزر وقوامه ثلاثمائة ألف رجل ـ كما تقول الروايات ـ فقتل سلمان وجميع جنوده، وقد كتب عثمان رضى الله عنه إلى حبيب بن مسلمة أن يسير مرة أخرى إلى بلاد أرمينية فاتجه بجيشه، وقام بفتح المواقع مرة بعد أخرى وثبت أقدام المسلمين فيها، وعقد بعض المعاهدات مع أهل البلاد[٥]، ثم رأى عثمان رضى الله عنه أن يوجهه إلى ثغور الجزيرة لخبرته بها وقدرته عليها، وعين مكانه على أرمينية حذيفة ابن اليمان بالإضافة لولايته على أذربيجان، حيث قام بعدة غزوات نحو بلاد الخزر من أرمينية[٦]، وبعدما يقرب من سنة عزله عثمان، وولى على أرمينية المغيرة بن شعبة رضى الله عنه، حتى توفى عثمان وهو عليها وعلى أذربيجان فى الوقت نفسه[٧]، وتعد هذه الولاية إضافة جديدة أضافها عثمان إلى الدولة الإسلامية ولم تكن فتحت قبله، وقد لقى المسلمون عناء شديداً فى فتحها وتنظيمها وضبط أمورها[٨].

سابعًا: ولاية مصر:

كان والى مصر فى خلافة عمر بن الخطاب هو عمرو بن العاص الذى حكمها ما يقرب من أربع سنوات[٩]، وتوفى عمر وهو وال عليها، وقد أقره عثمان بن عفان فى

---

(١) الطبقات (٦/ ١٣١).

(٢) الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر، ص٣٢٦.

(٣) الفتوح ابن أعثم (٢/ ١١٢).

(٤) الخزر: بلاد الترك فى آسيا الوسطى وهى الآن فى جنوب روسيا.

(٥، ٦) الولاية على البلدان (١/ ١٧٧).

(٧) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٦٨). والولاية على البلدان (١/ ١٧٧).

(٨) الولاية على البلدان (١/ ١٧٧).

(٩) النجوم الزاهرة (١/ ٧٧).

بداية خلافته فترة من الوقت، وكان يساعده فى عمله فى بعض نواحى مصر عبد الله ابن أبى السرح[١]، الذى كان مصاحبًا لعمرو بن العاص منذ أيام فتوحه فى فلسطين حيث كان من ضمن قواده واشترك معه فى فتوح مصر[٢]، وقد عينه عمر على بعض صعيد مصر بعد فتحها[٣]، ويبدو أن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى السرح حدث بينهما خلاف فى وجهات النظر فوفد عمرو بن العاص على عثمان بعد مبايعته بالخلافة، وطلب منه عزل عبد الله بن سعد عن ولاية الصعيد، فرفض عثمان ذلك وذكر له أن عمر هو الذى ولى ابن أبى السرح، وأنه لم يأت بما يوجب العزل، فأصر عمرو على عزله، وأصر عثمان على عدم موافقته، ونتيجة لإصرار كل من الطرفين على رأيه ـ رأى عثمان أن من الأصلح عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله ابن أبى السرح مكانه، وهذا ما حدث بالفعل[٤]، وفى هذه الظروف قام الروم بالإغارة على الإسكندرية والاستيلاء عليها وقتلوا جميع من فيها من المسلمين، فرأى أمير المؤمنين تعيين عمرو على جيوش مصر لفتح الإسكندرية من جديد والقضاء على جيش الروم، وتمّ ذلك فعلاً[٥]، وقد فصلت أحداثه فى حديثى عن الفتوحات، ثم إن عثمان أراد أن يعيد عمراً على ولاية أجناد مصر وحربها، وأن يجعل عبد الله بن سعد على الخراج، إلا أن عمرو رفض ذلك، وتكاد الأخبار تندر عن ولاية عمرو فى مصر خلال عهد عثمان رضى الله عنه سوى ما ورد من دوره فى الجهاد، سواء فى رد الروم وطردهم من الإسكندرية وتثبيت الأمن فى أنحاء مصر، أو فى قضايا الخراج التى دارت فيها بين عثمان وبين عمرو خلافات فى الرأى[٦]، وبعد عزل عمرو بن العاص عن مصر مرة أخرى أو عن ولاية الإسكندرية على أرجح الآراء، وبعد رفضه ما اقترحه عثمان رضى الله عنه من ولايته على الأجناد وولاية ابن أبى السرح على الخراج، أقر عثمان عبد الله بن أبى السرح مرة أخرى على مصر، وأصبح هو الوالى

(١، ٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣).
(٣) ولاة مصر للكندى، ص٣٣. وفتوح مصر وأخبارها، ص١٧٣.
(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٧٨).
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٧٨، ١٧٩).
(٦) الولاية على البلدان (١/ ١٧٩)، وفتوح البلدان، ص٢١٧.

الرسمى لمصر، والمدير الفعلى لولاية مصر بأجنادها وخراجها ومختلف شئونها[١]، وقد كانت ولاية مصر فى أول أمرها هادئة مستقرة إلى أن تمكن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها وإثارة الناس فيها، فكان لهم وللمتأثرين بهم دور كبير فى مقتل عثمان رضى الله عنه[٢]، وسيأتى بإذن الله تعالى تفصيل ذلك.

ثامنًا: ولاية البصرة:

استشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وواليه على البصرة أبو موسى الأشعرى، وكان المجتمع البصرى فى تلك الفترة قد بدأ يشهد تغيرات أساسية فى بنيته السكانية والاجتماعية، حيث أصبحت البصرة من أكبر المعسكرات الإسلامية إذ هاجر إليها العديد من القبائل وقام جندها بفتح الكثير من المواقع، وبالتالى اكتسبت أهمية خاصة فى بداية عهد عثمان[٣]، وقد انشغل الناس بأمورهم الخاصة إضافة إلى الأمور العامة من جهاد وغيره، وبالتالى فإن الولاية على مثل هذه المنطقة وكذلك ما يتبعها من أقاليم أخرى تعتبر مهمة ليست باليسيرة وتتطلب دراية خاصة بإدارة أحوال تلك الولاية، ولعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحس بمقدرة أبى موسى الخاصة على إدارة تلك الولاية، حيث أوصى الخليفة من بعده أن يترك أبا موسى فى الولاية من بعده أربع سنوات بعد وفاته[٤]، وقد كانت فترة ولاية أبى موسى للبصرة فترة جهاد وكفاح برز فيها دور أهل البصرة، كما برز فيها أبو موسى رضى الله عنه بفتح العديد من المواقع فى بلاد فارس، إضافة إلى تثبيته لأقدام المسلمين فى المواقع المفتوحة سابقًا والتى حاول أهلها الانتقاض بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقام أبو موسى بغزوهم وتثبيت الإسلام فى تلك الربوع[٥]، وبالإضافة إلى دور أبى موسى فى الفتوح فإنه قام بدور مهم فى تنظيم الرى وحفر القنوات والأنهار فى

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٧٩).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٨٦).

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة، صالح العلى، ص١٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩١). والولاية على البلدان (١/ ١٨٦).

(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٨٧).

البصرة أثناء ولايته زمن الخليفة عثمان، وقد قام بحفر قناة لجلب مياه الشرب إلى البصرة اعتمد عليها الناس بعد ذلك في شربهم، كما بدأ في مشاريع لحفر قنوات أخرى، إلا أن عزله عن الولاية حال دون إتمامها[١]، فقام خليفته عبد الله بن عامر بإتمامها[٢]، ولم تستمر ولاية أبي موسى على البصرة طويلاً إذ قام عثمان بعزله سنة ٢٩هـ كما ترجح معظم الروايات ـ وعين مكانه عبد الله بن عامر بن كريز[٣]، ويورد المؤرخون عدة روايات حول عزل أبي موسى، نستخلص منها أن هناك مشكلة قامت بين أبي موسى وبين جند البصرة اختلف في سببها، وقد قدمت مجموعة من أهل البصرة إلى عثمان تحرضه على عزل أبي موسى قائلين له: ما كل ما نعلم نحب أن تسألنا عنه فأبدلنا سواه، قال عثمان: من تحبون؟ فقالوا في كل أحد عوضٌ عنه، وطلب قوم من عثمان أن يولي عليهم قرشيًا[٤]، فعزل عثمان أبا موسى وولى مكانه عبد الله بن عامر، وهنا تتجلى لنا حكمة أبي موسى وسعة صدره وطاعته لأمر الخليفة، وأنه لم يكن يحرص على الولاية كما يظن البعض، فحينما بلغه عزله وتولية عبد الله بن عامر مكانه، صعد المنبر وأثنى على عبد الله بن عامر ـ وكان شابًا صغيراً عمره ٢٥ سنة ـ وكان مما مدحه به أبو موسى قوله: قد جاءكم غلام كريم العمّات والخالات والجدات في قريش يفيض عليكم المال فيضًا[٥].

لقد استطاع عثمان رضي الله عنه في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها ولاية البصرة أن يعين قائداً جديداً يستجيب له الأجناد، وبالتالي توحدت صفوفهم أمام الأعداء، فضلاً عن أن هذا العزل تكريمٌ لأبي موسى من أن يهان من قبل بعض العوام ممن تأثروا بالغوغاء وأفكار المتمردين المنحرفة ممن حملوا في نفوسهم كراهيته والتشهير به والتفّوا عليه[٦]، وقد كانت ولاية البصرة تمرّ بظروف صعبة حينما تولى

(١، ٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨٧).

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦٤).

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦٤).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٢٦٦). وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩).

(٦) الولاية على البلدان (١/ ١٨٩).

ابن عامر، مما دفع عثمان رضى الله عنه إلى إجراء تغيير أساسى فى إدارة الولاية، إذ إنه ضم أجناد البحرين وعمان إلى ابن عامر فى البصرة حتى يعطيه سلطة أقوى للوقوف أمام التحديات التى تواجهه فى تلك الفترة، وقد كان لهذا الدمج أثره الكبير على قوة ابن عامر ونفوذه، كما أنه أثر من ناحية أخرى على البصرة نفسها، حيث أصبحت إحدى العواصم الإسلامية المستقرة، وزادت هجرة القبائل إليها أكثر من ذى قبل[١]، وبالتالى زادت أعباء الولاية سواء فى الديوان أو فى تنظيم مختلف شئون الولاية الإدارية والمالية والأمنية وغيرها، وقد كانت لولاية البصرة وأجنادها ولابن عامر نفسه فتوح عظيمة بدأت بعد ولايته مباشرة، وانتهت قبيل مقتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه[٢]، وقد تمّ بيانها عند حديثنا عن فتوحات عثمان رضى الله عنه، وقد اكتسبت البصرة أيام ابن عامر مكانة خاصة بن الولايات الإسلامية لفتت نظر الخليفة عثمان رضى الله عنه نتيجة فتوحها وتوسعها فى مختلف المجالات فأصبحت مركزًا إداريًا مرموقًا[٣]، وتدار منها العديد من المناطق الإسلامية، وكان ابن عامر مسئولاً عن توزيع الأمراء فى مختلف المناطق التابعة لولايته، باتفاق مسبق مع الخليفة عثمان رضى الله عنه وبالتالى كانت مسئولياته عظيمة، وقد قام ابن عامر بتوزيع الأمراء على المناطق التابعة له بمجرد أن تولى الإمارة حيث اختار بعض القوّاد والأمراء وعيّنهم على تلك المناطق، ومن أهمها عُمان والبحرين وسجستان وخراسان وفارس والأهواز، بما فى هذه المناطق من مدن مختلفة ومناطق شاسعة[٤]، وكان يجرى تنقلات بين هؤلاء الأمراء والعمال من وقت لآخر تبعًا للمصلحة فى ذلك، كما اشتهرت البصرة فى أيامه ببيت مالها الذى زاد دخله فى أيامه وكثرت مصروفاته، وكان المسئول عن بيت المال فى أيام عمر، زياد بن أبى سفيان وقد كان يلى بعض المشاريع من حفر للأنهار وغيرها نيابة عن ابن عامر[٥]، وفى ولاية ابن عامر ضربت

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة، ص١٤١.
(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨٩).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٩٣).
(٤) نهاية الأرب (١٩/ ٤٣٣).
(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٩٤).

الدراهم فى أنحاء فارس التابعة لولايته، وعليها ألفاظ عربية فى الفترة من سنة ٣٠هـ حتى ٣٥هـ[١]، وقد كان ابن عامر محبوبًا لأهل البصرة عمومًا منذ قدومه إليها، ورغم ما أثير حوله من أن عثمان ولاّه لأنه قريب له، إلا أن أهل البصرة تمسكوا به[٢]، ومن خلال هذا العرض تبين أن ولاية البصرة فى عهد عثمان انحصرت فى رجلين هما أبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عامر، ولقد كان لكلا الواليين دوره الرئيسى فى ضبط أمور البصرة وما يتبعها[٣].

تاسعًا: ولاية الكوفة:

كان على ولاية الكوفة حين بويع عثمان بالخلافة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه وكان قد تولى فى أواخر عهد عمر رضى الله عنه[٤]، وقد قام عثمان رضى الله عنه بعزل المغيرة عن الكوفة وتعيين سعد بن أبى وقاص مكانه، وقد ذكر فى سبب العزل أنه كان بوصية من عمر رضى الله عنه حيث أوصى الخليفة من بعده أن يستعمل سعدًا نظرًا لأن عمر عزله عن الكوفة فى أواخر خلافته، وقال: إنى لم أعزله عن سوء ولا خيانة وأوصى الخليفة بعدى أن يستعمله[٥]، تولى سعد بن أبى وقاص على الكوفة وكان قرار التعيين مشتركًا بين سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود، سعد على الصلاة والجند، وابن مسعود على بيت المال[٦]، وقد كان سعد بن أبى وقاص صاحب خبرة فى ولاية الكوفة وله معرفة تامة بأمورها وسكانها وثغورها وأجنادها؛ نظرًا لأنه كان مؤسسها فى عهد عمر، كما أنه وليها عدة سنوات، فكان أخبر الناس بها وأعلمهم بأحوالها[٧]، ومن الأعمال التى قام بها سعد أثناء ولايته فى عهد عثمان على الكوفة قيامه بزيارة بعض الثغور التابعة للكوفة ومنها (الرى) وترتيب أمورها

---

(١) الدراهم الإسلامية، وداد على القزاز، ص١٤.

(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٩٤).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٩٥).

(٤ - ٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٣٩).

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٠). والولاية على البلدان (١/ ١٩٦).

(٧) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٠٥. والولاية على البلدان (١/ ١٩٦).

وضبطها سنة ٢٥هـ[1]، وكذلك قيامه بتعيين بعض الأمراء والعمال الجدد فى (همذان) وما حولها، ولم تطل فترة ولاية سعد بن أبى وقاص على الكوفة إذ حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود خلاف، وكان ابن مسعود على بيت المال، فاقترض منه سعد شيئًا من الأموال إلى أجل، فجاء الأجل ولم يكن عند سعد ما يسدّ به ذلك القرض، فجاءه ابن مسعود يطالبه بتسديد ذلك القرض فاشتدا فى الكلام واجتمع حولهما الناس، فقرر عثمان عزل سعد وإبقاء ابن مسعود، فكانت عقوبة سعد العزل وعقوبة ابن مسعود الإقرار فى العمل كما يقول الطبرى[2]، وهذه القصة تدلنا على تورع كلا الصحابيين، وتدل على حاجة سعد إلى المال، وعدم وجود ما يكفيه، وأنه ـ لذلك اضطر إلى الاقتراض من بيت المال، كما تدل على اجتهاد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى حفظ أموال المسلمين وإصراره على استرداد القرض من سعد والى الكوفة وحاكمها، وكانت ولاية سعد على الكوفة سنة وشهرًا[3]، وبعد عزل سعد ولى عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبى معيط الذى كان قبل تعيينه على الكوفة قد عمل قائدًا لجيش من جيوش أبى بكر فى الأردن، ثم عمل لعمر على عرب الجزيرة[4]، وفى أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان كان الوليد أحد قواد أجناد الكوفة، وقام بالجهاد فى العديد من المواقع قائدًا لتلك الأجناد[5]، فكان قبل تعيينه على ولاية الكوفة صاحب خبرة بالكوفة وأجنادها وثغورها ومختلف شئونها، وكعادة الخلفاء الراشدين فى تفضيل أصحاب الخبرة فى المنطقة على غيرهم عند الحاجة إلى تعيين ولاة جدد، فقد وقع اختيار عثمان رضى الله عنه على الوليد بن عقبة لولاية الكوفة، وكثير ممن كتبوا عن تعيين عثمان رضى الله عنه للوليد سواء من المتقدمين أو من المتأخرين حاولوا اتهام عثمان فى هذا التعيين، فهم يقولون: إن عثمان استعمل على

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٩٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥١)

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٠).

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٥١).

(٥) الولاية على البلدان (١/ ١٩٨).

الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة[١]، وهذا فيه غمز مباشر لعثمان رضى الله عنه[٢]، وفى بداية ولاية الوليد كان يشترك معه عبد الله بن مسعود، حيث كان واليًا على بيت المال إلا أن خلافًا حدث بين الوليد وعبد الله بن مسعود على أمر يتعلق بأموال الدولة، ورفع النزاع إلى عثمان ليفصل فيما يراه فرأى عثمان رضى الله عنه أن من المصلحة توحيد الولاية وبيت المال فى يد الوليد وعزل عبد الله بن مسعود، وقد اعتقد أن المصلحة تقتضى ذلك الضم[٣]، وقد بقى الوليد بن عقبة فى الكوفة محبوبًا من أهلها، ليس على داره باب[٤]، يستقبل الناس فى مختلف الأوقات ليحل مشكلاتهم، ويقوم بالواجبات الملقاة عليه، إلى أن وقعت بعض الحوادث فى الكوفة أوجدت بعض الحاقدين عليه بسبب موقفه الحازم فى قضية ابن الحيسمان الخزاعى الذى قتله مجموعة من شباب الكوفة، فأقام الوليد بن عقبة بأمر من عثمان رضى الله عنه حد القصاص على هؤلاء الشباب المعتدين، ومنذ تلك الحادثة أخذ أولياء هؤلاء المجرمين وأقاربهم يروّجون الشائعات عن الوليد بن عقبة، ويحاولون جاهدين أن يتصيدوا أخطاء الوليد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، واستطاع أولئك الموتورون تلفيق قضية ضد الوليد، وهى دعوى شربه الخمر، التى سببت إقامة الحد عليه وعزله عن ولاية الكوفة، وهذا ما أراده المتآمرون[٥]، وسيأتى تفصيل قضية شرب الوليد بن عقبة للخمر عند حديثنا عن ولاة عثمان رضى الله عنه بإذن الله تعالى.

وبعد عزل الوليد أرسل عثمان إلى أهل الكوفة كتاب جاء فيه: من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، سلام أما بعد فإنى استعملت عليكم الوليد بن عقبة حتى تولت منعته واستقامت طريقته، وكان من صالحى أهله وأوصيته بكم ولم أوصكم به، فلما بذل لكم خيره وكف عنكم شره، وغلبتكم علانيته طعنتم به فى

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٩٨).

(٢) انظر: الاتهامات التى ألقاها طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (١/ ٩٤).

(٣) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص١٠٨.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥١).

(٥) الولاية على البلدان (١/ ٢٠١).

سريريته والله أعلم بكم وبه، وقد بعثت عليكم سعيد بن العاص أميراً[١]، وكانت شكاية أهل الكوفة للوليد وعزله حلقة فى سلسلة طويلة من الشكايات والعزل من قِبَلِ بعض أهل الكوفة لأمرائهم[٢]، وقد غضب الكثير من أهل الكوفة لعزل الوليد، وبعد عزل عثمان رضى الله عنه للوليد عن ولاية الكوفة عين بعده سعيد بن العاص سنة ٣٠هـ الذى كان مقيمًا فى المدينة فاتجه إلى الكوفة، ورافقه وفد من أهل الكوفة الذين قدموا على عثمان فى شكاية الوليد، وكان فيهم الأشتر النخعى وغيره[٣]، فلما وصل سعيد الكوفة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد بعثت إليكم، وإنى لكاره ولكنى لم أجد بُدًا إذ أمرت أن أئتمر، إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعيينى، وإنى الرائد نفسى اليوم ثم نزل عن المنبر[٤]، ومن خلال هذه الخطبة يتبين لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة وإرهاصاتها التى بدأت تظهر فى الكوفة قبل ولايته، وتهديده لأصحاب الفتنة وعزمه على القضاء على الفتنة التى استشعر بدايتها فى الكوفة[٥]، واستطاع سعيد بن العاص أن ينظم أمور ولايته ويعين الأمراء والولاة فى مختلف الثغور التابعة للكوفة ويضبط أمورها[٦]، وقام بغزوات ناجحة تمّ ذكرها عند حديثنا عن الفتوحات فى عهد عثمان، ثم بدأت الفتنة تطل برأسها فى الكوفة سنة ٣٣هـ، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى بالتفصيل، ودبّر الأشتر النخعى مؤامرة ضد سعيد بن العاص وانخدع بها بعض عوام الكوفة فقاموا مع الأشتر فى رفض ولاية سعيد والطلب من عثمان إبداله بغيره، ولم يكن سعيد سوى والٍ من الولاة الذين سبق لأهل الكوفة أن اعترضوا عليهم وطلبوا عزلهم قبل ذلك كسعد بن أبى وقاص والوليد بن عقبة وغيرهم، وكان طلب خلعه مقرونًا بثورة حمل الغوغاء فيها السلاح، وهى سابقة خطيرة فى تاريخ الكوفة

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).
(٢) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٦).
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٠).
(٥) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٧).
(٦) الولاية على البلدان (١/ ٢٠٨).

بل وفى تاريخ الدولة الإسلامية كلها، وليس فيها سبب حقيقى، وإنما السبب الحقيقى هو تطور الأوضاع والتغير الذى طرأ على نفوس الناس بتأثير دعاة الفتنة والخروج على عثمان، وقد أصدر الخليفة عثمان رضى الله عنه أمراً بتولية أبى موسى الأشعرى على الكوفة وعزل سعيد بن العاص بناء على طلب بعض أهل الكوفة، وقد استهل أبو موسى ولايته بخطبة أمام أهل الكوفة قال فيها: أيها الناس لا تنفروا فى مثل هذا ولا تعودوا لمثله، الزموا جماعتكم والطاعة وإياكم والعجلة اصبروا فكأنكم[1] بأمير. قالوا: فَصَلِّ بنا. قال: لا إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان[2]، وقد كتب عثمان إلى أهل الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فقد أمّرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأفرشنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ولأستصلحنكم بجهدى، فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أجبتم حتى لا يكون لكم علىّ حجة[3].

وقد استمر أبو موسى رضى الله عنه واليًا على الكوفة حتى قتل عثمان رضى الله عنه[4]، وهكذا نجد أن ولاية الكوفة فى خلافة عثمان رضى الله عنه قد تولى عليها خمسة ولاة ابتداء بالمغيرة بن شعبة وانتهاء بأبى موسى الأشعرى، وقد حفلت فترة الولاية لكل من هؤلاء الخمسة بالعديد من الحوادث التى برزت على ساحة الأحداث، وكان لها تأثير مباشر على مسيرة الدولة الإسلامية، وقد نمت الفتنة فى الكوفة واشتهر عن أهلها تسلطهم على ولاتهم ورفضهم لهم فى كثير من الأحيان مهما استرضوهم، فقد شكوا سعد بن أبى وقاص، وشكوا الوليد بن عقبة، وطردوا سعيد بن العاص، ولعلنا نتذكر هنا أنهم أتعبوا عمر قبل عثمان حتى قال فيهم: من عذيرى من أهل الكوفة.

وقد كان لبعض أهل الكوفة دور مباشر ورئيسى فى مقتل الخليفة عثمان رضى الله

---

(١) المراد اصبروا فإن معكم أميراً الآن إن سمعتم وأطعتم.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٩).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٤٣).

عنه، وجدير بالذكر أنه كانت هناك بعض الولايات المتفرعة من ولاية الكوفة كطبرستان، وأذربيجان، وبعض المناطق الأخرى شمالى بلاد فارس[١]، ومما يؤيد ارتباطها بالكوفة أن ولاة الكوفة ومنهم سعيد بن العاص هم الذين كانوا يتولون الفتوح فى نواحيها، كما كانوا يؤدبون أهلها فى حال عصيانهم، وقد لعبت هذه الولايات الفرعية دوراً مرتبطًا بدور الكوفة أيضًا إلى حد كبير[٢].

ومن خلال العرض السابق للولايات الإسلامية فى عهد عثمان يتبين لنا أن هناك ولايات تمتعت بالاستقرار طيلة عهد عثمان رضى الله عنه، ومنها الولايات الواقعة فى بلاد العرب كالبحرين واليمن ومكة والطائف وغيرها، كما تمتعت الشام بالاستقرار أيضًا طيلة خلافة عثمان رضى الله عنه، وأما البصرة فقد شغل أهلها بالفتوح مع واليهم عبد الله بن عامر، وأما مصر والكوفة فقد حدث فيهما الاضطراب فى أواخر خلافة عثمان وبالتالى ولدت فيهما الفتنة، وأقدم أناس من أهلها على غزو المدينة وعلى قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه بدلاً من غزو أعداء الإسلام[٣].

* * *

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢١٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢١٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢١٤).

المبحث الثانى

سياسة عثمان مع الولاة وحقوقهم وواجباتهم

أولاً: سياسة عثمان مع الولاة:

تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة فى بداية سنة ٢٤هـ، وكان ولاة عمر رضى الله عنه ينتشرون فى الأمصار الإسلامية، وقد أقرهم عثمان فى ولاياتهم عامًا كاملاً، ثم باشر بعد ذلك العزل والتعيين فى هذه الأمصار بمقتضى سلطته وحسب ما يراه فى مصلحة المسلمين، ولعل عثمان فى ذلك قد اتبع وصية عمر رضى الله عنه التى أوصى فيها: أن لا يقر لى عامل أكثر من سنة وأقروا الأشعرى أربع سنين[1]، وكان عثمان رضى الله عنه فى سياسته مع الولاة يعتمد على مشورة الصحابة فى كثير من تصرفاتهم، كما أنه قام بضم بعض الولايات إلى بعضها لما يراه فى مصلحة المسلمين، ولذلك قد حدّد الولاية إلى حد ما فى بعض المناطق فقد ضم البحرين إلى البصرة، كما ضم بعض ولايات الشام إلى بعضها الآخر نتيجة لوفاة بعض الولاة أو طلبهم الإعفاء من العمل، وقد كان عثمان رضى الله عنه دائم النصح لولاته بالعدل والرحمة بين الناس فكان أول كتبه إلى ولاته بعد مبايعته خليفة للمسلمين: أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوا بالذى عليهم، ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا بالوفاء[2]. ونحن نرى من هذا أن عثمان حدد لولاته معالم السياسة التى يجب أن يسيروا عليها، من

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩١).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٤).

إعطاء الحقوق للمسلمين، ومطالبتهم بما عليهم من واجبات، وإعطاء أهل الذمة حقوقهم ومطالبتهم بما عليهم من واجبات، وبالوفاء حتى مع الأعداء وبالعدل فى ذلك كله، وأن لا يكون همهم جباية المال[١]، كما كان عثمان رضى الله عنه يكتب إلى عماله ببعض التعليمات الخاصة فى الأمور المستجدة التى تتعلق بإداراتهم للولايات، إضافة إلى كتبه العامة والتى كان يصدر فيها تعليمات محددة يلتزم بها الجميع، ومن ذلك إلزامه الناس فى الولايات بالمصاحف التى كتبت فى المدينة على ملأ من الصحابة، حيث أرسل مصاحف إلى كل من الكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والبحرين واليمن والجزيرة ـ بالإضافة ـ إلى مصحف المدينة[٢]، وقد أمر عثمان بجمع المصاحف الأخرى وإحراقها وذلك بموافقة الصحابة فى المدينة، كما ورد ذلك عن على رضى الله عنه[٣]، كما كان عثمان رضى الله عنه حريصًا على أن يتنافس الأمراء فيما بينهم فى الجهاد وفتح بلدان جديدة، فقد كتب إلى عبد الله بن عامر فى البصرة، وإلى سعيد بن العاص فى الكوفة يقول: أيكما سبق إلى خراسان فهو أمير عليها، مما دفع ابن عامر إلى فتح خراسان وسعيد بن العاص إلى فتح طبرستان[٤]، وقد كان عثمان يشترط بعض الشروط على الولاة أحيانًا ليضمن أن يكون تصرفهم فى صالح المسلمين، ومثال ذلك أن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى عثمان يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه عثمان: فإن ركبت البحر ومعك امرأتك، فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا. فركب البحر وحمل امرأته[٥].

ثانياً: أساليب عثمان رضى الله عنه لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم:

اتبع عثمان رضى الله عنه عدة أساليب لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم، من ذلك:

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢١٥).

(٢) تاريخ المدينة (٣/ ٩٩٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٩٩٥، ٩٩٦).

(٤) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٦٦).

(٥) الولاية على البلدان (١/ ٢١٦). والخراج وصناعة الكتابة، ص٣٠٦.

١ ـ حضوره لموسم الحج:

كان عثمان يحرص على الحج بنفسه ويلتقى بالحجاج ويسمع شكاياتهم، وتظلمهم من ولاتهم، كما أنه طلب من العلماء أن يوافوه فى كل موسم، وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكوهم[١]، وكان ذلك استمرارًا لما كان عليه الحال أيام عمر من لقاء سنوى بين الخليفة والولاة والرعية[٢].

٢ ـ سؤال القادمين من الأمصار والولايات:

وتعتبر هذه الطريقة من أيسر الطرق حيث إنها لا تكلف الخلفاء كثيرًا، كما أنها تأتى فى كثير من الأحيان دون ترتيب مسبق، وقد اشتهر عن الخلفاء الراشدين الأربعة عملهم بهذه الطريقة، وكان وجود الخليفة فى المدينة المنورة خلال عصور الخلفاء الثلاثة الأول مما يساعد الخليفة نظرًا لكثرة الوافدين إلى المدينة للزيارة، وخصوصًا أثناء موسم الحج[٣].

٣ ـ وجود أناس من أهل البلاد يكتبون إلى الخليفة:

فقد استقبل عثمان رضى الله عنه الكتب التى أرسلها بعض الرعية من الأمصار إلى المدينة بما فيها من شكاوى، فقد استقبل كتابًا أرسله أهل الكوفة إليه، وكذلك كتابًا أرسله أهل مصر إليه، كما استقبل كتبًا أخرى أرسلها أناس من الشام، وقد اطلع عثمان على ما فى هذه الكتب وعالج ما فيها[٤].

٤ ـ إرسال المفتشين إلى الولايات:

بعث عثمان رضى الله عنه العديد من المفتشين إلى بعض الولايات للاطلاع على أحوالها ومعرفة ما يشاع عن ولاته من ظلم الرعية، وقد جاء أولئك المفتشون بتقارير وافية عن أحوال أولئك الولاة[٥]، فقد أرسل عمّار بن ياسر إلى مصر، ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام،

(١، ٢) الولاية على البلدان (١/ ٢١٦) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٢٢).

(٤ ـ ٥) المصدر نفسه (١/ ٢١٧).

بالإضافة إلى إرساله رجالاً آخرين إلى أماكن أخرى(١).

٥ ـ السفر إلى الولايات والاطلاع على أحوالها مباشرة:

كان عثمان رضى الله عنه يزور مكة فى موسم الحج ويطلع على أحوالها، ويقابل الولاة بها وحجاج الأمصار، ويسأل عن أخبارهم وأحوالهم.

٦ ـ طلب الموفدين من الولايات لسؤالهم عن أمرائهم وولاتهم:

كان الخلفاء الراشدون فى كثير من الأحيان يطلبون من الولاة أن يبعثوا إليهم بأناس من أهل البلاد ليسألوهم، وقد تكرر ذلك من عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، أما أبو بكر فكان مشغولاً بأمور جهادية منعته من ذلك، كما كان لقصر مدة خلافته دور فى قلة هذه الحوادث(٢).

٧ ـ استقدام الولاة وسؤالهم عن أحوال بلادهم:

وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصر الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد كانت الاتصالات المستمرة قائمة بين الخليفة عثمان وبين ولاته لبحث مختلف شئون الدولة، ومن أهم هذه الاتصالات الاجتماع الذى عقده عثمان مع ولاته فى المدينة، حيث دعا ولاة البصرة والكوفة والشام ومصر وغيرهم، ودعا كبار الصحابة وعقد معهم اجتماعًا بحث فيه بوادر الفتنة التى بدأت تظهر، وتعرف على آراء أولئك الولاة فى الفتنة وكيفية علاجها فقد أدلى كل والٍ من هؤلاء برأيه فى علاج تلك الظاهرة(٣).

٨ ـ المراسلة مع الولاة:

وطلب التقارير منهم عن أحوال رعيتهم وأحوال بلادهم، وقد اشتهرت هذه الطريقة خلال عصور الخلفاء الراشدين الأربعة، وكانت بالأحرى أهم الطرق خلال عصر أبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما(٤).

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢١٧).

(٢) الولاية على البلدان (٢/ ١٢٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٢٣).

(٤) الولاية على البلدان (٢/ ١٢٢).

هذه أهم الأساليب التى اتبعها عثمان فى متابعة ومراقبة ولاته، وقد كان رضى الله عنه حريصًا على قيام الولاة بواجباتهم، وفى حالة وقوع أى مخالفة منهم، فإنه يؤدبهم على ذلك الخطأ إذا وصل إلى علمه، وإذا ثبت عليه ارتكابه شرع فى عقوبته دون النظر إلى حسن ظنه فى العامل، ومن ذلك جلده للوليد بن عقبة حد الخمر بعد اكتمال شروطه وبغض النظر عن صدق الشهود من عدمه[1]، وقام بعد جلده بعزله عن ولاية الكوفة[2]، وقد درج عثمان رضى الله عنه أن يكتب إلى أهل الأمصار عن تعيين والٍ جديد عليهم ليوصيهم به كما أوصاه بهم، وكذلك كان يكتب فى كثير من الأحيان إلى العامة فى الأمصار ناصحًا، حتى يساعد الولاة فى تسيير أمور الرعية، ومن ذلك الكتاب الذى أرسله عثمان إلى الأمصار يقول فيه: أما بعد فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا يرفع علىّ شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته، وليس لى ولا لعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم فيا من ضرب سراً وشتم سراً... من ادّعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم فيأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى... أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين، فلما قرئ فى الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان[3].

ثالثًا: حقوق الولاة:

استقر فى عهد الخلفاء الراشدين بأن للولاة حقوقًا مختلفة يتصل بعضها بالرعية، وبعضها بالخليفة، بالإضافة إلى حقوق أخرى متعلقة ببيت المال، وكل هذه الحقوق الأدبية أو المادية تهدف بالدرجة الأولى إلى إعانة الولاة على القيام بواجباتهم وخدمة المصلحة العامة، ومن أهم هذه الحقوق:

١ ـ الطاعة فى غير معصية الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن

(١) الولاية على البلدان (٢/١٢٦).

(٢) الولاية على البلدان (١/٢١٧).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٩).

تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩]

قال القرطبى: لما تقدم إلى الولاة فى الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم فى هذه الآية فأمر الرعية بطاعته جل وعلا أولاً وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيًا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثًا، على قول الجمهور وأبى هريرة وابن عباس وغيرهم [١]، وفى العهد الراشدى خصوصًا والمجتمع الإسلامى عمومًا، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحكام مقيدة دائمًا بطاعة الله ورسوله، كما قال رسول الله ﷺ «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف» [٢].

٢ ـ بذل النصيحة للولاة:

من منطلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو الأساس الذى تقره الأمة بأكملها، والذى وردت الأوامر به من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على وجه العموم، ومنها ما خص الولاة به، حيث أمرت الأحاديث النبوية ببذل النصيحة لهم، وقد دأب الخلفاء الراشدون الأربعة على الكتابة لولاتهم باستمرار يبذلون لهم النصيحة، والنصوص الواردة فى هذه كثيرة يصعب حصرها [٣].

٣ ـ يجب على الرعية للوالى إيصال الأخبار الصحيحة إليه:

والصدق فى ذلك سواء ما يخص أحوال العامة، أو ما يخص أخبار الأعداء أو ما كان متعلقًا بعمال الوالى وموظفيه، والعجلة فى ذلك قدر المستطاع خصوصًا ما كان متعلقًا بالأمور الحربية وأخبار الأعداء وما يتعلق بخيانات العمال وغير ذلك، من منطلق الاشتراك فى المسئولية مع الوالى فى مراعاة المصلحة العامة للأمة [٤].

---

(١) تفسير القرطبى (٥/ ٢٥٩).
(٢) البخارى، كتاب الأحكام رقم ٧١٤٥.
(٣) الولاية علو البلدان (٢/ ٥٦).
(٤) الولاية على البلدان (٢/ ٥٧).

٤ ـ مؤازرة الوالى فى موقفه:

وعندما اندلعت الفتنة وطالب أصحابها من عثمان عزل بعض ولاته، رفض عثمان ذلك، وكان هذا التعضيد يخدم الهدف العام للدولة الإسلامية ويمنع الاضطراب، ولا يعنى ذلك عدم الالتفات إلى الشكاوى ومؤازرة الولاة بدون تحقق، بل إن هذا التعضيد من الخلفاء إنما يأتى بعد تحقق وتثبت من تلك الشكايات، وبعد محاسبة دقيقة قد تتطلب إرسال لجان خاصة من بعض الصحابة للتحقيق فى تلك القضايا، وكما أن المؤازرة للوالى واجبة من قبل الخليفة، فهى كذلك واجبة من قبل الرعية، وأن على الناس احترامهم وتقديرهم[1] . وإن كان عثمان رضى الله عنه قد عزل بعض الولاة فذلك لما رآه من مصلحة الرعية.

٥ ـ احترامهم بعد عزلهم:

ومن ذلك ما فعله عثمان مع أبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص رضى الله عنهما بل نلاحظ أن عثمان استشار عمرو بن العاص فى مسائل الدولة الكبرى بعد عزله، وهذا احترام فائق من عثمان رضى الله عنه لمن عزلهم من الولاة.

٦ ـ مرتبات الولاة:

ومن حقوق الولاة مرتباتهم التى يعيشون عليها، ومبدأ الأرزاق والرواتب للعمال متفق عليه بين الخلفاء الراشدين اقتداء بما فعله الرسول ﷺ، ولئن كانت الروايات قد اقتصرت على ذكر مرتبات بعض العمال فقط، فإن المفهوم أن جميع العمال كانت لهم مرتبات خلال عصور الراشدين، ومعظم الروايات التى وردت فى هذا الموضوع كانت تركز بالدرجة الأولى على عصر عمر بن الخطاب، حيث ورد ذكر مقدار أرزاق بعض الولاة فى عصره، وقد مضى عثمان وعلى رضى الله عنهما على سيرة من سبقهما من الخلفاء فى فرض الأرزاق للعمال والولاة، إلا أن عصر عثمان رضى الله عنه كان على ما يبدو أكثر توسعًا فى بذل الأعطيات للناس عمومًا ومن ضمنهم الولاة، نظرًا لزيادة الدخل فى بيت المال نتيجة الفتوح الواسعة التى قام بها ولاة

(١) الولاية على البلدان (٢/ ٥٨).

عثمان فى المشرق وفى أرمينية وإفريقية وغيرها، بل إن عثمان رضى الله عنه كان يعطى مكافآت مقطوعة للعمال خاصة وبارزة، فقد أعطى لعبد الله بن سعد بن أبى السرح خمس الخمس من الغنيمة جزاء فتوحه فى شمال إفريقية حيث قال له: إن فتح الله عليك غداً إفريقية فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً[١]، وعلى كل حال فإن إعطاء الأرزاق للعمال وإغناءهم عن الناس كان مبدأً إسلاميًا فرضه رسول الله ﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدون من بعده، حتى أغنوا العمال عن أموال الناس، وفرّغوهم للعمل ولمصلحة الدولة[٢].

رابعًا: واجبات الولاة:

١ ـ إقامة أمور الدين، ومن أبرز تلك الواجبات:

أ ـ نشر الدين الإسلامى بين الناس:

حيث اختص ذلك العصر بفتوحات عظيمة اقتضت من الولاة العمل على نشر الدين فى البلاد المفتوحة مستعينين بمن معهم من الصحابة، وقد كان الولاة يقومون بهذه المهمة مع وجود من يساعدهم فى بداية الفتوح فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، ثم بدأت الأمصار تعتمد على معلمين وفقهاء قدموا لهذه المهمة بعد التوسع وبناء الأمصار فى عهد عمر، وقد تأكد وجود المعلمين بعد ذلك خلال الفترة الأخيرة من خلافة عمر، وخلال فترة خلافة عثمان وعلى، وذلك لكثرة السكان فى الأمصار وكثرة طلاب العلم وانشغال الولاة بأمور مختلفة، وتوسع الولايات حيث كانت تتبع الولاية الواحدة العديد من الأمصار التى كان الناس فيها بحاجة إلى فقهاء ومعلمين[٣].

ب ـ إقامة الصلاة:

كان الخليفة نفسه طيلة عصر الخلفاء الراشدين الأربعة هو الذى يقيم صلاة الجمعة والجماعة والأعياد فى البلد الذى يقيم فيه ويخطب فى الناس الجمعة والأعياد

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٢).

(٢) الولاية على البلدان (٢/ ٦٤).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٦).

والمناسبات الأخرى، وكذلك نوابه يقومون بهذه المهمة فى أمصارهم، وطيلة عهد الخلفاء الراشدين كان الولاة يخطبون فى الناس بأنفسهم ويؤمونهم فى الصلاة[١].

جـ ـ حفظ الدين وأصوله:

كان الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول ﷺ يشعرون بعظم الواجب الملقى عليهم فى حفظ الدين على أصوله الصحيحة التى نزلت على رسول الله ﷺ، وكانوا يعملون جاهدين فى إحياء سنة الرسول ﷺ والقضاء على البدع، والعمل على احترام دين الله واحترام رسوله ﷺ، وردّ كيد من يحاولون الدس على هذا الدين، وقد عمل عثمان رضى الله عنه على كتابة المصحف الشريف وإرسال نسخ منه إلى الأمصار، وأمر ولاته بإحراق ما لدى الناس من مصاحف أخرى من قبيل المحافظة على أهم أصول الدين وهو القرآن الكريم[٢]، وقد بذل ولاة عثمان جهوداً كبيرة فى محاربة السبئية الذين جاءوا بآراء غريبة على الإسلام وضيقوا عليهم وطاردوهم[٣]، وعلى العموم فإن المحافظة على الدين واحترامه كان من أهم الواجبات الموكلة إلى الولاة[٤].

د ـ تخطيط وبناء المساجد:

حينما وصل الرسول ﷺ إلى قباء قام ببناء أول المساجد فى الإسلام، وبعد وصوله إلى المدينة بدأ الرسول بناء مسجده فيها، وحينما كان الرسول يبعث بالولاة إلى البلدان كان هؤلاء الولاة يقومون ببناء المساجد فيها، واستمر الخلفاء الراشدون بعد ذلك فى بناء المساجد فى البلدان والأمصار التى فتحها المسلمون، وإن كان الولاة لم يقوموا بتأسيس جميع هذه المساجد فإن لهم دوراً فى إنشاء المساجد الرئيسية فى معظم البلدان التابعة لولاياتهم وخصوصًا الجوامع منها[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٦٧).

(٢) تاريخ المدينة (٣/ ٩٩٦ ـ ٩٩٩).

(٣) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص٢١٤.

(٤ ـ ٥) الولاية على البلدان (٢/ ٦٩).

هـ ـ تيسير أمور الحج:

كان الولاة على البلدان فى صدر الإسلام مسئولين عن تيسير أمور الحج فى ولاياتهم وتأمين سلامة الحجاج منها، فقد كان الولاة يعينون الأمراء على قوافل الحج، ويحددون لهم أوقات السفر حيث لا يغادر الحجاج بلدانهم إلا بإذن الوالى، ولم يكتف بعض الأمراء بأمور الترتيب بل نجد منهم من عمل على تأمين المياه فى الأماكن التى يسلكها الحجاج من ولايته، فهذا عبد الله بن عامر بن كريز أجرى المياه فى طريق حجاج البصرة حينما كان عاملاً عليها لعثمان بن عفان حيث أوجد المياه فى الطريق من البصرة إلى مكة[١]، وأكد الفقهاء بعد ذلك أن تسيير الحجاج عمل من مهام الوالى على بلده، يقول الماوردى: أما تسيير الحجيج فداخلة فى أحكام إمارته لأنه من جملة المعونات التى تنسب إليه[٢].

و ـ إقامة الحدود الشرعية:

إن إقامة الحدود على المخالفين لأوامر الله وسنة رسوله ﷺ واجب دينى ملقى على الولاة، وهو من أهم الأمور الموكلة إليهم سواء منها الحدود المتعلقة بمن يتعرض لمنافع المسلمين العامة أو من يتعرض بالضرر لأقوام معينين[٣]، وقد قام عثمان وولاته بإقامة الحدود الشرعية فى عهده رضى الله عنه.

٢ ـ تأمين الناس فى بلادهم:

المحافظة على الأمن فى الولاية من أعظم الأمور الموكلة إلى الوالى، وفى سبيل تحقيق ذلك فإنه يقوم بالعديد من الأمور أهمها إقامة الحدود على العصاة والفسّاق[٤]، مما يحد من الجرائم التى تهدد حياة الناس وممتلكاتهم، وبالتالى تقل الحوادث الأمنية من القتل أو السرقة أو قطع الطريق وما إلى ذلك، بل الأمر أيضًا يشمل ما يلقيه

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٩٢).

(٢) الأحكام السلطانية، ص٣٣.

(٣) السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص٦٦.

(٤) الولاية على البلدان (٢/ ٧١).

الناس من أقوال ضد بعضهم البعض من قذف وغيره فإن إقامة الحد فيها يمنع من الاعتداء الأدبى على الناس فى أعراضهم ومحارمهم، ولم يقتصر الأمر على تأمين الناس بعضهم من بعض، بل إن العمال وبأمر من الخلفاء يعملون على تأمين رعاياهم من الحشرات والهوام كالعقارب وغيرها، يقول البلاذرى: كتب عامل نصيبين إلى معاوية وهو عامل عثمان على الشام والجزيرة يشكو إليه أن جماعة من المسلمين ممن معه أصيبوا بالعقارب فكتب إليه يأمره أن يوظف على أهل كل حيز من المدينة عدة من العقارب مسماة فى كل ليلة ففعل وكانوا يأتونه بها فيأمر بقتلها [١].

٣ ـ الجهاد فى سبيل الله:

إن السمة العامة لعهد الخلفاء الراشدين أن الولاة هم قادة الجهاد فى تلك البلدان، كما أن الولاة فى عهد عثمان رضى الله عنه كان لهم دور كبير فى الفتوح ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، وأبو موسى الأشعرى الذين واصلوا الفتوح فى المشرق، ومثل عبد الله بن سعد بن أبى السرح الذى واصل الفتوح فى شمال إفريقية، ومعاوية بن أبى سفيان الذى واصل الفتوح فى نواحى أرمينية وبلاد الروم، وهكذا فإننا نرى أن الأمراء فى عهد الخلفاء الراشدين كانوا مع إدارتهم لبلادهم مجاهدين لنواحى العدو، ولم يمنعهم ذلك من القيام بأعمالهم الموكلة إليهم، ولا شك أن الجهاد كان مصحوبًا بعمليات معينة تخدم الشئون العامة له، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن أهم هذه الأعمال التى جرت من قبل الأمراء منها:

أ ـ إرسال المتطوعين إلى الجهاد:

فقد كان ولاة اليمن والبحرين ومكة وعُمَان يبعثون بالمجاهدين خلال عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم [٢].

ب ـ الدفاع عن الولاية ضد الأعداء:

كان ولاة الشام يدافعون الروم طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وكذلك الحال عند

(١) فتوح البلدان، ص١٨٣ .
(٢) الولاية على البلدان (٢/ ٧٢).

ولاة العراق الذين دافعوا الفرس حتى تمكنوا من قتل آخر ملوكهم فى عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

جـ ـ تحصين البلاد:

كان عثمان رضى الله عنه يأمر بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع القطائع لمن ينزلها من المسلمين للمساعدة فى شحنها بالرجال[١].

د ـ تتبع أخبار الأعداء:

فقد قام الولاة بتتبع أخبار الأعداء وتوجيه الضربات الموجعة إليهم، واستطاعوا أن يخترقوا صفوفهم ويزرعوا عيونًا تابعة لهم.

هـ ـ إمداد الأمصار بالخيل:

كانت الخيل ذات أهمية خاصة فى الجهاد، وقد اهتم المسلمون بتربيتها منذ أيام الرسول ﷺ واعتنوا بها عناية خاصة، وقد وضع عمر سياسة عامة فى الدولة لتوفير الخيل اللازمة للجهاد فى الأمصار الإسلامية حسب حاجتها[٢]، وسار عثمان رضى الله عنه على نفس السياسة العمرية فى اهتمامه بالخيل، فقد كانت هذه الخيول مجهزة للدفاع الفورى عن الدولة الإسلامية.

و ـ تعليم الغلمان وإعدادهم للجهاد:

اهتم الخلفاء الراشدون بتربية الأولاد وتعليمهم ما يفيدهم فى حياتهم الجهادية مستقبلاً.

ز ـ متابعة دواوين الجند:

سار عثمان رضى الله عنه على نهج السياسة العمرية فى اهتمامه بدواوين الجند، وقد اهتم رضى الله عنه اهتمامًا خاصًا بدواوين الأمصار لاعتقاده بأن أهل الأمصار أحوج الناس للضبط، خصوصًا القريبة من الأعداء وهى الأمصار التى تحتاج إلى

---

(١) الولاية على البلدان (٢/ ٧٢).

(٢) الولاية على البلدان (٢/ ٧٤).

الجنود باستمرار، وقد كان الولاة على البلدان مسئولين مباشرة عن دواوين الجند رغم وجود بعض الموظفين الآخرين الذين يتولون مهمتها، ولكن باعتبار أن هؤلاء الولاة هم أمراء الحرب فقد كانت مسئوليتهم عن الدواوين في بلدانهم كمسئولية الخليفة باعتبارهم نوابًا (١).

حـ ـ تنفيذ المعاهدات:

إن الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين صاحبتها مراسلات مع الأعداء، ومعاهدات ومصالحات كثيرة بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة، وقد كان الأمراء على البلدان بصفتهم قادة الجند مسئولين مباشرة عن عقد مثل هذه المصالحات وعن تنفيذها (٢).

٤ ـ بذل الجهد في تأمين الأرزاق للناس:

اتبع الخلفاء الراشدون منذ عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه طريقة جديدة لتوزيع الأعطيات على المسلمين من موارد بيت المال المختلفة، وقد كانت في البداية غير محدودة بأوقات معينة، ولكن في عهد عمر رضي الله عنه تغيرت بعد وضعه للدواوين في الأمصار المختلفة، حيث بدأ توزيع الأعطيات يأخذ شكلاً دوريًا منتظمًا، سار عليه عثمان رضي الله عنه، ولم يكتف الخلفاء وولاتهم في العهد الراشدي بتأمين الطعام ومراقبة الأسواق فقط، بل إن السكن وتوزيعه كان من المهام الموكلة لأمراء البلدان، كما كان الأمراء يشرفون على تقسيم البيوت في المدن المفتوحة (٣).

٥ ـ تعيين العمال والموظفين:

كان تعيين العمال والموظفين في الوظائف التابعة للولاية في كثير من الأحايين من مهام الوالي؛ حيث إن الولاية في الغالب تتكون من بلد رئيسي إضافة إلى بلدان وأقاليم أخرى تابعة للولاية، وهي بحاجة إلى تنظيم أمورها، فكان الولاة يعينون من

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٧٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧٧).

(٣) الولاية على البلدان (٢/ ٧٩).

قبلهم عمالاً وموظفين فى تلك المناطق، وفى عصر عثمان رضى الله عنه أصبح هؤلاء العمال التابعون للولاة يحكمون مناطق كبيرة، نظرًا لتوسع الولايات نتيجة الفتوح وانضمام أقاليم كبيرة بأكملها إلى ولايات كانت محددة فى السابق كالبصرة والكوفة والشام وغيرها، وبالتالى فإن توزع العمال وإداراتهم وتنظيمهم، كان مهمة كبيرة من المهام التى يقوم بها ولاة البلدان.

٦ ـ رعاية أهل الذمة:

كانت رعاية أهل الذمة واحترام عهودهم والقيام بحقوقهم الشرعية، ومطالبتهم بما عليهم للمسلمين من واجبات، وتتبع أحوالهم، وأخذ حقوقهم ممن يظلمهم انطلاقًا من الأوامر الشرعية فى هذا الجانب من واجبات الوالى[١].

٧ ـ مشاورة أهل الرأى فى ولايته:

سار الخلفاء على نهج الرسول ﷺ فى مشاورة أهل الرأى من الصحابة؛ حيث كانوا يعقدون مجالس لكبار الصحابة، يستشيرونهم فى مختلف الأمور[٢]، كما كانوا يأمرون ولاتهم باستشارة أهل الرأى فى بلادهم، وكان الولاة يطبقون ذلك ويعقدون مجالس للناس لأخذ آرائهم[٣].

٨ ـ النظر فى حاجة الولاية العمرانية:

اشتهر عن الخلفاء الراشدين وولاتهم عنايتهم بحاجة السكان فى النواحى العمرانية والزراعية، وفى عهد عثمان رضى الله عنه قام عبد الله بن عامر واليه على البصرة بحفر الآبار والعيون ليس فى ولاية البصرة فحسب، بل فى أماكن أخرى عديدة[٣].

٩ ـ مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية:

كان الولاة من منطلق تعاليم الإسلام الشاملة يراعون هذا الجانب بكل ما فيه من تعليمات، إلا أن ولاة ذلك العصر، وبتوجيه من الخلفاء الراشدين، قاموا ببعض

(١ ـ ٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٠).

(٣) الولاية على البلدان (٢/ ٨٠).

الأعمال الاجتماعية التى يصعب أن يقوم بها من هم فى مثل منصبهم، كما حرص الخلفاء على أن ينزلوا الناس على منازلهم، وأن يحترم الولاة أهل الشرف والسابقة فى الإسلام، ومن ذلك أن عامل عثمان على الكوفة كتب إليه يشكو من غلبة الأعراب والروادف على أهل الشرف والبلاء والسابقة فى الإسلام(١)، فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل(٢).

١٠ ـ أوقات عمل الوالى:

اشتهر عن الوليد بن عقبة والى عثمان على الكوفة أنه لم يكن لداره باب، وأنه كان يستقبل الناس فى جميع الأوقات، وهذا يدل على تمتع الناس بحرية مراجعة الأمير من غير حرج متى ما أرادوا ذلك لحاجة(٣)؛ فقد كان للوالى قسم تابع لبيته مفتوح للناس متى أرادوا المجيء إليه مفصول عن أهله وأولاده.

* * *

(١) المصدر نفسه (٢/ ٨٢). وتاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).
(٢، ٣) الولاية على البلدان (٢/ ٨٢).

المبحث الثالث

حقيقة ولاة عثمان رضى الله عنه

يكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم فى عهده، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوى قرباه فى شئون الدولة[(١)]، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه أولهم معاوية والثانى عبد الله بن أبى السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولآهم عثمان وهم من أقاربه، وهذا فى زعمهم مطعن عليه، فلننظر أولاً من هم ولاة عثمان رضى الله عنه؟ هم أبو موسى الأشعرى، والقعقاع بن عمرو، وجابر المزنى، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمى، وحكيم بن سلامة، والأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلى، وعيينة بن النهاس، ومالك بن حبيب، والنسير العجلى، والسائب بن الأقرع، وسعيد بن قيس، وسلمان بن ربيعة، وخنيس بن حبيش، والأحنف بن قيس، وعبد الرحمن بن ربيعة، ويعلى بن منية، وعبد الله بن عمرو الحضرمى، وعلى بن ربيعة بن عبد العزى، هؤلاء هم ولاة عثمان رضى الله عنه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا أن عدد الولاة ستة وعشرون واليًا، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا أن النبى ﷺ كان يولى بنى أمية أكثر من غيرهم، ثم يقال بعد ذلك إن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلهم فى وقت واحد، بل كان عثمان رضى الله عنه قد ولّى الوليد بن عقبة ثم عزله فولّى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسة فى وقت واحد، وأيضًا لم يُتوف عثمان إلا وقد عزل أيضًا سعيد بن العاص، فعندما تُوفى عثمان لم يكن من بنى أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم معاوية وعبد الله بن سعد بن أبى السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص١٥٩.

فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ولكنه عزلهما من أين؟ من الكوفة التى عزل منها عمرُ سعد بن أبى وقاص، والكوفة التى لم ترض بوالٍ أبدًا، إذًا عَزل عثمان رضى الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعنًا فيهم بل مطعن فى المدينة التى وُلُّوا عليها[1].

إن بنى أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم فى حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بنى عبد شمس لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبى ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبى العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بنى مذحج، وأبان بن سعيد على بعض السرايا ثم على البحرين، فعثمان رضى الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النبى ﷺ ومن جنسهم وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده فقد ولى أبو بكر يزيد ابن أبى سفيان فى فتوح الشام، وأقره عمر، ثم ولّى عمر بعده أخاه معاوية[2].

والسؤال الذى يطرح نفسه أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ وستأتى شهادات أهل العلم فى أولئك الولاة الذين ولاّهم عثمان رضى الله عنه بإذن الله تعالى.

إن عثمان خليفة راشد يُقتَدى به، وأفعاله تشكل سوابق دستورية فى هذه الأمة، فكما أن عمر سن لمن بعده التحرج عن تقريب الأقربين، فإن عثمان سن لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا أهل كفاءة، ومن تتبع سيرة عثمان لا يشك فى كفاءتهم الإدارية، وكل ما أنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح[3].

إن الولاة الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة فى إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا فى الرعية سيرة العدل والإحسان ومنهم من تقلّد مهام الولاية قبل ذلك فى عهد الصديق

---

(١) حقبة من التاريخ، ص٧٥.

(٢) منهاج السنّة (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

(٣) الأساس فى السنّة (٤/ ١٦٧٥).

والفاروق رضى الله عنهما[1]، ولننظر إلى أقوال أهل العلم فى أولئك الولاة:.

أولاً: معاوية بن أبى سفيان بن حرب الأموى:

ذكر المترجمون لهذا الصحابى الكريم فضائل جمة، وإليك شيئًا منها:

١ ـ من القرآن الكريم:

اشترك معاوية رضى الله عنه فى غزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]

ومعاوية رضى الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين، وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينتَهُ عليهم مع النبى ﷺ[2]

٢ ـ من السنّة:

دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ «اللهم اجعله هاديًا[3] مهديًا[4]، واهد به»[5] وقوله ﷺ «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب»[6] وقال رسول الله ﷺ «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا»[7]، قالت أم حرام: قلتُ: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبى ﷺ «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر[8] مغفور لهم». فقلت ـ أى أم حرام ـ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[9] قال المهلب[10] «فى هذا الحديث

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤١٧).
(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، خالد الغيث، ص٢٣
(٣) هاديًا: للناس، أو دالاً على الخير.
(٤) مهديًا: أى مهتديًا فى نفسه.
(٥) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٣٦).
(٦) موارد الظمآن (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن.
(٧) أوجبوا: أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة. فتح البارى (٦/ ١٢١).
(٨) مدينة قيصر: يعنى القسطنطينية.
(٩) البخارى رقم ٢٩٢٤
(١٠) المهلب بن أحمد الأندلسى، مصنف شرح صحيح البخارى توفى ٤٣٥ هـ.

منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر»(١).

٣ ـ ثناء أهل العلم على معاوية رضى الله عنه:

أ ـ ثناء عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عنه:

قيل لابن عباس رضى الله عنهما: هل لك فى أمير المؤمن معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه فقيه(٢). ومما يناسب المقام ذكر بعض المسائل الفقهية التى أثرت عن معاوية رضى الله عنه، ومن تلك المسائل ما يلى:

- أثر عنه رضى الله عنه أنه أوتر بركعة.
- أثر عنه رضى الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه(٣).
- أنه يجزئ إخراج نصف صاع من البر فى زكاة الفطر(٤).
- استحباب تطييب البدن لمن أراد الإحرام(٥).
- جواز بيع وشراء دور مكة(٦).
- التفريق بين الزوجين بسبب العُنَّة(٧). (٨)
- وقوع طلاق السكران.
- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصًا.
- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل(٩).

---

(١) فتح البارى (٦/ ١٢٠).
(٢) فتح البارى (٧/ ١٣٠).
(٣) المغنى لابن قدامة (٣/ ٣٤٦).
(٤) زاد المعاد (٢/ ١٩).
(٥) المغنى (٥/ ٧٧).
(٦) المصدر السابق (٦/ ٣٦٦).
(٧) العنة: هى عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ١٥٧٠.
(٨) مرويات خلافة معاوية، ص٢٨.
(٩) المصدر نفسه، ص٢٩.

ب ـ ثناء عبد الله بن المبارك على معاوية رضى الله عنه:

قال عبد الله بن المبارك: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة[١].

جـ ـ ثناء أحمد بن حنبل:

سئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحى، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصبًا[٢]؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوء ردىء تجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس[٣].

د ـ ثناء القاضى ابن العربى على معاوية رضى الله عنه:

تحدث ابن العربى عن الخصال التى اجتمعت فى معاوية رضى الله عنه فذكر منها: . . . قيامه بحماية البيضة، وسد الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدو، وسياسة الخلق[٤]، وقد علق محب الدين الخطيب على هذا النص بقوله: وقد بلغ من همته ـ يعنى معاوية ـ وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدد ملك الروم وهو فى معمعة القتال مع على فى صفين، وقد بلغه أن ملك الروم اقترب من الحدود فى جنود عظيمة[٥]، وفى ذلك يقول ابن كثير: وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله، وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب على تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم، وبعث يطلب الهدنة[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩.

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص ٢٨.

(٣) السنة للخلال، تحقيق عطية الزهرانى (٢/ ٤٣٤).

(٤) العواصم من القواصم، ص ٢١٠، ٢١١.

(٥) مرويات خلافة معاوية، ص ٣١.

(٦) البداية والنهاية (٨/ ١١٩).

هـ ـ ثناء ابن تيمية على معاوية رضى الله عنه:

قال عنه ابن تيمية: . . . فإن معاوية ثبت عنه بالتواتر أنه أمره النبى ﷺ، كما أمر غيره، وجاهد معه، وكان أمينًا عنده يكتب له الوحى، وما اتهمه النبى ﷺ فى كتابة الوحى، وولاه عمر بن الخطاب، الذى كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه فى ولايته[1].

هـ ـ ثناء ابن كثير عليه:

قال عنه ابن كثير: وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين. . فلم يزل مستقلاً بالأمر فى هذه المدة إلى هذه السنة التى كانت فيها وفاته، والجهاد فى بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه فى راحة وعدل، وصفح وعفو، وقال أيضًا: كان حليمًا[2]، وقورًا، رئيسًا، سيدًا فى الناس، كريمًا، عادلاً شهمًا[3]، وقال عنه أيضًا: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر، رحمه الله تعالى[4].

٤ ـ روايته للحديث:

يعد معاوية رضى الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة، لكونه صهره وكاتبه رضى الله عنه، هذا وقد روى معاوية رضى الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثًا عن رسول الله ﷺ، اتفق له البخارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخارى بأربعة، ومسلم بخمسة[5]، وكانت سيرة معاوية رضى الله عنه مع الرعية فى ولايته من خير سير الولاة مما جعل الناس يحبونه، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: خيار أئمتكم

---

(١) الفتاوى (٤/ ٤٧٢)، والبداية والنهاية (٨/ ١٢٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٩).

(٢) أفرد ابن أبى الدنيا، وأبو بكر بن أبى عاصم تصنيفًا فى حلم معاوية.

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١١٨).

(٤) المصدر نفسه (٨/ ١٢٦).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص ٣٣.

ـ حكامكم ـ الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم(١)، وأختم حديثى عن معاوية رضى الله عنه بما قاله القاضى أبو بكر ابن العربى: فعمر ولاه وجمع له الشامات كلها وأقره عثمان، بل إنما ولاه أبو بكر الصديق؛ لأنه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقره عمر، لتعلقه بولاية أبى بكر لأجل استخلاف واليه له، فتعلق عثمان بعمر وأقره، فانظر إلى هذه السلسلة ما أوثق عراها(٢). وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه... فيكون سند ولايته الأعمال فى الدولة الإسلامية، لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده حيث اجتمع على توليته، رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقر له بالخلافة الحسن بن على سبط رسول الله ﷺ(٣).

ثانيًا: عبد الله بن عامر بن كريز:

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى(٤).

ولد فى عهد رسول الله ﷺ وذلك فى السنة الرابعة للهجرة(٥)، وعندما اعتمر الرسول الكريم ﷺ فى السنة السابعة للهجرة عمرة القضاء، ودخل مكة حمل إليه عبد الله بن عامر، قال ابن حجر:.. فتلمظ وتثاءب، فتفل رسول الله فى فيه، وقال هذا ابن السلمية: قالوا: نعم، فقال: هذا أشبهنا، وجعل يتفل فى فيه، ويعوذه فجعل يبتلع ريق النبى ﷺ، فقال: إنه لمسقى، فكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر له الماء(٦).

لم يتول عبد الله بن عامر منصبًا إداريًا أو عسكريًا إلى أن أصبح واليًا على البصرة

(١) مسلم، كتاب الإمارة رقم ٦٥.
(٢) العواصم من القواصم، ص ٨٢.
(٣) المدينة المنورة، فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٢١٦).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٩١).
(٥) تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩)، تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٣)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٣) رقم (٣٠٣١).

سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م، وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، لأن أم عثمان هى أروى بنت كريز بن ربيعة، وكانت أم عبد الله بن عامر من بنى سليم [١].

ولما عين لولاية البصرة، كان عمره أربعًا أو خمسًا وعشرين [٢]، وظل واليًا على البصرة حتى مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه عندما تجهز بجيش كبير، وحمل ما عنده من الأموال فسار إلى مكة حيث وافى الزبير، ورجع منها إلى البصرة فشهد موقعة الجمل، ولم يحضر موقعة صفين. على الرغم من أن القلقشندى ذكر أنه كان فى التحكيم مع معاوية بصفين [٣]، وفى خلافة معاوية تولى إمارة البصرة لمدة ثلاث سنوات ثم عزله عنها، فأقام بالمدينة، ومات بها سنة سبع وخمسين للهجرة [٤]، وفى رواية ابن قتيبة، أنه توفى بمكة ودفن بعرفات عام تسع وخمسين [٥]. وأشاد ابن سعد به قائلاً: كان عبد الله شريفًا، سخيًا كريمًا، كثير المال والولد، محبًا للعمران [٦]، وقال عنه ابن حجر: كان جوادًا كريمًا ميمونًا... جريئًا شجاعًا [٧]، وكان يعتبر من أجود أهل البصرة [٨]. ومن أجود أهل الإسلام [٩]، وكان لعبد الله بن عامر، أثر حميد فى الفتوحات، فقد تمكن من القضاء على آمال الفرس بشكل تام، عندما قضى على آخر رمق من الأمل الفارسى القديم، وذلك بقضائه على آخر ملوكهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وخرزاد مهر أخى رستم اللذين تزعما المعارضة الفارسية ضد المسلمين.

وإضافة إلى براعة عبد الله بن عامر فى الشئون الإدارية والعسكرية، فإنه كان

---

(١) الطبقات (٥/ ٣١)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٢).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٩١).

(٣) مجلة المؤرخ العربى رقم ٢١، ص ١٢٨.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).

(٥) المعارف ص ٣٢١.

(٦) مجلة المؤرخ العربى، رقم ٢١، ص ١٢٩.

(٧) تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٢).

(٨) العقد الفريد (١/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٩) صبح الأعشى (١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

مهتمًا بالمعارف الإسلامية، ويروى أنه روى حديثًا عن النبى ﷺ، وقال ابن قتيبة: لم يرو عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا[١]، غير أنه لم يكن له رواية فى الكتب الستة[٢]، أما الحديث النبوى الذى رواه، فقد أورد ابن قانع، وابن منده عن طريق مصعب الزبيرى: حدثنى أبى عن جدى مصعب بن ثابت عن حنظلة بن قيس عن عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: من قتل دون ماله فهو شهيد[٣].

● **إصلاحاته الاقتصادية فى البصرة:**

يقترن باسم عبد الله بن عامر عدد من الإصلاحات فى البصرة، لا تقل أهمية عن إنجازاته العسكرية الفذة المتمثلة فى انتصاراته العديدة على المجوس، وتتبعه لفلولهم المنهزمة وقضائه على آمال يزدجرد، فقد كانت إصلاحاته الاقتصادية ممثلة فى عنايته بسوق البصرة، فقد اشترى هذا السوق من ماله ووهبه لأهلها[٤]، وكان السوق يتوسط البصرة، بدليل ما ذكره خليفة بن خياط، من أن السوق قائم على ضفاف النهر الذى يتوسط البصرة، وهذا اختيار جيد؛ لأنه يجعل السوق مركزًا مهمًا فى وسط المدينة، ولعل من أبرز أعماله الإصلاحية فى البصرة فى ميدان الرى، وقد اهتم ابن عامر بهذه المسألة اهتمامًا كبيرًا، وذكر ابن قتيبة أن ابن عامر احتفر بالبصرة نهرين أحدهما فى الشرق والآخر يعرف بأم عبد الله وهو منسوب إلى أم عبد الله بن عامر[٥]، وأمر عبد الله بن عامر زياد بن أبى سفيان بحفر الأبلة، وكان زياد واليًا على الديوان وبيت المال من قبل عبد الله بن عامر، وكان يستخلفه فى مكانه عند توجهه للفتوح[٦]، وذكر خليفة بن خياط أن زيادًا احتفر نهر الأبلة حتى انتهى إلى موضع الجبل، والذى

(١، ٢) المعارف، ص ٣٢١.

(٣) الحاكم فى المستدرك (٣/ ٦٣٩) إسناده ضعيف وله ما يقويه فى الباب.

(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٧٣). ومجلة المؤرخ العربى هى العمدة فى ترجمتى لعبد الله بن عامر، حيث استفدت من الأستاذ محمد حمادى جزاه الله خيرًا.

(٥) مجلة المؤرخ العربى رقم ٢١، محمد حمادى، ص ١٣٤.

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٣٥١.

تولى حفره لزياد عبد الرحمن بن أبى بكرة[١]، فلما فتح عبد الرحمن الماء جعل يركض فرسه والماء يكاد يسبقه[٢]، وحفر عبد الله بن عامر حوضًا نسب إلى أمه، وهو حوض أم عبد الله بن عامر بالبصرة منسوب إليها[٣]، وذكر البلاذرى أن عبد الله ابن عامر حفر نهرًا، تولى أمر حفره له نافذ مولاه، فغلب عليه فقيل نهر نافذ[٤]، وهناك نهر مرة لابن عامر، تولى حفره له مرة مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فغلب على ذكره[٥]، وهناك نهر الأساورة الذى حفره لهم عبد الله بن عامر[٦]، ويذكر البلاذرى قنطرة قرة بالبصرة فيقول: قنطرة قرة نسبة إلى قرة بن حيان الباهلى، وكان عندها نهر قديم ثم اشترته أم عبد الله بن عامر، فتصدقت به مغيثًا لأهل البصرة[٧].

مما تقدم، يتبين لنا أن عبد الله بن عامر كان مهتمًا بحفر الأنهار من أجل ازدهار الزراعة، التى هى عماد الحياة الاقتصادية، إضافة إلى موقع البصرة الاستراتيجى بالنسبة إلى طرق التجارة، وأهميتها العسكرية كقاعدة للفتوحات الإسلامية فى المشرق، ويمكن أن نلاحظ مدى رغبة عبد الله بن عامر فى الاصلاح من خلال قوله: لو تركت لخرجت المرأة فى حاجتها على دابتها، ترد كل يوم على ماء وسوق، حتى توافى مكة[٨].

وفى الحقيقة أن إصلاحاته هذه لا تقل عن الفتوحات فى المشرق التى قام بها، فقد كانت البصرة هى القاعدة العسكرية للخلافة فى فتوحاتها ببلاد المشرق، وأشار الدكتور صالح العلى إلى أن الفتوح الواسعة أدت إلى ازدياد دخل البصرة وانتشار الرخاء الاقتصادى فيها، مما شجع التجار ورجال الأعمال على التقاطر إليها، وبذلك

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ١٤٢).
(٢) فتوح البلدان، ص ٣٥١.
(٣) مجلة المؤرخ العربى رقم ٢١، عبد الله بن عامر، ص ١٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥. وفتوح البلدان ص ٣٥٤.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦. وفتوح البلدان ص ٣٥٤.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(٧) فتوح البلدان، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.
(٨) المعارف لابن قتيبة، ص ٣٢١.

بدأت الحياة المدنية تنمو سريعًا فى البصرة[١]، لقد كانت الحالة المالية لإمارة البصرة جيدة جدًا، نتيجة للفتوح الواسعة فى المشرق، والنشاط الاقتصادى التجارى للبصرة، واستقرار الأمن فيها، وكان عبد الله بن عامر رجلاً متواضعًا فاتحًا بابه لجميع الناس حتى إنه عاقب الحاجب وأمره ألا يغلق بابه ليلاً ولا نهاراً[٢]، وفى الحقيقة أصبح ابن عامر ذا شهرة واسعة بالبصرة، قال ابن سعد: كان الناس يقولون: قال ابن عامر وفعل ابن عامر[٣]، ونتيجة لأعماله الإصلاحية وسيرته الحميدة، فقد ازداد حب الأمة له[٤].

وظل ابن عامر عليها إلى أن قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه[٥].

فهذا عبد الله بن عامر أحد ولاة عثمان، فهو الذى شق نهر البصرة، وأول من اتخذ الحياض بعرفات وأجرى إليها العين[٦]، وهو الرجل الذى له من الحسنات والمحبة فى قلوب الناس ما لا ينكر كما يقول ابن تيمية[٧]، وقال فيه الذهبى: وكان من كبار أمراء العرب وشجعانهم وأجوادهم، وكان فيه رفق وحلم[٨].

ثالثًا: الوليد بن عقبة:

هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الأمير أبو وهب الأموى، له صحبة قليلة[٩]، وهو أخو عثمان لأمه.

كان الوليد بن عقبة من رجال الدولة الإسلامية على عهد أبى بكر وعمر اللذين كانا يتخيران للأعمال ذوى الكفاءة والأمانة من الرجال، وكان ذلك من أعظم أسباب

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص ٣٠ ـ ٣١.
(٢) مجلة المؤرخ العربى العدد ٢١، عبد الله بن عامر، محمد حمادى، ص ١٣٨.
(٣) الطبقات (٥/ ٣٣).
(٤) مجلة المؤرخ العربى، عبد الله بن عامر، محمد جاسم حمادى، ص ١٣٨.
(٥، ٦) البداية والنهاية (٨/ ٩١).
(٧) منهاج السنة (٣/ ١٨٩، ١٩٠).
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).
(٩) المصدر نفسه (٣/ ٤١٢، ٤١٣).

ذلك الانتشار السريع على أوسع نطاق للإسلام على عهدهما، وأنه كان محل ثقة واعتماد الخليفتين، وممن وسد إليه الأمور المهمة لما كان يريان فيه من الكفاءة وصدق الإيمان [١]، وأول عمل له فى خلافة الصديق أنه كان موضع السر فى الرسائل الحربية التى دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد فى وقعة المذار مع الفرس ١٢هـ [٢] ثم وجهه مددًا إلى قائده عياض بن غنم الفهرى [٣]، وفى سنة ١٣هـ كان الوليد يلى لأبى بكر صدقات قضاعة، ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو ابن العاص فى الحرمة والثقة والكرامة فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد ابن عقبة يدعوهما لقيادة الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين وسار الوليد بن عقبة قائدًا إلى شرق الأردن [٤]، ثم رأينا الوليد فى سنة ١٥ هـ على عهد عمر أميرًا على بلاد بنى تغلب وعرب الجزيرة [٥]. وكان فى ولايته هذه يحمى ظهور المجاهدين فى بلاد الشام لئلا يؤتوا من خلفهم، وانتهز الوليد فرصة ولايته على هذه الجهة التى كانت لا تزال مليئة بالنصارى فكان من جهاده الحربى وعمله الإدارى داعيًا إلى الله يستعمل أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على الدخول فى الإسلام [٦].

وبهذا الماضى المجيد جاء الوليد فى خلافة عثمان فتولى الكوفة له وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقًا وإحسانًا، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير فى آفاق الشرق فاتحة موفقة، كما شهد له بذلك بظهر الغيب قاضٍ من أعظم قضاة الإسلام فى التاريخ علمًا وفضلاً وإنصافًا وهو التابعى الجليل الإمام الشعبى [٧]، فقد أثنى على غزوه وإمارته بقوله حين ذكر له غزو مسلمة بن عبد الملك [٨]: كيف لو أدركتم الوليد

---

(١) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٢) تاريخ الطبرى (١٦٨/٤).

(٣) المصدر نفسه (١٩٤/٤).

(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٥) تاريخ الطبرى (٢٨/٥، ٢٩).

(٦، ٧) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٨.

(٨) مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد القادة الفاتحين توفى ١٢٠ هـ.

وغزوه وإمارته، إنه كان ليغزو فينتهى إلى كذا وكذا، ما نقص ولا انتقض عليه أحد حتى عزل عن عمله[1]، وقد كان الوليد رضى الله عنه أحب الناس إلى الناس وأرفقهم بهم، وقد أمضى خمس سنين وليس فى داره باب[2]، وقد قال عثمان رضى الله عنه: ما وليت الوليد لأنه أخى، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه، والولاية اجتهاد وقد عزل عمر سعد بن أبى وقاص وقدم أقل منه درجة[3].

والمستعرض لسيرة هذا الصحابى الجليل والبطل الإسلامى العظيم الذى كان محل ثقة الخلفاء الراشدين الثلاثة لا يرتاب، فإنه أهل للولاية، وإنما تساوره الشكوك فى ثبوت ما قيل فيه من نزول الآية فيه وتسميته فاسقًا، وشربه للخمر، والأمر يحتاج إلى تحقيق وإليك بحث هذين الأمرين[4].

هل ثبت بأن الوليد نزلت فيه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

يتناقل الرواة فى ذلك قصة تقول: (إن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق مصدقًا، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، وأبوا فى أداء الصدقة، وذلك أنهم خرجوا إليه فهابهم ولم يعرف ما عندهم، فانصرف عنهم، وأخبر بارتدادهم، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت فيهم، فأخبروه أنهم متمسكون بالإسلام، ونزلت الآية[5]، وقد جاءت روايات عديدة، وليس للقصة سند موصول صحيح[6]، وأقل ما يوصف به سند القصة أنه ضعيف، وإذا قبلوا الأسانيد الضعيفة فى فضائل الأعمال التى لا تحل حرامًا، ولا تحرم حلالاً، فإننا لا نقبل السند

---

(١) التمهيد والبيان، ص ٤٠.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥١).

(٣) العواصم من القواصم، ص٨٦.

(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٩.

(٥، ٦) المدينة النبوية فجر الإسلام (٢/ ١٧٦).

الضعيف فى قصة الوليد؛ لأنه يحل حرامًا، وهو وصف رجل صحب الرسول ﷺ - ولو يومًا - بأنه فاسق.. وكيف نقبل السند الضعيف والآية نفسها تحث على التثبت فى قبول الأخبار، فهذه الآية وضعت أصل علم الرواية..[1].

إن قصة الوليد بن عقبة، فيما نسبوه إليه، لا تقبل فيها إلا الأخبار الصحيحة السند والمتن، لأنها تصفه بالفسق، وهذا مطعن لا يتساهل فى قبوله إذا وصف به رجل من عرض الناس فى العصر الحديث بعد خمسة عشر قرنًا من عصر الدعوة، فكيف نتساهل فى نسبتها إلى رجل عاش فى العهد النبوى، وفى عهد الخلفاء الراشدين، وأوكلوا إليه أعمالاً ذات خطر؟

والقصة تمثل جزءًا من تاريخ صدر الإسلام، وتتصل أجزاء القصة وحوادثها بالعقيدة الإسلامية، وأخبار هذا الجانب من التاريخ الإسلامى، لا يتساهل فى قبولها، كما يتساهل فى قبول الأخبار التى تتصل بالعمران المدنى، ثم إن الوليد بن عقبة من مسلمة الفتح... وكثيرًا ما توجه المطاعن إلى إسلام هذه الفئة من الناس، ويزعم بعض المؤرخين أنهم أسلموا مكرهين، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وهو زعم باطل بلا ريب[2]، وأخبار الوليد بن عقبة، تزيد الرواة فيها، ولعبت بها الأهواء المذهبية والسياسية، ودخلها الوضع، وكانت ميدانًا لتسابق أهل القصة فى اختبار القدرة على الوضع، وإثبات عبقريتهم الأدبية المُجَنَّحة[3].

ومما يعكر على رواية إرسال الوليد بن عقبة لجمع صدقات بنى المصطلق، ويعارضها حديث موصول السند إلى رجال ثقات أن الوليد بن عقبة كان يوم الفتح صغيرًا ومن كان فى سنه لا يرسله النبى ﷺ عاملاً، فعن فياض بن محمد الرقى، عن جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج الكلابى، عن عبد الله الهمدانى (أبى موسى) عن الوليد بن عقبة قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤوسهم ويدعو لهم فجىء بى إليه، وإنى مطيب بالخلوق،

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٨٢).

(٢، ٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ١٧٣).

ولم يمسح على رأسى، ولم يمنعه من ذلك إلا أمى خلقتنى بالخلوق، فلم يمسنى من أجل الخلوق[١].

إن القصة لعبت بها الأهواء المذهبية، فالوليد، أموى عثمانى، والذى أقحم اسم الوليد فى قصة سبب نزول الآية: شيعى رافضى (محمد بن السائب الكلبى) قال عنه ابن حجر كان يعد من شيعة أهل الكوفة. وقال ابن حجر: كان بالكوفة كذابان، أحدهما الكلبى، والآخر السدى[٢]. واختاره لهذه القصة؛ لأنها تتصل بجمع الصدقات، والوليد عمل على صدقات قضاعة فى عهد أبى بكر، وعمل على صدقات تغلب فى الجزيرة فى زمان عمر، وكتب الشيعة تعيب عثمان بن عفان بسبب قصة الوليد[٣]، ونحن لا ننكر أن تكون الآية نزلت فى سياق قصة بنى المصطلق، ولكن الذى ننكره أن يكون الوليد هو الموصوف بالفاسق فى الآية، ذلك أن منطوق الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ بصيغة التنكير، يدل على الشمول لأن النكرة إذا وقعت فى سياق الشرط، عمت كما تعم إذا وقعت فى سياق النفى[٤].

- **حد الوليد بن عقبة فى الخمر:**

وأما حد الوليد فى الخمر فقد ثبت فى الصحيحين، أن عثمان حده بعدما شهدت عليه الشهود، فهو ليس مأخذًا على عثمان، بل كان من مناقب عثمان رضى الله عنه أن أقام عليه الحد وعزله عن الكوفة، حيث ذكر البخارى هذه الحادثة فى (باب مناقب عثمان)[٥]، وكان على رضى الله عنه يقول: إنكم وما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقتل رِدَءَهُ[٦]، ما ذنب عثمان فى رجل قد ضربه بفعله وعزله عن عمله، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا[٧]، ثم إن تلك الحادثة لم تطرأ فى عهد عثمان

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٢).

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ١٧٩).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٢/ ١٨٠).

(٥) البخارى، كتاب مناقب عثمان.

(٦) الرداء هو العون. تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٨).

(٧) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٤٢١).

فحسب، بل لها سابقة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث ذكر أن قدامة ابن مظعون ـ له صحبة ـ شرب الخمر، وهو أمير على البحرين من قبل عمر فحده وعزله[١].

وقد ذكر بعض المؤرخين أنه لم يثبت على الوليد شربه للخمر، قال الحافظ فى الإصابة: ويقال إن بعض أهل الكوفة تعصبوا عليه فشهدوا عليه بغير الحق[٢]، وقد أشار إلى هذا ابن خلدون فقال: وما زالت الشائعات ـ أى على عمال عثمان من قبل المشاغبين ـ تنمو، ورمى الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله[٣]، وما حكاه الطبرى ببعض تفصيل: إن أبناء لأبى زينب وأبى مورع وجندب بن زهير نقبوا على ابن الحيسمان داره وقتلوه، فشهد عليه بذلك أبو شريح الخزاعى الصحابى وابنه ـ وكان جارًا لابن الحيسمان ـ فاقتص منهم الوليد فأخذ الآباء على أنفسهم أن يكيدوا للوليد، وأخذوا يترقبون حركاته فنزل به أبو زبيد الشاعر، وكان نصرانيًا من أخواله بنى تغلب، وأسلم على يد الوليد وكان الضيف متهمًا بشرب الخمر، فأخذ بعض السفهاء يتحدثون بذلك فى الوليد لملازمته أبا زبيد، ووجد أبو زينب وأبو مورع خير فرصة يغتنمونها، فسافرا إلى المدينة وتقدما إلى عثمان شاهدين على الوليد بشرب الخمر وأنهما وجداه يقىء الخمر. فقال عثمان: ما يقىء الخمر إلا شاربها. فجىء بالوليد من الكوفة فحلف لعثمان وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نقيم حدود الله ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى[٤].

قال محب الدين الخطيب: وأما الزيادة التى وردت فى رواية مسلم من أنه أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ثم قال أزيدكم، وفى بعض طرق أحمد أنه صلى أربعًا، فلم تثبت فى شىء من شهادة الشهود، فهى من كلام حضين الراوى للقصة ولم يكن حضين من الشهود ولم يروها عن شاهد ولا عن إنسان معروف، ولا كان

(١) العواصم من القواصم، ص٩٣.

(٢) الإصابة (٣/ ٦٣٨).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٣). وفصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٨١.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٧).

فى الكوفة فى وقت الحادث المزعوم فلا اعتداد بهذا الجزء من كلامه[١]، هذا هو والى عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة، المجاهد الفاتح، العادل المظلوم الذى كان منه لأمته كل ما استطاعه من عمل طيب، ثم رأى بعينه كيف يبغى المبطلون على الصالحين وينفذ باطلهم فيهم، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان فى ضيعة له منقطعة عن صخب المجتمع، وهى تبعد خمسة عشر ميلاً عن بلدة الرقة من أرض الجزيرة التى كان يجاهد فيها ويدعو الناس للإسلام فى خلافة عمر[٢]، واعتزل جميع الحروب التى كانت أيام على ومعاوية رضى الله عنهما إلى أن توفى بضيعته ودفن بها فى عام ٦١هـ، وقيل إنه توفى فى أيام معاوية[٣].

رابعًا: سعيد بن العاص:

هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى، الأموى[٤]. وقال أبو حاتم: له صحبة. ولى الكوفة بعد الوليد بن عقبة، كان من فصحاء قريش؛ ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن، فعن أنس بن مالك قال: . . . فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها (أى المصحف) فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش[٥]، وقد أقيمت عربية القرآن على لسان سعيد بن العاص؛ لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ، أدرك من الحياة النبوية تسع سنين، وقتل أبوه يوم بدر مشركًا، قتله على بن أبى طالب[٦]، واقرأ معى هذا الخبر الذى يدل على قوة إيمانه: حيث روى أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص: لم أقتل أباك، وإنما قتلت خالى العاص بن هشام: فقال سعيد: لو قتلته لكنت على الحق، وكان على الباطل، فأعجب عمر بجوابه:

---

(١) العواصم من القواصم، ص ٩٦، ٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٤.
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢١٦).
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٨٧).
(٥) البخارى، كتاب فضائل القرآن رقم ٤٩٨٧.
(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١١).

وفي أيام ولايته الكوفة غزا طبرستان ففتحها، وغزا جرجان، وكان في عسكره حذيفة وغيره من الصحابة[1]، وكان مشهوراً بالكرم والبر، حتى إذا سأله السائل وليس عنده ما يعطيه كتب له بما يريد أن يعطيه مسطوراً[2]، وكان رحمه الله يحب جمع شمل المسلمين ويكره الفتنة، ويفر منها، ولاه عثمان الكوفة، بعد الوليد بن عقبة، ووفد إلى المدينة مرة، وعندما عاد إلى الكوفة جند أهل الشغب جنودهم ومنعوه من دخولها، فعاد ولزم المدينة. . . وهؤلاء الذين منعوه من العودة إلى الإمارة، كان منهم قتلة عثمان، ومع ذلك اعتزل الجمل وصفين، وحث أهل الجمل على القعود عن الخروج[3]، هذه هي سيرته، كرم وشجاعة، وبر، وجهاد وفصاحة أشبه ما تكون بفصاحة النبي ﷺ، وكان قد أملى على زيد بن ثابت هذا المصحف الذي تقرؤه اليوم. . . فتأمل هذه المناقب الثابتة له بالرواية الصحيحة، وقارنها بما يذكرون من مثالبه التي لا سند لها، وتأمل فيمن أشاعها، فتظن أنها ملفقة لأنها تجمع في الرجل النقيضين: الكرم والبخل، والبر والتوحش، والفهم والجهل، والجهاد والنكوص، وهذا لا يعقل اجتماعه في رجل سوى[4]، يزعم الرواة ـ بلا إسناد ـ أنه عندما ولي سعيد الكوفة بعد الوليد كان بعض الموالي يقول رجزاً:

يا ويلنا قد عُزل الوليد

وجاءنا مجوّعًا سعيد

ينقص في الصاع ولا يزيد[5]

وهذا رجز مصنوع، وقصة موضوعة بلا شك[6]؛ لأن الموالي في سنة ٣٠هـ ـ أي: العبيد، من أسرى الحروب ـ لم يكونوا يحسنون العربية، بله قول الشعر، ولأن

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١١).
(٢) الإصابة ترجمة رقم ٣٢٦٨.
(٣) الطبقات (٥/ ٣٤).
(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢).
(٥) تاريخ الطبري (٥/ ٢٧٩).
(٦) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢).

سعيد بن العاص المشهور بالكرم والبر، لا يمكن أن يوصف بأنه (مجوع) وإذا مدح الناس والشعراء الوليد لكرمه، فإن سعيداً ضرب المثل بكرمه[1]، فكان يقال له: عكة العسل، وقال فيه الفرزدق يذكر كرمه:

ترى الغر الجحاجح فى قريش إذا ما الأمر فى الحدثان عالا

قيامًا ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا[2]

وإذا قال الموالى هذا الرجز فى أول مجىء سعيد إلى الكوفة، فكيف عرف الموالى سياسة سعيد، وهل جاء مجوعًا أم جاء مشبعًا؟ والغريب أن الرواة يسوقون هذا الخبر فى سياق ينقض بعضه بعضًا حيث يقولون: فولى عثمان سعيد بن العاص الكوفة فسار فيهم سيرة عادلة، فكان بعض الموالى يقول.. الرجز[3]، فكيف تكون السيرة عادلة، ويوصف بأنه جوع الموالى؟! فقد كان الخير كثيرًا يسع الجميع، ويفيض، والسيرة العادلة تجعل الخير يعم[4]، ورحم الله المؤرخين القدماء، فقد كانوا حسنى الظن بالقراء، فجمعوا فى كتبهم الروايات المتناقضة، وحسبوا أن القراء فى جميع العصور يستطيعون تمييز الغث من السمين، وعذرهم بأنهم كانوا يؤلفون لأهل عصرهم، وما عرفوا أن القرون التالية ستحفل بمن يحتطب بليل[5]، فقد روى ابن سعد فى ترجمة سعيد ـ بلا إسناد ـ يقول: قالوا: فلما قدم سعيد الكوفة ـ واليًا ـ قدمها شابًا مترفًا ليست له سابقة، فقال: لا أصعد المنبر حتى يطهر، فأمر به فغسل.. وقال على المنبر: إنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش. فشكوه إلى عثمان[6]، وهذا كلام لا يصح؛ لأنه غير مسند، ولأن سعيد بن العاص الذى قاد جيوش الجهاد وفتح الفتوح لا يكون كما وصف القائلون.. ثم إن ابن سعد يروى قولة سعيد هذه على لسان الأشتر مالك بن الحارث عندما منع سعيد بن العاص من

---

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٢).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٨٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٩).

(٤، ٥) فجر المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٣).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٢١٣)، والطبقات (٥/ ٣٢).

دخول الكوفة، بعد سنوات من ولايته حيث قال الأشتر: هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم[١].

ومالك بن الحارث الملقب بـ (الأشتر) صاحب فتنة، كان من رؤساء الخوارج الذين حاصروا عثمان وقتلوه، ولا يستغرب من هؤلاء أن يختلقوا الأقوال لإثارة كره الناس. وإذا كانت هذه الجملة قد قيلت فإن الذين قالوها هم الخارجون على الخلافة؛ لأنهم فهموا هذا الفهم السقيم بسبب تتابع الأمراء على العراق، وبخاصة الكوفة، من قريش، ولأن العصبية القبلية واضحة في هذه المقولة[٢]، وقد قال الإمام الذهبي فيه: وكان أميرًا شريفًا، جوادًا، ممدحًا، حليمًا، وقورًا، ذا حزم وعقل، يصلح للخلافة ـ الولاية ـ[٣]. وأما قول المخالفين والذين طعنوا في عثمان رضي الله عنه بأنه استعمل سعيد بن العاص على الكوفة وظهر منه ما أدى إلى أن أخرجه أهل الكوفة[٤]، فمجرد إخراج أهل الكوفة له لا يدل على ذنب يوجب ذلك، فمن عرف الكوفة وسبر أحوالها، عرف كثرة تشكي أهلها من ولاتهم بلا مبرر شرعي ولأتفه الأسباب، حتى قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أعياني وأعضل بي أهل الكوفة، ما يرضون أحدًا ولا يرضى بهم، ولا يصلحون ولا يصلح عليهم[٥]، وفي رواية: أعياني أهل الكوفة، فإن استعملت عليهم لينًا استضعفوه، وإن استعملت عليهم شديدًا شكوه[٦]، بل إنه دعا عليهم فقال: اللهم إنهم قد لبسوا على فلبس عليهم»[٧].

وقد كان سعيد بن العاص رجلاً حكيمًا، فقد قال: لجليسي على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا جلس أوسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه، وقال لابنه: يا بني أجر

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٢١٤).
(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٧).
(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٧٩).
(٥) المعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/ ٧٥٤).
(٦) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٤٢٣).
(٧) المنهاج لابن تيمية (٣/ ١٨٨).

لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه فى وجهه، أو جاءك مخاطرًا لا يدرى أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته، وقال أيضًا: يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنىء فتهون عليه، ودخلت عليه ذات يوم امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها، فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت المنة فى أعناق الكرام، وإذا أذال عن كريم نعمة جعلك سببًا لردها عليه، ولما حضرت سعيدًا الوفاة جمع بنيه وقال لهم: لا يفقدن أصحابى غير وجهى، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجرى عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يرد، فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعًا لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه، ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، وكانت وفاته ٥٨ هـ وقيل ٥٧ هـ، وقيل ٥٩هـ [١].

خامسًا: عبد الله بن سعد بن أبى السرح:

درج المؤرخون - فى الغالب - إذا ذكروا اسم عبد الله بن أبى السرح وتولية عثمان له على ولاية مصر على أن يقولوا: لقد ولى عثمان على مصر عبد الله بن أبى السرح أخاه من الرضاعة [٢]، وإيراد عبارة (أخاه من الرضاعة) مقرونة بالتولية تعتبر إيحاء من بعض المؤرخين باتهام عثمان رضى الله عنه، وأنه لهذه الأخوة من الرضاعة ولاه على مصر. وهذا الذى يراه المؤرخ، غير صحيح، ولكى نرد على هؤلاء وعلى ما يغمزون به أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه نستعرض جهود فارس بنى عامر بن لؤى [٣] - عبد الله بن سعد - فقد كان على خبرة ودراية تامة بأحوال مصر ونواحيها نتيجة اشتراكه مع جيش عمرو فى فتحها، ونتيجة ولايته على بعض النواحى أثناء خلافة عمر، فقد كان على صعيد مصر [٤]، وكذلك أول خلافة عثمان، مما أهله لأن

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٩٠).

(٢) انظر: الكامل، لابن الأثير (٣/ ٨٨).

(٣) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٧.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة، ص ٤١٨.

يصبح واليًا عامًا على مصر، فكان أقوى المرشحين لتلك الولاية بعد عمرو بن العاص نتيجة لتلك الخبرات، ويبدو أن عبد الله بن سعد تمكن من ضبط خراج مصر حتى زاد ما كان يجمعه من الخراج على ما كان يجمعه عمرو بن العاص قبله، ولعل مرد ذلك إلى اتباع عبد الله بن سعد لسياسة جديدة فى المصروفات اختلفت عن سياسة عمرو، وبالتالى زادت أموال الخراج المتوفرة فى مصر[1]، وقد قام عبد الله بن سعد أثناء ولايته بالجهاد فى عدة مواقع، فكانت له فتوح مختلفة لها شأن عظيم، فكان من غزواته غزو إفريقية سنة ٢٧هـ وفتوحه فيها، وقتله ملكها جرجير وكان يصاحبه فى تلك الغزوات مجموعة من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم، وانتهت الغزوة بصلح مع بطريق إفريقية على تأدية الجزية للمسلمين[2]، وقد عاد ابن أبى السرح إلى إفريقية مرة أخرى ووطد فيها الإسلام وذلك فى سنة ٣٣هـ[3]، كما كان من أهم أعمال عبد الله بن سعد بن أبى السرح غزوة لبلاد النوبة وتسمى غزوة الأساودة أو غزوة الحبشة عند بعض المؤرخين، وقد وقعت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين للهجرة، وقد دار قتال شديد بين أجناد المسلمين وجنود النوبة، وأصيب مجموعة من المسلمين نظرًا لإجادة أهالى النوبة للرمى، وقد انتهت تلك الغزوة بصلح وقعه عبد الله بن سعد مع أهالى النوبة بوضع جزية محددة عليهم[4]، ويعتبر عبد الله بن سعد بحق أول قائد مسلم تمكن من اقتحام النوبة، وقاتل أهلها وفرض عليهم الجزية واستقرت الحال على ذلك فى أيامه بين أهل النوبة والمسلمين. كذلك من أهم أعمال عبد الله بن سعد العسكرية غزوة ذات الصوارى، وقد انتصر فيها المسلمون على الروم، وقد كانت ولاية عبد الله بن سعد على مصر محمودة على العموم لدى المصريين ولم يروا منه ما يكرهون، يقول عنه المقريزى: ومكث أميرًا مدة ولاية عثمان رضى الله عنه كلها محمودًا فى ولايته[5].

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ١٨٠).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٣، والولاية على البلدان (١/ ١٨٠).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٨٠).

(٤) الولاية على البلدان (١/ ١٨١)، وفتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٨.

(٥) الخطط (١/ ٢٩٩).

وقال فيه الذهبى: ولم يتعد ولا فعل ما ينقم عليه، وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم [١]، وقد كانت ولاية مصر فى أول أمرها هادئة مستقرة إلى أن تمكن مثيرو الفتنة من أمثال عبد الله بن سبأ من الوصول إليها وإثارة الناس فيها فكان لهم وللمتأثرين بهم دور كبير فى مقتل عثمان رضى الله عنه، كما أن الأحوال فى مصر نفسها اضطربت نتيجة طرد الوالى الشرعى لها واستيلاء أقوام آخرين على الأمور بطريقة غير شرعية. وقد تمكنوا خلال تلك الفترة من بث الكراهية فى قلوب الناس لخليفتهم عثمان نتيجة مكايد قاموا بها وأكاذيب لفقوها ونشروها [٢]، سيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى. ولما وقعت الفتنة بمقتل عثمان رضى الله عنه اغتزلها عبد الله بن سعد وسكن عسقلان، أو الرملة فى فلسطين. وروى البغوى بإسناد صحيح، عن يزيد بن أبى حبيب قال: خرج ابن أبى السرح إلى الرملة - بفلسطين - فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملى الصبح، فتوضأ ثم صلى، فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره، فقبض الله روحه [٣].

سادساً: مروان بن الحكم ووالده:

كان مروان بن الحكم من أخص أقرباء عثمان به، وأوثقهم صلة بمركز الخلافة، والصقهم بالأحداث التى عصفت بالوحدة الإسلامية، فى عهد عثمان رضى الله عنه، فكان منه بمنزلة كاتم سر الدولة، أو حامل ختم الملك [٤]، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد للخليفة الذى كان يستشير كبار الصحابة وصغارهم ولم يكن بمعزل عن قادة الرأى فى مجتمع الإسلام، وكذلك لم يكن مروان الوزير الذى تجمعت تحت يده سلطات الدولة، إنما كان كاتبًا للخليفة، وهى وظيفة تستمد أهميتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة وخاتمه، أما ادعاء توريطه عثمان وإثارة الناس عليه لتنقل الخلافة بعد ذلك إلى بنى أمية، فافتراض لا دليل عليه، ولم تنتقل الخلافة إلى بنى

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤).
(٢) الولاية على البلدان (١/ ١٨٦).
(٣) الإصابة ترجمة ٤٧١١، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥).
(٤) عثمان بن عفان، لصادق عرجون، ص ١١٧.

أمية إلا بعد أهوال جسام لم يكن لمروان فيها دور خطير، ثم إن عثمان لم يكن ضعيف الشخصية حتى يتمكن منه كاتبه إلى الحد الذى يتصوره الرواة(١). ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان فى حياة الرسول ﷺ لم يبلغ الحلم باتفاق أهل العلم، بل غايته أن يكون له عشر سنين أو قريب منها، وكان مسلمًا، يقرأ القرآن ويتفقه فى الدين، ولم يكن قبل الفتنة معروفًا بشىء يعاب فيه، فلا ذنب لعثمان فى استكتابه. وأما الفتنة فأصابت من هو أفضل من مروان(٢)، بل إن خبر طرد النبى ﷺ لأبيه ضعيف سندًا ومتنًا، وتعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية، فأوضح تفاهته وضعفه(٣)، وعرف عن مروان بن الحكم العلم والفقه والعدل، فقد كان سيدًا من سادات شباب قريش لما علا نجمه أيام عثمان بن عفان، وقد شهد له الإمام مالك بالفقه، واحتج بقضائه وفتاواه فى مواطن عديدة من كتاب الموطأ، كما وردت فى غيره من كتب السنة المتداولة فى أيدى الأئمة المسلمين يعملون بها(٤)، وكان الإمام أحمد يقول: يقال كان عند مروان قضاء، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب(٥)، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن، كما كان له رواية للحديث الشريف حيث روى عن بعض مشاهير الصحابة، وروى عنه بعضهم، كما روى عنه بعض التابعين(٦)، وكان حريصًا على تحرى السنة والعمل بها، روى الليث ابن سعد، فقيه مصر، بسنده قال: شهد مروان جنازة فلما صلى عليها انصرف، فقال أبو هريرة رضى الله عنه: أصاب قيراطًا وحرم قيراطًا (أى الأجر والثواب، كما ورد فى حديث شريف)(٧)، فأخبر بذلك مروان فأقبل يجرى حتى بدت ركبتاه، فقعد حتى أذن له(٨)، وجاء فى مقدمة فتح البارى: مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ابن عم عثمان بن عفان، يقال له رؤية - يعنى

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، لحمدى شاهين، ص ١٦٠.

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٩٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ١٦٩.

(٥، ٦) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٠).

(٧) المصدر نفسه (٨/ ٢٦٠). والمسند رقم ٤٤٥٣، ٤٦٥٠.

(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠٠، والبداية والنهاية (٨/ ٢٦٠).

رؤية الرسول ﷺ ـ فإن ثبتت، فلا يعرج على من تكلم فيه[1]. وكان يقول ابن كثير: وهو صحابى عند طائفة كثيرة؛ لأنه ولد فى حياة النبى ﷺ[2]، وقد ولى مروان المدينة لمعاوية بن أبى سفيان، فكان شديداً على أهل الفسوق بها، حربًا على مظاهر الترف والتخنث[3]، عادلاً مع رعيته، حذرًا من مجاملة ذوى قرباه، أو من يحاول منهم استغلال نفوذه، فقد لطم أخوه عبد الرحمن بن الحكم مولى لأهل المدينة يعمل حناطًا ـ أثناء فترة ولاية مروان على المدينة ـ فشكا الحناط إلى مروان، فأتى بأخيه عبد الرحمن، وأجلسه بين يدى الحناط، وقال له: الطمه، فقال الحناط: والله ما أردت هذا وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطانًا ينصرنى عليه، وقد وهبتها لك، فقال: لست أقبلها منك، فخذ حقك، فقال: والله لا ألطمه، ولكن أهبها لك، ولست والله لاطمه، فقال مروان: لست والله قابلها، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك أو لله عز وعلا، قال: قد وهبتها لله تعالى: فقال عبد الرحمن شعرًا يهجو أخاه مروان لذلك[4].

إن هذه الصورة المشرقة عن علم مروان وعدله وفقهه، وتدينه، تكاد تختلف تمامًا عن تلك الصورة الكريهة التى يقدمها عنه معظم المؤرخين والرواة، الذين اجتهدوا لتشويه حياة الرجل، فلما حانت وفاته اجتهدوا أيضًا لتشويهها، فزعموا أن امرأته ـ أم خالد بن يزيد بن معاوية ـ خنقته بوسادتها، أو دست له السم، لما سب ابنها ـ بزعمهم ـ أمام جماعة من الناس، وهذه القصة مع ما تحتويه من عناصر متناقضة تبدو لأول وهلة وكأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ثم رددتها الألسن، إما حبًا فى الثرثرة، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة، حسداً لما وصلت إليه من مجد[5]، فهل كان موته طبيعيًا، أم مات بإصابة الطاعون، أم خنقته زوجته؟ إن

---

(١) فتح البارى (٢/ ١٦٤). وأباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٥٩).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠٠.

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠٠.

(٥) عبد الملك بن مروان، د. الريس، ص ١٢.

تناقض الروايات دليل على أن الحقيقة غير معروفة، والروايات التى تزعم أن زوجته هى التى اغتالته مباشرة أو بالواسطة (عن طريق بعض جواريها)، غير مقبولة أو معقولة، فهذه الزوجة سيدة شريفة من بيت عبد شمس، وزوجها قريبها، وهو خليفة، وهى كانت زوجة خليفة، وأم خليفة (وهو معاوية بن يزيد بن معاوية) وهو عمل، لا تقدم النساء الشريفات عليه، ثم إننا لم نر أى أثر لهذا الاغتيال فلم يحدث فى الأسرة أى خلاف، ولا مطالبة بالثأر، وظل خالد على مكانته عند عبد الملك، كما أن الدافع لا يكفى بحال لارتكاب جريمة القتل[١]، وذكر عن بعض أهل العلم أنه قال: كان آخر كلام تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار، وكان نقش خاتمه العزة لله، وقيل: آمنت بالعزيز الرحيم[٢]، وقال ابن القيم: أحاديث ذم الوليد، وذم مروان بن الحكم كذب[٣].

سابعًا: هل جامل عثمان أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين؟

لو كان عثمان رضى الله عنه أراد أن يجامل أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبى حذيفة أولى الناس بهذه المجاملة، ولكن الخليفة أبى أن يوليه شيئًا ليس كفؤًا له بقوله: يا بنى، لو كنت رضًا ثم سألتنى العمل لاستعملتك، ولكن لست هناك[٤]، ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفورًا منه، وإلا لما جهزه من عنده وحمله وأعطاه حين استأذن فى الخروج إلى مصر[٥]، وأما استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد جهز جيشًا لغزو الروم فى آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد رضى الله عنهما[٦]، وعندما توفى الرسول ﷺ تمسك الصديق رضى الله عنه بإنفاذ هذا الجيش، لكن بعض الصحابة رغبوا فى تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلموا عمر فى ذلك ليكلم أبا بكر، فغضب

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٠١.
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٢).
(٣) المنار المنيف، ص ١١٧، وفصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص ٧٧.
(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٤٧)، وتاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).
(٦) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٤٢٧). وتاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

أبو بكر لما سمع هذه المقالة وقال لعمر: يا عمر، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله(١)، ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصحابة بقوله: ولم أستعمل إلا مجتمعًا، محتلمًا، مرضيًا، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولى من قبلى أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ مما قيل لى فى استعماله لأسامة، أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون للناس ما لا يفسرون(٢)، ويقول على رضى الله عنه: ولم يول ـ أى عثمان ـ إلا رجلاً سويًا عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة(٣).

لم يكن ولاة الأمصار فى عهد عثمان رضى الله عنه جاهلين بأمور الشرع، ولم يكونوا من المفرطين فى الدين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء كانت تعود عليهم، ولم يكن لها تأثير فى المجتمع المسلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدى ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضم إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدين، ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة ومتاع الدنيا، وقد تتبعنا سيرة هؤلاء الولاة، فوجدنا لكل واحد منهم فتحًا أو فتوحًا فى الجهات التى تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة(٤).

إن الذى يرجع إلى الصحيح المحص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين رضوان الله عليهم، وما كان لجهادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمة وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب والفخر

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٦).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٥).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٨٧).
(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١١).

كلما أمعن فى دراسة ذلك الدور من أدوار التاريخ الإسلامى[1].

إن عثمان وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء وجهادهم وردهم ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية ومد نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر فى أحداث الفتنة حيث كانت التهمة موجهة إليهم وأنهم اعتدوا على الناس، ولكننا لم نلمس حوادث معينة يتضح فيها هذا الاعتداء المزعوم والمشاع، كما اتهم عثمان بتولية أقاربه وقد دحضنا تلك الفرية، وهكذا نرى أن عثمان لم يأل جهداً فى نصح الأمة وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا فلم يسلم عثمان وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المنصفة وغير المحققة عن عهد عثمان وخصوصًا الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكامًا لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورط الكثير منهم فى الروايات الضعيفة والرافضية وبنوا أحكامًا باطلة وجائرة فى حق الخليفة الراشد عثمان ابن عفان، مثل طه حسين فى كتابه «الفتنة الكبرى»، وراضى عبد الرحيم فى كتابه «النظام الإدارى والحربى»، وصبحى الصالح فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومولوى حسين فى كتابه «الإدارة العربية»، وصبحى محمصانى فى كتابه «تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه والقضاء»، وتوفيق اليوزبكى فى كتابه «دراسات فى النظم العربية والإسلامية»، ومحمد الملحم فى كتابه «تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى»، وبدوى عبد اللطيف فى كتابه «الأحزاب السياسية فى فجر الإسلام»، وأنور الرفاعى فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومحمد الريس فى كتابه «النظريات السياسية»، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه «الإسلام والخلافة»، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه «الملك والخلافة»، وسيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية»، وغيرهم.

لقد كان عثمان رضى الله عنه بحق الخليفة المظلوم والذى افترى عليه خصومه الأولون ولم ينصفه المتأخرون[2].

(١) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال، ص ٣٩٠.

(٢) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ إلى ٢٣٢).

المبحث الرابع

حقيقة العلاقة بين أبى ذر الغفارى وعثمان بن عفان رضى الله عنهما

أولاً: مجمل القصة:

إن مبغضى عثمان بن عفان رضى الله عنه كانوا يشنعون عليه أنه نفى أبا ذر رضى الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين أن ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) لقى أبا ذر فى الشام وأوحى إليه بمذهب القناعة والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية وقال له: هذا والله الذى بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام[١]، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهًا بين رأى أبى ذر، ورأى مزدك الفارسى، وقال بأن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان فى اليمن، وطوف فى العراق وكان الفرس فى اليمن والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها[٢]، وكل ما قيل فى قصة أبى ذر، مما يشنع به على عثمان بن عفان باطل لا يبنى على رواية صحيحة، وكل ما قيل حول اتصال أبى ذر رضى الله عنه بابن السوداء باطل لا محالة[٣]، والصحيح أن أبا ذر رضى الله عنه نزل فى الربذة باختياره، وأن ذلك كان بسبب اجتهاد أبى ذر فى فهم آية خالف فيها الصحابة، وأصر على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة[٤] التى كان يغدو إليها زمن النبى ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قسريًا، أو

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦، ٢١٧).
(٢) فجر الإسلام، ص ١١٠.
(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧).
(٤) كانت منزلاً فى الطريق بين العراق ومكة.

إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه لأن له وجهًا مقبولاً، لكنه لا يجب على المسلمين الأخذ به[١]، وأصحُّ ما روى فى قصة أبى ذر رضى الله عنه ما رواه البخارى فى صحيحه عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبى ذر رضى الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية فى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذاك، وكتب إلى عثمان يشكونى، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لى: إن شئت فكنت قريبًا، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أمروا على حبشيًا لسمعت وأطعت[٢]، وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

١ ـ سأله زيد بن وهب، ليتحقق مما أشاعه مُبْغِضُو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذر المكان؟ فجاء سياق الكلام أنه خرج بعد أن كثر الناس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام، وليس فى نص الحديث أن عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصامت قال: دخلت مع أبى ذر على عثمان فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم ـ يعنى الخوارج ـ فقال: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، ائذن لى بالربذة قال: نعم[٣].

٢ ـ قوله: «كنت بالشام»: بين السبب فى سكناه الشام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب: حدثنى أبو ذر، قال: قال لى رسول الله ﷺ، إذا بلغ البناء ـ أى المدينة ـ سلعًا، فارتحل إلى الشام، فلما بلغ البناء سلعًا قدمت الشام فسكنت بها[٤]،

---

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧).

(٢) البخارى، كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته، رقم ١٤٠٦.

(٣) فتح البارى (٣/ ٢٧٤).

(٤) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٩).

وفى رواية قالت أم ذر: والله ما سير عثمان أبا ذر ـ تعنى الربذة ـ ولكن رسول الله ﷺ قال: إذا بلغ البناء سلعًا، فاخرج منها(١).

٣ ـ إن قصة أبى ذر فى الماء جاء من اجتهاده فى فهم الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. وروى البخارى عن أبى ذر ما يدل على أنه فسر الوعيد: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ...﴾ الآية وكان يخوف الناس به، فعن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فى مسجد المدينة، فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم، فسلم ثم قال: بشر الكانزين برَضْف(٢) يُحمى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حَلَمة ثَدْى أحدهم، حتى يخرج من نُغْضى(٣) كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل(٤)، ثم ولى فجلس إلى سارية، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدرى من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت. قال: إنهم لا يعقلون شيئًا. واستدل أبو ذر رضى الله عنه بقول رسول الله ﷺ: ما أحب أن لى مثل أحد ذهبًا، أنفقه كله، إلا ثلاثة دنانير(٥).

٤ ـ وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذر، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة، واستدلوا على ذلك بالحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى، قال: قال النبى ﷺ: ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة(٦). وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث أن ما زاد على

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٧٢) صحيح الإسناد.

(٢) الرضف: الحجارة المحماة واحدها رضفة.

(٣) نغض: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف أو على أعلى الكتف.

(٤) يتزلزل: يضطرب ويتحرك.

(٥) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٧.

(٦) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٥.

الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه أن كل مال أخرجت منه الصدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كنزًا[١]. وقال ابن رشد: فإن ما دون الخمس لا تجب فيه الزكاة وقد عفى عن الحق فليس بكنز قطعًا، والله قد أثنى على فاعل الزكاة، ومن أثنى عليه في واجب حق المال لم يلحقه ذم من جهة ما أثنى عليه فيه، وهو المال[٢]، قال الحافظ: ويتلخص أن يقال: ما لم تجب فيه الصدقة لا يسمى كنزًا؛ لأنه معفو عنه، فليكن ما أخرجت منه الزكاة كذلك؛ لأنه عفي عنه بإخراج ما وجب منه فلا يسمى كنزًا[٣].

وقال ابن عبد البر: والجمهور على أن الكنز المذموم ما لم تؤد زكاته، ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: إذا أديت زكاة مالك، فقد قضيت ما عليك.. ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من أهل الزهد كأبي ذر[٤].

٥ ـ ولعل مما يفسر مذهب أبي ذر في الإنفاق، ما رواه الإمام أحمد عن شداد بن أوس، قال: كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة ثم يخرج إلى قومه، يسلم لعله يشدد عليهم، ثم إن رسول الله ﷺ يرخص فيه بعد، فلم يسمعه أبو ذر فيتعلق أبو ذر بالأمر الشديد[٥].

٦ ـ قوله: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا، يدل على أن عثمان طلب من أبي ذر أن يتنحى عن المدينة برفق، ولم يأمره، ولم يحدد له المكان الذي يخرج إليه، ولو رفض أبو ذر الخروج ما أجبره عثمان على ذلك، ولكن أبا ذر كان مطيعًا للخليفة؛ لأنه قال في نهاية الحديث: لو أمروا علي حبشيًا لسمعت وأطعت[٦]، ومما يدل على أنه يمقت الفتنة والخروج على الإمام المبايع، ما رواه ابن سعد في أن ناسًا من أهل الكوفة قالوا لأبي ذر وهو بالربذة: إن هذا الرجل فعل بك وفعل، هل أنت ناصب له راية ـ يعني

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٧٢).

(٢، ٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/ ١٠٧).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٧٣).

(٥) المسند (٥/ ١٢٥).

(٦) البخاري، رقم ١٤٠٦.

مقاتلة ـ؟ فقال: لا، لو أن عثمان سيرنى من المشرق إلى المغرب لسمعت وأطعت[1].

٧ ـ والسبب فى تنحى أبى ذر عن المدينة، أو طلب عثمان منه ذلك، أن الفتنة بدأت تطل برأسها فى الأقاليم، وأشاع المبغضون الأقاويل الملفقة، وأرادوا أن يستفيدوا من إنكار أبى ذر متعلقًا برأيه ومذهبه، ولا يريد أن يفارقه، فرأى عثمان رضى الله عنه تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة؛ لأن فى بقاء أبى ذر بالمدينة مصلحة كبيرة من بث علمه فى طلاب العلم، ومع ذلك فرجح عند عثمان دفع ما يتوقع من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد فى هذه المسألة.

٨ ـ قال أبو بكر بن العربى: كان أبو ذر زاهدًا، ويرى الناس يتسعون فى المراكب والملابس حين وجدوا فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم، وهو غير لازم، فوقع بين أبى ذر ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق فقال له عثمان لو اعتزلت. معناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس... ومن كان على طريقة أبى ذر فحاله يقتضى أن ينفرد بنفسه، أو يخالط الناس ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام فى الشريعة، فخرج زاهدًا فاضلاً، وترك جلة فضلاء، وكل على خير وبركة وفضل، وحال أبى ذر أفضل، ولا تمكن لجميع الخلق، فلو كانوا عليها لهلكوا فسبحان مرتب المنازل[2].

وقال ابن العربى: ووقع بين أبى الدرداء ومعاوية كلام، وكان أبو الدرداء زاهدًا فاضلاً قاضيًا لهم (فى الشام)، فلما اشتد فى الحق وأخرج طريقة عمر بن الخطاب فى قوم لم يحتملوها، عزلوه، فخرج إلى المدينة وهذه كلها مصالح لا تقدح فى الدين، ولا تؤثر فى منزلة أحد من المسلمين بحال، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من كل عيب، وعثمان برىء أعظم براءة، وأكثر نزاهة، فمن روى أنه نفى وروى سببًا فهو كله باطل[3]

---

(١) الطبقات (٤/٢٢٧).

(٢) العواصم من القواصم، ص ٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٩.

٩ ـ ولم يقل أحد من الصحابة لأبى ذر إنه أخطأ فى رأيه، لأنه مذهب محمود لمن يقدر عليه، ولم يأمر عثمان أبا ذر بالرجوع عن مذهبه، وإنما طلب منه أن يكف عن الإنكار على الناس ما هم فيه من المتاع الحلال. . . ، ومن روى أن عثمان نهى أبا ذر عن الفتيا مطلقًا، لم تصل روايته إلى درجة الخبر الصحيح[١]. والذى صح عند البخارى أن أبا ذر قال: لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تجيزوا علىَّ؛ لأنفذتها[٢]، وفى البخارى، لم يرو أن عثمان نهى أبا ذر عن الفتيا؛ لأن نهى الصحابى عن الفتيا دون تحديد الموضوع، أمر ليس بالهين[٣].

١٠ ـ ولو كان عثمان نهاه عن الفتيا مطلقًا، لاختار له مكانًا لا يرى فيه الناس، أو حبسه فى المدينة، أو منعه دخول المدينة، ولكن أذن له بالنزول فى منزل يكثر مرور الناس به؛ لأن الربذة كانت منزلاً من منازل الحاج العراقى، وكان أبو ذر يتعاهد المدينة، يصلى فى مسجد رسول الله ﷺ. وقال له عثمان: لو تنحيت فكنت قريبًا. والربذة ليست بعيدة عن المدينة، وكان يجاورها حمى الربذة الذى ترعى فيه إبل الصدقة، ولذلك يروى أن عثمان أقطعه صرمة من إبل الصدقة، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقًا. وكانت الربذة أحسن المنازل فى طريق مكة[٤]، وبعد أن ذكر الإمام الطبرى الأخبار التى تفيد اعتزال أبى ذر من تلقاء نفسه قال: وأما الآخرون فإنهم رووا فى سبب ذلك أشياء كثيرة وأمورًا شنيعة كرهت ذكرها[٥].

إن الحقيقة التاريخية تقول إن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذر رضى الله عنه إنما استأذنه، فأذن له، ولكن أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنه نفاه، ولذلك لما سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[٦]، وكل ما روى فى أن عثمان نفاه إلى الربذة، فإنه ضعيف الإسناد لا

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٣).
(٢) البخارى، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٢٩).
(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٤).
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٦).
(٥) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٨).
(٦) تاريخ المدينة، ابن شبة، ص ١٠٣٧ إسناده صحيح.

يخلو من علة قادحة، مع ما فى متنه من نكارة لمخالفته للمرويات الصحيحة والحسنة، التى تبين أن أبا ذر استأذن للخروج إلى الربذة وأن عثمان أذن له[١]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[٢]. وقال له أيضًا: كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح[٣]، أفمن يقول ذلك له ينفيه[٤]؟ ولم تنص على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى، الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة والحسنة[٥]؟، واستغل الرافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه أو أنهم سوغوا الخروج عليه[٦]، وعاب عثمان رضى الله عنه بذلك ابن المطهر الحلى الرافضى المتوفى سنة ٧٢٦هـ بل زاد أن عثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذر ضربًا وجيعًا[٧]، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا جامعًا قويًا[٨]، وكان سلف هذه الأمة يعلمون هذه الحقيقة، فإنه لما قيل للحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا، معاذ الله[٩]، وكان ابن سيرين إذا ذكر له أن عثمان رضى الله عنه سير أبا ذر، أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيره عثمان[١٠]، وكما تقدم فى الرواية الصحيحة الإسناد ـ أن أبا ذر رضى الله عنه لما رأى كثرة الناس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه فى الخروج، فقال له عثمان رضى الله عنه: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا[١١].

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٠).
(٢) تاريخ المدينة ص ١٠٣٦ ـ ١٠٣٧ إسناده حسن.
(٣) الطبقات، لابن سعد (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٤، ٥) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١١).
(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١١).
(٧) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).
(٨) المصدر نفسه (٦/ ٢٧١، ٣٥٥).
(٩) تاريخ المدينة، ١٠٣٧ إسناده صحيح.
(١٠) المصدر نفسه، ١٠٣٧ إسناده صحيح.
(١١) البخارى، كتاب الزكاة رقم ١٤٠٦.

ثانيًا: بطلان تأثير ابن سبأ على أبي ذر رضي الله عنه:

كتب سعيد الأفغاني في كتابه عائشة والسياسة، فعظم دور ابن سبأ في الفتنة، ونسب إليه كل المؤامرات والفتن والملاحم الواقعة بين الصحابة، ويرى أن هذه المؤامرة المحكمة سهر عليها أبالسة خبيرون، وسددوا خطاها وتعهدوها حتى آتت ثمارها في جميع الأقطار، ولهذا كتب هذا العنوان (ابن سبأ البطل الخفي المخيف)[1]، ويبدو التهويل من شأن ابن سبأ عند الأفغاني حينما يصفه بأنه رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة، والنظر البعيد، والحيلة الواسعة، والنفاذ إلى نفسية الجماهير[2]، ويقطع بأنه أحد أبطال جمعية تلمودية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية[3]، ويكاد يقرر بأنه يعمل لصالح دولة الروم التي انتزع المسلمون منها لفترة قريبة قطرين مهمين هما مصر، والشام عدا ما سواهما من بلاد أخرى على البحر المتوسط، ويستغرب نشاط ابن سبأ إلى شتى المجالات الدينية والسياسية والحربية[4].

وهو يرى أن ابن سبأ كان موفقًا كل التوفيق في لقائه مع أبي ذر، وفي تفصيل هذه المقالة التي ركبها على مزاج أبي ذر، وأن الذي ساعده على ذلك فهمه الجيد لأمزجة الناس، واستخباراته الصادقة المنظمة[5]، وهذا الزعم ـ أي في تأثير ابن سبأ على أبي ذر رضي الله عنه ـ لا أساس له من الصحة من عدة وجوه:

أ ـ حينما أرسل معاوية إلى عثمان رضي الله عنه يشكو إليه أمر أبي ذر لم تكن منه إشارة إلى تأثير ابن سبأ عليه، واكتفى أن قال: إن أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من أمره كيت وكيت[6].

ب ـ ذكر ابن كثير الخلاف الواقع بين أبي ذر ومعاوية بالشام في أكثر من موضع في كتابه، ولم يرد ابن سبأ في واحد منها[7].

جـ ـ وفي صحيح البخاري ورد الحديث الذي يشير إلى أصل الخلاف بين أبي ذر ومعاوية، وليس فيه الإشارة من قريب أو بعيد إلى ابن سبأ[8].

(١ ـ ٥) عائشة والسياسة، ص ٦٠.

(٦) تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٥).

(٧) البداية والنهاية (٧/ ١٧٠، ١٨٠).

(٨) البخاري رقم ١٤٠٦.

د ـ وفى أشهر الكتب التى ترجمت للصحابة ترد محاورة معاوية لأبى ذر، ثم نزوله الربذة، ولكن شيئًا من تأثير ابن سبأ على أبى ذر لا يذكر(١).

هـ ـ بل ورد الخبر فى الطبرى هكذا: فأما العاذرون معاوية فى ذلك ـ يعنى إشخاص معاوية أبا ذر إلى المدينة ـ فذكروا فى ذلك قصة ورود ابن السوداء الشام ولقياه أبا ذر... إلخ(٢). وهذا الخبر الذى أورده الطبرى، ساقط وكاذب، تكذبه وقائع التاريخ الزمنية، وإليك البيان:

* يذكرون ان ابن سبأ أسلم فى عهد عثمان، وكان يهوديًا من اليمن، وبدأ نشاطه المخرب فى الحجاز، ولكنهم لم يذكروا أنه التقى أحدًا، أو التقاه أحد فى الحجاز.

* كان أول ظهوره فى البصرة، بعد أن تولى عبد الله بن عامر عليها بثلاث سنوات، وعبد الله بن عامر جاء بعد أبى موسى الأشعرى سنة ٢٩ هـ وبهذا يكون ظهوره فى البصرة ٣٢ هـ، وقد طرده ابن عامر من البصرة يوم عرفة.

* قالوا: إنه توجه إلى الكوفة، فباض وفرخ، وحرض على معاوية، ولا بُد أنه مكث زمنًا فى الشام ليتعرف على أحوال الرجال، ويضع خططه ليبث دعوته فيهم، ولنفترض جدلاً أنه عرف أمره فى الشام فى أواخر سنة ٣٣ هـ، فماذا تقول أيها القارئ إذا عرفت أن الروايات الصحيحة تقول: إن أبا ذر كانت مناظرته لمعاوية سنة ٣٠ هـ، وأنه رجع إلى المدينة، وتوفى بالربذة سنة ٣١ هـ أو سنة ٣٢ هـ، ومعنى هذا أن ابن سبأ ظهر فى البصرة فى وقت كان فيه أبو ذر ميتًا، فكيف وأين التقاه(٣)؟

إن أبا ذر رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهودى، وقد أقام بالربذة حتى توفى، ولم يحضر شيئًا مما وقع فى الفتن(٤)، ثم هو قد روى حديثًا من أحاديث النهى عن الدخول فى الفتنة(٥).

---

(١) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ٥١.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٥).

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢٢٥).

(٤، ٥) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل، د. عبد العزيز دخان، ص ١٧٤.

ثالثا: وفاة أبى ذر رضى الله عنه وضم عثمان عياله إلى عياله:

فى غزوة تبوك قيل لرسول الله ﷺ: قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه فإن يك فى خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتلوّم[١] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر[٢]. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده[٣]، ومضى الزمان وجاء عهد عثمان، وأقام أبو ذر فى الربذة، فلما حضرته الوفاة أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلانى وكفنانى، ثم احملانى فضعانى على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود فى رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبى ذر، فاستهل ابن مسعود يبكى، فقال: صدق رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده[٤]، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه، فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم ابنته: إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام وأقسم ألا تركبوا حتى تأكلوا ففعلوا، وحملوهم حتى أقدموهم إلى مكة، ونعوه إلى عثمان رضى الله عنه فضم ابنته إلى عياله[٥]، وجاء فى رواية... فلما دفناه دعتنا إلى الطعام، وأردنا احتمالها، فقال ابن مسعود: أمير المؤمنين قريب، نستأمره، فقدمنا مكة فأخبرناه الخبر، فقال: يرحم الله أبا ذر، ويغفر له نزوله الربذة، ولما صدر خرج، فأخذ طريق الربذة، فضم عياله إلى عياله، وتوجه نحو المدينة، وتوجهنا نحو العراق[٦].

---

(١) تلوم على بعيره: تمهل.

(٢) كن أبا ذر: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدعاء: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٨).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٤٧٨).

(٥) التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، ص ٨٧، ٨٨.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٤).

الفصل السادس

أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه

المبحث الأول

أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها من أحداث، والحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها

أولاً: أهمية دراسة وقائع فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليها من أحداث فى الجمل وصفين وغيرهما:

ورد عن كثير من السلف والعلماء الأمر بالتوقف عن الخوض فى تفاصيل ما وقع بين الصحابة، وإيكال أمرهم إلى الله الحكم العدل، مع الترضى عنهم، واعتقاد أنهم مجتهدون، مأجورون إن شاء الله، والحذر من الطعن فيهم والوقوع فى أعراضهم، لما يجر ذلك من الطعن فى الشريعة، إذ هم حملتها وحاملوها إلينا، ومن ذلك ما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه سئل عن أهل صفين، فقال: تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أحب أن أخضب لسانى فيها[1]، وسئل أحدهم عن ذلك فقال، متمثلا قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وهذا النهى معلل، علته الخوف مما ذكرناه من الطعن فيهم والوقوع فى أعراضهم وما يستوجب ذلك من غضب الله ومقته، فإذا انتفت هذه العلة، فالظاهر أنه لا حرج فى ذلك، إذا كان الكلام والبحث فى تفاصيل ما وقع بينهم لا يؤدى إلى الطعن فيهم

(١) حلية الأولياء (٩/ ١١٤)، وعون المعبود (١٢/ ٢٧٤).

مطلقًا، فلا بأس من دراسة ذلك والتعمق فى أسبابه ودوافعه وتفصيلاته الدقيقة ونتائجه وتداعياته على مجتمع الصحابة، ثم على من بعدهم، وقد كتب بعض العلماء عن الفتنة، أمثال ابن كثير والطبرى وغيرهم حول أحداث تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام، وفصَّلوا، وفَصَلوا فى قضايا كثيرة تتعلق بتلك الفتنة، ومنهم من ذهب إلى حد تخطئة أحد الطرفين، أو كليهما، اعتماداً على روايات ونصوص كثيرة اختلط فيها الصحيح بغيره[1]، وهناك أسباب تدعو علماء أهل السنة وطلاب العلم منهم للغوص فى أعماق فتنة الهرج التى وقعت فى صدر الإسلام والبحث عن تفاصيلها ومن هذه الأسباب:

١ - أن المؤلفات المعاصرة التى تناولت أحداث الفتنة بين الصحابة والتابعين انقسمت إلى ثلاثة أنواع:

أ - مصنفات تربى أصحابها على موائد الفكر الغربى، الحاقد على التاريخ الإسلامى، أو الجاهل بالتاريخ الإسلامى، فلم يروا فيه شيئًا جميلاً، فراحوا يطعنون فى الصحابة والتابعين بطريقة تخدم أهداف أعداء الإسلام، وخصومه، الذين قاموا لدراسة أحداث تلك الفتنة وتفاصيلها، وإعطائها تفسيرات تطعن فى جموع الصحابة، وتضرب الإسلام فى أصوله وتجعل من هذه الأحداث صراعًا سياسيًا، على مناصب وكراس، تخلى فيه الصحابة عن إيمانهم وتقواهم وصدقهم مع الله، وانقلبوا إلى طلاب دنيا، وعشاق زعامة، لا يهمهم أن تراق الدماء، وتزهق الأرواح وتسلب الأموال، وتستباح الحرمات إذا كان فى ذلك ما يحقق لهم ما يريدون من الرياسة والزعامة، وممن تولى كبر هذه الفرية، طه حسين فى (الفتنة الكبرى)[2] الذى هو بحق فتنة كبرى على عقول الناشئة من أبناء المسلمين، فقد راح طه حسين يشنع على الصحابة ويشكك فى نياتهم، ويتهمهم باتهامات مغرضة خدمة لأهداف أعداء الإسلام والمسلمين[3]، وقد تأثر الكثير بمنهجه ويبدو أن أمثال هؤلاء اعتمدوا على

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز دخان، ص ٧٩.

(٢) انظر: الفتنة الكبرى (عثمان)، على وبنوه.

(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٠.

الروايات التاريخية التى أوردها المؤرخون كالطبرى وابن عساكر وغيرهما، والتى اختلط فيها الغث بالسمين، والكذب بالصدق، وأخذوها دون مراعاة لمنهج هؤلاء فى مصنفاتهم، وهذا خطأ كبير[١]، وقد تأثرت هذه الكتابات بالفكر الرافضى والكتابات الشيعية الرافضية للتاريخ الإسلامى[٢]، فقد تعمد الروافض الإساءة فى كتاباتهم للتاريخ الإسلامى، كما فى روايات وأخبار الكلبى[٣]، وأبى مخنف[٤]، ونصر بن مزاحم المنقرى[٥]، والتى توجد حتى عند الطبرى فى تاريخه، لكن الطبرى يذكرها مسندة لهؤلاء فيعرف أهل العلم حالها[٦]، وكما فى كتابات المسعودى فى مروج الذهب، واليعقوبى فى تاريخه.. وقد أشار الأستاذ محب الدين الخطيب فى حاشية العواصم إلى أن التدوين التاريخى إنما بدأ بعد الدولة الأموية وكان للأصابع الباطنية والشعوبية المتلفعة برداء التشيع دور فى طمس معالم الخير فيه وتسويد صفحاته الناصعة[٧].

ويظهر هذا الكيد لمن تدبر كتاب العواصم من القواصم لابن العربى مع الحاشية الممتازة التى وضعها العلامة محب الدين الخطيب، لقد سود شيوخ الروافض آلاف الصفحات بسب أفضل قرن عرفته البشرية، وصرفوا أوقاتهم وجهودهم لتشويه تاريخ المسلمين[٨] وكانت هذه المادة (الرافضية) الكبيرة والتى تجدها فى كتب التاريخ التى وضعها الروافض، أو شاركوا فى بعض أخبارها، وتراها فى كتب الحديث عندهم

(١، ٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨١.

(٣) محمد بن السائب الكلبى، قال ابن حبان: كان سبئيًا من أولئك الذين يقولون: إن عليًا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا. توفى سنة ١٤٦ هـ. ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٨). وابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٤) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدى من أهل الكوفة، قال ابن عدى: شيعى محترق صاحب أخبارهم توفى سنة ١٥٧ هـ له تصانيف كثيرة منها الردة، الجمل، صفين وغيرها.

(٥) نصر بن مزاحم بن سيار المنقرى الكوفى قال الذهبى: رافضى جلد وتركوه، توفى سنة ٢١٢ هـ، ومن كتبه: وقعة صفين، وهو مطبوع والجمل ومقتل الحسين، ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣).

(٦) أصول مذهب الشيعة الإمامية، لناصر القفارى (٣/ ١٤٥٧).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ١٤٥٨).

(٨) أصول مذهب الشيعة الإمامية (٣/ ١٤٥٩).

كالكافى، والبحار، وفى ما كتبه شيوخهم فى القديم كإحقاق الحق، وفى الحديث ككتاب الغدير هذه المادة السوداء المظلمة الكريهة الشائهة هى المرجع لما كتبه أعداء المسلمين من المستشرقين وغيرهم، وجاء ذلك الجيل المهزوم روحيًا، والذى يرى فى الغرب قدوته، وأمثولته من المستغربين فتلقف ما كتبته الأقلام الاستشراقية وجعلها مصدره ومنهله وتبنى أفكارهم ونشر شبهاتهم فى ديار المسلمين، وكان لذلك أثره الخطير فى أفكار المسلمين وثقافتهم، وكان الرفض هو الأصل فى هذا الشر كله، وإن دراسة آراء المستشرقين وصلتها بالتشيع لهى موضوع مهم يستحق الدراسة والتتبع، لقد بدأت استفادة العدو الكافر من شبهات الروافض، وأكاذيبهم ومفترياتهم على الإسلام والمسلمين منذ عهد الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)[1].

ب ـ مصنفات لبعض علماء هذه الأمة من المعاصرين، وهى مفيدة إجمالاً، ولكن طريقة عرضهم للأحداث وتفسيرهم لمواقف بعض الصحابة والتابعين فيها كثير من عدم الإنصاف مثل ما كتبه أبو الأعلى المودودى ـ رحمه الله ـ فى كتابه (الخلافة والملك) وما دونه الشيخ محمد أبو زهرة ـ فى كتابيه (تاريخ الأمم الإسلامية) و(الإمام زيد بن على) فالكتابان مشحونان بكثير من التحامل على مقام بعض الصحابة والطعن على خلفاء بنى أمية، وتنقصهم، وتجردهم من أية خصلة حميدة، أو عمل صالح[2]، ويبدو أن أمثال هؤلاء العلماء لم يحققوا فى الروايات التاريخية، فتورطوا فى الروايات الرافضية الشيعية وبنوا عليها تحليلاتهم واستنتاجاتهم غفر الله لنا ولهم.

جـ ـ مصنفات حاول أصحابها أن يسلكوا فيها منهج علماء الجرح والتعديل فى نقد الروايات التاريخية وعرضها على أصول منهج المحدثين من حيث السند والمتن من أجل تمييز صحيحها من سقيمها، وسليمها من عليلها.

وفى هذه المؤلفات محاولة جيدة، وجهد مشكور للوقوف فى وجه هذا الزيف، وتفسير الأحداث التفسير الصحيح الذى لا يتعارض مع فضل الصحابة وإيمانهم

---

(١) أصول مذهب التشيع (١٤٥٩/٣).

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨١.

وجهادهم[١]، ومن هذه المؤلفات الجيدة، ما كتبه الدكتور يوسف العش، فى تاريخ الدولة الأموية، وما كتبه محب الدين الخطيب، تعليقاً على كتاب: العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى، وما كتبه صادق عرجون فى كتابه عثمان بن عفان، وما سطره الدكتور سليمان بن حمد العودة فى كتابه: عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام، وما كتبه محمد أمحزون فى كتابه: تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة، وما كتبه الدكتور أكرم العمرى فى كتابه الخلافة الراشدة[٢]، وما كتبه عثمان الخميس فى كتابه حقبة من التاريخ، وما كتبه الدكتور محمد حسن شراب فى كتابه المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى، وما قام به محب الدين من تحقيقات نافعة وتعليقات صائبة على كتاب العواصم من القواصم والمنتقى وغيرها من الكتب والبحوث والرسائل التى سارت على نفس المنهج، فقد ظهر من هذا البيان شدة الحاجة إلى وجود مؤلفات ومصنفات ترد على هذه المزاعم والأخطاء، ولا يتم الرد على هؤلاء المزيفين للتاريخ الإسلامى ومقام الصحابة إلا بمحاولة دراسة تفاصيل تلك الأحداث، وغربلة الأخبار والروايات الواردة بميزان الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف[٣]، وقد جاء عن ابن تيمية قوله: لكن إذا ظهر مبتدع، يقدح فيهم بالباطل، فلا بد من الذب عنهم، وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل[٤] وقد ذهب الإمام الذهبى رحمه الله فى هذا مذهبًا آخر، فهو يدعو إلى إحراق هذه الكتب التى فيها هذا الكذب والتشويه لمقام الصحابة. قال رحمه الله: كما تقرر الكف عن كثير مما وقع بين الصحابة وقتالهم ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وما زال يمر بنا ذلك فى الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغى طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضى عنهم[٥]، وقد أفادنا الذهبى فى كلامه فائدة كبيرة، وهو

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨١.

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤) منهاج السنة (٣/ ١٩٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٩٢).

تصريحه بكون أكثر ما ينقل من ذلك فى الكتب والدواوين كذبًا وزورًا وافتراء على مقام الصحابة رضى الله عنهم، إلا أن اقتراح الذهبى بحرق تلك المؤلفات لم يعد ممكنا فقد انتشرت هذه الكتب، وتولت طباعتها كثير من دور النشر، وكثير من ذوى النيات السيئة، فلم يبق إلا وضعها موضع الدراسة وبيان ما فيها من عوار وخطأ وكذب حفظًا لأجيال المسلمين من انحراف السلوك والعقيدة (١).

٢ ـ تظهر أهمية دراسة فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، وما ترتب عليها من أحداث لمعرفة أسباب الفتنة الحقيقية، سواء كانت هذه الأسباب داخلية أو خارجية، ومعرفة نصيب كل سبب من هذه الأسباب فيما حدث، وهل هناك أسباب يمكن إدراجها فى هذا السبيل؟.

إن الذى يقرأ طرفًا مما كتب عن هذه الفتنة يحس أن مؤامرة كبرى، جرى التخطيط لها، وتعاون المجوس والنصارى واليهود والمنافقون على تنفيذها، فقضية تآمر الأعداء ترافق الأمة الإسلامية فى كل مراحل تاريخها الطويل (٢).

إلا أن هذه المؤامرة ما كانت لتنجح، لولا وجود عوامل ضعف داخلية ساهمت فى التمكين لنجاح هذه المؤامرة، ألا يضحى دراسة عهد الصحابة ـ والحالة هذه ـ واجبًا من الواجبات فى سبيل معرفة أسباب ضعف الأمة الإسلامية وتحديد مكامن الداء التى أوتيت منها، والاستفادة من ذلك فى إصلاح حاضر هذه الأمة، وتجنيبها هذه المزالق فى مستقبل حياتها؟، أم كتب عليها أن تظل ترزأ تحت ثقل أدوائها من الداخل وكيد أعدائها من الخارج (٣).

إن ما وقع من أحداث جسام فى فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه وما ترتب عليها من أحداث تحتاج لدراسة عميقة ومتأنية لكى نستخرج من تلك الحقبة التاريخية دروسًا وعبرًا نستضىء بها فى حاضرنا ولكى نسترشد بها فى سعينا الجاد لإعادة الخلافة

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٤.
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٨٥.

الراشدة على منهاج النبوة حتى تسعد البشرية بدين الله وشرعه وتخرج من شقاوتها وتعاستها وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله تعالى.

ثانيًا: الحكمة من إخباره ﷺ بوقوعها:

لقد أخبر النبى ﷺ فى كثير من أحاديثه بأن هذه الأمة ستختلف وستقاتل، وتعددت الأحاديث التى تشير إلى ذلك بإجمال أو بتفصيل، وتنوعت أساليب الإخبار عن ذلك من ذكر لأسباب الفتن، أو لنتائجها، أو لبعض أحداثها، ووقائعها، أو لمن يثيرونها، وغير ذلك، وكان كثير من هذا البيان والتوضيح منه ﷺ جوابًا لأسئلة الصحابة الكرام الذين كانوا يطرحونها عليه، وهم يشاهدون ويتذوقون النعمة العظيمة التى أفاءها الله عليهم، وهى نعمة الأخوة ووحدة الصف واجتماع الكلمة، فراحوا يسألون فيما إذا كانت هذه النعمة ستدوم أم تزول، ولما كان رسول الله ﷺ يعلم بالوحى أنها لن تدوم كما هى، أحب أن يربيهم على الاستعداد لهذه المحن والفتن حتى يحسنوا التصرف يوم يقدر الله لهذه الفتنة أن تقع، فيسعوا إلى علاجها فى وقتها ومن خلال النظر فى جملة الأحاديث الواردة فى ذكر الفتن نلمح الحكم التالية[1]:

١ ـ أن النبى ﷺ وهو يذكر هذه الفتن والوقائع يريد أن يربى الأمة على الاستعداد لها، حتى تحسن التصرف يوم تقع هذه الفتن، فتسعى إلى علاجها فى وقتها.

٢ ـ أن فى هذه الأحاديث إشارات إلى من يثيرونها، وأنها أحيانًا تكون من قوم ظاهرى الإيمان والتشدد، ولكن عقولهم منحرفة، وقلوبهم ملتوية، وهم فى جملة حالهم غير مدركين ولا فاقهين[2].

٣ ـ أن هذه الفتنة تكشف المنافقين، وتصقل قلوب المؤمنين، فيزدادون إيمانًا، ويتحفزون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو نوع من الابتلاء تصقل به النفوس وتتعود المجاهدة، وتتعرف الخير فتأمر به، والشر فتنهى عنه[3].

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٦٨.

(٢) الوحدة الإسلامية، لمحمد أبو زهرة، ص ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

٤ ـ أن الإخبار عن هذه الفتن يحمل فى مضمونه تحذيراً شديدًا من الوقوع فيها، أو ملابسة شىء منها، ذلك أن المؤمنين من هذه الأمة ـ من الصحابة وغيرهم ـ حين يسمعون خبر النبى ﷺ بأن منهم من سيحدث منه القتل، ومنهم من سيتعلق بالدنيا، ومنهم من سيترك الجهاد، ومنهم، ومنهم.. تتحرك فى نفوسهم مشاعر المواجهة لهذه الفتنة، ويقول كل واحد منهم، لعلى أنجو، ويصبح الموقف منها الخوف على الدوام أن يقع فى تلك المهالك على غفلة والخوف ـ فى هذا الباب ـ من أعظم سبل النجاة(١).

قال ابن تيمية رحمه الله، بعد أن أورد عدة أحاديث مرفوعة فى وقوع هذا الخلاف والاختلاف فى هذه الأمة: وهذا المعنى محفوظ عن النبى ﷺ، من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لا بد من وقوعها فى الأمة، وكان يحذر أمته، لينجو من شاء الله له السلامة(٢).

٥ ـ أن الإخبار عن هذه الفتن أدق فى تحديد سبل النجاة منها، فإن الإنسان مهما بالغت فى تحذيره من خطر يهدده ـ دون أن تحدد له هذا الخطر، أو تبين له كيفية الوقوع فيه ـ قد لا يتصور الطريقة التى سيحدث بها، ولا يستبين طبيعة المشكلة التى سيواجهها، وقد يقع فى المحذور دون أن يعرف أنه المقصود بالتحذير(٣).

٦ ـ أن الإخبار عن تلك الفتن اقترن فى بعض الأحاديث بذكر أسبابها، أو بيان نتائجها، أو موقف المسلم منها، وهذا ينفع المسلم ـ أو الأمة كلها ـ فى نبذ أسباب الفتن، أو الحكم على وقائع معينة من خلال النظر فى نتائجها، أو اتخاذ الموقف السليم منها ابتداء.

٧ ـ ثم إن فيها دليلاً واضحًا على صدق رسالة محمد ﷺ ونبوته، يزداد به إيمان الصحابة الذين سمعوا الحديث، ثم رأوا تأويله فى مواقفهم بعد مدة، ويزداد به إيمان

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٧٠. واقتفاء الصراط (١/ ١٢٧).
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

المؤمن ـ كل مؤمن ـ فى كل عصر ومصر، وهو يعيش وقائع الفتن والاختلافات التى أخبر النبى ﷺ بوقوعها[١].

وقد جمع الدكتور عبد العزيز صغير دخان أحاديث الفتنة وقام بدراستها وبيان صحيحها من ضعيفها فى كتابه أحداث وأحاديث فتنة الهرج ثم استخرج من الأحاديث الصحيحة معانى دلت عليها تلك الأحاديث منها:

١ ـ أن الفتنة سنة الله عز وجل فى الأمم، وفى هذه الأمة إلى قيام الساعة وهى فتن كقطع الليل المظلم، عمياء صماء، بكماء، من سعى فيها هلك فى الدنيا والآخرة، ومن كف يده أفلح، لا يكاد يبصر فيها أحد موقفه إلا من أحياه الله بالعلم وزوده بالتقوى، وهداه إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه[٢].

٢ ـ وفى هذه الأحاديث أن فتنة القتال بين المسلمين أمر واقع لا محالة، ولا سبيل لإنكاره واستغرابه بدءاً بما وقع بين الصحابة والتابعين، ومروراً بالعصور الإسلامية إلى اليوم، ولكن الواجب هو معرفة أسباب هذا القتال لتلافيها، أو السعى فى إطفاء نار الفتنة حينما تشب فى ديار المسلمين، وألا ينبغى أن يقف المسلم منها موقف المتفرج.

٣ ـ ومن رحمة الله بهذه الأمة أن يكفر عنها ذنوبها فى الدنيا، وليس القتل والفتن التى تنزل ساحتها والزلازل التى تصيبها إلا كفارة لهذه الذنوب.

٤ ـ وفى بعض هذه الأحاديث إشارة واضحة وصريحة إلى أن منبت معظم هذه الفتن من قبل المشرق، وكذلك كان الواقع، فإن الفتنة الأولى بدأ تحريكها فى الكوفة والبصرة، وفتنة الجمل كانت هناك.

٥ ـ وفى الفتنة يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا يسير، وتتحكم فيهم الشهوات والشبهات، ويصير أهل الإسلام الصحيح غرباء فى سلوكهم وتصرفاتهم، ويصبح المتمسك بدينه أشبه ما يكون بالذى يقبض على الجمر، أو على الشوك، صابراً

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٧٠.

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٥.

محتسبًا ما يصيبه من الألم والذى فى سبيل دينه وما يعتقد أنه حق.

٦ ـ وفى الفتنة، يحفظ الله طائفة من الناس، فلا تلتبس بالفتنة، ولا تتلطخ أيديهم من دماء المسلمين، يسعون فى إصلاح ذات البين، والدعوة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة من رحمة وأخوة وسيكون موقفهم غريبًا بدون شك وسط الجموع الهائجة، والأهواء المستحكمة [١].

٧ ـ وفى الفتنة يلعب اللسان دوراً أخطر من السيف، بل إن اللسان يكون غالبًا منشأ الفتن والبلايا، فرب كلمة شر مسمومة انطلقت، فأشعلت النار فى القلوب، وهيجت ما كان مستكنًا فى النفوس، وشحذت العواطف، وكانت سببًا فى فتن ضارية [٢].

٨ ـ وفى الفتنة ينقص العلم، إما بموت العلماء أو بسكوتهم واعتزالهم إيثارًا للسلامة، أو لانصراف الناس عنهم لسبب من الأسباب، ويسود عندها الجهل، ويتخذ الناس رؤساء جهالاً، فيفتوا بغير علم، فيضلوا ويضلوا، ويسود الرويبضة وهو التافه من الناس، ويستعلى السفهاء منهم [٣].

٩ ـ وفى هذه الأحاديث أن الله عز وجل ضمن لرسوله ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالسنين والمجاعات، وألا يسلط عليها عدوًا فيتمكن منها دائمًا، مهما كانت قوة هذا العدو وإمكانياته، وجبروته، ولكن الأمر الذى لم يضمنه الله لرسوله ﷺ هو ألا تختلف هذه الأمة، وسيكون هذا هو الباب الذى يدخل منه العدو الخارجى، إذ إن الأمة إذا اختلفت فيما بينها وقتل بعضها بعضًا، ضعفت عوامل القوة فيها، وتمكن منها عدوها، فعبث بخيراتها ومقدراتها، ولن يرفع عنها حتى تعود إلى تحقيق القوة فى نفسها بالوحدة، وجمع الكلمة، والاحتكام إلى شرع الله [٤].

١٠ ـ وفى الأحاديث أن وقوع الفتنة واستمرارها مظنة ظهور فرق المنحرفين عن هدى الإسلام، وتمكن أهل الباطل وظهورهم.

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢ ـ ٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٨.

١١ ـ وفى الفتنة تتغير أخلاق الناس، وتتبدل، ويزهد الناس فى العمل الصالح، ومشاريع الخير، ويلقى بين الناس العداوة والبغضاء والحقد، ويختلط الأمر على الناس.

١٢ ـ وفى الأحاديث أن هذه الفتنة يسبقها أمن واستقرار وصلاح أحوال الناس المادية والأمنية، حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق، ويظهر هذا فى عهد عثمان رضى الله عنه، فقد كان عهد أمن واستقرار وتدفق الأموال والخيرات، ثم حدثت فتنة الهرج، فقوض ذلك كله، حتى تبدل الحال من الأمن إلى الخوف.

١٣ ـ وفى الفتنة يقتل خيار الناس وذوو العقول والرأى فيهم، ويبقى رجرجة من الناس لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكراً[1]، هذه بعض المعانى من أحاديث الفتن.

* * *

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٣٤٩، ٤٥٠.

المبحث الثانى

أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه

قال الإمام الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميرًا للمؤمنين، أول ست سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئًا، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ لأن عمر كان شديدًا عليهم، أما عثمان فقد لان لهم ووصلهم، ثم حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمى المؤرخون المسلمون الأحداث فى النصف الثانى من ولاية عثمان ٣٠ ـ ٣٥هـ (الفتنة) التى أدت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[1] كان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدرًا من خلافة عثمان، متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أمورًا أوجبت نوعًا من التفرق، وقام قوم أهل الفتنة والظلم، فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان[2].

وقد كان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق والفاروق والنصف الأول من خلافة عثمان يتصف بالسمات الآتية:

١ ـ أنه ـ فى عمومه ـ مجتمع مسلم بكامل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق لتعاليم الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التاريخ، فالدين بالنسبة إليه هو الحياة، وليس شيئًا هامشيًا يفىء الناس إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها على وجهها الصحيح، وإنما من أخلاقياتهم، وتصوراتهم واهتماماتهم، وقيمهم، وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار، والبيع والشراء والضرب فى مناكب الأرض، والسعى وراء

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣٩، ٤٧). والبداية والنهاية (٧/ ١٤٤، ١٤٩)، والخلفاء الراشدين للخالدى، ص ١١٢.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠).

الأرزاق، وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق فى الحياة الدنيا، ولا فى أى مجتمع من البشر، وقد كان فى مجتمع الرسول ﷺ ـ كما ورد فى كتاب الله ـ منافقون يتظاهرون بالإسلام وهم فى دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعاف الإيمان، والمعوقون، والمتثاقلون والمبطئون، والخائنون، ولكن هؤلاء جميعًا لم يكن لهم وزن فى ذلك المجتمع، ولا قدرة على تحويل مجراه؛ لأن التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقى الإيمان المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، الملتزمين بتعاليم هذا الدين[1].

٢ ـ أنه المجتمع الذى تحقق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقى (للأمة)، فليست الأمة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض، ووحدة المصالح، فتلك هى الروابط التى تربط البشر فى الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهى أمة جاهلة، أما الأمة بمعناها الربانى ـ فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة ـ، بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون، ومصالح الأرض القريبة وهذه لم تتحقق فى التاريخ كما تحققت فى الأمة الإسلامية، فالأمة الإسلامية هى أمة لا تقوم على عصبية الأرض ولا الجنس ولا اللون ولا المصالح الأرضية، إنما هو رباط العقيدة، يربط بين العربى والحبشى والرومى والفارسى، يربط بين أهل البلاد المفتوحة، والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة فى الدين، ولئن كان معنى الأمة قد حققته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معانى الإسلام كلها، بما فيها معنى الأمة، على نحو غير مسبوق[2].

٣ ـ أنه مجتمع أخلاقى، يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته، وهى قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها، وإن كانت هذه من

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١.

أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خال من التبرج، ومن فوضى الاختلاط وخال من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة وخال من الفاحشة إلا القليل الذى لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهى تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس فى المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب، لا غمز ولا لمز ولا نميمة ولا قذف للأعراض[١].

٤ ـ أنه مجتمع جاد، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجد بالضرورة عبوسًا وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمة فى الناس وتحث على النشاط والعمل والحركة، كما أن اهتماماته أعلى وأبعد من واقع الحس القريب، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة، التى تتسكع فى البيوت وفى الطرقات، تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ[٢].

٥ ـ أنه مجتمع مجند للعمل، فى كل اتجاه تلمس فيه روح الجندية واضحة لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، وإن كان القتال فى سبيل الله قد شغل حيزًا كبيرًا من حياة هذا المجتمع، ولكن فى جميع الاتجاهات، فالكل متأهب للعمل فى اللحظة التى يطلب منه فيها العمل، ومن ثم لم يكن فى حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط فى كل اتجاه[٣].

٦ ـ أنه مجتمع متعبد، تلمس فيه روح العبادة واضحة فى تصرفاته ليس فقط فى أداء الفرائض، والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضات الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعًا، فالعمل فى حسه عبادة، يؤديه بروح العبادة، الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة، والمعلم الذى يعلم القرآن ويفقه الناس فى الدين يعلم بروح العبادة والتاجر الذى يراعى الله فى بيعه وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة، والزوج يرعى بيته بروح العبادة والزوجة ترعى بيتها بروح العبادة، تحقيقًا لتوجيه رسول الله ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[٤].

(١ ـ ٤) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٢.

هذه من أهم سمات عصر الصديق وعهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السمات كانت أقوى كلما اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلما ابتعدنا عن عصر النبوة، وهذه السمات جعلته مجتمعًا مسلمًا فى أعلى آفاقه، وهى التى جعلت هذه الفترة المثالية فى تاريخ الإسلام، كما أنها هى التى ساعدت فى نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التى انتشر بها، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح فى التاريخ كله، بحيث شملت فى أقل من خمسين عامًا أرضًا تمتد من المحيط غربًا إلى الهند شرقًا، وهى ظاهرة فى ذاتها تستحق التسجيل والإبراز، وكذلك دخول الناس فى الإسلام فى البلاد المفتوحة بلا قهر ولا ضغط، وقد كانت تلك السمات التى اشتمل عليها المجتمع المسلم هى الرصيد الحقيقى لهذه الظاهرة، فقد أحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقًا على هذه الصورة العجيبة الوضاءة، فأحبوا أن يكونوا من بين معتنقيه[١].

إن دراسة هذه الفترة من التاريخ ينبغى أن تترك انطباعًا لا يمحى فى نفس الدارس. انطباعًا بأن الإسلام دين واقعى قابل للتطبيق فى عالم الواقع بكل مثالياته، فهى ليست مثاليات معلقة فى الفضاء لمجرد التأمل، أو التمنى، ولكنها مثاليات واقعية، فى متناول التطبيق إذا حاولها الناس بالجدية الواجبة، وأعطوها حقها من الجهد، ثم انطباعًا بأن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى؛ لأن البشر هم البشر، وقد استطاع البشر دائمًا أن يحاولوا الصعود مرة أخرى وسيصعدون حين يعزمون وسينالون على ذلك النصر والتمكين[٢]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومن الأمور التى تساعد المسلمين على العودة إلى الخلافة الراشدة معرفة العوامل والأسباب التى أدت إلى زوالها لكى نعمل على اجتنابها، والأخذ بالأسباب التى

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣، ٣٠٤.

جعلها الله سببًا فى إكرام الأمة بها، ولذلك نريد أن نفصل فى أسباب فتنة مقتل عثمان لأهميتها وإليك أهم هذه الأسباب:

أولاً: الرخاء وأثره فى المجتمع:

كان رسول الله ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش وفقر الحال، فكان يصبرهم، ثم يخبرهم أن هذا الحال الذى هم عليه لن يدوم طويلاً، حتى تفتح عليهم خزائن الدنيا وخيراتها، وحذرهم من الاشتغال بذلك عن العمل الصالح والجهاد فى سبيل الله، وما يمكن أن يجره ذلك عليهم من التقاتل على الدنيا ومتاعها الزائل[1]، وقد فقه عمر بن الخطاب هذا التحذير فكان من سياسته حماية المسلمين من غوائل فتنة المال، وزخارف الدنيا، فاجتهد فى منع المسلمين من التوسع فى بلاد العجم، ولولا ظهور مصلحة أخرى راجحة فى توسعهم لبقى المنع قائمًا، إلا أن هذا التراجع من عمر لم يشمل كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين كانوا بالمدينة إذ بقى المنع فى حقهم[2]، ولا شك أن الذى فعله عمر كان يدل على إحساسه وخوفه من انتشار المسلمين فى أرض تزخر بألوان الخيرات والأرزاق؛ فتستولى الدنيا على قلوبهم، وتفسد عليهم آخرتهم[3]، فلما جاء عهد عثمان وتوسعت الفتوحات شرقًا وغربًا، وبدأت الأموال تتقاطر على بيت المال من الغنائم والأسلاب، وامتلأت أيدى الناس بالخيرات والأرزاق[4]، وغنى عن الإشارة أن النعم والخيرات وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرخاء وما يترتب عليه من انشغال الناس بالدنيا والافتتان بها، كما أنها مادة للتنافس والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات وأبناء الأمم المترفة الدخلاء فى الإسلام الذين جروا شوطًا بعيدًا فى زخارف الدنيا وبهجتها، واتخذوها غاية يتنافسون فيها، وقد أدرك عثمان هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدل والتغير فى كتابه الموجه إلى الرعية: فإن أمر

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥٥٩.

(٢ ـ ٤) المصدر نفسه، ص ٥٦٥.

هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[١].

أما تكامل النعم فيتحدث الحسن البصرى ـ وهو شاهد عيان ـ عن حالة المجتمع، ووفور الخيرات، وإدرار الأموال، وما آل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشكر، فيقول: أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلما يأتى على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا يقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل، فالأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متقى وذات البين حسن، والخير كثير. . . والأخرى كان السيف مغمدًا على أهل الإسلام فسلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا، وايم الله إنى لأراه سيفًا مسلولاً إلى يوم القيامة[٢].

وأما بلوغ أولاد المسلمين من السبايا فيتمثل فيما آل إليه أمر هؤلاء من الدعة والترف، وكان أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمى على الجلاهقات[٣] فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بنى ليث سنة ثمان[٤]، فقصها وكسر الجلاهقات[٥]، وحدث بين الناس النشو بتناولهم النبيذ، فأرسل عثمان رضى الله عنه رجلاً يطوف عليهم بالعصا ليمنعهم من ذلك، وعندما اشتد ذلك شكاهم عثمان رضى الله عنه إلى الناس، فأجمعوا على أن يجلدوا فى النبيذ، فأخذ نفر منهم فجلدوا ثم جعل عثمان لا يأخذ أحدًا على شر أو شهر سلاحًا إلا نفاه من المدينة، فضج آباؤهم من ذلك[٦]، وقام عثمان فى المدينة فقال: (إن الناس تبلغنى عنهم هنات وهنات، وإنى لا أكون أول من فتح بابها ولا أدار راحتها «أى

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٤).
(٣) قوس البندق الذى يرمى به.
(٤) أى فى السنة الثامنة من خلافته.
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٥).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٤١٦).

الفتنة» ألا وإنى زام نفسى بزمام وملجمها بلجام، فأقودها وأكبعها[1] بلجامها، ومنا ولكم طرف الحبل، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف، ومن لم يتبعنى فمن خلف منه وعزاء منه، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقًا وشهيدًا، سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها، فمن كان يريد الله بشىء فليبشر ومن كان يريد الدنيا فقد خسر[2]، وهكذا لما قام عثمان الرجل التقى والخليفة الراشد بواجبه، وكانت إجراءاته تعزيرية تجاه أبناء الأغنياء الذين بدءوا نوعًا من حياة الترف وفساد الأخلاق، انضم أولئك المنحرفون إلى صف الناقمين من الرعاع.

وبالنسبة لقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فيظهر فى شكل واضح فى تكوين طبقة فى المجتمع المسلم تتعلم القرآن لا رغبة فى الثواب، وإنما رغبة فى الجعل الذى جعله الخليفة تشجيعًا وتأليفًا[3]، ويجب أن نلاحظ أن هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً على أطراف الدولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، مما دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين فى خطبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحطامها، فكان مما قاله فى أحد خطبه:

إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا[4]، ثم قرأ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وفى مثل هذه الظروف، والخيرات وافرة، فاضت الدنيا على المسلمين وتفرغ الناس

---

(١) أى من الكبع المنع.

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦١).

(٣) الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢.

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥٦٧.

بعد أن فتحوا الأقاليم وأطمأنوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم[(١)].

ومن هنا يعلم أثر الرخاء فى تحريك الفتنة، ومن هنا أيضًا يمكن فهم مقالة عثمان رضى الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[(٢)] ـ إن الرعية قد أبطر كثيرًا منهم البطنة، فقصر بهم ولا تقتحم بالمسلمين فإنى خاش أن يبتلوا[(٣)]. وفى آخر خطبة لعثمان رضى الله عنه وهو يعظ المسلمين بعد أن فتحت الدنيا عليهم قال:

ألا لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية. . . واحذروا أحداث الدهر المغير، والزموا جماعتكم، ولا تتفرقوا شيعًا وأحزابًا[(٤)].

ثانيًا: طبيعة التحول الاجتماعى فى عهد عثمان رضى الله عنه:

حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل فى صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءًا من النصف الثانى من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها فى التمرد الذى أدى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[(٥)].

لما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح حصل تغير فى تركيبة المجتمع والاختلالات فى نسيجه؛ لأن هذه الدولة بتوسعها المكانى والبشرى ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة وخروقات غير منتظمة، ورقع غير منسجمة مما صيرت المجتمع غير متجانس فى نسيجه التركيبى وبالذات فى الأمصار الكبرى المؤثرة: البصرة، والكوفة، والشام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة ـ بمواقعها وأهميتها ـ تدفع بجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة وقد نقص عددها بالموت

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢).
(٢) المقصود بالباب منطقة فى جهات أذربيجان تسمى الدر البند. معجم البلدان (١/ ٣٠٣).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢).
(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص ١٦٦

والقتل، وتستقبل بدلا عنهم أو أكثر منهم أعدادًا وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس أو من النصارى العرب أو غيرهم أو من اليهود(١)، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم ممن شاركوا فى حركة الفتح الإسلامى ثم استقروا فى هذه الأمصار، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربية من جنوبها وشمالها وشرقها والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصحابة، وبمعنى أدق ليسوا مما تلقوا التربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدى الجيل الأول من الصحابة إما لانشغالهم بالفتوح أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيرات فى نسيج المجتمع البشرى المكون من جيل السابقين وسكان البلاد المفتوحة والأعراب، ومن سبقت لهم ردة، واليهود والنصارى، وفى تكوين نسيج المجتمع الثقافى، وفى بسطة عيش المجتمع وفى ظهور لون جديد من الانحرافات، وفى قبول الشائعات(٢).

١ ـ المتغيرات فى نسيج المجتمع البشرى:

أ ـ لقد تكون هذا النسيج من قطاعات عدة، قطاع الأسبقين ممن بَقى من الصحابة ومن الذين نالوا قسطًا وفيرًا من رعاية الصحابة، ولكن هذا القطاع وذاك ظل يتناقص إما عن طريق الموت والقتل فى ميادين الفتوح، وإما عن طريق تفرقهم فى الأمصار مما جعلهم أقل القطاعات حضورًا، وكانوا موزعين فى البلدان المفتوحة والأمصار الكبيرة المستحدثة كالبصرة والكوفة، والشام، ومصر، وبعضهم فى الجزيرة العربية يخرجون منها ثم يعودون إليها مرة أخرى(٣).

ب ـ سكان المناطق المفتوحة، وكانوا يشكلون الأكثرية بالنسبة للقادمين إليهم مع حركة الفتوح، فقد ظل القادمون قلة، وإن كان لهم حضور فعلى فى إدارة البلد أو التأثير السلوكى والأخلاقى والفكرى واللغوى، إلا أنهم رغم ذلك يعتبرون قلة، وظل هذا القطاع ـ قطاع سكان المناطق المفتوحة ـ مقتصرًا فى استقراره ـ غالبًا ـ على مناطقهم ومع هذا فقد تنقل بعضهم فى المناطق الأخرى من بلدان الدولة الإسلامية،

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٧٩.

(٢، ٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠.

بل استقر بعضهم فى الأمصار الكبيرة وفى عاصمة الدولة أيضًا، إما على شكل ما عرف بالسبى، أى يستقرون تابعين لمواليهم، وإما على شكل تنقل تجارى ومعرفى وإدارى حيث لا يوجد قانون يمنعهم من ذلك، إن لم يكونوا يلقون التشجيع والدعم [١] وقد كان الأعاجم الذين جاءوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة؛ ذلكم لأن أغلب الأعاجم من الأمم الموتورة، والشعوب المقهورة، فتكثر مسارعتهم للفتن لأسباب كثيرة منها:

* جهلهم، وحداثة عهد أكثرهم بالكفر، والملك والعز الذى كانوا عليه، ثم سلبوه.

* قلة فقههم فى الدين، بسبب العجمة وغيرها.

* العصبية، وكراهية العرب.

* أن طوائف منهم دخلت الإسلام ظاهراً وخوفًا من السيف أو الجزية، وأضمروا للإسلام والمسلمين الشر والكيد، فيسارعون إلى كل فتنة.

* طمع أهل الأهواء فيهم للأسباب المذكورة وتحريضهم لهم [٢].

جـ - أولئك الأعراب عرفوا بأنهم من سكان البادية وهم مثل بقية الناس منهم المسلم التقى، ومنهم الكافر والمنافق إلا أنهم كما قال الله عنهم: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩٧]. وذلك لأنهم أقسى قلوبًا وأغلظ طبعًا وأجفى قولاً، ولصفاتهم هذه فهم جديرون وأخلق بهم ألا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام والجهاد [٣]، فهم من أسرع الناس فى الفتن، ولمسارعتهم فيها له أسباب منها:

* قلة فقههم فى الدين.

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠.

(٢) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل ص ١٦١.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨٠، نقلا عن الشوكانى فتح القدير (٢/ ٣٩٥ - ٣٩٧).

* سرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلمه من القرآن، فيظن أنه صار عالمًا بقليل من العلم.

* جفاؤهم للعلماء، وترك التلقى عنهم، والاقتداء بهم.

* تمكن العصبية القبلية من نفوسهم.

* تغرير أهل المطامع بهم، واستغلال سذاجتهم وجهلهم.

* حدة طباعهم ونفورهم من المدنية والخلطة، وإساءة الظن بالآخرين ممن لا يعرفونهم، وهذا من طباع الأعراب فى كل زمان ومكان.

* تشددهم فى الدين، وتنطعهم بلا علم، ولذلك صار غالب الخوارج من هذا الصنف[1].

وخرج من هؤلاء الأعراب رجال عرفوا (بالقراء) وقد اختلف مفهوم (القراء) هذا عن منطوقه، فالمنطوق يقصد به جماعة ممن تخصصوا بقراءة القرآن، إلا أن المفهوم ومن خلال الواقع أنتج دلالات أخرى، فمنهم من كان ـ على طريقة الخوارج ـ يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصة، ومنهم من كان زاهداً لا يفقه حقيقة ما يقرأ ولم يستطع التأقلم مع واقع المجتمع[2]، وهؤلاء القراء الجهلة يسارعون للفتن وذلك لأسباب منها:

* الشدة فى نزعة التدين عندهم مع قلة الفقه فى الدين، مما يورث غيرة على الدين بغير علم ولا بصيرة؛ فتجرفهم الأهواء والعواطف باسم الغيرة على الدين، دون نظر فى العواقب، ولا فقه لقواعد الشرع كدرء المفاسد، وجلب المصالح.

* الاغترار بما يحصله الواحد منهم من الآيات والأحاديث دون فقه ولا بصيرة، فيتوهم أنه صار من أهل العلم، الذين يحلون ويعقدون فى مصالح المسلمين.

* تعاليهم على العلماء والأئمة، وظنهم أنهم وصلوا درجة الاستغناء عنهم وعن

---

(١) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص ١٦١.

(٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.

فقههم وعلمهم، تحت شعار هم رجال ونحن رجال.

* اتخاذهم رؤساء جهالاً من بينهم دون العلماء والأئمة.

* ولأن أهل الأهواء ورؤوس البدع والفتن ـ وغالبهم من الدهاة ـ يفزعون إلى القراء فيغوونهم، ويستدرجونهم، ويستغلون نزعة التدين فيهم، ويستثيرون غيرتهم، بلا بصيرة.

* جهلهم بقواعد الاستدلال وأحكام الفتن(١).

د ـ وفصيل أو قطاع آخر فى نسيج المجتمع الإسلامى وهو ممن سبقت لهم ردة، وكانت حياتهم فى الإسلام قصيرة وانتماؤهم إليه ضرورة، ولا ننفى أن منهم من زكى وصلح وكان من الفضلاء إلا أن منهم من لم يتذوق حلاوة الإسلام فظل ـ رغم انتسابه للإسلام ـ يعيش بعقليته السابقة، ونفسيته التى عاشها قبل الإسلام الفعلية القبلية تناوشه العصبيات وكأن الإسلام لم يدخل فيهم أو أنهم ظنوا عدم التناقض بين ما يعرفونه من إسلام وما يتعاملون به فى الواقع من دوافع قبلية (٢).

لقد شكلت طوائف من المرتدين عنصراً ساهم فى تهيئة أجواء الفتنة، والمرتدون كانوا على عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ولكن الشىء الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضى الله عنه عن الخليفتين قبله، تجاههم فأبو بكر رضى الله عنه يكتب إلى عماله: ألا يستعينوا بمرتد فى جهاد العدو، ويؤكد على خالد بن الوليد، وعياض ابن غنم ألا يغزو معهم أحد قد ارتد حتى يرى رأيه فيهم، فلم تشهد أيامه (٣) مرتداً. ويقول الشعبى: كان أبو بكر رضى الله عنه لا يستعين فى حروبه بأحد من أهل الردة حتى مات(٤)، ولذلك كان بعض من ارتد، وحسن إسلامهم بعد ذلك، يستحيون من مواجهة أبى بكر رضى الله عنه، فطليحة بن خويلد ـ مثلاً ـ يذهب إلى مكة معتمراً،

(١) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص ١٦٣.
(٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.
(٣) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ١٥٥.
(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٧).

وما استطاع مقابلة أبى بكر حتى مات[١]، وفى خلافة عمر رضى الله عنه تخف هذه السياسة، تجاه المرتدين، فيندب أهل الردة ليرمى بهم الشام والعراق[٢]، وقد كان فى مسيرة جيش سعد بن أبى وقاص فى القادسية قيس بن مكشوح المرادى وعمرو بن معد يكرب كان يحمس الناس ويحرك مشاعرهم، وهذا كله كان بعد أذن عمر لأهل الردة فى الغزو[٣]، ولكن هذا التجاوز عن سياسة أبى بكر عند عمر يصحبه نوع من الحذر والحيطة، ولا ينفك عن الضوابط والشروط المقيدة، فأهل الردة لا يولون على مائة، ولهذا اضطر سعد أن يبعث قيس بن المكشوح فى سبعين رجلاً فقط، فى أثر الأعاجم ثاروا بهم فى ليلة الهرير[٤]، ويأتى عثمان رضى الله عنه فيتجاوز سياسة التقييد التى فرضها الخليفتان قبله، تجاه المرتدين ويرتئى أن عامل الزمن - الذى مضى على عهد الردة - كاف لأن يتخلص من كان قد ارتد من رواسبها، ويجتهد عثمان فيستعمل أهل الردة استصلاحًا لهم، فلم يصلحهم ذلك، بل زادهم فسادًا وجعل قائلهم يتمثل قول القائل:

وكنت وعمرًا كالمسمن كلبه ... فتخدشه أنيابه وأظافره[٥]

وكانت من نتائج استعمال عثمان لأهل الردة فى الكوفة أن تبدل أهلها وأصيب قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة فى غزوه للترك، وهو الذى كان يقاتلهم فى عهد عمر فيفرقون منه ويقولون: ما اجترأ علينا هذا الرجل ومعه ملائكة تمنعه من الموت[٦]، وتظهر الآثار بشكل واضح فى الفتنة التى انتهت بقتل عثمان، وذلك حينما نجد من أسماء المتهمين فى دم عثمان رجالاً ينتسبون إلى قبائل كانت فى عداد المرتدين أمثال، سودان بن حمران السكونى وقتيرة بن فلان السكونى، وحكيم بن جبلة العبدى[٧].

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٥٩).

(٢، ٣) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ١٥٦.

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٣٨٢).

(٥) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ١٥٧.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ١٤٦).

(٧) عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة، ص ١٥٧.

هـ ـ اليهود والنصارى، وكان بعضهم ـ وهم كثير ـ قد خرج أو أخرج من جزيرة العرب فاستقروا فى الأمصار الكبيرة، ومنها الكوفة والبصرة، وكان اليهود خاصة ـ حسب طبعهم ـ ظلوا فى تلك الأمصار المطلة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة، السيطرة المالية بوسائلهم المختلفة، والتآمر على قطع اليد التى تمد لهم المساعدة[١]، وسيأتى الحديث عن دور اليهود بإذن الله تعالى.

٢ ـ تكوينات نسيج المجتمع الثقافى:

فإلى جوار هذا الخليط البشرى كان هناك خليط آخر لا يقل خطره ـ إن لم يفق الخليط البشرى ـ ألا وهو الخليط الثقافى، حيث تدفقت الثقافات والأفكار والنظم والعقائد مع تلك الأعداد البشرية التى انضمت إلى محتويات المجتمع الإسلامى، فصارت تشكل حملاً ضخمًا على عاتقه، ومما (زاد الطين بلة)، أنه بالرغم من اندماج المسلمين فى نسيج البلدان المفتوحة، حيث عاشوا فى أوساطهم، وتزوجوا منهم، وتعلموا لغاتهم، ولبسوا ملابسهم، ومارسوا عاداتهم، إلا أنه بالرغم من ذلك فقد كان تأثيرهم فى أهل البلد المفتوح محدودًا فى هذه الفترة المبكرة[٢]، فلم ينل أهالى هذه البلاد المفتوحة حظًا وافرًا من التربية ولم تتشبع بروح الإسلام كما هو حال الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكذلك القبائل العربية التى اختلطت بأهالى البلاد المفتوحة، وإذا كان الإسلام قد تمكن من صهر هذه القبائل المختلفة فى بوتقة لفترة معينة، إلا أنه مما يجب أن يوضع فى الحسبان أن عملية التعليم والتربية التى كانت تقودها القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار لم تكن قادرة على استيعاب هذه الأفواج الكبيرة واحتوائها، فالموالى لم يتخلصوا من كل الأفكار والعادات التى كانوا عليها فى جاهليتهم، ويرجع ذلك إلى عدم التوازن بين حركة التوسع الأفقى فى فتح البلدان وبين التوسع الرأسى فى تعليم الناس وتفقيههم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على أن حركة الجهاد لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا الناس فى دينهم، حتى لا يختل ميزان التربية، وتحدث الخلخلة فى الصف الإسلامى، وتتوسع الفجوة

(١، ٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٨١.

بين الفاتحين وسكان الأراضى المفتوحة، مما يتسبب فى حدوث ظواهر سلبية تؤثر فى تماسك الصف الإسلامى ووحدته السياسية والفكرية[١]، ولم يمكن تفادى هذا الجانب السلبى رغم وجود البذل والحماس فى ميدان التعليم والتربية الإسلامية، حيث كان التوسع فى الأرض سريعًا وواسعًا فقد فتحت العراق وما وراءها وبلاد الشام فى سنوات قليلة معدودة، فلم يكن فى مقدرة الطاقة البشرية فى ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطق وتعليمها[٢]، ومن أسباب ذلك أن الصحابة الذين كان من المفروض أن يقوموا بهذه الأمانة قد قتل معظمهم فى ميادين الجهاد، ولم يبق إلا أفراد قليلون متفرقون تجمع حولهم المسلمون الذين يحبون أن يتعلموا، فظهرت طبقة التابعين، ولأن معظمهم مخلصون فقد كانوا فى مقدمة ميادين الجهاد فقتل أيضًا منهم من قتل[٣]، كما لم يكن الزمن كافيًا لترسيخ التعاليم الإسلامية فى نفوس كثير منهم، مما ساعد مع غيره من العوامل - على وجود خلخلة فكرية وظواهر سلبية دخيلة على النهج الإسلامى، مما كان له الأثر فى عدم استقرار الدولة، وظهر ذلك جليًا فى السنوات الأخيرة من عهد عثمان رضى الله عنه[٤].

٣ - ظهور جيل جديد:

فقد حدث فى المجتمع تغير أكبر، ذلك أن جيلاً جديدًا من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه فى المجتمع، وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش فى عصر غير العصر الذى كانوا يعيشون فيه، ويتصف بما لا يتصفون به، فهو جيل[٥]، يعتبر فى مجموعه أقل من الجيل الأول الذى حمل على كتفه عبء بناء الدولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأول من المسلمين بقوة الإيمان والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية، والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل فى القرآن والسنة، وكانت هذه الميزات أقل ظهورًا فى الجيل الجديد الذى وجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع

(١، ٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٨).

(٣) اليمن فى صدر الإسلام للشجاع، ص ٣٣٤.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٩).

(٥) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ١٣٢.

الفردية، وبعثت فيه العصبية للأجناس والأقوام وبعضهم وهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهلية التى كانوا عليها. ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرعيل الأول من الصحابة رضى الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة(١)، فالصحابة كانوا أقل فتنًا من سائر من بعدهم، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف(٢).

كان الجيل الجديد لا يرضى بالواقع الذى كان يتسم به جيل الذين سبقوه، فقد اعتاد على غير ما اعتادوا عليه، فتكونت عقلية جديدة ومفهوم جديد للحياة، وهو مفهوم قد ابتعد عن العقلية التى كانت سائدة فى عصر الراشدين الأولين، فأضبح لا يفهم تلك العقلية، ولا يستطيع تشربها، ولا يسعه أن يذعن لحكمها(٣)، ولذلك انضم المنحرفون من الجيل الجديد لدعاة الفتنة.

٤ ـ استعداد المجتمع لقبول الشائعات:

وهكذا ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس فى نسيج المجتمع أنه صار مهيئًا للهزات، مستعدًا للاضطراب، قابلاً لتلقى الإذاعات والأقاويل والشائعات(٤)، وهذا ما يعبر عنه بوضوح ابن تيمية قائلاً: ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر اللذين أُمِرَ المسلمون بالاقتداء بهما كما قال رسول الله ﷺ: اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر... أقرب عهدًا بالرسالة وأعظم إيمانًا وصلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت فى الطمأنينة لم تقع فتنة إذ كانوا فى حكم القسط (أى النفوس المطمئنة)، ولما كان فى آخر خلافة عثمان وخلافة على كثر القسم الثالث (أهل النفس اللوامة التى تخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا) فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك فى بعض الولاة، وبعض الرعايا، ثم كثر (هذا القسم الذى

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٦).
(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله، ص ٩٩.
(٣) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ١٣٣.
(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الزاشدة، ص ٣٨٢.

خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا) بعد فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية فى الطرفين، وكل منهم متأول، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى[١]، ويوضح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأحد أتباعه، قال الرجل: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر؟ قال على: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى، وأنا اليوم وال على مثلك[٢]، وكان أمير المؤمنين عثمان ابن عفان مدركًا لما يدور فى وسط المجتمع حيث قال فى رسالته إلى الأمراء: أما بعد، فإن الرعية قد طعنت فى الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مُسْرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر فَتُغَيِّر[٣].

ثالثًا: مجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما:

كان مجىء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه واختلاف الطبع بينهما مؤديًا إلى تغير أسلوبهما فى معاملة الرعية، فبينما كان عمر قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا وأرق فى المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر حتى يقول عثمان نفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر رضى الله عنه يطيق[٤]، لكن الناس وإن رغبوا فى الشوط الأول من خلافته؛ لأنه لان معهم وكان عمر رضى الله عنه شديداً عليهم حتى أصبحت محبته مضرب المثل.

فقد أنكروا عليه بعد ذلك ويرجع هذا إلى نشأة عثمان فى لطفه ولين عريكته ورقة طبعه ودماثة خلقه، مما كان له بعض الأثر فى مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤٨/٢٨، ١٤٩).

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٩.

(٣) التمهيد والبيان، ص ٦٤.

(٤) تاريخ الطبرى (٤١٨/٥).

وعهد سلفه عمر بن الخطاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرأكم على؟ ما جرأكم على إلا حلمى[(١)].

وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجة فى رده على المآخذ التى أخذوها عليه أمام الملأ من الصحابة والناس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه ووداعته قائلاً: بل نعفو ونقبل، ولنبصرهم بجهدها، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً[(٢)].

رابعًا: خروج كبار الصحابة من المدينة:

كان عمر رضى الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه فبلغه، فقام فقال: ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعًا، ثم ثنيًا، ثم رباعيًا، ثم سدسيًا، ثم بازلاً[(٣)]، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا، إنى قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلاقيم[(٤)] قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار[(٥)]، لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصحابة من انتشارهم فى البلاد المفتوحة وتوسعهم فى القطاع والضياع، فكان يأتيه الرجل من المهاجرين وهو ممن حبس فى المدينة فيستأذنه فى الخروج فيجيبه عمر: لقد كان لك فى غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك[(٦)]، وأما عثمان فقد سمح لهم بالخروج ولان معهم.

يقول الشعبى: فلما ولى عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس، فكان أحب إليهم من عمر[(٧)]، فكان من نتائج هذا التوسع أن اتخذ رجال من

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٤).

(٣) البازل: الذى انشق نابه بدخوله فى التاسعة، ٤١٣.

(٤) الحلاقيم: جمع حلقوم.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٣).

(٦، ٧) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٤).

قريش أموالاً فى الأمصار، وانقطع إليهم الناس[1]، وفى رواية: فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم عمر فانساحوا فى البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام، فكان مغموماً (مغموراً) فى الناس، وصاروا أوزاعًا إليهم وأملوهم، وتقدموا فى ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا فى التقريب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن دخل فى الإسلام، وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك[2].

خامسًا: العصبية الجاهلية:

يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك، ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار وقريشًا وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا فى تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم فى الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحى وتنزل الملائكة، فلما انحصر ذلك العباب، وتنوسى الحال بعض الشىء وذل العدو واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرياسة عليهم من المهاجرين والأنصار وقريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك أيام عثمان فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتجنى بسؤال الاستبداد منهم والعزل، ويفيضون فى النكير على عثمان، وفشت المقالة فى ذلك فى أتباعهم، وتناولوا بالظلم فى جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا وأفاضوا فى عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر.. فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئًا ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم[3]

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٤).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٧).

سادسًا: توقف الفتوحات:

حين توقفت الفتوح فى أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء فى جهات فارس وشمالى بلاد الشام أم فى جهة إفريقية، توقفت الغنائم على إثرها، فتساءل الأعراب، أينَ ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضى المفتوحة التى يعدونها حقًا من حقوقهم[1]، وانتشرت الشائعات الباطلة التى اتهمت عثمان رضى الله عنه بأنه تصرف فى الأراضى الموقوفة على المسلمين وفق هواه وأنه أقطع منها لمن شاء من الناس، وقد كان لها أثر ووقع على الأعراب، خاصة وأن معظمهم بقى بدون عمل يقضون شطرًا من وقتهم فى الطعام والنوم، والشطر الآخر بالخوض فى سياسة الدولة والحديث عن تصرفات عثمان التى كانت تهولها السيئة، وقد أدرك أحد عمال عثمان هذا الأمر وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا فى آرائهم ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ويجمهرهم فى المغازى حتى لا يتعدى هم أحدهم قمل فروة رأسه ودبرة دابته[2]، وفى ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعودوا الغزو ولم يفقهوا من الدين شيئًا كثيرًا يمكن أن يتوقع كل سوء، ويكفى أن يحرك هؤلاء الأعراب وأن يوجهوا توجيهًا، فإذا هم يثورون ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإن الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا فى بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سببًا من أسباب اندلاعها[3].

سابعًا: المفهوم الخاطئ للورع:

الورع فى الشريعة طيب؛ وهو أن يترك ما لا بأس به مخافة مما فيه بأس، وهو فى الأصل ترفع عن المباحات فى الله ولله، والورع شىء شخصى يصح للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع:

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٤٤).
(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٣٤٠).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة، ص ٣٥٣.

الورع الجاهل الذى يجعل المباح حرامًا أو مفروضًا، وهذا الذى وقع فيه أصحاب الفتنة [١]، فقد استغل أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات أو المصالح، خروجًا على الإسلام وتغييراً لسنة من سبقه، وعظمت هذه المسائل فى أعين الجهلة فاستباحوا ـ أو أعانوا من استباح ـ دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم، وهذا الورع الجاهل نلاحظه اليوم فى تصرفات بعض المسلمين الذين يصرون على تكييف أحكام الإسلام وفق ما يشتهون أو يكرهون، أو وفق عاداتهم وتقاليدهم

ثامنًا: طموح الطامحين:

وجد فى الجيل الثانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أن الطريق أمامهم مغلق، وفى العادة أنه متى وجد الطامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفسًا، فإنهم يدخلون فى كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء غاية الأهمية [٣].

تاسعًا: تآمر الحاقدين:

لقد دخل فى الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدهاء ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضعف التى يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان [٤]، فقد عرفنا سابقًا وجود يهود ونصارى وفرس وهؤلاء جميعًا معروف باعث غيظهم وحقدهم على الإسلام والدولة الإسلامية. . ولكننا هنا نضيف من وقع عليه حد أو تعزير لأمر ارتكبه فى وسط الدولة، وعاقبه الخليفة أو ولاته فى بعض الأمصار وبالذات البصرة والكوفة ومصر والمدينة، فاستغل أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدين

---

(١) الأساس فى السنة (٤/ ١٦٧٦).

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٥١٧ .

(٣، ٤) الأساس فى السنة (٤/ ١٦٧٦).

على حقيقته، فتكونت لهؤلاء جميعًا طائفة وصفت من جميع من قابلهم بأنهم أصحاب شر، فقد وصفوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، وأهل المياه وعبيد المدينة[١]، وبأنهم ذؤبان العرب[٢]، وأنهم حثالة الناس ومتفقون على الشر[٣]، وسفهاء عديمو الفقه[٤]، وأراذل من أوباش القبائل[٥]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[٦]، وأنهم آلة الشيطان[٧]، وقد تردد فى المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصنعانى اليهودى ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود ثم أسلم، ولم ينقب أحد عن نواياه فتنقل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين[٨]، وسيأتى الحديث عنه فى مبحث مستقل بإذن الله.

عاشراً: التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه:

كان المجتمع مهيئًا لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيأة، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقى الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن فى الأمراء بحجة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى استمالوا الناس إلى صفوفهم، ووصل الطعن إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه نفسه باعتباره قائد الدولة، وإذا ما حصرنا الدعاوى التى روجت ضد الخليفة وطعنوه بها فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

١ ـ مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات والمواقع).

٢ ـ سياسته المالية: الأعطيات، الحمى.

(١، ٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢

(٣) الطبقات (٣/ ٧١) هذا وصف ابن سعد.

(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٢

(٥) شذرات الذهب (١/ ٤٠) هذا وصف ابن العماد.

(٦) شرح صحيح مسلم (١٥/١٤٨، ١٤٩).

(٧) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٧).

(٨) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة.

٣ ـ سياسته الإدارية النافذة: تولية أقربائه، طريقته في التولية.

٤ ـ اجتهادات خاصة به أو بمصلحة الأمة (إتمام الصلاة بمنى، جمع القرآن، الزيادة في المسجد).

٥ ـ معاملته لبعض الصحابة: عمار، أبي ذر، ابن مسعود[١].

وقد بينت موقف عثمان في كل ما وجه إليه في موضعه ولم يبق إلا عمار رضى الله عنه وسيأتي الحديث عنه بإذن الله. وقد حدث تزيد في إبراز المطاعن على عثمان رضى الله عنه سواء في عهده وما واجهوه بها ورده عليها في حينه، أو ما تقول عليه فيما بعد عند الرواة والكتاب فإنها لم تصح ولم تصل إلى حد أن تكون سببًا في قتله [٢].

إن المآخذ السابق ذكرها والمدونة في تاريخ الطبري وغيره من كتب التاريخ والمروية عن طريق المجاهيل والإخباريين الضعفاء، خاصة الرافضة، كانت وما تزال بلية عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك الحظ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على المنهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيرة من تحريف المنحرفين وتشويه الغالين بغية التأليب عليه أو التشهير به، وقد أدرك عثمان رضى الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أما بعد، فإن الرعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشر أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرعة، وضغائن محمولة[٣]، وقال ابن العربي عن تلك المآخذ جملة: قالوا متعدين متعلقين برواية كذابين، جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير.. هذا كله باطل سندًا ومتنًا[٤].

وقد بين ابن تيمية بأن عثمان رضى الله عنه ليس معصومًا، فقال: والقاعدة الكلية

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٩٤.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٠٠.

(٣) التمهيد والبيان، ص ٦٤.

(٤) العواصم من القواصم، ص ٦١ ـ ٦٣.

فى هذا أن لا نعتقد أن أحدًا معصوم بعد النبى ﷺ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ، والذنوب التى تقع منهم قد يتوبون منها، وقد تكفر عنهم بحسناتهم الكثيرة، وقد يبتلون أيضًا بمصائب يكفر الله بها، وقد يكفر عنهم بغير ذلك، فكل ما ينقل عن عثمان غايته أن يكون ذنبًا أو خطأ، وعثمان رضى الله عنه قد حصلت له أسباب المغفرة من وجوه كثيرة منها سابقته وإيمانه وجهاده وغير ذلك من طاعته، وقد ثبت أن النبى ﷺ شهد له، بل بشره بالجنة على بلوى تصيبه[1]، ومنها أنه تاب من عامة ما أنكروه عليه، وأنه ابتلى ببلاء عظيم فكفر الله به خطاياه، وصبر حتى قتل شهيدًا مظلومًا وهذا من أعظم ما يكفر الله به الخطايا[2].

الحادى عشر: استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس:

وأهم هذه الأساليب، إشاعة الأراجيف حيث ترددت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيرًا، والتحريض، والمناظرة والمجادلة للخليفة أمام الناس، والطعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب واختلاقها على لسان الصحابة رضى الله عنهم، عائشة وعلى وطلحة والزبير، والإشاعة بأن على بن أبى طالب رضى الله عنه الأحق بالخلافة، وأنه الوصى بعد رسول الله ، وتنظيم فرق فى كل من البصرة والكوفة ومصر أربع فرق من كل مصر مما يدل على التدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاءوا إلا بدعوة الصحابة، وصعدوا الأحداث حتى وصل إلى القتل[3]، وإلى جوار هذه الوسائل.. استخدموا مجموعة من الشعارات منها، التكبير، ومنها أن جهادهم هذا ضد المظالم، ومنها أنهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنها المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثم تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا فى جرأتهم وطالبوا بل سارعوا إلى قتل الخليفة وخاصة حينما وصلهم الخبر بأن أهل

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٤/١٨٦٧، ١٨٦٩).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، ص ٦٣.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٠١، كتاب الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ للتاريخ الإسلامى، رد على حسن بن فرحان المالكى، للدكتور/ سليمان بن حمد العودة، وقد ذكر فى رده الطرق التى عرضت على الألبانى ـ رحمه الله ـ وحكم عليها.

الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم. حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والتشوق إلى قتله بأى وسيلة [١]!

الثانى عشر: أثر السبئية فى أحداث الفتنة:

١ ـ السبئية حقيقة أم خيال:

أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء ـ عبد الله بن سبأ ـ، وخالف فى ذلك قلة من المعاصرين أكثرهم من الشيعة، وحجة من أنكره أنه من إبداع مخيلة سيف بن عمر التميمى، وذلك لانتقاد بعض علماء الرجال له فى مجال رواية الحديث إلا أن العلماء يعدونه حجة فى الأخبار علمًا بأنه وردت روايات كثيرة عند ابن عساكر تذكر عبد الله بن سبأ وليس (سيف بن عمر) من الرواة، وقد حكم الشيخ الألبانى على بعضها بأنها صحيحة من حيث السند، هذا غير الروايات الكثيرة عن ابن سبأ فى كتب الشيعة سواء فى كتب الفرق أو الرجال أو الحديث عندهم وليس فيها عمر هذا لا من قريب ولا من بعيد.

وقد شكك بعض الباحثين فى عبد الله بن سبأ [٢]، وقالوا بأنه شخصية وهمية، وأنكروا وجوده، بدون حجة أو برهان، وأضاف الذين أنكروا شخصية ابن سبأ هم طائفة من المستشرقين، وفئة من الباحثين العرب، وغالبية الشيعة المعاصرين، ومن العجيب أن هؤلاء المستشرقين وذيولهم من الرافضة والمستغربين فى عصرنا أنكروا شخصية عبد الله بن سبأ، وأنه شخصية وهمية لم يكن لها وجود، فأين بلغ هؤلاء من قلة الحياء والجهل، وقد ملأت ترجمته كتب التاريخ والفرق، وتناقلت أفعاله الرواة وطبقت أخباره الآفاق، لقد اتفق المؤرخون والمحدثون وأصحاب كتب الفرق والملل والنحل والطبقات والأدب والأنساب الذين تعرضوا للسبئية على وجود شخصية

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٢) عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، يهودى من صنعاء، أظهر إسلامه فى زمن عثمان بن عفان، ظهر له نشاط ملحوظ فى الشام والعراق ومصر خاصة، يرسم خططًا ويدلى بآراء هدامة ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة خليفتهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٨٤).

عبد الله بن سبأ الذى ظهر فى كتب أهل السنة، كما ظهر فى كتب الشيعة شخصية تاريخية حقيقية، ولهذا فإن أخبار الفتنة ودور ابن سبأ فيها لم تكن قصراً على تاريخ الإمام الطبرى.

واستناداً إلى روايات سيف بن عمر التميمى فيه، وإنما هى أخبار منتشرة فى روايات المتقدمين، وفى ثنايا الكتب التى رصدت أحداث التاريخ الإسلامى، وآراء الفرق والنحل فى تلك الفترة، إلا أن ميزة تاريخ الإمام الطبرى على غيره أنه أغزرها مادة وأكثرها تفصيلاً لا أكثر، ولهذا فإن التشكيك فى هذه الأحداث بلا سند وبلا دليل إنما يعنى الهدم لكل تلك الأخبار، والتسفيه بأولئك المخبرين والعلماء، وتزييف الحقائق التاريخية، فمتى كانت المنهجية ضربًا من ضروب الاستنتاج العقلى المحض فى مقابل النصوص والروايات المتضافرة؟ وهل تكون المنهجية فى الضرب صفحًا والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدمة والمتأخرة التى أثبتت لابن سبأ شخصية واقعية[١]؟ وقد جاء ذكر ابن سبأ فى كتب أهل السنة كثيرًا منها:

- جاء ذكر السبئية على لسان أعشى همدان[٢]، المتوفى عام ٨٣هـ وقد هجا المختار ابن أبى عبيد الثقفى وأنصاره من أهل الكوفة بعدما فرَّ مع أشراف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله:

شهــدت عليكم أنكم سبئيـة ... وأنى بكم يا شرطة الكفر عارف[٣]

وهناك رواية عن الشعبى المتوفى عام ١٠٣هـ (٧٢١م) تفيد أن أول من كذب عبد الله بن سبأ[٤]، وتحدث ابن حبيب[٥] المتوفى عام ٢٤٥هـ (٨٦٠م) عن ابن سبأ

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٧٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمدانى: المعروف بأعشى همدان: شاعر فارسى أحد الفقهاء القراء، لكنه قال الشعر وعرف به، قال الذهبى: شاعر مفوه شهير، كان متعبدًا فاضلاً قتل عام ٨٣ هـ.

(٣) ديوان أعشى همدان، ص ١٤٨.

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٩/ ٣٣١).

(٥) محمد بن حبيب بن أمية الهاشمى عالم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر توفى عام ٢٤٥ هـ، تاريخ بغداد (٢/ ٢٧٧).

حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيات[١] كما روى أبو عاصم خشيش بن أصرم المتوفى سنة ٢٥٣ هـ خبر إحراق على رضى الله عنه لجماعة من أصحاب ابن سبأ فى كتابه الاستقامة[٢]، ويعتبر الجاحظ[٣] المتوفى سنة ٢٥٥هـ من أوائل من أشار إلى عبد الله بن سبأ[٤]، ولكن روايته ليست أقدم رواية عن ابن سبأ كما يرى الدكتور جواد على[٥].

وخبر إحراق على بن أبى طالب رضى الله عنه لطائفة من الزنادقة تكشف عنه الروايات الصحيحة فى كتب الصحاح والسنن والمسانيد[٦]، ولفظ الزندقة ليس غريبًا عن عبد الله بن سبأ وطائفته، يقول ابن تيمية: إن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ[٧]، ويقول الذهبى: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل[٨]. ويقول ابن حجر: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة... وله أتباع يقال لهم السبئية معتقدون الإلهية فى على بن أبى طالب، وقد أحرقهم على بالنار فى خلافته[٩]، ويوجد لابن سبأ ذكر فى كتب الجرح والتعديل، يقول ابن حبان المتوفى ٣٥٤هـ وكان الكلبى ـ محمد بن السائب الإخبارى ـ سبئيًا، من أصحاب عبد الله بن سبأ، من أولئك الذين يقولون: إن عليًا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة... وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها[١٠]...، كما أن كتب الأنساب هى الأخرى تؤكد نسبة (السبئية) إلى عبد الله بن سبأ، ومنها على سبيل المثال كتاب

---

(١) المحبر، لابن حبيب، ص ٣٠٨، عبد الله بن سبأ، العودة (ص٥٣).

(٢) هو خشيش بن أصرم بن الأسود النسائى، ترجم له الذهبى، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٥١)، وشذرات الذهب (٢/ ١٢٩).

(٣) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنابى، من أئمة الأدب والعلم توفى عام ٢٥٥ هـ. وفيات الأعيان (٣/ ٤٧٠).

(٤) البيان والتبيين (٣/ ٨١).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٢٩٠)، عبد الله بن سبأ، للعودة ص ٥٣.

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٢٩٠).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٣).

(٨) ميزان الاعتدال للذهبى (٢/ ٤٢٦).

(٩) لسان الميزان (٣/ ٢٩٠، ٣٨٩).

(١٠) المجروحين (٢/ ٢٥٣).

(الأنساب للسمعانى)[١] المتوفى عام ٥٦٢هـ[٢]، وعرف ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١هـ ابن سبأ بقوله: عبد الله بن سبأ الذى تنسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من اليمن، كان يهوديًا وأظهر الإسلام[٣]، ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله بن سبأ، إذ أورد ابن عساكر فى تاريخه روايات لم يكن سيف فيها، وهى تثبت ابن سبأ وتؤكد أخباره[٤]، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ أن أصل الرفض من المنافقين الزنادقة، فإنه ابتداع ابن سبأ الزنديق، وأظهر الغلو فى على يدعو الإمامة والنص عليه، وادعى العصمة له[٥]، ويشير الشاطبى[٦]، المتوفى عام ٧٩٠هـ إلى أن بدعة السبئية من البدع الاعتقادية المتعلقة بوجود إله مع الله ـ تعالى الله ـ وهى بدعة تختلف عن غيرها من المقالات[٧]، وفى خطط المقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ، أن عبد الله بن سبأ قام فى زمن على محدثًا القول بالوصية والرجعة والتناسخ[٨].

وأما المصادر الشيعية التى ذكرت ابن سبأ: فقد روى الكشى عن محمد بن قولوية قال: حدثنى سعد بن عبد الله، قال: حدثنى يعقوب بن يزيد، ومحمد بن عيمن، عن على بن مهزيار، عن فضالة بن أيوب الأزدى عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادعى الربوبية فى أمير المؤمنين، وكان والله أمير المؤمنين عبداً طائعًا، الويل لمن كذب علينا، وإن قومًا يقولون فينا ما لا نقول فى أنفسنا نبرأ إلى الله منهم[٩] والرواية من حيث السند صحيحة[١٠].

(١) عبد الكريم بن محمد السمعانى توفى عام ٥٦٢هـ، وتذكرة الحفاظ (٤/١٣١٦).
(٢) الأنساب (٧/ ٢٤).
(٣) تاريخ دمشق (٩/٣٢٨، ٣٢٩).
(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٢٩٨).
(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٥).
(٦) إبراهيم بن موسى، محمد الغرناطى توفى عام ٧٩٠ هـ.
(٧) الاعتصام (٢/ ١٩٧).
(٨) المواعظ والاعتبار (٢/ ٢٥٦ ـ ٣٥٧).
(٩) رجال الكشى (١/ ٣٢٤).
(١٠) عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهول، لمحمد على المعلم (ص ٣٠).

وفى كتاب (الخصال) أورد القمى الخبر نفسه، ولكن موصولا بسند آخر، وأما صاحب روضات الجنات فقد ذكر ابن سبأ عنده على لسان الصادق المصدوق الذى لعن ابن سبأ لاتهامه بالكذب والتزوير وإذاعة الأسرار والتأويل[١]. وقد ذكر الدكتور سليمان العودة فى كتابه مجموعة من النصوص التى تزخر بها كتب الشيعة ومروياتهم عن عبد الله بن سبأ، فهى أشبه ما تكون بوثائق مسجلة تدين من حاول إنكار ابن سبأ أو التشكيك فيه من متأخرى الشيعة بحجة قلة أو ضعف المصادر التى حكت أخباره[٢].

إن شخصية ابن سبأ حقيقة تاريخية لا لبس فيها فى المصادر السنية والشيعية المتقدمة والمتأخرة على السواء، وهى كذلك أيضًا عند غالبية المستشرقين أمثال: يوليوس فلهاوزن[٣]، وفان فولتن[٤]، وليفى ديلافيدا[٥]، وجولد تسهير[٦]، ورينولد نكلسن[٧]، ودوايت رونلدسن[٨]... على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال؛ كيتانى وبرنارد لويس[٩] وفريد لندر المتأرجح[١٠] علمًا بأننا لا نعتد بهم فى أحداث تاريخنا.

ومن استقرأ المصادر، سواء القديمة والمتأخرة، عند السنة والشيعة، يتأكد له بأن وجود ابن سبأ كان وجودًا حقيقيًا تؤكده الروايات التاريخية، وتفيض فيه كتب العقائد، وذكرته كتب الحديث، والرجال، والأنساب، والأدب، واللغة، وسار على هذا النهج كثير من المحققين والباحثين المحدثين، ويبدو أن أول من شكك فى وجود

(١، ٢) عبد الله بن سبأ، العودة ص (٦٢).
(٣) الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاوزن، ص ١٧٠.
(٤) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص ٨٠، فان فولتن.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣١٢).
(٦) العقيدة والشريعة الإسلامية، جولد تسهير، ص ٢٢٩.
(٧) تاريخ العرب الأدبى فى الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٢٣٥.
(٨) عقيدة الشيعة، ص ٥٨.
(٩) أصول الإسماعيلية، ص ٨٦.
(١٠) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣١٢).

ابن سبأ بعض المستشرقين، ثم دعم هذا الطرح الغالبية من الشيعة المحدثين، بل وأنكر بعضهم وجوده البتة، وبرز من الباحثين العرب المعاصرين من أعجب بآراء المستشرقين، ومن تأثر بكتابات الشيعة المحدثين ولكن هؤلاء جميعًا ليس لهم ما يدعمون به شكهم وإنكارهم إلا الشك ذاته والاستناد إلى مجرد الظنون والفرضيات[١]، ومن أراد التوسع فى معرفة المراجع والمصادر السنية والاستشراقية والشيعية التى ذكرت ابن سبأ فليراجع، تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة للدكتور محمد أمحزون، وعبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام، للدكتور سليمان بن حمد العودة.

٢ ـ دور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة:

فى السنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضى الله عنه بدت فى الأفق سمات الاضطراب فى المجتمع الإسلامى نتيجة عوامل التغيير التى ذكرناها، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة ومتظاهرين بالإسلام واستعمال التقية ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين فى تضخيم دوره فى الفتنة[٢] فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه أو الاستهانة بالدور الذى لعبه فى أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنه أبرزها وأخطرها، إذ إن هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادعاها واخترعها من قبل نفسه وافتعلها من يهوديته الحاقدة وجعل يروجها لغاية ينشدها وغرض يستهدفه؛ وهو الدس فى المجتمع الإسلامى بغية النيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التى أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وتفرق الأمة شيعًا وأحزابًا[٣]، وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدمات صادقة وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السذج والغلاة وأصحاب

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣١٢).

(٢) مثال سعيد الأفغانى فى كتابه (عائشة والسياسة).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٢٧).

الأهواء من الناس، وقد سلك فى ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفاسد حيث قال: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدًا يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[١]، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصية لعلى رضى الله عنه بقوله: إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان على وصى محمد ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء[٢]، وحينما استقر الأمر فى نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان رضى الله عنه فصادف ذلك هوى فى نفوس بعض القوم حيث قال لهم: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصى رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة: ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر[٣]، وبث دعاته، وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل مصر: إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: إنا لفى عافية مما فيه الناس[٤].

ويظهر من هذا النص الأسلوب الذى تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع فى أعين الناس بين اثنين من الصحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحق وهو على، وجعل

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٧).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٤٨).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).

الثانى مغتصبًا وهو عثمان ثم حاول بعد ذلك أن يحرك الناس ـ خاصة فى الكوفة ـ على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علمًا بأنه ركز فى حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، فالقراء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيج أنفسهم بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان: مثل تحيزه لأقاربه وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التهم والمطاعن التى حرك بها نفوس الغوغاء ضد عثمان رضى الله عنه، ثم إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مفجعة عن مصرهم إلى بقية الأمصار وهكذا يتخيل الناس فى جميع الأمصار أن الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه والمستفيد من هذه الحال هم السبئية؛ لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم فى إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامى [١]، هذا وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئًا ما يحاك فى الأمصار وأن الأمة تمخض بشر فقال: والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها [٢].

على أن المكان الذى رتع فيه ابن سبأ هو فى مصر، وهناك أخذ ينظم حملته ضد عثمان رضى الله عنه، ويحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ووثب على وصى رسول الله ﷺ يقصد عليًا [٣]، وقد غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعًا، حيث تبرءوا مما نسب إليهم من رسائل تؤلب الناس على عثمان [٤]، ووجدوا عثمان مقدرًا للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، ورد عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك الأشتر النخعى: لعله مكر به وبكم [٥]، ويعتبر الذهبى أن عبد الله

(١) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ٦٨. وتحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).
(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠). وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٦٥).
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣١).

ابن سبأ المهيج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشقاق والنقمة على الولاة ثم على الإمام - عثمان - فيها[١]، ولم يكن ابن سبأ وحده، وإنما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين وأخطبوطًا من أساليب الخداع والاحتيال والمكر وتجنيد الأعراب والقراء وغيرهم، ويروى ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر وإذاعته بين الناس كلامًا اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[٢].

إن المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخلفها يتفقون على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئية ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكونت به الطائفة السبئية المعروفة التى كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه والذى يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيمًا، إذ كانت بارعة فى توجيه دعايتها ونشر أفكارها لامتلاكها ناصية الدعاية، والتأثير بين الغوغاء والرعاع من الناس، كما كانت نشيطة فى تكوين فروع لها سواء فى البصرة أم الكوفة أم مصر، مستغلة العصبية القبلية، ومتمكنة من إثارة مكامن التذمر عند الأعراب والعبيد والموالى، عارفة بالمواضع الحساسة فى حياتهم وبما يريدون[٣].

* * *

(١) المصدر نفسه (١/٣٣٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٦٧، ١٦٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة، ص ٣٣٩.

الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

المبحث الأول

اشتعال الفتنة

نجح الموتورون الحاقدون الكاذبون فى إزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة، وعين عثمان رضى الله عنه سعيد بن العاص واليًا جديدًا على الكوفة، وعندما وصل سعيد إلى ولايته صعد المنبر، وبعدما حمد الله وأثنى عليه، قال: والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره، ولكنى عندما أمرنى عثمان، لم أجد بدًا من التنفيذ، ألا وإن الفتنة قد أطلعت رأسها فيكم، ووالله لأضربن وجهها، حتى أقمعها، أو تغلبنى وإنى رائد نفسى اليوم[١]، واطلع سعيد على أحوال الكوفة، وعرف توجهات الناس فيها، وأدرك تعمق الفتن فيها، وضلوع مجموعة من الخوارج والموتورين والحاقدين وأعداء الإسلام فى التآمر والكيد والفتنة وسيطرة الرعاع والغوغاء والأعراب على الرأى فيها[٢]، وكتب سعيد رسالة إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردية فى الكوفة، ومما قال فيها: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وقد غُلِبَ فيها أهل الشرف، والسابقة، والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، وأعراب لحت حتى ما ينظر فيها إلى ذى شرف وبلاء... ! فرد عليه عثمان رضى الله عنه برسالة، طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها، وتصنيفهم على أساس السبق والجهاد، وتقديم أهل العلم والصدق والجهاد على غيرهم، ومما قال له فيها: فضل أهل السابقة

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٨٠).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٢.

والقدمة، ممن فتح الله على أيديهم تلك البلاد واجعل الذين نزلوا البلاد بعد فتحها من الأعراب تبعًا لأولئك السابقين المجاهدين، إلا أن يكون السابقون تثاقلوا عن الجهاد والحق، وتركوا القيام به، وقام به من بعدهم! واحفظ لكل إنسان منهم منزلته، وأعطهم جميعًا قسطهم بالحق، فإن المعرفة بالناس يتحقق بها العدل بينهم[١] ، وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان رضى الله عنه وأخبر الخليفة بما فعل، وجمع عثمان أهل الحل والعقد فى المدينة، وأبلغهم بأوضاع الكوفة، ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها فقالوا: أصبت بما فعلت، ولا تسعف أهل الفتنة بشىء، ولا تقدمهم على الناس، ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا تولى الأمور من ليس أهلاً لها، لم يقم بها بل يفسدها. فقال عثمان لهم: يا أهل المدينة، إن الناس قد تحركوا للفتنة، فاستعدوا لمواجهتها، واستمسكوا بالحق، وسوف أخبركم بأخبارها وأنقلها لكم أولاً بأول[٢].

أولاً: تأذى أصحاب الأهواء من الإصلاح:

تأذى الرعاع وأجلاف الأعراب من تقديم أصحاب السابقة والجهاد والبلاء والعلم والتقوى فى المجالس والرئاسة والاستشارة، وصاروا يعيبون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم واستشارتهم دونهم ويعتبرونه تمييزًا، وجفوة وإقصاء لهم، واستغل الحاقدون الموتورون هذا الأمر فى نفوسهم، وغرسوا فيهم كره الخليفة والدولة ورفض أعمال الوالى سعيد بن العاص، ونشر الإشاعات ضده بين الناس، ورفض عامة الناس فى الكوفة كلام الموتورين الخارجين، فسكت هؤلاء الحاقدون، وصاروا يخفون شبهاتهم ولا يظهرونها، لرفض معظم المسلمين لها ولكنهم كانوا يسرون بها إلى من يؤيدهم من الأعراب أو الغوغاء أو المعاقبين المغررين[٣]، وكان أعداء الإسلام الموتورون من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضد الخليفة والولاة، ويستثمرون الأخطاء التى تصدر عن بعضهم فى تهييج

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٨٠).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٨١).
(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٤.

العامة ضدهم، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات، وهم يهدفون من ذلك إلى نشر الفوضى وتعميق الفرقة بين المسلمين، وذلك لتغذية غيظهم وحقدهم على الإسلام الذى قضى على أديانهم الباطلة وهدم نظام الحكم الإسلامى، الذى حطم دولهم، وقضى على جيوشهم، وجند هؤلاء الأعداء لتحقيق أهدافهم الموتورين من الرعاع والسذج والبلهاء، والتف حولهم الحاقدون ممن أدبهم أو حدهم أو عزرهم الخليفة أو أحد ولاته ونظم هؤلاء الأعداء (جمعية سرية) خبيثة، جعلوا أعضاءها هؤلاء الذين استجابوا لهم، وجعلوا لهم أتباعًا فى المدن الكبيرة؟ والأقاليم العديدة، وكونوا شبكة اتصالات سرية بينهم[1]، وكانت أهم فروع جمعيتهم الخبيثة فى: الكوفة، والبصرة، ومصر ولهم بعض العناصر فى المدينة المنورة، والشام[2].

ثانيًا: عبد الله بن سبأ اليهودى على رأس العصابة:

أوصى ابن سبأ أتباعه المجرمين فى جمعيته السرية الخبيثة، المنتشرين فى بلاد المسلمين، فقال لهم: انهضوا فى هذا الأمر، فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم وولاتكم الذين يعينهم الخليفة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لتستميلوا الناس إليكم، وادعوهم إلى هذا الأمر[3]، وبثّ عبد الله بن سبأ دعاته فى الأمصار، وكاتب أتباعه الذين أفسدهم فى الأمصار وضمهم إليه، وكاتبوه، وتحرك أتباعه فى البلدان بدعوتهم، ودعوا مؤيديهم فى السر إلى ما هم عليه من الخروج على الولاة والخليفة والعمل على عزل عثمان عن الخلافة، وكانوا فى الظاهر يظهرون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ليؤثروا فى الناس، ويستميلوهم ويخدعوهم، وصار أتباع ابن سبأ يؤلفون الأكاذيب، والافتراءات عن عيوب أمرائهم وولاتهم، وينشرونها فى كتب يرسلها بعضهم إلى بعض فى الأمصار، وصار أهل كل مصر منهم يكتبون كتبًا بهذه الأكاذيب إلى أهل مصر آخرين، فيقرأ أهل كل مصر تلك الكتب المزورة على الناس عندهم فيسمع الناس عندهم عن عيوب وأخطاء الوالى فى ذلك البلد،

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

فيقولون: إنا لفى عافية مما ابتلى به المسلمون فى ذلك البلد ويصدقون ما يسمعون! وبذلك أفسد السبئيون فى الأرض، وأفسدوا المسلمين، ومزقوا كلمتهم، وزعزعوا أخوتهم ووحدتهم، وهيجوا الناس على الولاة والأمراء ونشروا الافتراءات ضد الخليفة عثمان نفسه، وكانوا بهذه الجرائم المنظمة والمدروسة بمهارة، يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يعلنون، ويهدفون إلى عزل عثمان والقضاء على دولة الإسلام[1].

توجه ابن سبأ إلى الشام ليفسد بعض أهلها، ويؤثر فيهم، ولكنه لم ينجح فى هدفه الشيطانى، فقد كان له معاوية رضى الله عنه بالمرصاد[2]، ودخل البصرة ليجند الأتباع له من المارقين أو الحاقدين أو الرعاع البلهاء، وكان والى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز، وكان حازمًا عادلاً صالحًا، ولما وصل ابن سبأ البصرة، نزل عند رجل خبيث من أهلها كان لصًا فاتكًا، هو حكيم بن جبلة[3].

وبلغ عبد الله بن عامر أن رجلاً غريبًا نازل على حكيم بن جبلة وكان حكيم بن جبلة رجلاً لصًا، وعندما كانت تعود جيوش الجهاد إلى البصرة، كان حكيم يتخلف عنها، ليسعى فى أرض فارس فسادًا، ويغير على أرض أهل الذمة، ويعتدى على أرض المسلمين، ويأخذ منها ما يشاء، فشكاه أهل الذمة والمسلمون إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر، وقال له: احبس حكيم بن جبلة فى البصرة، ولا تتركه يخرج منها حتى تأنس منه رشدًا، فحبسه ابن عامر فى بيته، وكان لا يستطيع أن يخرج من البصرة، وبينما كان اللص ابن جبلة تحت الإقامة الجبرية فى بيته، نزل عليه اليهودى عبد الله بن سبأ، واستغل ابن سبأ زعارة[4] ابن جبلة وانحرافه وحقده ولؤمه، فجنده لصالحه، وصار ابن جبلة هو رجل ابن سبأ فى البصرة، وصار ابن جبلة يقدم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين والموتورين، فيغرس ابن سبأ فى نفوسهم أفكاره، ويجندهم بجمعيته السرية. ولما علم ابن عامر بابن سبأ، استدعاه، وقال له: ما أنت؟ قال ابن سبأ: أنا رجل من أهل الكتاب، رغب فى الإسلام فأسلم، ورغب

(١، ٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٤) الأزعر: سيئ الخلق.

فى جوارك فأقام عندك. قال ابن عامر: ما هذا الكلام الذى يبلغنى عنك؟ اخرج عنى، أخرجه ابن عامر من البصرة، فغادرها ابن سبأ، بعد أن ترك فيها رجالاً وأتباعًا له، وجعل فيها فرعًا لحزبه السبئى اليهودى، ذهب ابن سبأ إلى الكوفة، فوجد فيها رجالاً من المنحرفين، جاهزين لاستقباله، فجندهم لجماعته وحزبه، ولما علم به سعيد ابن العاص أخرجه من الكوفة، فتوجه إلى مصر، فأقام فيها، وعشش فيها وباض، وفرخ فيها وأفسد، واستمال أناسًا هناك من الرعاع والبلهاء، ومن الحاقدين والموتورين، ومن العصاة والمذنبين، وكان ابن سبأ يرتب الاتصالات السرية بين مقره فى مصر، وبين أتباعه فى المدينة والبصرة والكوفة، ويتحرك رجاله بين هذه البلدان [1]، واستمرت جهود ابن سبأ وأعوانه حوالى ست سنوات، حيث بدؤوا أعمالهم الشيطانية سنة ثلاثين، ونجحوا فى آخر سنة خمس وثلاثين فى قتل الخليفة عثمان، واستمر إفسادهم طيلة خلافة على رضى الله عنه، وقرر (السبئيون) أن تكون بداية الفتنة في الكوفة [2].

ثالثًا: أهل الفتنة يفسدون فى مجلس سعيد بن العاص:

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس سعيد بن العاص، فى مجلسه العام، وحوله عامة الناس، وكانوا يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلل هؤلاء الخوارج من السبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة.

جرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو (خنيس بن حبيش الأسدى)، واختلف على أمر، وكان سبعة من الخوارج، أصحاب الفتنة جالسين: منهم جندب الأزدى، الذى قتل ابنه السارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النخعى، وابن الكواء، وصعصعة بن صوحان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خنيس الأسدى فى المجلس، ولما قام أبوه يساعده، وينقذه، ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضرب، فلم يمتنعوا، وأغمى على الرجل

---

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

وابنه من شدة الضرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكن سعيدًا تمكن من إصلاح الأمر[١]، ولما علم عثمان بالحادثة طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع.

ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويذيعون الافتراءات والأكاذيب ضد سعيد، وضد عثمان، وضد أهل الكوفة ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال لهم سعيد: إن عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان رضى الله عنه بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخربون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية فى الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء فقال له: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة، فرعهم، وأخفهم وأدبهم وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا فاقبل منهم[٢]، ومن الذين تم نفيهم إلى الشام، الأشتر النخعى، وجندب الأزدى، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ، وابن الكواء[٣].

رابعًا: أهل الفتنة منفيون عند معاوية:

لما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم، وأجرى عليه بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم. فقال لهم يومًا: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم[٤].

كان عثمان رضى الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة فله من فصاحته وبلاغته، وله

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٣).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٤).
(٣) الخلفاء الراشدون، ص ١٣١.
(٤) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٤).

من حلمه وصبره، وله من ذكائه ودهائه، ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبى سفيان كى يحلها، وفعلاً بذل معاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النفر، أكرمهم أولاً، وخالطهم وجالسهم وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نقلوا عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أن النعرة القبلية هى التى تحركهم، وأن شهوة الحكم والسلطة هى التى تثيرهم، فكان لا بد أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام فى عزة العرب.

الثانية: دور قريش فى نشر الإسلام وتحمل أعبائه.

فإن كان للإسلام أثر فى تكوينهم، فلا بد أن يرعووا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء، والقبلية المنتنة (١).

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة (٢) فلا تشذوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهين أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها فى الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة، فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً. أعظم عليك أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكرنى الجاهلية؟ وقد وعظتك وتزعم لما يجنك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة، أخزى الله أقوامًا أعظموا أمركم ورفعوا إلى خليفتكم (٣).

---

(١) معاوية بن أبى سفيان، لمنير الغضبان، ص١٠١.

(٢) جنة: وقاية.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم، لا بد من شرح مسهب لواقع قريش أولاً فقال: افقهوا ولا أظنكم تفقهون أن قريشًا لم تعز فى جاهلية ولا فى إسلام إلا بالله عز وجل لم تكن أكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمهم أخطارًا، وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا فى الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضًا، إلا بالله الذى لا يستذل من أعز، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا أو عجمًا أو سودًا أو حمرًا إلا قد أصابه الدهر فى بلده وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابًا، فكان خيارهم قريشًا، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله فى الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم؟ أف لك ولأصحابك، ولو أن متكلمًا غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت، فأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر قرى عربية، أنتنها نبتًا، وأعمقها واديًا، وأعرفها بالشر، وألأمها جيرانًا، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقابًا، وألأمه أصهارًا نزَّاع[1] الأمم، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبى ﷺ ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شَطير[2] فى عمان، لم تسكن البحرين فتشركهم فى دعوة النبى ﷺ، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، وحملك على الأمم التى كانت عليك، أقبلت تبغى دين الله عوجًا، وتنزع إلى اللآمة والذلة ولا يضع ذلك قريشًا، ولن يضرهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أمتكم، فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء الله، ولا أمرًا أراده الله، ولا تدركون بالشر أمرًا إلا فتح الله عليكم شرًا منه وأخزى ثم قام وتركهم، فتذامروا، فتقاصرت إليه أنفسهم[3].

---

(١) النزاع: جمع نزيع وهو الغريب.

(٢) الشطير: الغريب.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٦).

وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية لإقناعهم.

ـ عرض لهم أولاً أمر قريش فى الجاهلية والإسلام.

ـ تناول قبائل هؤلاء النفر، ووضعها فى الجاهلية، حيث كانت تعانى سوء المناخ ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذل، وارتقت بعد هوان.

ـ تناول معاوية رضى الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثم عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.

ـ كشف معاوية رضى الله عنه مخططات صعصعة وأصحابه وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجًا.

وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرك هذا الشر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ثم بالإسلام والعقيدة، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخططاتهم وصلتها بدعوى الجاهلية [1].

ـ جلسة أخرى:

ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال: أيها القوم ردوا على خيرًا، أو اسكتوا وتفكروا، وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم.

قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله. معاوية: أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعًا ولا تفرقوا، قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبى ﷺ، قال: إنى آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ، ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كل حسن ما

---

(١) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص ١١١.

قدرتم وتعظموهم فى لين ولطف فى شىء إن كان منهم. صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن من المسلمين من هو أحق به منك . قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قدمًا من أبيك وهو بنفسه أحسن قدمًا منك فى الإسلام. قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدمًا، ولغيرى كان أحسن قدمًا منى، ولكنه ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيرى أقوى منى لم يكن لى عند عمر هوادة ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلاً فإن فى ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمرى لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إن لله سطوات ونقمات، وإنى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله فى عاجل الأمر والخزى الدائم فى الآجل، فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه فقال: مه إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا أمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم؛ فلعمرى إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا ثم قام من عندهم فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت[1]، هذه المحاولة الأخيرة التى بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كى يثنيهم عن الفتنة، إنه يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع فى معصية الله[2]. وبحلمه الكبير، وصدره الواسع عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حد زعمهم فهو يتوب من المعصية إن وقعت، ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة والجماعة والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة، ولو كان الوعظ يجدى معهم لأمكن أن

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٠).

تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللطف، وهذا الحلم، لكنهم اعتبروا ذلك ضعفًا وتهاونًا منه، خاصة وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ فى العظة واللين فى النصح، فوجدوا المجال رحبًا أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم. فقالوا: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن فى المسلمين من هو أحق به منك وانتبه معاوية انتباهًا مفاجئًا إلى ما يكنون، فأحب أن يتعرف جانبًا غامضًا عليه، لعل فى هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم، ويبث فى ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنهم أخفوا ما يكنون، واكتفوا بالإشارة إلى أنهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلم عليهم أكثر فأكثر، رغم الأسلوب الفج الذى سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل وهنا نجد لمعاوية جوابًا مستفيضًا عن وجهة نظره فى الحكم والإمارة والقيادة، وقد لخص معاوية إجابته فى ست نقاط أساسية ومهمة:

١ ـ هى أن له قدمًا وسابقة فى الإسلام، فهو حامى ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد ابن أبى سفيان رضى الله عنهما.

٢ ـ أن هناك فى المسلمين من هو أفضل منه وأكرم، وأحسن سابقة وأكثر بلاء، وهو يرى أنه أقوى من يحمى هذا الثغر الإسلامى العظيم ـ الشام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته، وفهم نفسيات أهله حتى أحبوه.

٣ ـ إن الميزان الحساس والمعيار الدقيق الذى يقيم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططًا أو انحرافًا أو ضعفًا لعزله، ولما أبقى عليه يومًا واحدًا، فقد عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتبًا بين يديه، وولاه أبو بكر الصديق من بعده ولم يطعن فى كفاءته أحد.

٤ ـ إن اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هى الحجة التى يقدمها دعاة الفتنة ليتم الاعتزال على أساسها؟.

٥ ـ إن الذى يقرر العزل عن العمل أو البقاء فى الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إن ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحق فى تعيين الولاة وعزلهم.

٦ - إن أمير المؤمنين عثمان يوم يقرر عزل معاوية، فهو واثق أن أمره خير كله، ولا غضاضة فى ذلك فهو أمير مأمور وهو أمر خليفة المسلمين(١).

كان ختام الجلسة مؤسفًا أشد الأسف، مؤلمًا أشد الألم، لقد حذرهم نقمة الله وغضبه، وحذرهم مهاوى الشيطان ومنزلقاته وحذرهم فرقة الكلمة ومعصية الإمام وحذرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه، وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ زجرهم وقمعهم ووجه لهم كلامًا قاسيًا مبطنًا بالتهديد، وعرف أن هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحق، فلا بد من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وكشف هوياتهم وخطرهم ليرى فيهم أمير المؤمنين رأيًا آخر(٢).

- كتاب معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلى أقوامًا يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم؛ فقد أفسدوا كثيرًا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصر، فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم(٣).

خامسًا: رجوع أهل الفتنة إلى الكوفة ثم نفيهم إلى الجزيرة:

كتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضج منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميرًا على حمص(٤)،

(١) معاوية بن أبى سفيان، صحابى كبير وملك مجاهد، ص ١١٤ إلى ١١٧.

(٢) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص ١١٧، ١١٨.

(٣، ٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣١).

فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، استدعاهم، وكلمهم كلامًا شديدًا، وكان مما قاله لهم: يا آلة الشيطان! لا مرحبًا بكم ولا أهلاً لقد رجع الشيطان محسورًا خائبًا، وأنتم ما زلتم نشيطون فى الباطل! خَسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، ويخزكم، يا معشر من لا أدرى من أنتم: أعرب أم عجم لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة والله لأذلنكم، وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم والشدة، ولم يلن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم (صعصعة بن صوحان) يقول له يا ابن الخطيئة: هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة، وكان يقول لهم: لماذا لا تردون على كما كنتم تردون على سعيد فى الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبونى كما كنتم تخاطبونهما؟

ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه وشدته وقسوته، وأظهروا له التوبة والندم. وقالوا له: نتوب إلى الله ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله! بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحهم وتراجعهم عما كانوا عليه من الفتنة فقال عثمان للأشتر: احلل أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذكر له من فضل عبد الرحمن وحزمه، فأقاموا عند عبد الرحمن فى الجزيرة مدة، أظهروا فيها التوبة والاستقامة والصلاح[1]، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى شهور سنة ثلاث وثلاثين، بعدما تم نفى رؤوس الفتنة إلى معاوية فى الشام، ثم عبد الرحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أن المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين[2].

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٧).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٤.

١ ـ أهل الفتنة بالبصرة يفترون على أشج عبد القيس:

أما أهل الفتنة بالبصرة بزعامة حكيم بن جبلة، فقد كانوا ضد أهل الفضل فيها، وتآمروا وكذبوا عليهم وكان من أفضل وأتقى أهل البصرة (أشج عبد القيس) واسمه عامر بن عبد القيس، وكان زعيمًا لقومه، وقد وفد على رسول الله ﷺ، وتعلم منه، ومدحه رسول الله ﷺ بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»[١] وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد فى القادسية وغيرها، وكان مقيمًا فى البصرة، وكان على قسط كبير من الصلاح والتقوى، فكذب الخارجون عليه، واتهموه بالباطل، فسيره عثمان إلى معاوية بالشام، ولما كلمه معاوية رضى الله عنه وعامله، عرف براءته وصدقه، وكذب الخوارج وافتراءهم عليه، وكان الذى تولى الكذب على عامر بن عبد القيس هو (حمران بن أبان) وهو رجل عاص بدون دين، حيث تزوج امرأة فى أثناء عدتها! ولما علم عثمان بذلك فرق بينهما، وضربه ونكل به لمعصيته، ونفاه إلى البصرة، وهناك التقى مع زعيم السبئيين فيها، اللص حكيم بن جبلة[٢].

٢ ـ ابن سبأ يحدد سنة أربع وثلاثين للهجرة للتحرك:

وفى سنة أربع وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان أحكم عبد الله بن سبأ اليهودى خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السبئيين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتصل ابن سبأ اليهودى من وكر مؤامراته فى مصر بالشياطين من حزبه فى البصرة والكوفة والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه، وكان ممن كاتبهم وراسلهم، السبئيون فى الكوفة، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين فى الشام، ثم فى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد، وبعد نفى أولئك الخارجين، كان زعيم السبئيين الحاقدين فى الكوفة يزيد ابن قيس[٣]، وقد خلت الكوفة فى سنة أربع وثلاثين من وجوهها وأشرافها؛ لأنهم

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، رقم (٢٥). وقال النووى فى شرحه: أما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهى التثبت وترك العجلة.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٥.

توجهوا للجهاد فى سبيل الله ، ولم يبق إلا الرعاع والغوغاء، الذين أثر فيهم السبئيون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيجوهم ضد والى عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضى الله عنه(١) .

٣ ـ أوضاع أهل الكوفة عند تحرك أهل الفتنة:

قال الطبرى عن أوضاع الكوفة سنة أربع وثلاثين: وفد سعيد بن العاص إلى عثمان فى سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان وقد بعث سعيد قبل خروجه الأشعث ابن قيس إلى أذربيجان وسعيد بن قيس إلى الرى، والنسير العجلى إلى همذان، والسائب بن الأقرع إلى أصبهان، ومالك بن حبيب إلى ماه، وحكيم بن سلامة إلى الموصل، وجرير بن عبد الله إلى قرقيسيا، وسلمان بن ربيعة إلى الباب، وعتيبة بن النهاس إلى حلوان، وجعل على الحرب القعقاع بن عمرو التميمى، وكان نائبه بعد خروجه عمرو بن حريث، وبذلك خلت الكوفة من الوجوه والرؤساء، ولم يبق فيها إلا منزوع أو مفتون(٢) ، وفى هذا الجو خرج زعيم السبئيين فى الكوفة (يزيد بن قيس) بعد اتفاق مع شيطانه ابن سبأ فى مصر، وخرج معه أهل الفتنة الذين انضموا إلى جمعية ابن سبأ السرية، والغوغاء الذين تأثروا بها(٣) .

٤ ـ القعقاع بن عمرو التميمى يقضى على التحرك الأول:

خرج يزيد بن قيس فى الكوفة، وهو يريد خلع عثمان، فدخل المسجد وجلس فيه، وتجمع عليه فى المسجد السبئيون، الذين كان ابن السوداء يكاتبهم من مصر، ولما تجمع الخارجون فى المسجد، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب، فألقى القبض عليهم، وأخذ زعيمهم يزيد بن قيس معه، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم فى الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريد هو وجماعته عزل الوالى سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر

---

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٥ .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٧).

(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٦ .

مكانه، فاستجيب لطلبهم ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة لما سمع كلام يزيد. ثم قال ليزيد: لا تجلس لهذا الهدف فى المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس فى بيتك، واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقق لك ذلك[١].

٥ ـ يزيد بن قيس يكاتب أهل الفتنة عند عبد الرحمن بن خالد:

جلس يزيد بن قيس فى بيته، واضطر إلى تعديل خطته فى الخروج والفتنة، واستأجر هذا السبئى (يزيد بن قيس) رجلاً، وأعطاه دراهم وبغلاً، وأمره أن يذهب بسرعة وكتمان إلى السبئيين من أهل الكوفة الذين نفاهم عثمان بن عفان إلى الشام ثم إلى الجزيرة، وهم مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد هناك، وقد أظهروا له التوبة والندم، وقال يزيد لإخوانه الشياطين فى كتابه: إذا وصلكم كتابى هذا فلا تضعوه من أيديكم، حتى تأتوا إلى، فقد راسلنا إخواننا فى مصر ـ وهم السبئيون هناك ـ واتفقنا معهم على الخروج، ولما قرأ الأشتر كتاب يزيد خرج فوراً للكوفة، ولحق به وإخوانه الخارجون وفقدهم عبد الرحمن بن خالد فلم يجدهم، فأرسل جماعة فى طلبهم، فلم يدركوهم، واتصل يزيد بن قيس بجماعته مرة ثانية، واتصل جماعته بالرعاع والغوغاء فى الكوفة، وتجمعوا فى المسجد، ودخل عليهم الأشتر النخعى فى المسجد، وعمل على إثارتهم وتهييجهم، ودفعهم للثورة والخروج وكان مما قال لهم: لقد جئتكم من عند الخليفة عثمان، وتركت واليكم سعيد بن العاص عنده، وقد اتفق عثمان وسعيد على إنقاص عطائكم، وخفض أموالكم من مائتى درهم إلى مائة درهم، وقد كذب الأشتر فيما قال، ولم يتحدث عثمان وسعيد بذلك، ولكنه كيد السبئيين فى نشر الأكاذيب والافتراءات لتهييج العامة، واستخف الأشتر بكلامه الناس فى المسجد، وأثر فى الرعاع والغوغاء وهيجهم، وكانت ضجة كبيرة فى المسجد، وصار يكلمه عقلاء المسلمين من وجوههم وأشرافهم وصالحيهم، وأتقيائهم، كأبى موسى الأشعرى وعبد الله بن مسعود، والقعقاع بن عمرو، فلم يسمع لهم، ولم يستجب لهم[٢]. وصاح يزيد بن قيس فى الغوغاء والرعاع داخل المسجد

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٨)، والخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٨.

وخارجه، وقال: إنى خارج إلى طرق المدينة، لأمنع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، ومن شاء أن يخرج معى لمنع سعيد من الدخول، والمطالبة بوالٍ مكانه فليفعل فاستجاب لندائه السبئيون والرعاع، وخرج معه حوالى ألف منهم[١].

٦ ـ القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة أهل الفتنة:

ولما خرج السبئيون والغوغاء طلبًا للفتنة والتمرد وإحداث القلاقل، بقى فى المسجد وجوه المسلمين وأشرافهم وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالى عمرو بن حريث وطالب المسلمين بالأخوة والوحدة ونهاهم عن التفرق والاختلاف والفتنة والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمردين[٢]، فقال القعقاع بن عمرو: أترد السيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تسكن الغوغاء إلا المشرفيَّة[٣]، ويوشك أن تنتضى، ثم يعجون عجيج العتدان[٤]، ويتمنون ما هم فيه فلا يرده عليهم أبدًا، فاصبر، فقال: أصبر، وتحول إلى منزله[٥]

٧ ـ أهل الفتنة يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة:

سار يزيد بن قيس ومعه الأشتر النخعى بالألف من الخارجين إلى مكان على طريق المدينة، يسمى (الجَرَعَة) وبينما كانوا معسكرين فى الجرعة، طلع عليهم سعيد بن العاص عائدًا من عند عثمان، فقالوا له: عد من حيث أتيت، ولا حاجة لنا بك، ونحن نمنعك من دخول الكوفة، وأخبر عثمان أننا لا نريد واليًا علينا، ونريد من عثمان أن يجعل أبا موسى الأشعرى واليًا مكانك، قال لهم سعيد: لماذا خرجتم ألفًا لتقولوا لى هذا الكلام؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم، وأن توقفوا لى رجلاً فى الطريق ليخبرنى بذلك، وهل يخرج ألف رجل لهم عقول لمواجهة رجل واحد[٦]؟

---

(١) المصدر نفسه (٥/٣٣٨).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٣٩

(٣) نوع من السيوف. تنتضى: انتضى السيف أى أخرجه من غمده.

(٤) العتود: الجدى الذى استكرش، وقيل الحولى من أولاد الماعز.

(٥، ٦) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٨).

رأى سعيد بن العاص أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وهذا رأى أبى موسى الأشعرى، وعمرو بن حريث، والقعقاع بن عمرو فى الكوفة[1]، وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخوارج. قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا لقد أظهروا أنهم لا يريدوننى واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكانى، قال له عثمان: من يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعرى. قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عذرًا، ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرن عليهم كما هو مطلوب منا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبى موسى بتعيينه واليًا على الكوفة[2].

وقبل وصول كتاب عثمان رضى الله عنه بتعيين أبى موسى واليًا، كان فى مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وقد حاولوا ضبط الأمور وتهدئة العامة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك؛ لأن السبئيين والحاقدين سيطروا على الرعاع والغوغاء، وهيجوهم، فلم يعودوا يسمعون صوت عقل أو منطق، وكان فى مسجد الكوفة وقت التمرد والفتنة اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ، هما حذيفة بن اليمان، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى، وكان أبو مسعود غاضبًا لتمرد وثورة الرعاع، وخروجهم إلى الجرعة، وعزلهم الوالى سعيدًا، وعصيانهم له، وهى أول مرة تحصل، بينما كان حذيفة بعيد النظر، يتعامل مع الحدث بموضوعية وتفكير[3]. قال أبو مسعود لحذيفة: لن يعودوا من الجرعة سالمين، وسيرسل الخليفة جيشًا لتأديبهم، وستسفك فيها دماء كثيرة، فرد عليه حذيفة قائلاً: والله سيعودون إلى الكوفة، ولن يكون هناك اشتباك أو حرب، ولن تسفك هناك دماء وما أعلم من هذه الفتن اليوم شيئًا، إلا وقد علمته من رسول الله ﷺ وهو حى، حيث أخبرنا عن هذه الفتن التى نراها اليوم قبل

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٤٠.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٩).
(٣) الخلفاء الراشدون، ص ١٤١.

وفاته، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الرجل يصبح على الإسلام، ثم يمسى وليس معه من الإسلام شىء، ثم يقاتل المسلمين، فيرتد وينكص قلبه ويقتله الله غداً، وسيكون هذا فيما بعد[١]، لقد كان حذيفة بن اليمان رضى الله عنه متخصصاً فى علم الفتن، وتعامل مع فتن السبئيين فى الكوفة وغيرها، وفق ما سمعه وعلمه من رسول الله ﷺ، واستحضر ما حفظه من تلك الأحاديث، ففهم حقيقة ما يجرى حوله، ولم يستبعده ولم يستغربه وحاول الإصلاح ما أمكنه[٢].

٨ ـ أبو موسى الأشعرى يهدئ الأمور وينهى عن العصيان:

قام أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه بتهدئة الأمور ونهى الناس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس، لا تخرجوا فى مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير[٣]. فقالوا: فصل بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان[٤].

وما كانوا صادقين فى ذلك، لكنهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية عن الآخرين، وكان أبو موسى يصلى بالناس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة، ولما هدأت الأمور فى الكوفة إلى حين، فى سنة أربع وثلاثين، عاد حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان والباب يقود جيوش الجهاد هناك، وعاد العمال والولاة إلى أعمالهم فى مناطق فارس[٥].

٩ ـ كتاب عثمان إلى الخارجين فى الكوفة:

كتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتاباً، يبين فيه الحكمة من استجابته لطلبهم فى عزل سعيد، وتعيين أبى موسى بدله، وهى رسالة ذات دلالات

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٢).
(٢) حذيفة بن اليمان، لإبراهيم العلى، ص ٨٦. والخلفاء الراشدون، للخالدى ص ١٤١.
(٣) أى: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٩).
(٥) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٤٢.

هامة، وتبين طريقة عثمان فى مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع، مع علمه اليقينى أنها قادمة، وأنه عاجز عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله ﷺ قال لهم عثمان فى رسالته: أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشن لكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى، ولأستصلحنكم بجهدى، واسألونى كل ما أحببتم، مما لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم على حجة، وكتب بمثل ذلك فى الأمصار[1]، رضى الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه، وأوسع صدره، وكم ظلمه السبئيون والخارجون الحاقدون، وكذبوا وافتروا عليه[2].

* * *

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٣).

(٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص١٤٣

المبحث الثانى

سياسة عثمان رضى الله عنه فى التعامل مع الفتنة

من خلال النصوص التاريخية فى العديد من المصادر يتضح أن عثمان قد واجه الفتنة بعدد من الأساليب وهى:

أولاً: رأى بعض الصحابة بأن يرسل عثمان لجان تفتيش وتحقيق:

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله وغيرهما لما سمعوا من الإشاعات التى بثها عبد الله بن سبأ فى الأمصار فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل، وقالوا: يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا؟ قال: لا والله ما جاءنى إلا السلامة. قالوا: فإنا قد أتانا، وأخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة التى تموج بها الأمصار الإسلامية، وعن الهجوم الشرس على ولاته فى كل صقع. وقال: أنتم شركائى وشهود المؤمنين، فأشيروا على؟ قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بخبرهم[1] ، فقام عثمان بإجراء شديد عظيم، وتخير نفراً من الصحابة، لا يختلف اثنان فى صدقهم وتقواهم وورعهم، ونصحهم، اختار محمد بن مسلمة الذى كان عمر يأتمنه على محاسبة ولاته والتفتيش عليهم فى الأقاليم، وأسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه، وأمير الجيش الذى أوصى النبى ﷺ بإنفاذه فى آخر عهده بالدنيا، فقال ﷺ: «أنفذوا بعث أسامة» وعمار بن ياسر، السباق إلى الإسلام، والمجاهد العظيم، وعبد الله بن عمر، التقى الفقيه الورع، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة إلى البصرة، وعماراً إلى مصر، وابن عمر إلى الشام، وكانوا على رأس جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة، فمضوا جميعًا إلى عملهم الشاق المضنى الخطير العظيم ثم عادوا جميعًا عدا عمار بن

(١) تاريخ الطبرى (٣٤٨/٥).

ياسر الذى استبطأ فى مصر ثم عاد وقدموا بين يدى أمير المؤمنين ما شاهدوه وسمعوه وسألوا الناس عنه[١]، وكان ما جاء به هؤلاء واحداً فى كل الأمصار، وقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكر المسلمون، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم[٢]. وأما ما روى من اتهام عمار بن ياسر رضى الله عنه ـ بالتأليب على عثمان ـ رضى الله عنه، فإن أسانيد الروايات التى تتضمن هذه التهمة ضعيفة، لا تخلو من علة، كما أن فى متونها نكارة[٣].

رجع مفتشو الأمصار واتضح بأنه ليس هناك ما يوجب على الخليفة أن يعزل واحداً من ولاته، والناس فى عافية وعدل وخير ورحمة واطمئنان، وأمير المؤمنين يعدل فى القضية، ويقسم بالسوية، ويرعى حق الله وحقوق الرعية، وما يثار هو شكوك وأراجيف وأكاذيب يبثها الحاقدون فى الظلمات لكى لا يعرف مصدرها، ولكن الخليفة البار الراشد العظيم لم يكتف بهذا، بل كتب إلى أهل الأمصار[٤].

ثانيًا: كتب إلى أهل الأمصار كتابًا شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين:

أما بعد: فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته، وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرًا، وشتم سرًا، من ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، منى أو من عمالى أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين فلما قرئ فى الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان وقالوا: إن الأمة لتمخض بشر[٥].

فهل تريد الدنيا أن تسمع بحزم وعزم أعلى وأشمخ من هذا الحزم والعزم من رجل زاد سنه عن اثنتين وثمانين سنة، وهو فى هذه الفورة والقوة من المتابعة والتنقيب عن

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢١٠.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).

(٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٧).

(٤، ٥) تاريخ الطبرى (١/ ٣٤٩).

المظالم؟ أم هل يريد الناس أن يروا عدلاً أرفع وأسمى من هذا العدل والإنصاف، حتى إن حق أمير المؤمنين الشخصى متروك لرعيته، ما دام حق الله قائمًا وحدوده مرعية؟ نعم عند عثمان، الذى لم يقف عند ذلك، ولم يكتف بأن أرسل أمناءه للتفتيش عن أحوال الناس، وكتابته من ثم إلى أهل الأمصار بأن يأتوا موسم الحج ليرفعوا شكاتهم ـ إن كانت لهم ـ أمام جموع الحجيج، ولم يكتف عثمان بذلك كله، بل بعث إلى عمال الأمصار أنفسهم ليواجهوا الناس عندما يرفعون مظالمهم ـ إن وجدت ـ ثم ليسألهم أمير المؤمنين عما يتناقله الناس، وليشيروا عليه بالرأى الناصح السديد الرشيد[1].

ثالثًا: مشورة عثمان لولاة الأمصار:

بعث عثمان رضى الله عنه إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجل: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبى سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم فى المشورة سعيد ابن العاص، وعمرو بن العاص ـ وهم من الولاة السابقين ـ وكانت جلسة مغلقة وخطيرة جرت فيها الأبحاث التالية التى تقرر خطة العمل الجديدة فى ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام[2]، قال عثمان: ويحكم ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إنى والله لخائف أن يكون مصدوقًا عليكم وما يعصب[3] هذا إلا بى فقالوا له: ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء، لا والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً وما كنت لتأخذ به أحدًا فيضمنك على شىء، وما هى إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها. قال: فأشيروا على فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع فى السر، فيلقى به غير ذى معرفة، فيخبر به، فيتحدث به فى مجالسهم قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم: فإنه

(١)عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢١٢.

(٢)معاوية بن أبى سفيان، ص ١٢٦.

(٣)يعصب بى: يناط بى.

خير من أن تدعهم. قال معاوية: قد وليتنى فوليت قومًا لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما، قال: فما الرأى؟ قال: حسن الأدب، قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراضيت عنهم وزدتهم عما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين. إن الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرًا، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعًا اللين، وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال: كل ما أشرتم به على قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذى يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا فى حدود الله تعالى ذكره، التى لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب أحدها، فإن سده شىء فرفق، فذاك والله ليفتحن، وليست لأحد على حجة حق، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرًا، ولا نفسى. ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدهِنوا فيها[1].

لقد خالف عثمان رضى الله عنه رأى أخيه عمرو باتباع الشدة ولم يخالفه فى اتباع سنة صاحبيه فرحى الفتنة دائرة ولا تعالج بالعنف لأن العنف هو الذى يدير هذه الرحى، ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها، (فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها) وكان واضحًا صريحًا رضى الله عنه فيما لا هوادة فيه وهى حدود الله فلا مداهنة فيها وما غير ذلك فالرفق أولى والمغفرة أفضل ولابد من تأدية الحقوق كلها[2].

وقد جاءت روايات بسند فيه ضعيف ومجهولون تشوه العلاقة بين عمرو بن العاص وعثمان رضى الله عنهما، وساهمت روايات ساقطة فى مسخ صورة عمرو بن العاص رضى الله عنه وتحويل علاقته بعثمان رضى الله عنه إلى علاقة فاتك خطط لقتل أميره ثم عاد بانتهازية ليطالب بدمه[3]، وهذه الرواية ضعيفة ومرفوضة عند أهل التاريخ وأهل الحديث[4]، وقد جاء فى رواية بسند فيها ضعفاء ومجهولون أيضًا بأن

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٥١).

(٢) عمرو بن العاص الأمير المجاهد، للغضبان، ص ٤٤٧.

(٣، ٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٨.

عمرو بن العاص قال: يا عثمان إنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل فإن أبيت فاعتزم عزمًا وامض قدمًا[1]، وجاء فى نفس الرواية أن عبد الله بن عامر قال: أرى لك أن تجمرهم فى هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم قمل فروة رأسه ودبر دابته وتشغلهم عن الإرجاف بك[2].

إن عثمان رضى الله عنه منع الولاة من التنكيل بمثيرى الشغب، حبسهم أو قتلهم وقرر أن يعاملهم بالحسنى واللين[3]، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التى كان كل بصير يرى أنها قادمة[4].

١ ـ اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان رضى الله عنهما:

قبل أن يتوجه معاوية بن أبى سفيان إلى الشام، أتى إلى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين: انطلق معى إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قبل لك بها.

قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشىء ولو كان فيه قطع خيط عنقى. قال له معاوية: إذن أبعث لك جيشًا من أهل الشام، يقيم فى المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة ليدافع عنك وعن أهل المدينة. قال عثمان: لا حتى لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تساكنهم ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين والله لتُغتالنَّ أو لتغزين. قال عثمان: حسبى الله ونعم الوكيل[5].

لكأنما معاوية رضى الله عنه كان يعلم أن وراء تلك الفتن والشائعات يدًا خبيثة تخطط لهدف مرهوب ليس دونه ضرب الخليفة والخلافة؛ لكن عثمان الخليفة الراشد كان له رأى آخر، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطريق حتى لا يترك لهم حجة

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٠).

(٣) خلافة عثمان، د. السلمى، ص ٧٧.

(٤) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥١.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٣).

عند الله ولا عند الناس، فيفضحهم فى الدنيا والآخرة وتلك مصابرة عظيمة من هذا الإمام العادل العظيم[١].

٢ ـ عثمان يخترق صفوف المتآمرين بعد مجيئهم للمدينة:

كان أمير المؤمنين عثمان من اليقظة والوعى ما يجعله يحقق بقلم استخباراته مع هؤلاء المتآمرين؛ حيث بث فى صفوفهم رجلين من المسلمين كانا قد عوقبا من الخليفة ليطمئن المتآمرون إليهم، فقد أرسل عثمان رجلين، مخزوميًا وزهريًا فقال: انظرا ما يريدون واعلما علمهم، وكانا مما نالهما من عثمان أدب فاصطبرا للحق ولم يضطغنا[٢] فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون فقالا: من معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر، فقالا: هل إلا؟ قالوا: لا. قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ وشرح هؤلاء القوم للرجلين أبعاد المؤامرة كاملة والخطة المقترحة، وقالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه وكانت إياها فرجعا إلى عثمان فضحك، وقال: اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا. فأرسل إلى الكوفيين والبصريين ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده فى أصل المنبر، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، وحقيقة ما يريدون، من تأكيد الشبهات عليه تمهيدًا للخروج عليه وخلعه أو قتله، وقام الرجلان اللذان حادثا السبئيين، فشهدا بما أخبروهما به. فقال المسلمون جميعًا فى داخل المسجد، اقتلهم يا أمير المؤمنين؛ لأنهم يريدون الخروج على أمير المؤمنين، وتفريق كلمة المسلمين، ورفض عثمان رضى الله عنه دعوة الصحابة لقتلهم؛ لأنهم مسلمون ـ فى الظاهر ـ من رعيته، ولا يرضى أن يقال: عثمان يقتل مسلمين مخالفين له؛ ولذلك رد عثمان بن عفان على تلك الدعوة قائلاً: لا نقتلهم، بل نعفو ونصفح، ونبصرهم بجهدنا، ولا نقتل أحدًا من المسلمين، إلا إذا ارتكب حدًا يوجب القتل، أو أظهر ردة وكفرًا[٣].

---

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢١٤.

(٢) اضغن فلان على فلان: حقد عليه.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥).

رابعًا: إقامة الحجة على المتمردين:

ثم دعا عثمان القوم السبئيين إلى عرض ما عندهم من شبهات وإظهار ما يرونه من أخطاء وتجاوزات ومخالفات، وقع هو فيها، وكانت جلسة مصارحة ومكاشفة فى المسجد على مرأى ومسمع من الصحابة والمسلمين، فتكلم السبئيون وعرضوا الأخطاء التى ارتكبها عثمان ـ على حد زعمهم ـ وقام عثمان رضى الله عنه بالبيان والإيضاح وقدم حججه وأدلته فيما فعل، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المصارحة والمحاسبة والمكاشفة، وأورد عثمان ما أخذوه عليه، ثم بين حقيقة الأمر، ودافع عن حسن فعله وأشهد معه الصحابة الجالسين فى المسجد[1] .

١ ـ قال: قالوا: إنى أتممت الصلاة فى السفر، وما أتمها قبلى رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، لقد أتممت الصلاة لما سافرت من المدينة إلى مكة، ومكة بلد فيه أهلى، فأنا مقيم بين أهلى ولست مسافرًا أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٢ ـ وقالوا: إنى حميت حمى، وضيقت على المسلمين، وجعلت أرضًا واسعة، خاصة لرعى إبلى!

ولقد كان الحمى قبلى لإبل الصدقة والجهاد، حيث جعل الحمى كل من رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وأنا زدت فيه لما كثرت إبل الصدقة والجهاد، ثم لم نمنع ماشية فقراء المسلمين من الرعى فى ذلك الحمى، وما حميت لماشيتى! ولما وليت الخلافة كنت من أكثر المسلمين إبلاً وغنمًا، وقد أنفقتها كلها، وما لى الآن ثاغية ولا راغية، ولم يبق لى إلا بعيران، خصصتهما لحجى! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٣ ـ وقالوا: إنى أبقيت نسخة واحدة من المصاحف، وحرقت ما سواها، وجمعت الناس على مصحف واحد! ألا إن القرآن كلام الله، من عند الله، وهو واحد، ولم أفعل سوى أن جمعت المسلمين على القرآن، ونهيتهم عن الاختلاف فيه، وأنا فى فعلى هذا تابع لما فعله أبو بكر، لما جمع القرآن! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم!

---

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥٤، ١٥٥.

٤ ـ وقالوا: إنى رددت الحكم بن أبى العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ نفاه إلى الطائف! إن الحكم بن أبى العاص مكى، وليس مدنيًا، وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، وأعاده الرسول ﷺ إلى مكة بعدما رضى عنه، فالرسول ﷺ سيره إلى الطائف، وهو الذى رده وأعاده! أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٥ ـ وقالوا: إنى استعملت الأحداث، ووليت الشباب صغار السن! ولم أول إلا رجلاً فاضلاً محتملاً مرضيًا، وهؤلاء الناس أهل عملهم، فسلوهم عنهم. ولقد ولى الذين من قبلى من هم أحدث منهم وأصغر منهم سنًا، ولقد ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وهو أصغر ممن وليته، وقالوا لرسول الله ﷺ أشد مما قالوا لى أليس كذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم! إن هؤلاء الناس يعيبون للناس ما لا يفسرونه ولا يوضحونه.

٦ ـ وقالوا: إنى أعطيت عبد الله بن سعد بن أبى سرح ما أفاء الله به، وإنما أعطيته خمس الخمس، وكان مائة ألف، لما فتح إفريقية، جزاء جهاده وقد قلت له: إن فتح الله عليك إفريقية، فلك خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، وقد فعلها قبلى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ومع ذلك قال لى الجنود المجاهدون: إنا نكره أن تعطيه خمس الخمس ـ ولا يحق لهم الاعتراض والرفض ـ فأخذت خمس الخمس من ابن سعد ورددته على الجنود، وبذلك لم يأخذ ابن سعد شيئًا! أليس كذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم.

٧ ـ وقالوا: إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم! فأما حبى لأهل بيتى، فإنه لم يحملنى على أن أميل معهم إلى جور وظلم الآخرين، بل أحمل الحقوق عليهم وآخذ الحق منهم وأما إعطاؤهم فإنى أعطيهم من مالى الخاص، وليس من أموال المسلمين؛ لأنى لا أستحل أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى، أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى، وفنى عمرى، وجعلت مالى الذى لى لأهلى وأقاربى، قال الملحدون ما قالوا؟ وإنى والله ما أخذت

من مصر من أمصار المسلمين مالا ولا فضلا، ولقد رددت على تلك الأمصار الأموال، ولم يحضروا إلى المدينة إلا الأخماس من الغنائم، ولقد تولى المسلمون تقسيم تلك الأخماس، ووضعها فى أهلها! ووالله ما أخذت من تلك الأخماس وغيرها فلسًا فما فوقه، وإننى لا آكل إلا من مالى، ولا أعطى أهلى إلا من مالى.

٨ ـ وقالوا: إنى أعطيت الأرض المفتوحة لرجال معينين، وإن هذه الأرضين المفتوحة، قد اشترك فى فتحها المهاجرون والأنصار وغيرهم من المجاهدين، ولما قسمت هذه الأراضى على المجاهدين الفاتحين منهم من أقام بها واستقر فيها، ومنهم من رجع إلى أهله فى المدينة أو غيرها، وبقيت تلك الأرض ملكًا له، وقد باع بعضهم تلك الأراضى، وكان ثمنها فى أيديهم! وبذلك أورد عثمان رضى الله عنه أهم الاعتراضات التى أثيرت عليه، وتولى توضيحها، وبيان وجه الحق فيها (١).

وترى من ذلك الدفاع المحكم الذى دافع به عثمان بن عفان رضى الله عنه وساجل الصحابة فيه وذاكرهم إياه صورة لما كان يجرى من النقد المر العنيف له رضى الله عنه، وما كان يشيعه السبئيون من قالة السوء وما يعملون على ترويجه من باطل مزيف، فقد أجمل رضى الله عنه ذكر الاعتراضات التى كانوا يعترضون بها عليه، وبين وجه الحق فيما يفعل، وأنه كان على بينة من أمره، وعلى حجة من دينه، ولكنهم مغرضون لا يريدون رشادًا، ولا يبغون سدادًا، فمجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يتربص به الدوائر، ويتسقط هفواته لينفذ أغراضًا، ويلقى فى نفوس الناس عنه إعراضًا ومن كان شأنه كذلك لا تقنعه الحجة، ولا يهديه الدليل، ومن يضلل الله فلا هادى له (٢).

وقد سمع كلامه وتوضيحه زعماء أهل الفتنة الذين بجانب المنبر، كما سمعه الصحابة الكرام، ومن معهم من المسلمين الصالحين، وتأثر المسلمون بكلام عثمان وبيانه وتوضيحه، وصدقوه فيما قال، وازدادوا له حبًا، أما السبئيون دعاة الفتنة

(١) العواصم من القواصم، ص ٦١ إلى ١١١. وتاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٥، ٣٥٦). والخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥٨. والفتنة لأحمد عرموش، ص ١٠ ـ ١٤.

(٢) تاريخ الجدل، لمحمد أبو زهرة، ص ٩٨، ٩٩.

والفرقة، فلم يتأثروا بذلك، ولم يتراجعوا؛ لأنهم لم يكونوا باحثين عن حق، ولا راغبين فى خير، إنما كان هدفهم الفتنة، والكيد للإسلام والمسلمين، وقد أشار الصحابة والمسلمون على عثمان بقتل أولئك السبئيين (زعماء الفتنة) بسبب ما ظهر من كذبهم وتزويرهم، وحقدهم، بل أصروا عليه فى قتلهم، ليتخلص المسلمون من شرهم، وتستقر بلاد المسلمين، ويقضى على الفتنة التى يثيرها هؤلاء وأتباعهم، ولكن عثمان كان له رأى آخر، وتحليل مغاير، فآثر أن يتركهم، ورأى عدم قتلهم، محاولة منه لتأخير وقوع الفتنة، ولم يتخذ عثمان ضد السبئيين القادمين من مصر والكوفة والبصرة أى إجراء مع علمه بما يخططون ويريدون، وتركهم يغادرون المدينة ويعودون إلى بلادهم [١].

خامسًا: الاستجابة لبعض مطالبهم:

الاستجابة لبعض مطالبهم فى خلع بعض الولاة وتولية من طلبوا توليته، فهذه الأساليب كافية فى المعالجة وإقامة الحق والعدل، لو كانت الأمور تسير فى وضعها الطبيعى، لكن الواقع أن وراء هذه الشكاوى والإثارات أمورًا خفية، وأحقادًا جاهلية، تسعى لإثارة الفتنة بين المسلمين وتفريق وحدتهم، ووقع ما أخبر به النبى ﷺ من استشهاد عثمان رضى الله عنه [٢].

سادسًا: ضوابط التعامل مع الفتن عند عثمان رضى الله عنه:

إن المتأمل فى هدى عثمان رضى الله عنه فى تعامله مع الفتنة التى وقعت فى عهده يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التى تعين المسلم فى مواجهته للفتن ومن هذه الضوابط :

١ ـ التثبت:

فقد أرسل لجان تفتيش للأمصار واستمع لأهلها، واستطاع أن يخترق جماعة السبئيين ويقف على حقيقة أمرهم، ولم يستعجل فى إصداره للأحكام عليهم.

---

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٢) خلافة عثمان، للسلمى، ص ٧٨.

٢ ـ لزوم العدل والإنصاف:

فقد اتضح هذا الضابط فى كتبه للأمصار وطلب ممن ادعى أنه شتم أو ضرب من الولاة فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، منه أو من عمّاله [١].

٣ ـ الحلم والأناة:

ويتضح هذا الضابط فى كتابه لأهل الكوفة عندما طلبوا عزل سعيد بن العاص وتعيين أبى موسى الأشعرى وقد جاء فى هذا الكتاب: . . . والله لأفرشنكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى، ولأستصلحنكم بجهدى، فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه [٢].

٤ ـ الحرص على ما يجمع، ونبذ ما يفرق بين المسلمين:

ولذلك جمع الناس على مصحف واحد كما مر معنا، وعندما عرض عليه الأشتر النخعى عروضًا ثلاثة يأتى تفصيلها بإذن الله قال عثمان: . . وإن قتلتمونى، فلم أرتكب ما يوجب قتلى، ووالله لئن قتلتمونى فإنكم لا تتحابون بعدى أبدًا، ولا تصلون جميعًا بعدى أبدًا، ولا تقاتلون العدو جميعًا بعدى [٣].

٥ ـ لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام:

من خلال سيرة عثمان رضى الله عنه، تتضح صفة قلة كلامه إلا فيما ينفع من علم أو نصح أو توجيه أو رد اتهامات باطلة، وقد كان رضى الله عنه كثير الصمت قليل الكلام.

٦ ـ استشارة العلماء الربانيين:

فقد كان رضى الله عنه يستشير علماء الصحابة، كعلى، وطلحة، والزبير، ومحمد ابن مسلمة، وابن عمر، وعبد الله بن سلام رضى الله عنهم جميعًا، فالعلماء هم

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٩).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٣).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٨٤).

صمام الأمان، والملجأ فى الخطوب المدلهمة والفتن المظلمة؛ لأنهم أبصر الناس بحالها، وأعرفهم بمآلها، فمن التجأ إليهم وجد الفهم السليم والنظر الصحيح والموقف الشرعى الواضح[١].

٧ ـ الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ فى الفتن:

إن منهج عثمان رضى الله عنه أثناء الفتنة ومسلكه مع المتمردين الذين خرجوا عليه لم تفرضه عليه مجريات الأحداث ولا ضغط الواقع، بل كان منهجًا نابعًا من مشكاة النبوة حيث أمره رسول الله ﷺ بالصبر والاحتساب وعدم القتال حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد وفى ذو النورين رضى الله عنه بوعده وعهده لرسول الله ﷺ طوال أيام خلافته حتى خر شهيدًا مضرجًا بدمائه الطاهرة الزكية[٢].

وقد قال محب الدين الخطيب: الذى يدل عليه مجموع الأخبار عن مواقف عثمان من أمر الدفاع عنه أو الاستسلام للأقدار، هو أنه كان يكره الفتنة، ويتقى الله فى دماء المسلمين إلا أنه صار فى آخر الأمر يود لو كانت لديه قوة راجحة يهابها البغاة، فيرتدعون عن بغيهم بلا حاجة إلى استعمال السلاح للوصول إلى هذه النتيجة، وقبل أن تبلغ الأمور مبلغها عرض عليه معاوية أن يرسل إليه قوة من جند الشام تكون رهن إشارته، فأبى أن يضيق على أهل دار الهجرة بجند يساكنهم، وكان لا يظن أن الجرأة تبلغ بفريق من إخوانه المسلمين إلى أن يتكالبوا على دم أول مهاجر إلى الله فى سبيل دينه.

فلما تذاءب عليه البغاة واعتقد أن الدفاع عنه تسفك فيه الدماء جزافًا، عزم على كل من له عليهم سمع وطاعة أن يكفوا أيديهم وأسلحتهم عن مزالق العنف.

والأخبار بذلك مستفيضة فى مصادر أوليائه وشانئيه، على أنه لو ظهرت فى الميدان قوة منظمة ذات هيبة تقف فى وجوه الثوار، وتضع حدًا لغطرستهم وجاهليتهم، لارتاح عثمان لذلك وسر به، مع ما هو مطمئن إليه من أنه لن يموت إلا شهيدًا[٣].

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص ٧٢٨.

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص ١١٦.

(٣) العواصم من القواصم، ص ١٣٨.

المبحث الثالث

احتلال أهل الفتنة للمدينة

أولاً: قدوم أهل الفتنة من الأمصار:

اتفق أهل الفتنة فيما بينهم على القيام بخطوتهم العملية النهائية فى مهاجمة عثمان فى المدينة، وحمله على التنازل عن الخلافة، وإلا يقتل، وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر والكوفة والبصرة فى موسم الحج، وأن يغادروا بلادهم مع الحجاج، وأن يكونوا فى صورة الحجاج، وأن يعلنوا للآخرين أنهم خارجون للحج، فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحج، واستغلوا فراغ المدينة من معظم أهلها - المشغولين بالحج - وقاموا بمحاصرة عثمان؛ تمهيدًا لخلعه أو قتله[1]، وفى شوال سنة خمس وثلاثين كان أهل الفتنة على مشارف المدينة[2]، فقد خرج المتمردون من مصر فى أربع فرق، لكل فرقة أمير، ولهؤلاء الأمراء أمير ومعهم شيطانهم عبد الله بن سبأ، وأمراء الفرق الأربعة هم: عبد الرحمن بن عديس البلوى، وكنانة بن بشر التجيبى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيرة بن فلان السكونى، وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقى بن حرب العكى وكان عدد الفرق الأربعة ألف رجل، وخرج المتمردون من الكوفة ألف رجل، فى أربع فرق، وأمراء فرقهم هم، زيد بن صوحان العبدى، والأشتر النخعى، وزياد بن النضر الحارثى، وعبد الله ابن الأصم، وأمير متمردى الكوفة هو عمرو بن الأصم، وخرج متمردو البصرة ألف رجل، فى أربع فرق، وأمراء فرقهم هم: حكيم بن جبلة العبدى، وذريح بن عباد العبدى، وبشر بن شريح القيسى، وابن المحرش بن عبد الحنفى، وأمير متمردى البصرة هو حرقوص بن زهير السعدى، وكان عبد الله بن سبأ يسير مع هؤلاء مزهوًا مسرورًا، بنجاح خطته اليهودية الشيطانية، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون على بن

(١، ٢) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٥٩.

أبى طالب خليفة، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الزبير بن العوام خليفة، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله[١]، وهذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصحابة رضوان الله عليهم، وهو ما ذهب إليه الإمام الآجرى حيث قال: وقد برأ الله عز وجل على بن أبى طالب رضى الله عنه وطلحة والزبير رضى الله عنهم من هذه الفرق وإنما أظهروا ليموهوا على الناس وليوقعوا بين الصحابة، وقد أعاذ الله الكريم الصحابة من ذلك[٢].

وبلغ خبر قدومهم عثمان رضى الله عنه قبل وصولهم، وكان فى قرية خارج المدينة فلما سمعوا بوجوده فيها، اتجهوا إليه فاستقبلهم فيها، ولم تصرح لنا الروايات باسم هذه القرية، ويحدد المدائنى، تاريخ قدومهم بليلة الأربعاء هلال ذى القعدة[٣]، وكان أول من وصل المصريون، فقالوا لعثمان: ادع بالمصحف فدعا به، فقالوا: افتح السابعة، وكان يسمون سورة يونس بالسابعة - فقرأ حتى أتى هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٧]. فقالوا له: قف، أرأيت ما حميت من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفترى؟ فقال: امضه نزلت فى كذا وكذا، فأما الحمى فإن عمر حماه قبلى لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى لما زاد من إبل الصدقة، امضه، قال: فجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول: امضه نزلت فى كذا فما يزيدون، فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطًا، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين[٤].

• على بن أبى طالب يرسله عثمان للمفاوضة مع أهل الفتنة من الأمصار:

ونزل القوم فى ذى المروة، قبل مقتله بما يقارب شهرًا ونصفًا، فأرسل عثمان إليهم عليًا رضى الله عنه ورجلاً آخر لم تسمه الروايات والتقى بهم على رضى الله عنه

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٥٧).

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، لخالد الغيث، ص ١١٨.

(٣) فتنة مقتل عثمان، د. محمد الغبان (١/١٢٧).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/١٢٨).

فقال لهم: تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم، فوافقوا على ذلك[١]، وفى رواية أنهم شادوه، وشادهم مرتين أو ثلاثًا، ثم قالوا: ابن عم رسول الله ﷺ، ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله فقبلوا[٢]، فاصطلحوا على خمس: على أن المنفى يقلب، والمحروم يعطى، ويوفر الفىء، ويعدل فى القسم، ويستعمل ذو الأمانة والقوة، وكتبوا ذلك فى كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأن يبقى أبو موسى على الكوفة[٣]، وهكذا اصطلح عثمان رضى الله عنه مع كل وفد على حدة ثم انصرفت الوفود إلى ديارها[٤].

• الكتاب المزعوم بقتل وفد أهل مصر:

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعًا راضين تبين لمشعلى الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق، لذا خططوا تخطيطًا آخر يذكى الفتنة ويحييها ويقتضى تدمير ما جرى من صلح بين أهل الأمصار، وعثمان رضى الله عنه وبرز ذلك فيما يأتى: فى أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكبًا على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم ـ يظهر أنه هارب منهم ـ فكأنه يقول: خذونى فقبضوا عليه، وقالوا له: ما لك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان رضى الله عنه وعليه خاتمه إلى عامله، فتحوا الكتاب فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم أو تقطيع أيديهم وأرجلهم، فرجعوا إلى المدينة حتى وصلوها[٥]، ونفى عثمان رضى الله عنه أن يكون كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إنهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت، ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم، فلم يصدقوه[٦].

وهذا الكتاب الذى زعم هؤلاء المتمردون البغاة المنحرفون أنه من عثمان، وعليه خاتمه يحمله غلامه على واحد من إبل الصدقة إلى عامله بمصر ابن أبى سرح، يأمر

(١) تاريخ دمشق ترجمة عثمان، ص ٣٢٨. وتاريخ خليفة، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢ ـ ٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٢٩).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٧٩).

(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (٥/ ١٣٢). والبداية والنهاية (٧/ ١٩١).

فيه بقتل هؤلاء الخارجين هو كتاب مزور مكذوب على لسان عثمان، وذلك لعدة أمور:

١ ـ أن حامل الكتاب المزور قد تعرض لهؤلاء المصريين ثم فارقهم وكرر ذلك مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه، ويثير شكوكهم فيه، وكأنه يقول لهم: معى شىء مهم بشأنكم! وإلا فلو كان من عثمان لخافهم حامل الكتاب المزعوم، ولأبعد عنهم وأسرع إلى والى مصر ليضع بين يديه الأمر، فينفذه.

٢ ـ كيف علم العراقيون بالأمر وقد اتجهوا إلى بلادهم، وفصلتهم عن المصريين، الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم ـ مسافة شاسعة، فالعراقيون فى الشرق والمصريون فى الغرب، ومع ذلك عادوا جميعًا فى آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد؟ لا يعقل هذا إلا إذا كان الذين زوروا الكتاب واستأجروا راكبًا ليحمله ويمثل الدور فى (البويب) أمام المصريين، قد استأجروا راكبًا آخر انطلق إلى العراقيين ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتابًا بعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريين!! وهذا ما احتج به على ابن أبى طالب رضى الله عنه فقد قال: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا [١]، بل إن عليًا يجزم: هذا والله أمر أبرم بالمدينة [٢].

٣ ـ كيف يكتب عثمان إلى ابن أبى سرح بقتل هؤلاء، وابن أبى سرح كان عقب خروج المتمردين من مصر متجهين إلى المدينة كتب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه، وقد تغلب على مصر محمد بن أبى حذيفة، وفعلاً خرج ابن أبى سرح من مصر إلى العريش وفلسطين فالعقبة، فكيف يكتب له عثمان بقتلهم، وعنده كتابه الذى يستأذنه به منه بالقدوم عليه؟

٤ ـ أن عثمان رضى الله عنه قد نهى عن قتل المتمردين عندما حاصروه، وأبى على الصحابة أن يدافعوا عنه، ولم يأمر بقتال الخارجين دفاعًا عن نفسه ـ كما سيأتى تفصيله إن شاء الله ـ فكيف يكتب مثل هذا الكتاب المزور وقد خرجوا عنه من المدينة

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٩).

مظهرين التوبة والإنابة.

٥ ـ تخلف حكيم بن جبلة والأشتر النخعى ـ بعد خروج المتمردين ـ فى المدينة، يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذ لم يكن لهما أى عمل بالمدينة ليتخلفا فيها، وما مكثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا المصلحة فى ذلك (١) وربما كان ذلك بتوجيه من عبد الله بن سبأ، ولم يكن لعثمان رضى الله عنه فى ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان بن الحكم أية مصلحة، والذين يتهمون مروان فى هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهامه، وأن فى ديوان الخلافة من يجرى الأمور ويقضى بها دون علمه، وبذلك يبرئون ساحة أولئك المجرمين الناقمين الغادرين، ثم لو أن مروان زور الكتاب لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يبتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم فى الطريق حتى يأخذوه وإلا لكان متآمرًا معهم على عثمان، وهذا محال

٦ ـ إن هذا الكتاب المشئوم ليس أول كتاب يزوره هؤلاء المجرمون، بل زوروا كتبًا على لسان أمهات المؤمنين، وكذلك على لسان على وطلحة والزبير، فهذه عائشة رضى الله عنها تتهم بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان فتنفى وتقول: لا والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء فى بيضاء حتى جلست مجلسى هذا (٢).

ويعقب الأعمش فيقول: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها (٣)، ويتهم الوافدون عليًا بأنه كتب إليهم أن يقدموا عليه بالمدينة، فينكر ذلك عليهم ويقسم: والله ما كتبت إليكم كتابًا (٤)، كما ينسب إلى الصحابة بكتابة الكتب إلى أهل الأمصار يأمرونهم بالقدوم إليهم، فدين محمد قد فسد وترك، والجهاد فى المدينة خير من الرباط فى الثغور البعيدة (٥)، ويعلق ابن كثير على هذا الخبر قائلاً: وهذا كذب على

(١) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢٢٧.
(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٤).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٦٩.
(٤، ٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٥).

الصحابة، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، فقد كتب من جهة على وطلحة والزبير إلى الخوارج ـ قتلة عثمان ـ كتب مزورة عليهم أنكروها، وكذلك زور هذا الكتاب على عثمان أيضًا، فإنه لم يأمر به، ولم يعلم به[1]، ويؤكد كلام ابن كثير ما رواه الطبرى وخليفة من استنكار كبار الصحابة ـ على وعائشة والزبير ـ أنفسهم لهذه الكتب فى أصح الروايات[2]، إن الأيدى المجرمة التى زورت الرسائل الكاذبة على لسان أولئك الصحابة، هى نفسها التى أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها، ورتبت ذلك الفساد العريض، وهى التى زورت وروجت على عثمان تلك الأباطيل، وأنه فعل وفعل، ولقنتها للناس، حتى قبلها الرعاع، ثم زورت على لسان عثمان ذلك الكتاب، ليذهب عثمان ضحية إلى ربه شهيدًا سعيدًا، ولم يكن عثمان الشهيد هو المجنى عليه وحده فى هذه المؤامرة السبئية اليهودية، بل الإسلام نفسه كان مجنيًا عليه قبل ذلك، ثم التاريخ المشوه المحرف، والأجيال الإسلامية التى تلقت تاريخها مشوهًا هى كذلك ممن جنى عليهم الخبيث اليهودى، وأعوانه من أصحاب المطامع والشهوات والحقد الدفين، أما آن للأجيال الإسلامية أن تعرف تاريخها الحق، وسير رجالاتها العظام؟ بل ألم يأن لمن يكتب فى هذا العصر ـ من المسلمين ـ أن يخاف الله ولا يتجرأ على تجريح الأبرياء قبل أن يحقق ويدقق حتى لا يسقط كما سقط غيره[3].

ثانيًا: بدء الحصار ورأى عثمان فى الصلاة خلف أئمة الفتنة:

لم تفصل الروايات الصحيحة كيفية بدء الحصار، ووقوعه ولعل الأحداث التى سبقته تلقى شيئًا من الضوء على كيفية بدئه، فبينما كان عثمان رضى الله عنه يخطب الناس ذات يوم إذا برجل يقال له أعين[4]، يقاطعه ويقول له: يا نعثل[5]، إنك قد بدلت، فقال عثمان رضى الله عنه من هذا؟ فقالوا: أعين، قال عثمان: بل أنت أيها

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٧٥).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٥).

(٣) عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصابر، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٤) أعين بن ضبعية بن ناجية بن غفال التميمى الحنظلى الذرمى.

(٥) هو لقب أطلقه الخارجون على عثمان رضى الله عنه، وهذا اللقب أطلق من باب التنقيص.

العبد، فوثب الناس إلى أعين، وجعل رجل من بنى ليث يزعهم عنه حتى أدخله الدار(١)، وكان رجوع المتمردين الثانى، وقبل اشتداد الحصار كان عثمان رضى الله عنه يتمكن من الخروج للصلاة ودخول من شاء إليه، ثم منع الخروج من الدار حتى إلى الصلاة الفريضة(٢)، فكان يصلى بالناس رجل من المحاصرين، من أئمة الفتنة، حتى إن عبيد الله بن عدى ابن الخيار تحرج من الصلاة خلفه، فاستشار عثمان فى ذلك، فأشار عليه أن يصلى خلفه، وقال له: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم(٣)، وفى بعض الروايات الضعيفة أن الذى كان يصلى بالناس هو أميرهم الغافقى(٤)، ولا صحة لما روى الواقدى من أن عليًا رضى الله عنه أمر أيوب الأنصارى أن يصلى بالناس فصلى بهم أول الحصر، ثم صلى علىّ رضى الله عنه بهم العيد وما بعده(٥)، وإضافة إلى شدة ضعف إسناد هذه الرواية، فلو كان الذى يصلى بالناس هو على، أو أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنهما لما تحرج عبيد الله بن عدى بن الخيار من الصلاة خلفهما(٦).

ثالثًا: المفاوضات بين عثمان ومحاصريه:

وبعد أن تم الحصار، وأحاط الخارجون بدار عثمان رضى الله عنه، وطلبوا منه خلع نفسه أو يقتلوه(٧)، ورفض عثمان رضى الله عنه خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله(٨)، يشير إلى ما أوصاه به رسول الله ﷺ، بينما كان قلة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يرون خلاف ما ذهب إليه وأشار عليه بعضهم بأن

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٤٣)، وتاريخ دمشق ترجمة عثمان، ٢٤٧، إسناده حسن. وزعهم: كفهم.
(٢) تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ٣٤١ ـ ٣٤٢، إسناده حسن.
(٣) البخارى، كتاب الصلاة رقم ١٩٢.
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٤٥).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٤).
(٦) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٤٥).
(٧) الطبقات، لابن سعد (٣/ ٦٦). وتاريخ خليفة الخياط، ص ١٧١.
(٨) التمهيد، ص ٤٦ ـ ٤٧.

يخلع نفسه ليعصم دمه، ومن هؤلاء المغيرة بن الأخنس رضى الله عنه، لكنه رفض ذلك(١).

١ ـ ابن عمر يحث عثمان على عدم التنازل عن منصب الخلافة:

دخل ابن عمر على عثمان رضى الله عنه أثناء حصاره فقال له عثمان رضى الله عنه: انظر إلى ما يقول هؤلاء، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك، فقال ابن عمر رضى الله عنه: إذا خلعتها أمخلد أنت فى الدنيا؟ فقال عثمان رضى الله عنه: لا، قال فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال عثمان: لا، قال فهل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال: لا، قال فلا أرى لك أن تخلع قميصًا قمصكه الله فتكون سنة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه(٢).

رضى الله عن عبد الله بن عمر، ما كان أبعد نظره، إنه لا يريد أن يسن عثمان سنة سيئة للخلفاء ـ وحاشا لعثمان أن يفعل ـ فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخوارج السبئيين، وخلع نفسه، لصار الخلفاء ألعوبة وملهاة بأيدى الطامعين أو المغرضين، وبذلك تهتز صورة الخليفة، وتزول هيبته عند الناس، ولقد سن عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشورة ابن عمر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، حيث صبر واحتسب، فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفك دماء المسلمين(٣).

إن الاستجابة لمطالب المتمردين ـ وهم فئة قليلة من الأمة، ليسوا من أهل الحل والعقد، ولا من رجالات الإسلام وفقهاء الشريعة ستكون لها آثار خطيرة على مسيرة الأمة، وهيبة الخلافة، وعلاقة الراعى بالرعية، وكان ثمن دفع هذه الآثار السيئة أن دفع الخليفة حياته، وهو يعلم بمصيره، ويستسلم له وهو أمر ثقيل على النفس ولكنه قدم مصالح الأمة على مصلحته الشخصية، مما يكشف عن قوة وعزيمة، وشجاعة ومضاء، ويرد به على تلك التهم التى وجهت إليه من ضعف فى هذه الصفات، فإنه

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٤٧).
(٢) فضائل الصحابة (١/ ٤٧٣) إسناده صحيح.
(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص ١٧٩

رضى الله عنه كان قادرًا بإذن الله على كبح الفتنة، ولكنه قدر حدوث مفاسد تغلب على مصلحة كبحها، فأعرض عن ذلك درءًا لها، وبذلك يعلم خطأ العقاد عندما قال بأن قتل عثمان: لا يوصف بأكثر من أنه (مشاغبة دهماء) لم تجد من يكبحها[١]، فإن فى ذلك غمزًا فى شخصية وشجاعة عثمان رضى الله عنه، وهى حقًا فتنة دهماء، ولكن عدم كبحها يعد منقبة لعثمان رضى الله عنه لما فيه من تضحية فى سبيل الله، رجاء تحصيل مصلحة للأمة، وعملاً بوصية رسول الله ﷺ[٢].

٢ ـ توعد المحاصرين له بالقتل:

وبينما كان عثمان رضى الله عنه فى داره، والقوم أمام الدار محاصروها دخل ذات يوم مدخل الدار، فسمع توعد المحاصرين له بالقتل، فخرج من المدخل، ودخل على من معه فى الدار ولونه ممتقع فقال: إنهم ليتوعدوننى بالقتل آنفًا، فقالوا له: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين فقال: ولم يقتلوننى؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام قط، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلاً منذ هدانى الله، ولا قتلت نفسًا، ففيم يقتلوننى[٣]؟

ثم أشرف على المحاصرين،وحاول تهدئة ثورتهم وثنيهم عن خروجهم على إمامهم، مضمنًا كلامه الرد على ما عابوه به، وكشف الحقائق التى لبسها القوم، عسى أن يفيق المغرر بهم ويعودوا إلى رشدهم، فطلب من المحاصرين أن يخرجوا له رجلاً يكلمه، فأخرجوا له شابًا يقال له: صعصعة بن صوحان. فطلب عثمان رضى الله عنه أن يبين له ما نقموه عليه[٤].

---

(١) ذو النورين عثمان بن عفان، ص ١٢٢.
(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٤٩).
(٣) المسند (١/ ٦٣) وقال أحمد شاكر (٤٥٢): إسناده صحيح.
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٥٠).

٣ ـ إقامة عثمان الحجة على زيف استدلال صعصعة:

قال صعصعة: أخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، فقال له عثمان رضى الله عنه: اتل أى: استدل بالقرآن فقرأ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. فقال عثمان: ليست لك، ولا لأصحابك، ولكنها لى ولأصحابى فقرأ عثمان الآية التى استدل بها صعصعة، وما بعدها مما يفسرها ويبين زيف استدلال صعصعة بها فتلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١]. فأفهم عثمان رضى الله عنه الناس الآيات فهمًا صحيحًا كما نزلت، مبينًا سبب نزولها، وفيمن نزلت، وعلى ما تدل، لئلا يلبس عليهم من قرأ القرآن، وهو لا يعرف معناه ويستدل به على ما يضاد مراده[1]، كما أن نفى عثمان لمن نفاه إنما هو عمل بالآية التى تلى الآية التى استدل بها صعصعة، فإنها تأمر من مكنه الله فى الأرض، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وعثمان خليفة، ونفيهم أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لما قاموا به من تعد على بعض المسلمين، ومن محاولات لإثارة الفتنة[2].

٤ ـ تذكير عثمان رضى الله عنه الناس بفضائله:

وبعد أن رد عثمان رضى الله عنه على هؤلاء، ذكر الناس بمكانته وببعض فضائله مناشدًا من يعلمها أو سمعها من رسول الله ﷺ ليبينها للناس، فقد قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله بقدمه ثم قال: اسكن حراء ليس عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد وأنا معه[3]، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله

---

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٥١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٥٢).

(٣) روى مسلم نحوه، كتاب فضائل الصحابة حديث (٢٤١٧)، ولفظ أنه ﷺ كان على جبل حراء =

من شهد رسول الله يوم بيعة الرضوان إذ بعثنى إلى المشركين إلى أهل مكة فقال: هذه يدى وهذه يد عثمان، فبايع لى، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ قال: من يوسع لنا لهذا البيت فى المسجد ببيت له فى الجنة. فابتعته من مالى فوسعت به المسجد، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة قال: من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالى، فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد الله من هد رومة يباع ماؤها ابن السبيل فابتعتها من مالى فأبحتها ابن السبيل قال: فانتشد له رجال[1]، وعن أبى ثور الفهمى يقول: قدمت على عثمان فبينا أنا عنده فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا، فدخلت على عثمان فأعلمته، قال: فكيف رأيتهم؟ فقلت: رأيت فى وجوههم الشر، وعليهم ابن عديس البلوى، فصعد ابن عديس منبر رسول الله ﷺ فصلى بهم الجمعة، وتنقص عثمان فى خطبته، فدخلت على عثمان فأخبرته بما قال فيهم، فقال: كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكر ما ذكرت، إنى رابع أربعة فى الإسلام، ولقد أنكحنى رسول الله ﷺ ابنته ثم توفيت، فأنكحنى ابنته الأخرى، ولا زنيت ولا سرقت فى جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا أتت على جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت، إلا أن لا أجدها فى تلك الجمعة، فأجمعها فى الجمعة الثانية[2].

ولما رأى عثمان رضى الله عنه إصرار المتمردين على قتله، حذرهم من ذلك ومن مغبته، فاطلع عليهم من كَوَّة[3]، وقال لهم: أيها الناس، لا تقتلونى واستعتبونى، فوالله لئن قتلتمونى لا تقاتلوا جميعًا أبدًا، ولا تجاهدون عدوًا أبدًا، لتختلفن حتى

= بمكة هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير - وفى رواية سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم، نتحرك فقال ﷺ: «اسكن حراء! فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد» وهو من معجزاته ﷺ.

(١) المسند (١/ ٥٩) وقال أحمد شاكر (٤٢٠): إسناده صحيح.

(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ٤٨٨). وخلافة عثمان بن عفان، للسلمى، ص ٩١.

(٣) الكوة: الخرق فى الحائط.

تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه[١]، وفى رواية أنه قال: أيها الناس لا تقتلونى فإنى والٍ وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت، أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلونى لا تصلوا جميعًا أبدًا، ولا تغزوا جميعًا أبدًا، ولا يقسم فيئكم بينكم[٢]، وقال أيضًا: فوالله لئن قتلونى لا يحابون بعدى أبدًا، ولا يقاتلون بعدى عدوًا أبدًا[٣]، وقد تحقق ما حذرهم منه، فبعد قتله وقع كل ما قاله رضى الله عنه وفى ذلك يقول الحسن البصرى: فوالله إن صلى القوم جميعًا إن قلوبهم لمختلفة[٤].

رابعًا: دفاع الصحابة عن عثمان رضى الله عنه ورفضه لذلك:

أرسل عثمان رضى الله عنه إلى الصحابة رضى الله عنهم يشاورهم فى أمر المحاصرين وتوعدهم إياه بالقتل، فكانت مواقفهم كالآتى:

١ ـ على بن أبى طالب رضى الله عنه:

فقد أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن عليًا أرسل إلى عثمان فقال: إن معى خمسمائة دارع، فأذن لى فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئًا يستحل به دمك، فقال: جزيت خيرًا، ما أحب أن يهراق دم فى سببى[٥].

٢ ـ الزبير بن العوام رضى الله عنه:

عن أبى حبيبة[٦]، قال: بعثنى الزبير إلى عثمان ـ وهو محاصر ـ فدخلت عليه فى يوم صائف، وهو على كرسى، وعنده الحسن بن على، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فقلت: بعثنى إليك الزبير بن العوام وهو يقرئك السلام ويقول لك: إنى على طاعتى، لم أبدل ولم أنكث، فإن شئت دخلت الدار معك، وكنت رجلاً من القوم، وإن شئت أقمت، فإن بنى عمرو بن عوف وعدونى أن

---

(١) الطبقات (٣/ ٧١). وتاريخ ابن خياط، ص ١٧١ إسناده صحيح.
(٢) الطبقات (٣/ ٦٧ ـ ٦٨). وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٥٦)
(٣) تاريخ ابن خياط، ص ١٧١ . وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٥٧) إسناده حسن.
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٥٧).
(٥) تاريخ دمشق، ص ٤٠٣.
(٦) هو أبو حبيبة مولى الزبير بن العوام، روى عن الزبير، وسمع أبا هريرة وعثمان محصور.

يصبحوا على بابى، ثم يمضون على ما آمرهم به، فلما سمع ـ يعنى عثمان ـ الرسالة قال: الله أكبر الحمد لله الذى عصم أخى، أقرئه السلام، ثم قل له: أحب إلى وعسى الله أن يدفع بك عنى، فلما قرأ الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أخبركم ما سمعت أذناى من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى قال: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: تكون بعدى فتن وأمور فقلنا، فأين المنجى منها يا رسول الله؟ قال: إلى الأمين وحزبه، وأشار إلى عثمان بن عفان، فقام الناس فقالوا: قد أمكنتنا البصائر، فأذن لنا فى الجهاد؟ فقال: أعزم على من كانت لى عليه طاعة ألا يقاتل(١) .

٣ ـ المغيرة بن شعبة رضى الله عنه:

فقد ورد أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه دخل عليه ـ وهو محاصر ـ فقال: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى وإنى أعرض عليك خصالاً ثلاثًا، اختر إحداهن: إما أن تخرج فتقاتلهم، فإن معك عددًا وقوة، وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما أن تخرق بابًا سوى الباب الذى هم عليه، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة، فإنهم لن يستحلوك بها، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية، فقال عثمان: إما أن أخرج فأقاتل، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء، وإما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلونى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم، ولن أكون أنا، وإما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتى ومجاورة الرسول ﷺ(٢) .

٤ ـ عبد الله بن الزبير رضى الله عنه:

عزم الصحابة رضى الله عنهم على الدفاع عن عثمان رضى الله عنه، ودخل بعضهم الدار، ولكن عثمان رضى الله عنه عزم عليهم بشدة، وشدد عليهم فى الكف عن القتال دفاعًا عنه مما حال بين رغبتهم الصادقة فى الدفاع عنه وبين تحقيقها، وكان

(١) فضائل الصحابة (١/ ٥١١ ـ ٥١٢) إسناده صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢١١).

من ضمن أولئك عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فقد قال لعثمان رضى الله عنه: قاتلهم فوالله لقد أحل الله لك قتالهم، فقال عثمان: لا والله لا أقاتلهم أبدًا(١).

وفى رواية: يا أمير المؤمنين، إنا معك فى الدار عصابة مستبصرة، ينصر الله بأقل منها، فأذن لنا، فقال عثمان رضى الله عنه: أنشد الله رجلاً أهراق فىَّ دمه(٢) ثم أمره على الدار، وقال: من كانت لى عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير(٣).

٥ ـ كعب بن مالك، وزيد بن ثابت الأنصاريان رضى الله عنهما:

حث كعب بن مالك رضى الله عنه الأنصار على نصرة عثمان رضى الله عنه وقال لهم: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان ووقفوا بابه، ودخل زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنا أنصار الله مرتين(٤)، فرفض القتال وقال: لا حاجة لى فى ذلك كفوا(٥).

٦ ـ الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه:

وجاء الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ وقال له: اخترط سيفى؟ قال له: لا، أبرأ(٦) الله إذا من دمك، ولكن ثم(٧) سيفك وارجع إلى أبيك(٨).

٧ ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما:

ولما رأى الصحابة أن الأمر استفحل، وأن السيل بلغ الزبى(٩)، عزم بعضهم على

(١) الطبقات ابن سعد (٣/ ٧٠) إسناده صحيح.
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٠) وتاريخ ابن خياط، ص ١٧٣.
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٧٠) إسناده صحيح إلى عبد الله بن الزبير.
(٤) الطبقات ابن سعد (٣/ ٧٠)، وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٢).
(٥) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٢).
(٦) هكذا فى الأصل ولعلها (أبرأ إلى الله).
(٧) هكذا فى الأصل والثم هو: إصلاح الشيء وإحكامه، لسان العرب (١٢/ ٧٩) ويحتمل أن تكون مصحفة من شم، والشم هو: إعادة السيف.
(٨) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٢). والمصنف لابن أبى شيبة (١٥/ ٢٢٤).
(٩) بلغ الماء الزبى أو الربى، ويروى بلغ السيل الزبى أو الربى، والزبى: جمع زبية الأسد، وهى حفرة =

الدفاع عنه دون استشارته، فدخل بعضهم الدار مستعداً للقتال، فقد كان ابن عمر معه فى الدار، متقلداً سيفة لابسًا درعه ليقاتل دفاعًا عن عثمان رضى الله عنه، ولكن عثمان عزم عليه أن يخرج من الدار خشية أن يتقاتل مع القوم عند دخولهم عليه فيقتل. كما لبسه مرة أخرى[1].

٨ ـ أبو هريرة رضى الله عنه:

ودخل الدار على عثمان رضى الله عنه يقول: يا أمير المؤمنين طاب أمضرب[2]، فقال له: يا أبا هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياى؟ قال: لا، قال: فإنك والله إن قتلت رجلاً واحدًا فكأنما قتل الناس جميعًا، فرجع ولم يقاتل، وفى رواية: أن أبا هريرة كان متقلدًا سيفه حتى نهاه عثمان[3].

٩ ـ سليط بن سليط:

قال: نهانا عثمان رضى الله عنه عن قتالهم، ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها[4].

ويقول ابن سيرين: كان مع عثمان رضى الله عنه فى الدار سبعمائة، لو يدعهم لضربوهم ـ إن شاء الله ـ حتى يخرجوهم من أقطارها، منهم ابن عمر، والحسن بن على، وعبد الله بن الزبير، ويقول أيضًا: لقد قتل عثمان ـ يوم قتل ـ وإن الدار لغاصة، منهم ابن عمر وفيهم الحسن بن على فى عنقه السيف، ولكن عثمان عز عليهم ألا يقاتلوا[5].

وبذلك يظهر زيف ما اتهم به الصحابة مهاجرين وأنصاراً من تخاذل عن نصرة

= تحفر له فى مكان مرتفع ليصطاد، فإذا بلغ الماء فهو المجحف، الربا جمع ربوة وهذا المثل يضرب فى الشر الفظيع، المستقى فى أمثال العرب للزمخشرى (٢/ ١٤).

(١) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٣).

(٢) الميم بدل اللام، فأصلها (الضرب) وهى لغة لبعض أهل اليمن.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٦٤

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٥).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة عثمان، ص ٣٩٥.

عثمان رضى الله عنه، وكل ما روى فى ذلك، فإنه لا يسلم من علة إن لم تكن عللاً قادحة فى الإسناد والمتن جميعًا(١).

١٠ - عرض بعض الصحابة على عثمان مساعدته فى الخروج إلى مكة:

ولما رأى بعض الصحابة إصرار عثمان رضى الله عنه على رفض قتال المحاصرين، وأن المحاصرين مصرون على قتله، لم يجدوا حيلة لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته فى الخروج إلى مكة هربًا من المحاصرين، فقد روى أن عبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، عرضوا عليه ذلك، وكان عرضهم متفرقًا، فقد عرض كل واحد منهم عليه ذلك على حدة، وعثمان رضى الله عنه يرفض كل هذه العروض(٢).

• الأسباب التى دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال:

يظهر للباحثين من خلال روايات الفتنة أن هناك أسبابًا خمسة هى:

١ - العمل بوصية رسول الله ﷺ التى ساره بها، وبينها عثمان رضى الله عنه يوم الدار، وأنها عهدٌ عَهِدَ به إليه وأنه صابر نفسه عليه(٣).

٢ - ما جاء فى قوله: لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء، أى كره أن يكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك دماء المسلمين(٤).

٣ - علمه بأن البغاة لا يريدون غيره، فكره أن يتوقى بالمؤمنين، وأحب أن يقيهم بنفسه(٥).

٤ - علمه بأن هذه الفتنة فيها قتله، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة على بلوى تصيبه، وأنه سيقتل مصطبرًا بالحق معطيه فى فتنة،

(١، ٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٦).

(٣) فضائل الصحابة (١/ ٦٠٥) إسناده صحيح.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٧). و(المسند ١/ ٣٩٦) أحمد شاكر.

(٥) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٧) وإسناد الرواية فيه ضعف.

والدلالات تدل على أن أوانها قد حان، وأكد ذلك تلك الرؤيا التى رآها ليلة قتله فقد رأى رسول الله ﷺ، وقال له أفطر عندنا القابلة، ففهم رضى الله عنه أن موعد الاستشهاد قد قرب.

٥ ـ العمل بمشورة ابن سلام رضى الله عنه له إذ قال له: الكف الكف فإنه أبلغ لك فى الحجة[١].

وتحقق إخبار النبى ﷺ، بأن عثمان رضى الله عنه سوف يقتل وذلك فيما رواه عبد الله بن حوالة رضى الله عنه[٢] عن النبى ﷺ قال: من نجا من ثلاث فقد نجا ـ ثلاث مرات ـ موتى والدجال وقتل خليفة، مصطبر بالحق معطيه[٣].

وفيما تقدم يتبين هدوءه فى التفكير رضى الله عنه وأن شدة البلوى لم تحل بينه وبين ذلك التفكير الصحيح، والرأى السليم، فقد تضافرت الأسباب لتحديد هذا الموقف المسالم فى قتال الخارجين عليه، ولا شك أنه رضى الله عنه كان على الحق فى مواقفه التى اتخذها، لما صح عن النبى ﷺ أنه أشار إلى وقوع هذه الفتنة، وشهد لعثمان، وأصحابه أنهم على الحق فيها[٤].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس عن من نال من عرضه، وعلى من سعى فى دمه فحاصروه وسعوا فى قتله، وقد عرف إرادتهم لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه، ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال ويأمر من يطيعه أن لا يقاتلهم... وقيل له: تذهب إلى مكة، فقال: لا أكون ممن ألحد فى الحرم، فقيل له: تذهب إلى الشام، فقال: لا أفارق دار هجرتى، فقيل له: فقاتلهم فقال: لا أكون أول من خلف محمداً فى أمته بالسيف، فكان صبر عثمان حتى قتل من أعظم فضائله عند المسلمين[٥].

---

(١) الطبقات (٣/ ٧١) إسناده حسن.

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٨)، إسناده حسن أو صحيح.

(٣) المسند (٤/ ٤١٩) (٥/ ٣٤٦)، تحقيق: أحمد شاكر.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٨). انظر الأحاديث الصحيحة التى ذكرتها فى فضائله وإخبار النبى ﷺ عن قتله فى هذا الكتاب.

(٥) منهاج السنة (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

خامسًا: موقف أمهات المؤمنين وبعض الصحابيات:

١ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها:

كان موقف السيدة أم المؤمنين، أم حبيبة من المواقف البالغة الخطر فى هذه الأحداث، وهو موقف كان من الخطورة بحيث كادت رضى الله عنها أن تقتل فيه، ذلك أنه لما حوصر عثمان رضى الله عنه ومنع عنه الماء، سرح عثمان ابنا لعمرو بن حزم الأنصارى ـ من جيران عثمان ـ إلى على بأنهم قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا. وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى عائشة وأزواج النبى ﷺ فكان أولهم إنجادًا له على وأم حبيبة (١)، وكانت أم حبيبة معنية بعثمان، كما قال ابن عساكر، وكان هذا طبيعيًا منها حيث النسب الأموى الواحد، جاءت أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل. قالوا: كاذبة، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندت (٢)، بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها، فتعلقوا بها، وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها (٣)، ويبدو أنها رضى الله عنها أمرت ابن الجراح، مولاها أن يلزم عثمان رضى الله عنه، فقد حدثت أحداث الدار، وكان ابن الجراح حاضراً (٤).

٢ ـ صفية زوجة رسول الله ﷺ:

وما فعلته السيدة أم حبيبة فعلت مثله السيدة صفية رضى الله عنها، فلقد روى عن كنانة (٥)، قال: كنت أقود بصفية لترد على عثمان، فلقيها الأشتر (٦)، فضرب وجه بغلتها حتى مالت: فقالت: ذرونى، لا يفضحنى هذا! ثم وضعت خشبًا من منزلها

(١) دور المرأة السياسى، أسماء محمد، ص ٣٤٠.

(٢) ند البعير ونحوه ندا، وندودًا: نفر وشرد.

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن دور المرأة السياسى، ص ٣٤٠.

(٤) تاريخ المدينة (٢/ ٢٩٨).

(٥) كنانة بن عدى بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمى.

(٦) دور المرأة السياسى، ص ٣٤٠.

إلى منزل عثمان تنقل عليه الطعام والماء[١].

٣ـ عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها:

ولما حدث ما حدث للسيدة أم حبيبة أعظمه الناس جدًا، فخرجت عائشة رضى الله عنها من المدينة وهى ممتلئة غيظًا على المتمردين، وجاءها مروان بن الحكم فقال: أم المؤمنين، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل. فقالت: أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة، ثم لا أجد من يمنعنى! لا والله، لا أُعيَّر[٢]، ولا أدرى إلام يسلم أمر هؤلاء[٣]، ورأت رضى الله عنها أن خروجها ربما كان معينًا فى فض هذه الجموع كما سيتضح من الرواية الآتية بعد، وتجهزت أمهات المؤمنين إلى الحج هربًا من الفتنة، على أن خروجهن لم يكن تنزُّهًا عن ملابسات الفتنة وحسب، ولم يكن هربًا محضًا، وإنما كان محاولة منهن لتخليص عثمان رضى الله عنه من أيدى هؤلاء المفتونين، الذين كان منهم محمد بن أبى بكر، أخو السيدة عائشة رضى الله عنها، الذى حاولت أن تَستَتْبعه معها إلى الحج فأبى، ولقد دلل على هذه المحاولة منها أن استتباعها له، ورفضه كانا لافتين للنظر حتى إن حنظلة الكاتب[٤]، قد هاله رفض محمد لأن يتبع أم المؤمنين، وقارن بين هذا الرفض وبين متابعته لأهل الأمصار، قائلاً: يا محمد تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتدعوك ذؤبان[٥] العرب إلى ما لا يحل فتتبعهم، فأبى، فقالت السيدة عائشة: أما والله لو استطعت أن يحرمهم الله ما يجولون لأفعلن[٦]. وهذا القول منها، بعدما حاولته مع أخيها، دليل على أنها قد بدأت محاولتها لفض الثائرين عن عثمان، ولإثارة الرأى العام عليهم منذ بدأ تفكيرها فى الذهاب إلى مكة، وهذا هو ما أكد عليه الإمام ابن العربى، قال: إنه يروى أن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٧).

(٢) أعير: من العار. ولقد يبدى هذا التعبير أن الحالة التى وضع فيه الغوغاء السيدة أم حبيبة كانت شديدة الإيلام.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠١).

(٤) حنظلة بن ربيع التميمى، كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فسمى الكاتب.

(٥، ٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠١).

تغيبهم ـ تغيب أمهات المؤمنين مع عدد من الصحابة ـ كان قطعًا للشغب بين الناس، رجاء أن يرجع الناس إلى أمهاتهم، وأمهات المؤمنين، فيرعوا حرمة نبيهم[١] ويستمعوا إلى كلمتهن التى طالما كانوا يقصدونها من كل الآفاق[٢].

أى أن خروجهم كان نوعًا من التفريق لهذه الجموع، حيث كان معروفًا عند الناس التماس رأيهن، وفتاواهن، وكنَّ رضوان الله عليهن لا يتصورن أن يصل الأمر بهؤلاء الناس إلى قتل الخليفة رضى الله عنه[٣].

٤ ـ مواقف للصحابيات:

أ ـ وقد حاولت **أسماء بنت عميس** نفس المحاولة التى حاولتها أم المؤمنين عائشة، فبعثت إلى ابنيها، محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر[٤]، فقالت: إن المصباح يأكل نفسه ويضىء للناس، فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما، فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غدًا، فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم، فلجَّا وخرجا مُغضَبَين يقولان: لا ننسى ما صنع بنا عثمان، وتقول: ما صنع بكما! ألا ألزمكما الله[٥]، وقيل: الحديث كان بين ليلى بنت أسماء وأخويها[٦].

وهى فى ذلك تشير إلى أنه لما جاء أهل الأمصار، وكروا راجعين إلى المدينة، بعدما كانوا ناظروا عثمان رضى الله عنه فناظرهم، وأقام عليهم الحجة، فأظهروا أنهم راجعون إلى بلادهم، ثم ما لبثوا أن عادوا بدعوى أن عثمان رضى الله عنه بعث رسلاً فى قتل أناس كان منهم حسب دعواه: محمد بن أبى بكر[٧]، ولعل هذا هو ما يشير إليه محمد بن أبى بكر فى قوله: لا ننسى ما صنع بنا عثمان، وقد نفى عثمان

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٥٦.

(٢) دور المرأة السياسى، ص٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٣.

(٤) محمد بن جعفر بن أبى طالب، أمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ولد بأرض الحبشة، شهد صفين مع على، وكان مع أخيه محمد بمصر لما قتل.

(٥، ٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٠٢).

(٧) دور المرأة السياسى، ص٣٤٣.

رضى الله عنه نسبة هذا الكتاب إليه، وقال: إما أن تقيموا شاهدين علىّ بذلك، وإلا فيمينى: أنى ما كتبتُ ولا أمرتُ، وقد يكتب على لسان الرجل ويُضرب على خطه، ويُنقش على خاتمه(١).

لقد كانت السيدة أسماء رضى الله عنها واعية بما يجرى من تدبير خفى لزعزعة أحوال المسلمين، وتنحية عثمان رضى الله عنه عن الخلافة، وهكذا فإن موقفها رضى الله عنها، من ابنيها، ووضوح الأمر عندها على هذا النحو الذى جعلها لا تتأثر فى مقام الأمومة، ولا تبدو إلا مُحِقة للحق فى هذا الموقف الواضح، هذا الموقف لا يستهان به ولا شك، وهو يعد صورة جلية لعدالة هؤلاء الصحابة الكرام(٢).

ب ـ الصعبة بنت الحضرمى:

ولما اشتد حصار عثمان رضى الله عنه طلبت الصعبة بنت الحضرمى من ابنها طلحة ابن عبيد الله أن يكلم عثمان كى يردعه عن إصراره على إسلامه نفسه دون مدافعة من الصحابة، واستنصار بأهل الأمصار، فقد خرجت الصعبة بنت الحضرمى، وقالت لابنها طلحة بن عبيد الله: إن عثمان اشتد حصره، فلو كلمته حتى تردعه(٣)، والرواية يبدو منها إشفاق الصعبة على عثمان رضى الله عنه، كما يبدو منها كذلك عناية أم عبد الله بن رافع بالأمر، ومتابعتها لما يجرى من أحداث الفتنة(٤)، وهى التى روت عن الصعبة بنت الحضرمى الحادثة(٥).

هذا هو الموقف العام لنساء المسلمين فقد كان موقفًا معتدلاً وقادرًا على النظر السليم فى المسألة رغم الغيوم التى كانت ملتبسة بها، وهو على كل حال كان هذا موقف الصحابة جميعًا رضى الله عنهم وأرضاهم(٦).

(١) العواصم من القواصم، ص١٢٠.
(٢) دور المرأة السياسى، ص٣٤٤.
(٣ ـ ٥) دور المرأة السياسى، ص٣٤٥.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٤٥، ٣٤٦.

سادسًا: من حجّ بالناس ذلك العام؟ وهل طلب عثمان من الولاة نصرته؟

١ ـ من حج بالناس ذلك العام (٣٥هـ)؟:

استدعى عثمان عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وكلفه أن يحجّ بالناس هذا الموسم، فقال له ابن عباس: دعنى أكن معك وبجانبك يا أمير المؤمنين، فى مواجهة هؤلاء، فوالله إن جهاد هؤلاء الخوارج أحبُّ إلى من الحجّ قال له: عزمت عليك أن تحجّ بالمسلمين فلم يجد ابن عباس أمامه إلا أن يطيع أمير المؤمنين وكتب عثمان كتابًا مع ابن عباس، ليقرأ على المسلمين فى الحج، بيَّن فيه قصته مع الخوارج عليه، وموقفه منهم، وطلباتهم منه[1]، وهذا نص خطاب عثمان رضى الله عنه للمسلمين فى موسم الحج عام ٣٥هـ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإنى أذكركم بالله جَلَّ وَعَزَّ الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر، وأراكم البينات وأوسع عليكم من الرزق، ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمته، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول وقوله الحق: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥].

وقال وقوله الحق: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

---

(١) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص١٦٧، ١٦٨.

وقال وقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٦ ـ ٨] .

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] .

وقال وقوله الحق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] .

وقال وقوله الحق: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٦] .

وقال وقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩] .

وقال وقوله الحق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

أما بعد، فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رضى لكم السمع والطاعة والجماعة، وحذركم المعصية والفرقة والاختلاف، ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم، وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه، فاقبلوا نصيحة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واحذروا عذابه، فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف، إلا أن يكون لها رأس يجمعها، ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعًا، وسلط عليكم عدوكم، ويستحل بعضكم حرمة بعض، ومتى يفعل ذلك لا يقم لله سبحانه دين، وتكونوا شيعًا، وقد قال الله جَلَّ وَعَزَّ لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذركم عذابه، فإن شعيبًا ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٩ ـ ٩٠].

أما بعد، فإن أقوامًا ممن كان يقول فى هذا الحديث، أظهروا للناس أنما يدعون إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ والحق، ولا يريدون الدنيا، ولا منازعة فيها، فلما عرض عليهم الحق إذا الناس فى ذلك شتى، منهم آخذ للحق، ونازع عنه حين يعطاه، ومنهم تارك للحق ونازل عنه فى الأمر، يريد أن يبتزه بغير الحق، طال عليهم عمرى وراث عليهم[1]، أملهم الإمرة، فاستعجلوا القدر، وقد كتبوا إليكم أنهم قد رجعوا بالذى أعطيتهم، ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئًا، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود، فقلت: أقيموها على من علمتم تعداها فى أحد، أقيموها على من

---

(١) راث: أبطأ.

ظلمكم من قريب أو بعيد، قالوا: كتاب الله يُتلى، فقلت: فليتله من تلاه غير غالٍ فيه بغير ما أنزل الله فى الكتاب. وقالوا: المحروم يرزق والمال يوفَّى ليُستن فيه السنة الحسنة، ولا يُعتدى فى الخمس ولا فى الصدقة، ويؤمَّر ذو القوة والأمانة، وترد مظالم الناس إلى أهلها، فرضيت بذلك واصطبرت له، كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر، استعجلوا القدر ومنعوا منى الصلاة، وحالوا بينى وبين المسجد، وابتزُّوا ما قدروا عليه بالمدينة، كتبت إليكم كتابى هذا، وهم يخيروننى إحدى ثلاث: إما يَقِيدوننى بكل رجل أصبته خطأً أو صوابًا، غير متروك منه شيء، وإما أعتزل الأمر فيؤمّرون آخر غيرى، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرؤون من الذى جعل الله سبحانه عليهم من السمع والطاعة. فقلت لهم: أما إقادتى من نفسى فقد كان من قبلى خلفاء تخطئ وتصيب فلم يُستقد[1] من أحد منهم، وقد علمت أنما يريدون نفسى، وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلُبونى[2] أحب إلى من أن أتبرأ من عمل الله عَزَّ وَجَلَّ وخلافته، وأما قولكم: يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرؤون من طاعتى فلست عليكم بوكيل، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة، ولكن أتوها طائعين، يبتغون مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ وإصلاح ذات البين، ومن يكن منكم يبتغى الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عَزَّ وَجَلَّ له، ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ والسنة الحسنة التى استن بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده رضى الله عنهما، فإنما يجزى بذلكم الله، وليس بيدى جزاؤكم، ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن فى ذلك ثمن لدينكم، ولم يُغْن عنكم شيئًا، فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده، فمن يرض بالنكث منكم فإنى لا أرضاه له، ولا يرضى الله سبحانه أن تنكثوا عهده، وأما الذى يخيروننى فإنما كله النزع والتأمير، فملكت نفسى ومن معى، ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه، وكرهت سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء، فإنى أنشدكم الله وبالإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه منى وترك البغى على أهله،

(١) استقاد الحاكم: سأله أن يقيد القاتل بالقتل.

(٢) كلبه: ضربه بالكلاب، والكلاب: الحديدة التى على خلف الراكض.

وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنى أنشدكم الله سبحانه الذى جعل عليكم العهد والمؤازرة فى أمر الله سبحانه قال وقوله الحق: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، فإن هذه معذرة إلى الله ولعلكم تذكرون، أما بعد، فإنى لا أبرئ نفسى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، وإن عاقبت أقوامًا فما أبتغى بذلك إلا الخير، وإنى أتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من كل عمل عملته، وأستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلا هو، إن رحمة ربى وسعت كل شىء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. وأنا أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر لى ولكم، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير، ويكره إليها الفسق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون. قال ابن عباس: فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التروية[1] بمكة بيوم.

٢ ـ هل طلب عثمان رضى الله عنه من الولاة نصرته؟

يزعم سيف بن عمر فى روايته عند الطبرى أن عثمان ـ لما حصر ـ كتب إلى عماله على الأمصار يستمدهم فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى على رأس جيش، وكذا فعل عبد الله بن سعد فى مصر فأرسل معاوية بن حديج، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو على رأس قواته[2]، وهذا الزعم لا يتفق مع منهج عثمان فى مواجهة الفتنة ومن إيثار العافية والكف، ولا يتفق مع تيقنه بالقتل، ولا يتفق مع ما لجأ إليه من صرف المدافعين عنه من كبار الصحابة وأبنائهم، بل عبيده ومواليه الذين نهاهم أشد النهى عن القتال، بل جعل العتق نصيب من يكف يده منهم ولا يقاتل كما سوف نرى. . ولكن الذى يمكن تصوره هو أنه كما بادر جماعة من الصحابة إلى الدفاع عن عثمان دون أن يطلب منهم ذلك ورغم محاولاته العديدة لصرفهم، فإنه قد بادرت جماعات كثيفة من أجناد المسلمين فى الأمصار للدفاع عن الخليفة المظلوم من تلقاء أنفسهم وتوجيه من أمرائهم، ولا يصح أن نظن أن رجلاً مثل معاوية فى قرابته

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٣١).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٧٩، ٣٨٠).

من عثمان كان سيسعه ـ لو أراد ـ أن يتقاعس عن السير إليه أو تسيير الجنود إليه، ولا يمكن أن نفترض أن رجالاً مثل أنصار عثمان بمصر ـ وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وغيرهما من أبطال المسلمين ـ كانوا سينتظرون قابعين حتى يقتل الخليفة ثم يتحركون للثأر له، ويعرضون نحورهم للقتل فى سبيله، بل الذى يمكن تصوره وافتراضه أن جنوداً من الأمصار قد تحركت بالفعل نحو المدينة لنجدة الخليفة دون أن يطلب منها نجدته [١].

٣ ـ آخر خطبة خطبها عثمان رضى الله عنه:

كان آخر لقاء عام لعثمان مع المسلمين بعد أسابيع من الحصار، حيث دعا الناس، فاجتمعوا له جميعًا، المحارب الطارئ من السبئيين والمسالم المقيم من أهل المدينة، وكان فى مقدمة القادمين: على وطلحة والزبير، فلما جلسوا أمامه قال لهم: إن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكم الدنيا لتركنوا إليها، وإن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله، واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنّ تقواه جُنّة ووقاية من بأسه وانتقامه، والزموا جماعتكم، ولا تصيروا أحزابًا، قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٣] ثم قال للمسلمين: يا أهل المدينة: إنى أستودعكم الله، وأسأله أن يُحسن عليكم الخلافة من بعدى، وإنى والله لا أدخل على أحد بعد يومى هذا، حتى يقضى الله فىَّ قضاءه، ولأدعنَّ هؤلاء الخوارج وراء بابى، ولا أُعطيهم شيئًا، يتخذونه عليكم دخلاً فى دين أو دنيا، حتى يكون الله هو الصانع فى ذلك ما أحبَّ، وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن ومحمد وابن الزبير وأشباهًا لهم، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار [٢]، حتى أتاه أجله.

---

(١) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٩٩، ٤٠٠).

سابعًا: استشهاد عثمان رضى الله عنه:

وفضلاً عن تحرك جيوش الأمصار منها لنجدة الخليفة فقد كانت أيام الحج تنقضى سريعًا وتوشك جماعات من هؤلاء أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة، وبخاصة مع وجود عبد الله بن عباس وعائشة وغيرهما من المدافعين عن عثمان، وقدمت الأخبار إلى المتمردين بأن أهل الموسم يريدون نصرة عثمان، فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار إليهم أعلقهم الشيطان وقالوا: لا يُخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا[1].

١ ـ آخر أيام الحصار وفيه الرؤيا:

وفى آخر أيام الحصار ـ وهو اليوم الذى قتل فيه ـ نام رضى الله عنه، فأصبح يحدث الناس ليقتلنى القوم[2]، ثم قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام، ومعه أبو بكر وعمر، فقال النبى ﷺ: يا عثمان أفطر عندنا، فأصبح صائمًا، وقتل من يومه[3].

٢ ـ صفة قتله:

هاجم المتمردون الدار فتصدى لهم الحسن بن على وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، فنشب القتال فناداهم عثمان: الله الله، أنتم فى حلٍّ من نصرتى، فأبوا، ودخل غلمان عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا، بل إنه أعلن أنه من كف يده منهم فهو حر[4]، وقال عثمان فى وضوح وإصرار وحسم ـ وهو الخليفة الذى تجب طاعته: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كفّ يده وسلاحه[5]، ولا تبرير لذلك إلا بأن عثمان كان واثقًا من استشهاده بشهادة النبى ﷺ له بذلك؛ ولذلك أراد

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ٤٠٢).

(٢) الطبقات، لابن سعد (٣/ ٧٥). وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٧٢).

(٣) الطبقات (٣/ ٧٥) الخبر حسن لغيره، وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٧٥).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٨٢. والبداية والنهاية (٧/ ١٩٠).

(٥) العواصم من القواصم، ص١٣٣.

ألا تراق بسببه الدماء، وتقوم بسببه فتنة بين المسلمين[١]، وكان المغيرة بن الأخنس بن شريف فيمن حج ثم تعجل فى نفر حجوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتل، ودخل الدار يحمى عنه وقال: ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت؟ فأقدم المتمردون على حرق الباب والسقيفة، فثار أهل الدار وعثمان يصلى حتى منعوهم وقاتل المغيرة بن الأخنس والحسن بن على ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم وأبو هريرة، فأبلوا أحسن البلاء وعثمان يرسل إليهم فى الانصراف دون قتال، ثم ينتقل إلى صلاته، فاستفتح قوله تعالى: ﴿طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣] وكان سريع القراءة فما أزعجه ما سمع، ومضى فى قراءته ما يخطئ وما يتعتع، حتى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه ثم عاد فجلس وقرأ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وأصيب يومئذ أربعة من شبان قريش وهم الحسن بن على، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم[٢]، وقتل المغيرة بن الأخنس، ونيار بن عبد الله الأسلمى[٣]، وزياد الفهرى واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخُلِّى بينه وبين المحاصرين، فلم يبق فى الدار إلا عثمان وآله، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع، ولا حام من الناس، وفتح رضى الله عنه باب الدار[٤].

وبعد أن خرج من فى الدار ممن كان يريد الدفاع عنه، نشر رضى الله عنه المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائمًا، فإذا برجل من المحاصرين - لم تسمه الروايات - يدخل عليه، فلما رآه عثمان رضى الله عنه قال له: بينى وبينك كتاب الله[٥] فخرج الرجل وتركه، وما إن ولى حتى دخل آخر، وهو رجل من بنى سدوس، يقال

---

(١) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٨٣.

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٦٩)، رواية صحيحة. وتاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٤).

(٣) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص١٨٤، ١٨٥. والبداية والنهاية (٧/ ١٩٦).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٨٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٥، ٤٠٦).

له الموت الأسود فخنقه قبل أن يضربه بالسيف، فقال: والله ما رأيت شيئًا ألين من خنقه، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان[(١)]، تردد فى جسده ثم أهوى إليه بالسيف، فاتقاه عثمان رضى الله عنه بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها لأول كفٍّ خطت المفصَّل[(٢)]، وذلك أنه كان من كتبة الوحى، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله ﷺ فقتل رضى الله عنه والمصحف بين يديه، وعلى أثر قطع اليد انتضح الدم على المصحف الذى كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧][(٣)].

وفى رواية: إن أول من ضربه رجل يسمى رومان اليمانى، ضربه بصولجان، ولما دخلوا عليه ليقتلوه أنشد قائلاً:

أرى المـوت لا يبقى عزيزاً ولم يدع   لعـاد مـلاذاً فى البلاد ومرتقى

وقال أيضًا:

يبيت أهـل الحصـن والحصـن مغلق   ويأتى الجبال فى شماريخها[(٤)] العلى[(٥)]

ولما أحاطوا به قالت امرأته نائلة بنت الفرافصة: إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يحيى الليل بركعة يجمع فيها القرآن[(٦)]، وقد دافعت نائلة عن زوجها عثمان وانكبت عليه واتّقت السيف بيدها، فتعمدها سودان بن حمران ونضح أصابعها فقطع أصابع يدها، وولّت، فغمز أوراكها[(٧)].

ولما رأى أحد غلمان عثمان رضى الله عنه الأمر، راعه قتل عثمان رضى الله عنه، وكان يسمى (نجيح) فهجم نجيح على سودان بن حرام فقتله، ولما رأى قتيرة بن فلان

(١) تاريخ ابن خياط، ص١٧٤، ١٧٥، إسناده صحيح أو حسن.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٩٨).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٩٨) الخبر له طرق عديدة بمجموعها يرتقى إلى درجة الحسن لغيره.
(٤) شماريخها: رءوسها (لسان العرب ٣/ ٣١).
(٥) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٩١). والبداية والنهاية (٧/ ١٩٢).
(٦) الطبقات (٣/ ٧٦). وفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٩١).
(٧) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٦، ٤٠٧).

السكونى نجيحًا قد قتل سودان، هجم على نجيح فقتله، وهجم غلام آخر لعثمان رضى الله عنه اسمه (صبيح) على قتيرة بن فلان فقتله، فصار فى البيت أربعة قتلى، شهيدان، ومجرمان، وأما الشهيدان: فعثمان رضى الله عنه وغلامه نجيح، وأما المجرمان، فسودان وقتيرة السكونيان، ولما تمّ قتل عثمان رضى الله عنه نادى مناد القوم السبئيين قائلاً: إنه لم يحل لنا دم الرجل ويحرم علينا ماله، ألا إن ماله حلال لنا، فانهبوا ما فى البيت، فعاث رعاع السبئيين فى البيت فسادًا، ونهبوا كل ما فى البيت حتى نهبوا ما على النساء، وهجم أحد السبئيين، ويدعى كلثوم التجيبى على امرأة عثمان رضى الله عنه نائلة رضى الله عنها ونهب الملاءة التى عليها، ثم غمز وركَها، وقال لها: ويح أمّك من عجيزة ما أتمك، فرآه غلام عثمان رضى الله عنه (صبيح) وسمعه وهو يتكلم فى حق نائلة هذا الكلام الفاحش، فعلاه بالسيف فقتله[1]، وهجم أحد السبئيين على الغلام فقتله، وبعدما أتم السبئيون نهب دار عثمان، تنادوا وقالوا: أدركوا بيت المال، وإياكم أن يسبقكم أحد إليه، وخذوا ما فيه، وسمع حراس بيت المال أصواتهم، ولم يكن فيه إلا غرارتان من طعام فقالوا: انجوا بأنفسكم فإن القوم يريدون الدنيا، واقتحم السبئيون بيت المال وانتهبوا ما فيه[2].

حقق الخوارج السبئيون مرادهم، وقتلوا أمير المؤمنين، وتوقف كثير من أتباعهم من الرعاع والغوغاء بعد قتل عثمان ليفكروا، وما كانوا يظنون أن الأمر سينتهى بهم إلى قتله، لقد استغفلهم شياطينهم السبئيون، واستغلوهم فى الشغب على عثمان، أما أن يقتلوه فهذا ما استفظعوه واستشنعوه، وأُسقط فى أيدى هؤلاء الغوغاء، وحصل لهم كما حصل لبنى إسرائيل لما عبدوا العجل، ندم بعضهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨، ١٤٩][3].

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ٤٠٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٧).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

وحزن الصالحون فى المدينة لمقتل خليفتهم وصاروا يسترجعون ويبكون، لكن ماذا يفعلون؟ وجيوش الخوارج السبئيين تحتل المدينة، وتعيث فيها فساداً، وتمنع أهلها من فعل أى شىء؟ وكان الحاكم الفعلى للمدينة هو أمير خوارج مصر (الغافقىّ بن حرب العكى) وكان معهم شيطانهم المخطط (عبد الله بن سبأ) وهو فرح مسرور لما وصل إليه من أهداف ومآرب يهودية شيطانية، وعلّق كبار الصحابة على مقتل عثمان[1].

أ ـ الزبير بن العوام رضى الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل له: إن القوم نادمون، فقال: دبَّروا ودبَّروا، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].

ب ـ طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل له: إن القوم نادمون. قال: تبًا لهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

جـ ـ على بن أبى طالب رضى الله عنه: لما علم بمقتل عثمان قال: رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قيل له: إن القوم نادمون. فقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

د ـ سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: ولما علم سعد بن أبى وقاص بذلك قال: رحم الله عثمان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦]. ثم قال سعد: اللهم

(١) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص١٩٠. البداية والنهاية (٧/ ١٩٧).

اندمهم واخزهم واخذلهم، ثم خذهم[١]، واستجاب الله دعوة سعد ـ وكان مستجاب الدعوة ـ فقد أخذ كل من شارك فى قتل عثمان، مثل عبد الله بن سبأ، والغافقى، والأشتر، وحكيم بن جبلة، وكنانة التجيبى، حيث قتلوا فيما بعد[٢].

ثامنًا: تاريخ قتله، وسنه عند استشهاده وجنازته والصلاة عليه ودفنه:

١ ـ تاريخ قتله:

إن فى تحديد السنة التى قتل فيها عثمان رضى الله عنه شبه إجماع من المؤرخين، فلم يقع خلاف فى أنه كان فى السنة الخامسة بعد الثلاثين من الهجرة، إلا ما روى عن مصعب بن عبد الله من أنه كان من السنة السادسة والثلاثين[٣]، وهو قول شاذ مخالف للإجماع فمن قال بالقول الأول جمع غفير منهم؛ عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعامر بن شرحبيل الشعبى، ونافع مولى ابن عمر، ومخرمة بن سليمان وغيرهم كثير[٤]، ولم يختلف المؤرخون فى الشهر الذى قتل فيه وأنه ذو الحجة إلا أنه اختلف فى تحديد ما بعد ذلك من اليوم والساعة والذى ترجح لدى من أقوال العلماء الكثيرة أنه استشهد فى (١٨/ ١٢/ ٣٥هـ)[٥]، وأما عن تحديد اليوم الذى قتل فيه من أيام الأسبوع ففيه ثلاثة أقوال والذى ترجح لدىّ من هذه الأقوال قول الجمهور، وهو يوم الجمعة؛ لأنه قول الجمهور ولم يخالفه قول أقوى منه[٦]، وكان وقت قتله صبيحة يوم الجمعة، وهو ما ذهب إليه الجمهور ولم يخالف بأقوى منه[٧].

٢ ـ سنّه عند استشهاده:

اضطربت الروايات فى سنه عند استشهاده والخلاف فى ذلك قديم، حتى إن

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٧، ٤٠٨). والبداية والنهاية (٧/ ١٨٩).
(٢) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص١٩٢.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٣٥، ٤٣٦).
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١٩٣، ١٩٤).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٣٥).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٤٣٦).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٤٣٧).

الطبرى ـ رحمه الله ـ يقول: اختلف السلف قبلنا فى قدر مدة حياته[١]، والذى أميل إليه أنه توفى وسنّه اثنتان وثمانون (٨٢ سنة) وهو قول الجمهور ويترجح هذا القول لعدة أسباب، منها:

أ ـ أن نتيجة مقارنة سنة ولادته مع سنة استشهاده تؤيد هذا القول؛ فإنه ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل، واستشهد فى السنة الخامسة والثلاثين بعد الهجرة، فطرح تاريخ مولده من تاريخ استشهاده يتبين لنا سنّه عند استشهاده.

ب ـ إنه قول الجمهور، ولم يخالفه قول أقوى منه[٢].

٣ ـ جنازته والصلاة عليه ودفنه:

قام نفر من الصحابة فى يوم قتله بغسله وكفنوه وحملوه على باب، ومنهم حكيم ابن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، وينار بن مكرم الأسلمى، وجبير بن مطعم، والزبير بن العوام، وعلى بن أبى طالب وجماعة من أصحابه ونسائه، منهن أمرأتاه نائلة وأم البنين بنت عتبة بن حصين، وصبيان، وصلى عليه جبير بن مطعم وقيل الزبير بن العوام، وقيل حكيم بن حزام، وقيل مروان بن الحكم، وقيل المسور بن مخرمة[٣]، والذى ترجح عندى أن الذى صلّى عليه الزبير بن العوام لرواية الإمام أحمد فى مسنده، فقد بينت تلك الرواية أن الزبير بن العوام رضى الله عنه، صلى على عثمان ودفنه، وكان أوصى إليه[٤]، وقد دفن رضى الله عنه ليلاً وقد أكد ذلك ما رواه ابن سعد والذهبى حيث ذكرا أنه دفن بين المغرب والعشاء[٥]، رضوان الله عليه، وأما ما رواه الطبرانى من طريق عبد الملك بن الماجشون، قال: سمعت مالكًا يقول: قتل عثمان رضى الله عنه، فأقام مطروحًا على

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٣٨).

(٢) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٢٠٤).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٩).

(٤) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (١/ ٥٥٥) رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع.

(٥) الطبقات (٣/ ٨٧). وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء)، ص٤٨١.

كناسة بنى فلان ثلاثًا[١]، فالرواية السابقة ضعيف سندها، وباطل متنها فأما السند ففيه علتان:

أ ـ ضعف عبد الملك بن الماجشون الذى كان يروى المناكير عن الإمام مالك.

ب ـ أن هذه الرواية مرسلة حيث إن الإمام مالكًا لم يدرك مقتل عثمان رضى الله عنه، لأنه لم يولد إلا سنة ٩٣هـ[٢].

وأما متن هذه الرواية فباطل، وفيه يقول ابن حزم: من قال إنه رضى الله عنه أقام مطروحًا على مزبلة ثلاثة أيام فكذب بحت، وإفك موضوع، وتوليد من لا حياء فى وجهه.. ولقد أمر رسول الله ﷺ برمى أجساد قتلى الكفار من قريش يوم بدر فى القليب، وألقى التراب عليهم، وهم شر خلق الله تعالى، وأمر عليه السلام أن يحفر أخاديد لقتلى يهود قريظة، وهم شر من وارته الأرض، فمواراة المؤمن والكافر فرض على المسلمين، فكيف يجوز لذى حياء فى وجهه أن ينسب إلى على وهو الإمام ومن بالمدينة من الصحابة أنهم تركوا رجلاً ميتًا بين أظهرهم على مزبلة ثلاثة أيام لا يوارونه[٣].

إنه لا يدخل فى عقل أى إنسان سليم من داء الرفض أنهم يتركون إمامهم ملقى دون دفن ثلاثة أيام مهما كانت قوة أولئك الفجرة الذين جاءوا لحصاره وقتله، فالصحابة كما وصفهم ربهم لا يخافون فى الله لومة لائم، وإنما تلك الروايات التى شوهت كتب التاريخ من دس الروافض[٤].

٤ ـ براءة محمد بن أبى بكر الصديق من دم عثمان رضى الله عنه:

إن قاتل عثمان رضى الله عنه رجل مصرى، لم تفصح الروايات عن اسمه، وبينت أنه سدوسى الأصل، أسود البشرة، لقب بـ(جبْلة) لسواد بشرته كما لقب أيضًا

(١) المعجم الكبير (١/ ٨٧). واستشهاد عثمان، ص١٩٤.

(٢) التهذيب، ابن حجر (٦/ ٤٠٨).

(٣) الفصل (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٤) عقيدة أهل السنّة (٣/ ١٠٩١).

بـ (الموت الأسود) وذهب محب الدين الخطيب إلى أن القاتل: هو عبد الله بن سبأ، حيث قال: ومن الثابت أن ابن سبأ كان مع ثوار مصر عند مجيئهم من الفسطاط إلى المدينة، وهو فى كل الأدوار التى مثلها كان شديد الحرص على أن يعمل من وراء ستار، فلعل بـ (الموت الأسود) اسم مستعار له أراد أن يرمز به إليه، ليتمكن من مواصلة دسائسه لهدم الإسلام[١]، وقد يشهد له: أن ابن سبأ أسود البشرة، فقد صح عن على رضى الله عنه أنه وصفه بالخبث، وسواد البشرة، وذلك فى قوله: الخبيث الأسود[٢].

وأما ما يتعلق بتهمة محمد بن أبى بكر بقتل عثمان بمشاقصه، فهذا باطل، وقد جاءت روايات ضعيفة فى ذلك، كما أن متونها شاذة، لمخالفتها للرواية الصحيحة التى تبين أن القاتل هو رجل مصرى[٣]، وقد ذكر الدكتور يحيى اليحيى عدة أسباب ترجح براءة محمد بن أبى بكر من دم عثمان، منها:

أ ـ أن عائشة رضى الله عنها خرجت إلى البصرة للمطالبة بقتلة عثمان، ولو كان أخوها منهم ما حزنت عليه لما قتل فيما بعد، وسيأتى تفصيله عند حديثنا عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه بإذن الله تعالى.

ب ـ لعن على رضى الله عنه لقتلة عثمان رضى الله عنه وتبرؤه منهم، يقتضى عدم تقريبهم وتوليتهم وقد ولّى محمد بن أبى بكر مصر فلو كان منهم ما فعل ذلك.

جـ ـ ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن طلحة بن مصرف قال: سمعت كنانة مولى صفية بنت حيى قال: شهدت مقتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنة، قالت: هل أندى محمد بن أبى بكر بشىء من دمه؟ فقال: معاذ الله، دخل عليه، فقال عثمان: يا ابن أخى لست بصاحبى، فخرج، ولم يند من دمه بشىء[٤].

---

(١) العواصم من القواصم، نقلاً عن فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٢٠٧).

(٢) لسان الميزان (٣/ ٢٩٠).

(٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٢٠٩).

(٤) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ٢٤٣.

ويشهد لهذا ما أخرجه خليفة بن خياط والطبرى بإسناد رجاله ثقات عن الحسن البصرى ـ وكان ممن حضر يوم الدار[1]؛ أن ابن أبى بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت منى مأخذًا أو قعدت منى مقعدًا ما كان أبوك ليقعده فخرج وتركه[2].

وبهذا يتبين لنا براءة محمد بن أبى بكر الصديق من دم عثمان، براءة الذئب من دم يوسف، كما تبين أن سبب تهمته هو دخوله عليه قبل القتل[3]، وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أنه لما كلمه عثمان رضى الله عنه استحى، ورجع، وتندم، وغطى وجهه وحاجز دونه فلم تفد محاجزته[4].

* * *

(١) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص٢٤٤. وتهذيب الكمال (٦/ ٩٧).
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٤.
(٣) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٢٠٩).
(٤) البداية والنهاية (٧/ ١٩٣).

المبحث الرابع

موقف الصحابة رضى الله عنهم من مقتل عثمان رضى الله عنه

شوهت بعض كتب التاريخ موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان؛ وذلك بسبب الروايات الرافضية التى ذكرها كثير من المؤرخين، فالمتتبع لأحداث الفتنة فى تاريخ الإمام الطبرى، وكتب التاريخ الأخرى من خلال الروايات، أبى مخنف، والواقدى، وابن أعثم، وغيرهم من الإخباريين، يشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة ويثيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع فى اتهام عثمان بأنه الخليفة الذى كثرت سقطاته فاستحق ما استحقه، ويظهر طلحة فى مروياته كواحد من الثائرين على عثمان والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدى عن روايات أبى مخنف، فعمرو بن العاص يقدم المدينة ويأخذ فى الطعن على عثمان، وقد كثرت الروايات الرافضية التى تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضى الله عنه وأنهم هم الذين حركوا الفتنة وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور[1]، وخلافًا للروايات الرافضية والموضوعة والضعيفة، فقد حفظت لنا كتب المحدثين ـ بحمد الله ـ الروايات الصحيحة التى يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه، المتبرئين من قتله، والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أى اشتراك لهم فى تحريك الفتنة أو إثارتها[2].

إن الصحابة جميعًا رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه ومن قال خلاف ذلك فكلامه باطل لا يستطيع أن يقيم عليه أى دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة فى تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم، عن أبيه، قال: قلت

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٤ ـ ١٨).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٤ ـ ١٨).

للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا كانوا أعلاجًا[١]، من أهل مصر. وقال الإمام النووى: ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل، تحزبوا وقصدوه من مصر، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم فحصروه حتى قتلوه رضى الله عنه[٢].

وقد وصفهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم نزّاع القبائل[٣]، ووصفهم ابن سعد بأنهم حثالة الناس متفقون على الشر[٤]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون وضالون باغون معتدون[٥]، ووصفهم الذهبى بأنهم رؤوس شر وجفاء[٦]، ووصفهم ابن العماد الحنبلى فى الشذرات بأنهم أراذل من أوباش القبائل[٧].

ويشهد على هذا الوصف تصرف هؤلاء الرعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضى الله عنه ظلمًا وعدوانًا، فكيف يمنع الماء عنه والطعام وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمأ المسلمين بالمجان[٨]، وهو الذى ساهم بأموال كثيرة عندما يلمّ بالناس مجاعة أو مكروه، وهو الدائم العطاء عندما يصيب الناس ضائقة أو شدة من الشدائد[٩]، حتى إن عليًا رضى الله عنه يصف هذا الحال وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادّة ـ الطعام ـ فإن الروم وفارس لتأسر وتطعم

---

(١) العلج: كلُّ جاف شديد من الرجال.

(٢) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص١٤٨.

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٤٨)، كتاب فضائل الصحابة.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨١)، طبقات ابن سعد (٣/ ٧١).

(٥) منهاج السنّة (٣/ ١٨٩ ـ ٢٠٦).

(٦) دول الإسلام للذهبى (١/ ١٢).

(٧، ٨) انظر: تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨٢)، البخارى كتاب مناقب عثمان (٤/ ٢٠٢). وشذرات الذهب (١/ ٤٠).

(٩) التمهيد والبيان، ص٢٤٢.

وتسقى[1]، لقد صحت الأخبار وأكدت حوادث التاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضده[2].

● **وإليك أقوال الصحابة فى البراءة من دم عثمان:**

أولاً: ثناء أهل البيت على عثمان رضى الله عنه وبراءتهم من دمه:

١ ـ موقف السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها:

أ ـ عن فاطمة بنت عبد الرحمن اليشكرية عن أمها؛ أنها سألت عائشة، وأرسلها عمّها فقال: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان، فإن الناس قد أكثروا فيه. فقالت: لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعدًا عند نبى الله ﷺ وإن رسول الله ﷺ مسند ظهره إلىَّ، وإن جبريل عليه السلام ليوحى إليه القرآن وأنه ليقول: اكتب عثمان فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريمًا على الله ورسوله[3].

ب ـ وعن مسروق عن عائشة قالت حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقى من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش، فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه، قالت عائشة: لا والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء فى بيضاء حتى جلست مجلسى هذا[4]. وقد مر معنا كذب السبئيين وأنهم كتبوا رسائل لأهل الأمصار ونسبوها كذبًا وزورًا للسيدة عائشة رضى الله عنها.

ج ـ ولما سمعت بموت عثمان فى طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت المسجد الحرام، وقصدت الحجر فتستَّرت فيه، واجتمع الناس إليها، فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار، وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٧٨). المسند (٦/ ٢٥٠، ٢٦١)، والبداية والنهاية (٧/ ٢١٩).

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ٣٩١). وتاريخ خليفة، ص١٧٦، إسناده صحيح إلى عائشة رضى الله عنها.

عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرْب[١]، واستعمال من حدثت سنُّه، وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من الحمى حماها لهم، وهى أمور قد سُبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم، ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم، فما لم يجدوا حجة ولا غدرًا خلجوا[٢]، وبادروا بالعدوان، ونبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة[٣] من اجتماعكم عليه حتى يَنْكل[٤] بهم غيرهم، ويشرِّد[٥] من بعدهم، ووالله، لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبًا لخلُص منه كما يخلص الذهب من خبثه، أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء[٦].

وعلى العكس من الصورة الطيبة التى نفهمها من الروايات السابقة الموثقة للعلاقة بين أم المؤمنين عائشة وعثمان، فإنه تبقى عند الطبرى وغيره روايات أخرى صورت العلاقة بين عائشة وعثمان على صورة متناقضة تمامًا لما انتهينا إليه، وشوهت الدور الرائع الناصع، الواعى، الذى قامت به رضى الله عنها، دفاعًا عن حرمات الله عَزَّ وَجَلَّ، ودفعًا عن عثمان رضى الله عنه، وفهمًا لألاعيب السبئية[٧].

إن الروايات التى جاءت فى العقد الفريد وفى الأغانى وتاريخ اليعقوبى وتاريخ المسعودى، وأنساب الأشراف، وما انتهت إليه من استدلالات فى شأن الدور السياسى للسيدة عائشة رضى الله عنها فى حياة عثمان بن عفان رضى الله عنه، إن جميع ما يؤدى إليه من استدلالات تدين الموقف السياسى للسيدة عائشة رضى الله عنها لا يعتد بها لمخالفتها للروايات الصحيحة، وقيامها على روايات واهية[٨]، فأغلبها روايات غير

---

(١) الأرب: الحاجة والدهاء والفطنة والعقل.

(٢) خلجوا: تحركوا واضطربوا.

(٣) نجاة: اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم.

(٤) ينكل بهم غيرهم: حتى يردعهم ويروع بهم غيرهم.

(٥) يشرد: يفرق، ويبدد جمعهم.

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤).

(٧) دور المرأة السياسى فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين، ص٣٥٢.

(٨) انظر: أيضًا فى هذه الاستدلالات الباطلة، للعقاد (الصديقة بنت الصديق)، ص١١٦ ـ ١٢٤.

مسندة، والمسند مجروح الإسناد، لا يحتج بروايته، هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالروايات الأخرى الأكثر صحة وقربًا بالحقيقة(١).

وقد قامت السيدة أسماء محمد أحمد زيادة بدراسة الأسانيد والمتون للروايات التى تحدثت عن الدور السياسى للسيدة عائشة فى أحداث الفتنة، ونقدت الروايات القائلة بالخلاف السياسى بين عائشة وعثمان عند الطبرى وغيره وبينت زيفها وكذبها، ثم قالت: وكان الأحرى بنا أن نعرض عن ذكرها جميعًا ـ كما ذكرت آنفًا ـ لعدم وصولها إلينا من طريق معتمد، بل الطرق التى وصلت منها رُمى أصحابها بالتشنيع والكذب والرفض، لكننا عرضنا لها، لشيوعها فى أغلب الدراسات الحديثة، وللتدليل على سقوطها فهى روايات ـ كما اتضح لنا ـ حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلاً من الخلاف والتنكر بين عثمان وعائشة وبين عثمان والصحابة جميعًا(٢)، ولو صح أن عائشة اتفقت مع المتمردين على التحريض على عثمان رضى الله عنه لكان من المتوقع أن يكون عندها نوع من التماس العذر لهؤلاء المتمردين، لكن لم يصح عنها رضى الله عنها شىء من هذا، وإنه لو صح شىء من هذه الروايات فى وصف موقف السيدة عائشة رضى الله عنها من مقتل عثمان، فهى روايات كفيلة بإسقاط العدالة عن عائشة رضى الله عنها، وعن الصحابة الذين اشتركوا معها، وهو ما لا نقبل به للخبر الصادق عن الله ورسوله فى تقرير عدالتهم التى كانت كافية لدحض هذه الروايات لكننا توقفنا أمام الروايات، تأكيدًا منا على سقوط هذه الروايات، ومن بعدها الاستدلالات القائمة عليها، حتى تجتمع الأدلة الدينية، والعلمية، والتاريخية، فى صعيد واحد يؤكد بعضها بعضًا(٣).

٢ ـ على بن أبى طالب رضى الله عنه:

كان على رضى الله عنه وآل البيت يجلونه ويعترفون بحقه فكان:

أ ـ أول من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف على بن أبى طالب(٤)، وعن قيس بن

(١، ٢) دور المرأة السياسى، ص٣٧٠.

(٣) دور المرأة السياسى، ص٣٧١.

(٤) البخارى، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٣٧٠٠.

عباد قال: سمعت عليًا رضى الله عنه وذكر عثمان فقال: هو رجل قال له رسول الله ﷺ: «ألا أستحى ممن تستحى منه الملائكة»[١].

ب ـ وقد شهد رضى الله عنه له بالجنة، فعن النزال بن سبرة، قال: سألت عليًا عن عثمان؟ فقال: ذاك امرؤ يدعى فى الملأ الأعلى ذا النورين كان ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه ضمن له بيت فى الجنة[٢].

جـ ـ وكان رضى الله عنه طائعًا معترفًا بإمامته وخلافته لا يعصى له أمرًا فقد روى ابن أبى شيبة بإسناده عن ابن الحنفية عن على: قال: لو سيرنى عثمان إلى صرار لسمعت وأطعت[٣]، والصرار: هو الخيط الذى تشد به التوادى على أطراف الناقة لئلا يرضعها ولدها[٤]، وفيه دليل على مدى اتباعه وطاعته لعثمان رضى الله عنهما[٥].

د ـ ولما جمع عثمان رضى الله عنه الناس على قراءة واحدة، بعد استشارة الصحابة رضوان الله عليهم وإجماعهم على ذلك، قال على رضى الله عنه: لو وليت الذى ولى، لصنعت مثل الذى صنع[٦].

هـ ـ ولقد أنكر على رضى الله عنه قتل عثمان وتبرأ من دمه وكان يقسم على ذلك فى خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالأ ولا رضى وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[٧]، خلافًا لما تزعمه الرافضة من أنه كان راضيًا بقتل عثمان رضى الله عنهما[٨]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة فى مقتله رضى الله عنه:

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم٢٤٠١.

(٢) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص٢٢٧. المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة للزمخشرى، مخطوط بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية. المخطوطة: قد طبعت عن طريق دار الحديث أخيرًا.

(٣) السنّة للخلال (١/ ٣٢٥) رقم ٤١٦ إسناده صحيح.

(٤) لسان العرب (٤/ ٤٥١).

(٥) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص٢٢٧.

(٦) السنن للبيهقى (٢/ ٤٢).

(٧) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٢).

(٨) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص٢٢٩. حق اليقين لعبد الله شبر (ص١٨٩).

فأما الذى ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه كذب وزور فقد تواترت الأخبار بخلافه[١]، وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على على رضى الله عنه وافتراء عليه، فعلى رضى الله عنه لم يشارك فى دم عثمان رضى الله عنه، ولا أمر ولا رضى وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار[٢]، وقد قال على رضى الله عنه: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان[٣]، وروى الحاكم بإسناده عن قيس ابن عباد قال: سمعت عليًا رضى الله عنه يوم الجمل يقول: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلى يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسى وجاءونى للبيعة، فقلت والله إنى لأستحى من الله أن أبايع قومًا قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحى ممن تستحى منه الملائكة»، وإنى لأستحى من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألونى البيعة فقلت اللهم إنى مشفق مما أقدم عليه ثم جاءت عزيمة فبايعت فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبى، وقلت: اللهم خذ منى لعثمان حتى ترضى[٤]. وروى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن الحنفية قال: بلغ عليًا أن عائشة تلعن قتلة عثمان فى المربد[٥]، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال: وأنا ألعن قتلة عثمان لعنهم الله فى السهل والجبل قال مرتين أو ثلاثًا[٦]، وروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن عليًا قال: والله ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله، ولكنى نهيت، والله ما قتلت عثمان ولا أمرت ولكنى غلبت، قالها ثلاثًا[٧]، وجاء عنه أيضًا أنه قال رضى الله عنه: من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من الإيمان والله ما أعنت على قتله ولا أمرت ولا رضيت[٨].

---

(١) المستدرك (٣/ ١٠٣).

(٢) منهاج السنّة (٤/ ٤٠٦).

(٣) العقيدة فى أهل البيت، ص٢٣٠، إسناده حسن، الطبقات (٣/ ٣) رواه من طرق كلها صحيحة.

(٤) المستدرك (٣/ ٩٥). حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٥) موضع قرب البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال.

(٦) فضائل الصحابة (١/ ٥٥٥) رقم ٧٣٣. إسناده صحيح.

(٧) الطبقات (٣/ ٨٢). والبداية والنهاية (٧/ ٢٠٢).

(٨) الرياض النضرة، ص٥٤٣.

و ـ وقال على رضى الله عنه عن عثمان رضى الله عنه: . . . كان أوصلنا للرحم وأتقانا للرَّب تعالى(١).

ز ـ عن أبى عون قال: سمعت محمد بن حاطب قال: سألت عليًا عن عثمان فقال: هو من الذين آمنوا ثم اتقوا ثم آمنوا ثم اتقوا ولم يختم الآية(٢).

ح ـ عن عميرة بن سعد قال: كنا مع على رضى الله عنه على شاطئ الفُرات، فمرت سفينة مرفوع شراعها فقال على: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] والذى أنشأها فى بحر من بحاره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله(٣).

ط ـ وروى الإمام أحمد فى مسنده عن محمد بن حاطب قال: سمعت عليًا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، منهم عثمان(٤)، وقال علىٌّ رضى الله عنه: إنما وهنت يوم قتل عثمان(٥)، وقد اعتنى الحافظ ابن عساكر بجمع الطرق الواردة عن على رضى الله عنه فى تبرُّئه من دم عثمان وقسمه على ذلك فى الخطب وغيرها، وكذا قسمه أنه لم يرض بذلك، وثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث(٦).

٣ ـ ابن عباس رضى الله عنه:

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس أنه قال: لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمى قوم لوط(٧)، وقال رضى الله عنه فى مدح عثمان وذم من ينتقصه: رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الحفدة وأفضل البررة، هجادًا

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٠٦).
(٢) فضائل الصحابة (١/ ٥٨٠) إسناده صحيح.
(٣) المصدر نفسه (١/ ٥٥٩، ٥٦٠) إسناده لغيره رقم ٣٧٩.
(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٨٠) رقم ٧٧١ إسناده صحيح.
(٥) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (٥/ ٦١).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٩٣).
(٧) فضائل الصحابة (١/ ٥٦٣) رقم ٧٤٦.

بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار نهاضًا عند كل مكرمة سباقًا إلى كل منحة، حبيبًا أبيًا وفيًا، صاحب جيش العسرة، ختن رسول الله ﷺ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين[1].

٤ ـ زيد بن على رحمه الله:

روى ابن عساكر بإسناده إلى السدى، قال: أتيته ـ أى زيد ـ وهو فى بارق حى من أحياء الكوفة فقلت له: أنتم سادتنا وأنتم ولاة أمورنا فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فقال: تولهما، وكان يقول البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان البراءة من على، والبراءة من على البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان[2].

٥ ـ على بن الحسين رحمه الله:

وقد ثبت عن على بن الحسين البراءة من قول الرافضة فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، فقد روى أبو نعيم بسنده عن محمد بن على عن أبيه على بن الحسين أنه قال: جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما، ثم ابتدأوا فى عثمان فقال لهم: أخبرونى أأنتم من المهاجرين الأولين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]؟ قالوا: لا، قال: فأنتم من الذين ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]؟ قالوا: لا. فقال لهم: أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]. فقوموا عنى لا بارك الله فيكم، ولا قرب دوركم أنتم مستهزئون

---

(١) العقيدة فى أهل البيت، ص٢٣٤. مروج الذهب للمسعودى (٣/ ٦٤).

(٢) العقيدة فى أهل البيت، ص٣٣٥. وتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٢).

بالإسلام، ولستم من أهله[١].

ثانيًا: موقف عمار بن ياسر رضى الله عنه:

جاء فى الروايات التاريخية التى تحمل فى طياتها غثًا وسمينًا أن هناك خلافًا بين عمار وعثمان رضى الله عنهما وقد خطم بعضها بأسانيد، وأخرى لا خطام لها ولا زمام، ولم أجد من أغنى فيه بحثًا وتحليلاً إلا لمامًا، والتعرض لمثل هذا الموضوع الذى يَمَسُّ كرامة أطهر خلق الله وأحبهم إليه وإلى نبيه، لا يمكن معه الاعتماد على روايات تسرح فى أعراض الصحابة كما تشاء وتمرح من غير زمام أو خطام[٢]، ومن التهم الساقطة التى ساقتها الروايات الضعيفة:

١ ـ ضرب عمار بن ياسر:

تعتبر الروايات التى تحدثت عن ضرب عثمان لعمار من أشهر الروايات فى هذا الموضوع وأكثرها، ولقد تفنن واضعوها فى ذكر الأساليب التى استخدمها عثمان رضى الله عنه بالضرب، وفى ذكر ما نتج عنه، وهى مع فساد أسانيدها تحمل نكارة شديدة فى متونها[٣]، يقول القاضى أبو بكر بن العربى فى عواصمه ضمن تفنيده لما نسب إلى عثمان رضى الله عنه من افتراءات: وأما ضربه لابن مسعود رضى الله عنه ومنعه عطاءه، فزور، وضربه لعمار رضى الله عنه إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدًا، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه أنه لا ينبغى أن يشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا يبنى حق على باطل، ولا نذهب الزمان فى مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له[٤].

إن أخلاق عثمان رضى الله عنه فى سنه وإيمانه وحيائه ولين عريكته ورقة طبعه وسابقته وجليل مكانته فى الإسلام أجل من أن تنزل به إلى هذا الدرك من التصرف

---

(١) العقيدة فى أهل البيت، ص٢٣٦. والبداية والنهاية (٩/ ١١٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢، ٣) عمار بن ياسر، لأسامة أحمد سلطان، ص١٢٢.

(٤) العواصم من القواصم، ص٨٢ ـ ٨٤.

مع رجل من أجلاء أصحاب النبى ﷺ، يعرف له عثمان سابقته وفضله مهما كان بينهما من اختلاف فى الرأى، أفيرضى عثمان لنفسه ـ وهو الذى أبى على الناس أن يقاتلوا دونه، ورضى بالموت صابراً محتسبًا حقنًا لدماء المسلمين واتقاء للفتنة العامة ـ أفيرضى أن يصنع بعمار ـ وهو أعلم بسابقته وفضله فى الإسلام ـ ما ذكرت الروايات المزعومة بأنه أمر غلمانه بأن يضربوه حتى أغمى عليه، ثم يقوم عثمان فى هذه الحال فيطأه فى بطنه؟ ثم هل ترضى أخلاق عثمان وحياؤه بأن يدعو بدعوة الجاهلية، فيعير عماراً بأمه سمية، وهى من أهل السابقة والفضل، وعثمان يعرف شرف انتساب عمار إلى أمه سمية رضى الله عنها، أول شهيدة فى الإسلام؟

كلا إن الأخبار الصحيحة والموثوقة لا يوجد فيها ما يدنى عثمان رضى الله عنه من هذا الأسلوب المنحط فى الزجر والتأديب، علاوة على أن أخلاقه وطبيعته وسيرته تستبعد ذلك تمامًا، ومما لا شك فيه أن عرض أمثال تلك الروايات الموضوعة على ما عرف من مواقف وأخلاق أولئك الأئمة الأعلام، والأخذ بالاعتبار مقاييس ذلك العصر ومعاييره لهو أصدق ميزان فى النقد لكشف دخائل الوضاعين والمفترين [1].

٢ ـ اتهام عمار بالمساهمة فى الفتنة وإثارة الشغب ضد عثمان:

اعتمد المؤرخون فى نسبة هذه الافتراءات إلى عمار رضى الله عنه على روايات لم تسلم إحداها من الطعن فى صحة أسانيدها أو فى استقامة متونها وتتنوع التهم المنسوبة إلى عمار رضى الله عنه فى تحريكه لأمر الفتنة، وتحريضه على عثمان، وسعيه بين العامة للتمرد عليه، فمنها ما ذكر من إرسال عثمان رضى الله عنه له إلى مصر لاستجلاء ما يحدث فيها مما نقل إليه من تمرد العامة هناك، وأن السبئيين استطاعوا استقطاب عمار والتأثير عليه وهذا الخبر الذى يرويه الطبرى [2] فيه شعيب بن إبراهيم التميمى الكوفى راوية كتب سيف، فيه جهالة، وقال عنه الراوى: ليس بالمعروف وله أحاديث وأخبار، وفيها بعض النكارة، وفيها ما فيها من تحامل على

---

(١) الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان، ص١٤ ـ ٤١. وعمار بن ياسر، ص١٣٧.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

السلف[١]، ورواه عمر بن شبة فى تاريخ المدينة وفيه شيخ عمر: على بن عاصم، قال عنه ابن المدينى: كان على بن عاصم كثير الغلط، وإذا رُد عليه لم يرجع، وكان معروفًا فى الحديث، ويروى أحاديث منكرة[٢]، وقال يحيى بن معين: ليس بشىء[٣]، وقال مرة: كذاب ليس بشىء[٤]، وقال النسائى: متروك الحديث[٥]، وقال البخارى: ليس بالقوى عندهم يتكلمون فيه[٦]، وهناك من تلطف بالكلام عليه، وقال عنه ابن حجر: صدوق يخطئ ويصر، ورمى بالتشيع[٧]، وخبر هذا حال إسناده لا يمكن الاطمئنان إليه، لا سيما ما عرف عن عمار رضى الله عنه من الورع الذى يربأ به عن الانغماس فى مثل تلك الأوحال التى ما عهدنا مرتادًا لها إلا سبئيًا يهوديًا حاقدًا، ومعاذ الله أن يصل الحال بصحابى من صحابة النبى ﷺ إلى هذا المستوى. يقول خالد الغيث: وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصحابة رضوان الله عليهم، هذا فضلاً عن عدم وروده من طريق صحيح[٨].

ومن الروايات الباطلة فى هذا الباب ما نسب إلى سعيد بن المسيب، وفيها أن الصحابة بمجملهم نقموا على عثمان رضى الله عنه مع من نقم، وحنقوا عليه، وخاصة أبا ذر وابن مسعود، وعمار بن ياسر رضى الله عنهم[٩]، وآفة هذه الرواية أن فيها تدليسًا ليس من النوع الممكن إقراره والتجاوز عنه، فقد أسقط منها راوٍ متهم بالوضع والكذب وهو إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، ولذلك جاء تضعيف علماء الحديث لهذه الرواية، وبيان زيفها عند ترجمتهم لمحمد بن عيسى بن سميع راوى الخبر عن ابن أبى ذئب، يقول الإمام البخارى عن ابن سميع، يقال إنه لم يسمع من

---

(١) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص٣٠.
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٥٣).
(٣) المصدر نفسه (٩/ ٢٥٥).
(٤) المصدر نفسه (٩/ ٢٥٧).
(٥، ٦) المصدر نفسه (٩/ ٢٥٥).
(٧) تقريب التهذيب، ص٤٠٣.
(٨) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص٨٦.
(٩) تاريخ دمشق (٣٩/ ٤١٥). وعمار بن ياسر، ص١٤٤.

ابن أبى ذئب هذا الحديث، يعنى حديثه عن الزهرى فى مقتل عثمان، ويقول ابن حبان: إن ابن سميع لم يسمع حديثه من ابن أبى ذئب، وإنما سمعه من إسماعيل بن يحيى، فدلس عنه، وقال الحاكم: أبو محمد - يعنى ابن سميع - روى عن ابن أبى ذئب حديثًا منكرًا، وهو حديث مقتل عثمان، ويقال: كان فى كتابه عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبى ذئب فأسقطه، وإسماعيل ذاهب الحديث[1]، ويقول الدكتور يوسف العش: والرواية المنسوبة إلى سعيد بن المسيب يجب استبعادها، فهى بعد التحرى تظهر موضوعة، فقد نص الحاكم النيسابورى أن أحد رجال سندها قد أسقط من السند رجلاً واهيًا، وأنها منكرة، والواقع أنها لا تنبئ عن الاحترام الذى يكنه سعيد بن المسيب للصحابة فى أقواله الأخرى الصحيحة[2].

٣ - براءة عمار من دم عثمان رضى الله عنهما:

ومما يروى فى ذلك اتهام مسروق وأبى موسى رضى الله عنهما لعمار بذلك عند قدومه مع الحسن لاستنفار أهل الكوفة، وهذه الرواية قد وَهَى إسنادها بشعيب المجهول، وسيف المعلول، كما أن الرواية التى فى صحيح البخارى لا تذكر شيئًا من ذلك، فزيادتها لا تحتمل القبول، لا سيما مع طعنها فى صحابى مثل عمار بن ياسر المجار - على لسان النبى ﷺ - من الشيطان[3]، والمليء إلى المُشاش من الإيمان[4].

وقد بيَّن العلماء بطلان مثل هذا الاتهام الذى لم يختص بعمار فحسب، بل تعداه إلى مجموعة أخرى من أجلة الصحابة، يقول ابن كثير: أما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضى بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة، بل كلهم كرهه ومقته وسب من فعله[5]، ويقول القاضى أبو بكر بن العربى: فهذا أشبه

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٦ - ١٨). والتاريخ الكبير للبخارى (١/ ٢٠٣). والتهذيب (٩/ ٣٩١)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٣٩٢).

(٢) الدولة الأموية (٣٩).

(٣) البخارى، رقم (٣٧٤٣).

(٤) عمار بن ياسر، ص١٤٧.

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٧).

ما روى فى الباب، وبه يتبين ـ وأصل المسألة سلوك سبيل أهل الحق ـ أن أحدًا من الصحابة لم يسع عليه، ولا قعد عنه، ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفًا بلديين أو أكثر من ذلك ولكنه ألقى بيده إلى المصيبة(١)، ويقول: وقد انتدبت المردة والجهلة إلى أن يقولوا: إن كل فاضل من الصحابة كان عليه مشاغبًا مؤلبًا، وبما جرى عليه راضيًا، واخترعوا كتابًا فيه فصاحة وأمثال كتب عثمان به مستصرخًا إلى على، وذلك كل مصنوع، ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين، فالذى يُنخَل من ذلك أن عثمان مظلوم محدود بغير حجة، وأن الصحابة بُرآء من دمه بأجمعهم؛ لأنهم أتوا إرادته، وسلموا له رأيه فى إسلام نفسه(٢).

ثالثًا: براءة عمرو بن العاص من دم عثمان:

لما أحيط بعثمان رضى الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهًا إلى الشام وقال: والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ بذل، ومن لم يستطع نصره فليهرب فسار وسار معه ابناه عبد الله ومحمد وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء الله(٣)، وعندما جاءه الخبر عن مقتل عثمان رضى الله عنه وبأن الناس بايعوا على بن أبى طالب قال عمرو: أنا أبو عبد الله تكون حرب من حك فيه قرحة نكأها، رحم الله عثمان ورضى الله عنه وغفر له، فقال سلامة بن زنباغ الجذامى: يا معشر العرب إنه قد كان بينكم وبين العرب باب فاتخذوا بابًا إذ كسر الباب فقال عمرو: وذاك الذى نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف(٤) تخرج الحق من حافرة البأس ويكون الناس فى العدل سواء ثم تمثل عمرو بن العاص بهذه الأبيات:

فيا لهف نفسى على مالك   أيصرف مالك حفظ القدر

(١) العواصم من القواصم، ص١٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٢.
(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص٤٦٤.
(٤) أشاف: جمع أشفى وهو المثقب.

أنزع من الحَرِّ[1] أودى بهم   فأعذرهم أم بقومى سكَر

ثم ارتحل راجلاً باكيًا ويقول: يا عثماناه! أنعى الحياء والدين حتى قدم دمشق[2].

هذه هى الصورة الصادقة عن عمرو رضى الله عنه والمتالية مع شخصيته وخط حياته وقربه من عثمان أما الصورة التى تمسخه إلى رجل مصالح وصاحب مطامع وراغب دنيا فهى الرواية المتروكة الضعيفة رواية الواقدى عن موسى بن يعقوب[3] وقد تأثر بالروايات الضعيفة والسقيمة مجموعة من الكتاب والمؤرخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض كالذى كتبه محمود شيت خطاب[4]، وعبد الخالق سيد أبو رابية[5]، وعباس محمود العقاد الذى يتعالى عن النظر فى الإسناد ويستخف بقارئه ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضى الله عنهما بأنهما: . . . انتهازيان صاحبا مصالح ولو أجمع الناقدون التاريخيون على بطلان الروايات التى استند إليها فى تحليله فهذا لا يعنى للعقاد شيئًا، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة واهية لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صدق هذا الحوار، وصحة هذه الكلمات، وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده ولا نصه فالذى لا ريب فيه ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذى آل على كل منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق[6].

إن شخصية عمرو بن العاص رضى الله عنه الحقيقية، أنه رجل مبادئ غادر المدينة حين عجز عن نصرة عثمان، وبكى عليه بكاءً مُرًا حين قتل، فقد كان من أقرب أصحابه وخلانه ومستشاريه، وكان يدخل فى الشورى ـ فى عهد عثمان ـ من غير

(١) الحر: جمع حرة وهى الظلمة الشديدة.

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص٤٨١.

(٣) عمرو بن العاص، للغضبان، ص٤٨١.

(٤) سفراء النبى ﷺ، ص٥٠٨.

(٥) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص٣١٦.

(٦) عمرو بن العاص، للعقاد، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

ولاية ومضى إلى معاوية رضى الله عنهما ليتعاونا معًا على حرب قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد[١]، لقد كان مقتل عثمان كافيًا لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين وكان لا بد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله ﷺ وقتلوا خليفته على أعين الناس، وأى غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك فى هذا الموضوع فمداره على الروايات المكذوبة التى تصور عمرًا كل همه السلطة والحكم[٢].

رابعًا: من أقوال الصحابة فى الفتنة:

١ ـ أنس بن مالك رضى الله عنه:

قيل لأنس بن مالك رضى الله عنه: إن حبَّ على وعثمان لا يجتمعان فى قلب، فقال أنس: كذبوا، لقد اجتمع حبُّهما فى قلوبنا[٣].

٢ ـ حذيفة بن اليمان رضى الله عنه:

عن خالد بن الربيع قال: سمعنا بوجع حذيفة، فركب إليه أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه فى نفر فيهم إلى المدائن، قال: ثم ذكر قتل عثمان، فقال اللهم إنى لم أشهد، ولم أقتل، ولم أرضَ[٤]. وأخرج أحمد بن حنبل عن ابن سيرين عن حذيفة قال: لما بلغه قتل عثمان، قال: اللهم إنك تعلم براءتى من دم عثمان، فإن كان الذين قتلوه أصابوا، فإنى برىء منهم، وإن كانوا أخطأوا فقد تعلم براءتى من دمه، وستعلم العرب لئن كانت أصابت بقتله لحلبنا بذلك لبنًا، وإن كانت أخطأت بقتله لتحتلبنَّ بذلك دمًا، فاحتلبوا بذلك دمًا، ما رفعت عنهم السيوف ولا القتل[٥]، وروى ابن عساكر عن جندب بن عبد الله ـ له صحبة ـ أنه لقى حذيفة فذكر له أمير المؤمنين عثمان، فقال: أما إنهم سيقتلونه! قال: قلت فأين هو؟ قال: فى الجنة، قلت: فأين

(١) عمرو بن العاص، للغضبان، ص٤٨٩، ٤٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٩٢.
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٥). والتهذيب لابن حجر (٧/ ١٤١).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٢٧).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٢٨).

قاتلوه؟ قال: فى النار[١].

٣ ـ أم سليم الأنصارية رضى الله عنها:

قالت أم سليم الأنصارية رضى الله عنها لما سمعت بقتل عثمان: رحمه الله أما إنه لن يحلبوا بعده إلا دمًا[٢].

٤ ـ أبو هريرة رضى الله عنه:

وعن أبى مريم قال: رأيت أبا هريرة يوم قتل عثمان وله ضفيرتان وهو ممسك بهما وهو يقول: قتل والله عثمان على غير وجه الحق[٣].

٥ ـ أبو بكرة رضى الله عنه:

روى ابن كثير فى البداية والنهاية عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: لأن أخرّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إلىَّ من أن أُشرك فى قتل عثمان[٤].

٦ ـ أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه:

عن أبى عثمان النَّهدى قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: إن قتل عثمان رضى الله عنه لو كان هدًى لاحتلبت به الأمة لبنًا، ولكنه كان ضلالاً فاحتلبت به دمًا[٥].

٧ ـ سَمُرَة بن جندب رضى الله عنه:

روى ابن عساكر بإسناده إلى سمُرة بن جُنْدُب رضى الله عنه قال: إن الإسلام كان فى حصن حصين، وإنهم ثلموا فى الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان، وإنهم شرطوا أشرطة، وإنهم لم يسدُّوا ثلمتهم أو لا يسدونها إلى يوم القيامة وإن أهل المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تعد فيهم[٦].

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٨)، تاريخ دمشق (ص٣٨٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٩٥).

(٣، ٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٣١)، تاريخ دمشق (ص٤٩٣).

(٥) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤٥).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٣١)، تاريخ دمشق (ص٣٨٨).

٨ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه:

وأخرج أبو نعيم فى (معرفة الصحابة) بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: عثمان بن عفان ذو النورين قتل مظلومًا أوتى كفلين من الأجر[١].

٩ ـ عبد الله بن سلام رضى الله عنه:

قال رضى الله عنه: لا تقتلوا عثمان فإنكم إن فعلتم لم تصلّوا جميعًا[٢] أبدًا. وفى رواية: والله لا تهرقون محجمًا من دم ـ أى: من دم عثمان ـ إلا ازددتم به من الله بُعدًا[٣].

١٠ ـ الحسن بن على رضى الله عنهما:

عن طلق بن خشاف قال: انطلقنا إلى المدينة ومعنا قُرط بن خيثمة، فلقينا الحسن ابن على فقال له قرط: فيم قتل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: قتل مظلومًا[٤].

١١ ـ سلمة بن الأكوع رضى الله عنه:

وعن يزيد بن أبى عبيدة قال: لمّا قتل عثمان خرج سلمة بن الأكوع ـ وهو بدرى ـ من المدينة قبل الربَّذة فلم يزل بها حتى كان قبيل أن يموت[٥].

١٢ ـ عبد الله بن عمر رضى الله عنه:

فعن أبى حازم قال: كنت عند عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكر عثمان، فذكر فضله ومناقبه وقرابته حتى تركه أنقى من الزجاجة، ثم ذكر على بن أبى طالب، فذكر فضله وسابقته وقرابته حتى تركه أنقى من الزجاجة، ثم قال: من أراد أن يذكر هذين فليذكرهما هكذا أو فليدع[٦]، وقال ابن عمر رضى الله عنهما أيضًا: لا تسبّوا عثمان فإنّا كنا نعدّه من خيارنا[٧].

---

(١) معرفة الصحابة (١/ ٢٤٥). والمعجم الكبير (١/ ٤٦).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٣٤). فضائل الصحابة وإسناده صحيح.

(٣) الطبقات (٣/ ٨١).

(٤، ٥) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤).

(٦) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤).

(٧) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٣٧٩). فضائل الصحابة وإسناده صحيح.

خامسًا: أثر مقتل عثمان فى حدوث فتن أخرى:

لقد كانت فتنة قتل عثمان سببًا فى حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التى تلتها، فتغيرت قلوب الناس، وظهر الكذب، وبدأ الخط البيانى للانحراف عن الإسلام فى عقيدته وشريعته(١)، وكان مقتل عثمان من أعظم الأسباب التى أوجبت الفتن بين الناس، وبسببه تفرقت الأمة إلى اليوم(٢)، فتفرقت القلوب وعظمت الكروب، وظهرت الأشرار وذل الأخيار، وسعى فى الفتنة من كان عاجزًا عنها، وعجز عن الخير والصلاح من كان دأبه إقامته، فبايعوا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه وهو أحق الناس بالخلافة حينئذٍ، وأفضل من بقى، لكن القلوب متفرقة، ونار الفتنة متوقدة فلم تتفق الكلمة ولم تنتظم الجماعة، ولم يتمكن الخليفة وخيار الأمة من كل ما يريدونه من الخير، ودخل فى الفرقة والفتنة أقوام(٣).

وبدأ ضعف الفتوحات تدريجيًا خلال السنين الأخيرة من خلافة عثمان، عندما بدأت الفتن تضرب بلاد الإسلام ومركز الخلافة ثم توقفت عندما قتل عثمان واستمرت متوقفة ـ بل تراجعت فى بعض الأماكن ـ إلى بداية عهد معاوية، حيث استقرت أحوال المسلمين فانطلقت الفتوحات شرقًا وغربًا وشمالاً(٤).

سادسًا: الظلم والاعتداء على الآخرين من أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة:

إن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩] وإن المتتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضى الله عنه المعتدين عليه يجد أن الله تعالى لم يمهلهم، بل أذلهم وأخزاهم وانتقم منهم فلم ينج منهم أحد(٥).

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص٥٩٠.
(٢، ٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٦٢).
(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص٥٩١.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٤٨٣).

روى خليفة بن خياط فى تاريخه بإسناد صحيح إلى عمران بن الحُدَير قال: إن لا يكن عبد الله بن شقيق حدثنى: أن أول قطرة قطرت من دمه ـ يعنى عثمان ـ على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧]، فإن أبا حُريث ذكر أنه ذهب وسُهيل النميرى، فأخرجوا إليه المصحف، فإذا القطرة على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإنها فى المصحف ما حُكت، وفى تاريخ ابن عساكر عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة، فإذا رجل يقول: اللهم اغفر لى، وما أظن أن تغفر لى، قلت: يا عبد الله، ما سمعت أحدًا يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت الله عهدًا إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قُتل وُضع على سريره فى البيت، والناس يجيئون، فيصلون عليه، فدخلت كأنى أصلى عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه، فلطمت وجهه، وسجيّته وقد يبست يمينى، قال محمد بن سيرين: رأيتها يابسة كأنها عود[1]، ولو لم يكن من آثار ظلم هؤلاء الحاقدين إلا سلُّ المسلمين السيف عليهم إلى يوم القيامة لكفى بذلك رادعًا لهم، ولكل من سار فى فلكهم، قال القاسم بن محمد: مر عليٌّ رضى الله عنه على رجلين بالمدينة بعدما قتل عثمان، وقبل بيعته وهما يقولان: قتل ابن بيضاء، ومكانه من الإسلام والعرب، ثم والله ما انتطح فيه عنزان فقال على: ما قُلتما؟ فأعادا عليه فقال: بلى والله؛ ورجال بعد رجال، وكتائب بعد كتائب أو يخرج ابن مريم[2].

سابعًا: تأثر المسلمين لمقتل عثمان رضى الله عنه، وما قيل من أشعار:

كان وقع المصيبة على نفوس المؤمنين عظيمًا، فجللهم الحزن وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء على عثمان رضى الله عنه، والترحم عليه، وقام حسان بن ثابت رضى الله عنه يرثى أمير المؤمنين ويكثر التفجع لمقتله، ويهجو قاتليه، ويَقْرَعُهُم بما كسبت أيديهم[3] فيقول:

(١) سير الشهداء دروس وعبر، للسحيبانى ص٦٧. تاريخ دمشق (ص٤٥٨)، وتحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨٥).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨٥).

(٣) سير الشهداء، للسحيبانى، ص٦٢.

أتركتم غزو الدُّروب وراءكم   وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتُمُ   ولبئس أمر الفاجر المتعمد
إن تُقْدِموا نجعل قِرى سرواتكم   حول المدينة كلَّ لين مذود[1]
أو تدبروا فلبئس ما سافرتم   ولَمِثلُ أمر أميركم لم يَرشد
وكان أصحاب النبى عشيَّة   بُدن تُذبَّح عند باب المسجد
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه   أمسى مُقيمًا فى بقيع الغرقد[2]

وقال حسان أيضًا:

ماذا أردتم من أخى الدين باركت   يدُ الله فى ذاك الأديم المقدّدِ[3]
قتلتم ولى الله فى جوف داره   وجئتم بأمر جائر غير مهتد
فهلا رعيتم ذمة الله بينكم   وأوفيتم بالعهد عهد محمد
ألم يك فيكم ذا بلاء ومصدق   وأوفاكم عهدًا لدى كلِّ مشهد
فلا ظفرت أيمان قوم تبايعوا   على قتل عثمان الرشيد المسدَّد[4]

وقال حسان أيضًا:

من سرّه الموت صرفًا لا مزاج له   فليأت مأسدة فى دار عثمانا
مستشعرى حلق الماذىِّ[5] قد شُفِعَتْ   قبل المخاطم[6] بيض زان أبدانا
صبرًا فِدًى لكم أمّى وما ولدت   قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

---

(١) مذود: آلة الذود.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٥).
(٣) الأديم المقدد: الجلد اليابس.
(٤) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٥).
(٥) الماذى: خالص الحديد.
(٦) المخاطم: الأنوف.

فقــد رضينا بأهل الشام نافرة ... وبالأمير وبالإخــوان إخــوانا
إنى لمنهم وإن غابوا وإن شهــدوا ... مـا دمت حيًا ومـا سُمِّيـتُ حسَّانا
لتسمعنَّ وشيـكًا فى ديـارهم ... الله أكبـر يا ثـارات عثمــانا[1]

وقال أيضًا:

إن تُمسِ دارُ ابن أروَى منه خـاوية ... باب صريع وباب محرق خرِبُ
فقد يصادف باغى الخير حـاجته ... فيها ويهوى إليها الذِّكر والحسبُ
يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم ... لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق مليكِ الناس تعترفوا ... بغرة عُصَـب من خَلْفِها عُصَبُ
فيهم حبيب شها بالموت يَقدُمهُم ... مستلئمًا قد بدا فى وجهـه الغضبُ[2]

وقال كعب بن مالك رضى الله عنه:

ويحٌ لأمر قـــد أتانى رائع ... هدّ الجبال فأنغضت برجـوف
قتل الإمام له النجوم خـواضع ... والشمس بازغـة له بكسوف
يا لهف نفسى إذ تولوا غدوة ... بالنعش فوق عـواتق وكتوف
ولَّوا ودلَّوا فى الضريح أخـاهم ... ماذا أجنّ ضريحـه المسقوف[3]
من نائلٍ أو سؤدد وحمـالةٍ ... سبقت له فى الناس أو معروف
كم من يتيم كان يجبُر عظمـــه ... أمس بمنزلة الضيــاع يطوف
فرَّجتها عنه برحمك بعدمـا ... كادت وأيقن بعدها بحتوف
مـا زال يقبلهم ويرأب ظلمهم ... حتى سمعـت برنَّة التلهيـف

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٧).
(٢) حبيب بن مسلمة الفهرى، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٦).
(٣) التمهيد والبيان، ص٢١٠.

أمسى مقيمًا بالبقيع وأصبحوا — متفرقين قد أجمعوا بحفوف [١]

النار موعدهم بقتل إمامهم — عثمان صهرٍ فى البلاد عفيف

جمع الحمالة [٢] بعد حلم راجح — والخير فيه مبين معروف

يا كعب لا تنفك تبكى هالكًا — ما دمت حيًا فى البلاد تطوف

وقال كعب أيضًا:

فكفَّ يديه ثم أغلق بابه — وأيقن أن الله ليس بغافلِ

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم — عفا الله عن كلِّ امرئ لم يقاتل

فكيف رأيت الله صبّ عليهم — العداوةَ والبغضاءَ بعد التواصل؟

وكيف رأيت الخير أدبر بعده — عن الناس إدبار النعام الجوافل؟ [٣]

وقال راعى الإبل النميرى فى ذلك:

عشية يدخلون بغير إذنٍ — على متوكلٍ أوفى وطابا

خليل محمد ووزير صدقٍ — ورابع خير من وطئ الترابا [٤]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

(١) التمهيد والبيان، ص٢١١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١١.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٥).

(٤) أي ـ خير من وطئ التراب فى أمة محمد ﷺ بعد رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان. البداية والنهاية (٧/ ٢٠٦).

الخلاصة

١ ـ كان رضى الله عنه فى أيام الجاهلية من أفضل الناس فى قومه؛ فهو عريض الجاه ثرىٌّ شديد الحياء عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه، لم يسجد فى الجاهلية لصنم قط، ولم يقترف فاحشة قط، فلم يشرب الخمر فى الجاهلية.

٢ ـ كان عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام، ولم يعرف عنه تلكؤ أو تلعثم، بل كان سباقًا أجاب على الفور دعوة الصديق فكان بذلك من السابقين الأولين.

٣ ـ فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحًا شديدًا وتوثقت بينه وبينهم عُرى المحبة وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله ﷺ رقية.

٤ ـ إن سنّة الابتلاء ماضية فى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنّة فى الصحابة الكرام وتحملوا من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فقد أوذى عثمان وعذب فى سبيل الله تعالى على يدى عمه الحكم بن أبى العاص.

٥ ـ منذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبى ﷺ حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها، ولا يغنى فيها أحد غناءه، شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعًا، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين.

٦ ـ كان ذو النورين على صلة وثيقة بالدعوة الكبرى من سنتها الأولى، فلم يفته من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى ﷺ، ولم يفته شىء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين، ولم يفته بعبارة أخرى شىء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية.

٧ - كان المنهج التربوى الذى تربى عليه عثمان بن عفان وكل الصحابة الكرام هو القرآن الكريم، المنزل من عند رب العالمين.

٨ - إن الرافد القوى الذى أثر فى شخصية عثمان بن عفان وصقل مواهبه، وفجر طاقته، وهذب نفسه هو مصاحبته لرسول الله ﷺ وتتلمذه على يديه فى مدرسة النبوة، ذلك أن عثمان رضى الله عنه لازم الرسول ﷺ فى مكة بعد إسلامه كما لازمه فى المدينة بعد هجرته، فقد نظم عثمان نفسه، وحرص على التلمذة فى حلقات مدرسة النبوة فى فروع شتى من المعارف والعلوم على يدى معلم البشرية وهاديها، والذى أدبه ربه فأحسن تأديبه.

٩ - لم يكن عثمان بن عفان رضى الله عنه ممن تخلفوا عن بدر لتقاعس منه أو هروب ينشده، كما يزعم أصحاب الأهواء ممن طعن عليه بتغيبه عن بدر، فهو لم يقصد مخالفة الرسول ﷺ؛ لأن الفضل الذى حازه أهل بدر فى شهود بدر طاعة الرسول ﷺ ومتابعته، وعثمان رضى الله عنه خرج فيمن خرج مع رسول الله ﷺ فردّه ﷺ للقيام على ابنته فكان فى أجل فرض لطاعته لرسول الله وتخلفه، وقد ضرب له بسهمه وأجره فشاركهم فى الغنيمة والفضل والأجر لطاعته الله ورسوله وانقياده لهما.

١٠ - فى الحديبية ذكر المحب الطبرى اختصاص عثمان بعدة أمور منها: اختصاصه بإقامة يد النبى الكريمة مقام يد عثمان لما بايع الصحابة وعثمان غائب، واختصاصه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى من بمكة أسيراً من المسلمين، وذكر شهادة النبى ﷺ لعثمان بموافقته فى ترك الطواف لما أرسله فى تلك الرسالة.

١١ - قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان بن عفان فى عبد الله بن أبى السرح فى فتح مكة.

١٢ - من حياة عثمان رضى الله عنه الاجتماعية فى المدينة: زواجه من أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بعد وفاة رقية بنت رسول الله، ووفاة عبد الله بن عثمان ثم وفاة أم كلثوم رضى الله عنهما.

١٣ - من مساهمته الاقتصادية فى بناء الدولة: شراء بئر رومة بعشرين ألف درهم،

وجعلها عثمان رضى الله عنه للغنى والفقير وابن السبيل، وتوسعة المسجد النبوى، وإنفاقه الكبير على جيش العسرة.

١٤ - وردت أحاديث كثيرة فى فضل عثمان رضى الله عنه، منها ما ورد فى فضله مع غيره ومنها ما ورد فى فضله وحده، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن الفتنة التى يقتل فيها عثمان.

١٥ - كان عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم فى أمهات المسائل فى عهد الصديق؛ فهو ثانى اثنين فى الحظوة عند الصديق، فعمر ابن الخطاب للحزم والشدائد وعثمان للرفق والأناة، وكان عمر وزير الخلافة الصديقية وكان عثمان أمينها العام، وناموسها الأعظم وكاتبها الأكبر.

١٦ - كان عثمان ذا مكانة عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شىء رَمَوه بعثمان، وبعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمى الرديف - والرديف بلسان العرب هو الذى يكون بعد الرجل - والعرب تقول ذلك للرجل الذى يرجونه بعد رئيس، وكانوا إذا لم يقدر هذان على عمل شىء ثلثوا بالعباس.

١٧ - من أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض فى ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان.

١٨ - هناك أباطيل شيعية وأكاذيب رافضية دست فى التاريخ الإسلامى فى قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلقفها المستشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين والمحدثين، ولم يمحصوا الروايات ويحققوا فى سندها ومتنها، فانتشرت بين المسلمين.

١٩- جاءت الأدلة الكثيرة التى تشير وتنبه إلى أحقية عثمان رضى الله عنه بالخلافة ولا نزاع عند المتمسكين بالكتاب والسنّة فى ذلك، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ وكذا من جاء بعدهم ممن سلك سبيلهم من أهل السنّة والجماعة على أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أحق الناس بخلافة النبوة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

٢٠ ـ عندما بويع عثمان رضى الله عنه بالخلافة قام فى الناس خطيبًا وأعلن عن نهجه السياسى مبينًا أنه سيتقيد بالكتاب والسنّة وسيرة الشيخين، كما أنه أشار فى خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها خوفًا من التنافس والتباغض والتحاسد بينهم، مما يفضى بالأمة إلى الفرقة والخلاف.

٢١ ـ إن شخصية ذى النورين تعتبر شخصية قيادية وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى؛ من العلم، والقدرة على التوجيه والتعليم، والحلم، والسماحة، واللين، والعفو، والتواضع، والحياء، والعفة، والكرم، والشجاعة، والحزم، والصبر، والعدل، والعبادة، والخوف، والبكاء، والمحاسبة، والزهد والشكر، وتفقد أحوال الناس، وتحديد الاختصاصات، والاستفادة من أهل الكفاءات.

٢٢ ـ إن معرفة صفات الخلفاء الراشدين ومحاولة الاقتداء بهم، خطوة صحيحة لمعرفة صفات القادة الربانيين الذين يستطيعون أن يقودوا الأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة.

٢٣ ـ قامت سياسة عثمان المالية على الأسس العامة التالية: تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية، عدم إخلال الجباية بالرعاية، أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين، وأخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق، وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم، وتخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء، وتفادى أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة.

٢٤ ـ كانت النفقات فى عهد عثمان تصرف على: صرف مرتبات الولاة، ومرتبات الجند، وعلى الحج، وإعادة بناء المسجد النبوى، وتمويل توسعة المسجد الحرام، وإنشاء أول أسطول بحرى، وتحويل الساحل من الشعيبة إلى جدة، وحفر الآبار، والإنفاق على المؤذنين، وغيرها من الأمور.

٢٥ ـ اتهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه فى بيت المال وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتهام حملة دعائية باطلة قادها السبئيون وتلقفها الشيعة الروافض ضده إلى يومنا هذا، وتسربت فى كتب التاريخ،

وتعامل معها المفكرون والمؤرخون على كونها حقائق، وهى باطلة لم تثبت لأنها مختلقة.

٢٦ ـ يعتبر عهد ذى النورين امتداداً للعهد الراشدى الذى تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبوى وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة، والجانب القضائى فيه خاصة، امتداداً للقضاء فى العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه.

٢٧ ـ كانت خطة عثمان فى الفتوحات تتسم بالحسم والعزم وتمثلت فى الآتى: إخضاع المتمردين من الفرس والروم، وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد، واستمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم، وإقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية، وإنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامى إلى ذلك.

٢٨ ـ كانت معسكرات الإسلام ومسالحه (ثغوره) فى عهد عثمان هى عواصم أقطاره الكبرى، فمعسكر العراق، الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام فى دمشق بعد أن خلص الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان، ومعسكر مصر وكان مركزه الفسطاط، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات ونشر الإسلام.

٢٩ ـ من أشهر قادة الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه: الأحنف بن قيس، وسليمان بن ربيعة، وعبد الرحمن بن ربيعة، وحبيب بن مسلمة.

٣٠ ـ كانت معركة ذات الصوارى من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق فى العَدد والعُدد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة فى الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثى عهد بركوب البحر والقتال البحرى.

٣١ ـ من أهم الدروس والعبر والفوائد فى فتوحات عثمان بن عفان رضى الله عنه: تحقق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين، التطور فى فنون الحرب والسياسة، ركوب المسلمين البحر، جمع المعلومات عن الأعداء، الحرص على وحدة

الكلمة فى مواجهة العدو.

٣٢ ـ يظهر من قصة جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه مدى فهم الصحابة رضى الله عنهم لآيات النهى عن الاختلاف، حيث إن الله نهى عن الاختلاف وحذر منه، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضى الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف فى قراءة القرآن، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية وأخبر عثمان رضى الله عنه بما رأى وبما سمع، وفى مدة قصيرة حسم عثمان الأمر وأغلق باب الخلاف.

٣٣ ـ إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، وهذه الخطوة مهمة فى إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى فى أبهى صورة فى جمع عثمان رضى الله عنه للأمة على مصحف واحد.

٣٤ ـ كانت أقاليم الدولة الإسلامية فى عهد عثمان رضى الله عنه كلاً من: مكة، والمدينة، والبحرين واليمامة، واليمن وحضرموت، والشام، وأرمينية، ومصر، والبصرة، والكوفة.

٣٥ ـ اتخذ عثمان رضى الله عنه أساليب متنوعة لمراقبة عماله والاطلاع على أخبارهم منها: حضوره لموسم الحج، سؤال القادمين من الأمصار والولايات، إرسال المفتشين إلى الولايات، استقدام الولاة وسؤالهم، وغير ذلك من الأساليب.

٣٦ ـ من حقوق الولاة فى العهد الراشدى: الطاعة فى غير معصية الله، بذل النصيحة للولاة، إيصال الأخبار الصحيحة إليهم، احترامهم بعد عزلهم، وإعطاؤهم مرتباتهم.

٣٧ ـ من واجبات الولاة فى العهد الراشدى: إقامة أمور الدين، تأمين الناس فى بلادهم، الجهاد فى سبيل الله، بذل الجهد فى تأمين الأرزاق للناس، تعيين العمال والموظفين، رعاية أهل الذمة، مشاورة أهل الرأى فى ولايتهم، النظر فى حاجة الولاية العمرانية، مراعاة الأحوال الاجتماعية لسكان الولاية.

٣٨ ـ إن عثمان خليفة راشد يقتدى به، وأفعاله تشكل سوابق دستورية فى هذه الأمة،

فكما أن عمر سن لمن بعده التحرج عن تقريب الأقربين، فإن عثمان سن لمن بعده تقريب الأقربين إذا كانوا فى كفاءتهم الإدارية، وكل ما أُنكر على عثمان لا يخرج عن دائرة المباح.

٣٩ـ إن الولاة الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة فى إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا فى الرعية سيرة العدل والإحسان، ومنهم من تقلد مهام الولاية فى عهد الصديق والفاروق رضى الله عنهما.

٤٠ ـ إن الذى يرجع إلى الصحيح المحض من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين عثمان، وما كان لجهادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمة وسعادتها؛ فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب والفخر كلما أمعن فى دراسة ذلك الدور من أدوار التاريخ الإسلامى.

٤١ ـ إن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المنصفة وغير المحققة عن عهد عثمان، وقد تورط الكثير منهم فى الروايات الضعيفة والرافضية وبنوا أحكامًا باطلة وجائرة فى حق عثمان، مثل طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى، وراضى عبد الرحيم فى كتابه النظم الإسلامية، ومحمد الريس فى كتابه النظريات السياسية، وعلى حسين الخربوطلى، فى كتابه الإسلام والخلافة، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه الملك والخلافة، وسيد قطب فى كتابه العدالة الاجتماعية، وغيرهم لقد كان عثمان رضى الله عنه بحق الخليفة المظلوم الذى افترى عليه خصومه الأولون ولم ينصفه المتأخرون.

٤٢ ـ إن الحقيقة التاريخية تقول: إن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذر رضى الله عنه، إنما استأذنه فأذن له، ولكن أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عنه بأنه نفاه.

٤٣ ـ إن أبا ذر رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهودى، وقد أقام بالربذة حتى توفى، ولم يحضر شيئًا مما وقع من الفتن.

٤٤ - من أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه أمور عدة، منها: الرخاء وأثره فى المجتمع، طبيعة التحول الاجتماعى فى عهد عثمان رضى الله عنه، مجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، خروج كبار الصحابة من المدينة، العصبية الجاهلية، توقف الفتوحات، المفهوم الخاطئ للورع، طموح الطامحين، تآمر الحاقدين، التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان، استخدام الأساليب المهيجة للناس، دور عبد الله بن سبأ فى الفتنة.

٤٥ - كانت بداية اشتعال الفتنة بالكوفة، وقد تم نفى رجالها إلى الشام، ثم استقر أمرهم عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالجزيرة، ثم رجعوا إلى الكوفة بعد مكاتبة يزيد بن قيس لهم بالمجىء للكوفة.

٤٦ - كانت سياسة عثمان رضى الله عنه فى التعامل مع الفتنة قائمة على الحلم والتأنى والعدل، وقد اتخذ عدة أساليب لمواجهتها منها: إرسال لجان تفتيش وتحقيق، كتب إلى أهل الأمصار كتابًا شاملاً بمثابة إعلان عام لكل المسلمين، مشورة عثمان لولاة الأمصار، إقامة الحجة على المتمردين، الاستجابة لبعض مطالبهم.

٤٧ - إن المتأمل فى هدى عثمان رضى الله عنه فى تعامله مع الفتنة التى وقعت فى عهده، يمكنه أن يستنبط بعض الضوابط التى تعين المسلم لمواجهته للفتن، ومن هذه الضوابط: التثبت، لزوم العدل والإنصاف، الحلم والأناة، الحرص على ما ينفع ونبذ ما يفرق بين المسلمين، لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام، استشارة العلماء الربانيين، الاسترشاد بأحاديث رسول الله ﷺ فى الفتن.

٤٨ - يظهر للباحثين أن هناك أسبابًا دعت عثمان رضى الله عنه إلى منع الصحابة من القتال، وهى: العمل بوصية الرسول ﷺ التى سارّه بها وبينها عثمان رضى الله عنه يوم الدار، وأنها عهد عُهِد به إليه وأنه صابر نفسه عليه، كره أن يكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك دماء المسلمين، علمه بأن البغاة لا يريدون غيره فكره أن يتوقى بالمؤمنين وأحب أن يقيهم بنفسه، علمه بأن هذه الفتنة فيها قتله، وذلك فيما أخبره بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة

على بلوى تصيبه، وأنه سيقتل مصطبرًا بالحق معطيه فى فتنة، العمل بمشورة ابن سلام رضى الله عنه له، إذ قال له: الكف الكف فإنه أبلغ لك فى الحجة.

٤٩ - إن قاتل عثمان رضى الله عنه رجل مصرى، لم تفصح الروايات عن اسمه، وأما ما يتعلق بتهمة محمد بن أبى بكر بقتل عثمان بمشاقصه، فهذا باطل، والروايات بذلك روايات ضعيفة، كما أن متونها شاذة لمخالفتها للروايات الصحيحة التى تبين أن القاتل هو رجل مصرى.

٥٠ - إن الصحابة جميعًا رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه، وقد صحت الأخبار وأكدت الحوادث والتاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضده، كما أوردنا ذلك بالروايات الصحيحة.

٥١ - إن عثمان رضى الله عنه كان متيقظًا، ولم تنطل عليه المؤامرة ولا أهدافها، بل استطاع أن يخترق صفوف المتمردين ويكشف مخططهم كاملاً، وواجه بشجاعة فائقة، وكره أن يكون أول من يسل السيف فى المسلمين، وآثر أن يفدى الأمة بنفسه، وهذه قمة التضحية والإيثار.

٥٢ - كانت فتنة مقتل عثمان سببًا فى حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التى تليها، فتغيرت قلوب الناس، وظهر الكذب وبدأ الخط البيانى للانحراف عن الإسلام فى عقيدته وشريعته.

٥٣ - إن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩] وإن المتتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان رضى الله عنه المعتدين عليه يجد أن الله تعالى لم يهملهم، بل أذلهم وأخزاهم، وانتقم منهم فلم ينج منهم أحد.

٥٤ - كان وقع المصيبة على نفوس المسلمين عظيمًا، فذهلت عقولهم، وجللهم الحزن وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء على عثمان والترحم عليه، وقام حسان بن ثابت رضى الله عنه يرثى أمير المؤمنين ويكثر التفجع لمقتله، ويهجو قاتليه بقصائد مبكية حزينة، حفظها لنا التاريخ، ولم تهملها الليالى،

ولم تفصلها عنا حواجز الزمن، ولا أسوار القرون.

٥٥ ـ وبعد فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب (عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره) فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصًا على بيان الحقائق والبراهين والأدلة التي تبين حقيقة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وبقول الشاعر:

إن تجـــد عيبًا فسدَّ الخللا   جلّ من لا عيب فيه وعلا

وبقول الشاعر:

اطلب العلم ولا تكسل، فما   أبعد الخير على أهل الكسل

احتفل للفقه في الدين ولا   تشتغل عنه بمال وخَوَلْ

واهجر النوم وحصِّله فمن   يعرف المطلوب يحقر ما بذل

لا تقل قد ذهبت أربابه   كل من سار على الدرب وصل

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى عفو ربه

ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

٨ ربيع الثاني ١٤٢٣هـ

١٨/٦/٢٠٠٢م

تعريف ببعض المناطق التى ذكرت فى البحث [1]

١ ـ **طبرستان:** منطقة تقع جنوب بحر قزوين عاصمتها مدينة همدان، جاء اسمها من جمع كلمة طبر التى تعنى فى اللغة الفارسية الفأس مع زنان التى تعنى النساء.

٢ ـ **أذربيجان:** أصل الكلمة أتروباتن، التى تعنى أرض النار، وتقع هذه المنطقة غرب بحر قزوين، عاصمتها مدينة أردبيل.

٣ ـ **أرمينيا:** صقع كبير يقع شرق آسيا الصغرى جنوب البحر الأسود، جاءت تسميتها من سكانها الأرمن وهم قبائل هندوأوروبية اعتنقوا النصرانية فى بداية القرن الرابع الميلادى، بعد ذلك تحولوا إلى المذهب المنوفيستى (أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام)، كان سكانها قد قاوموا الفتح الإسلامى لبلادهم وبقوا محافظين على ديانتهم النصرانية.

٤ ـ **طخارستان:** إقليم يقع جنوب غرب بلاد ما وراء النهر، عاصمتها بلخ، تقع غالبية أراضيها حاليًا ضمن أفغانستان، أهم مراكزها اليوم قندز وخوست.

٥ ـ **خراسان:** معناها مشرق الشمس تقع شرق الهضبة الإيرانية، عاصمتها مرو.

٦ ـ **سجستان:** منطقة تقع جنوب إقليم خراسان، عاصمتها بست، جاء اسمها من سكنة قوم فيها يدعون بالساكا (الإسكيثيين)، أما الترجمة الحرفية لها فتعنى أرض الكلاب على أساس أن سك تعنى الكلاب فى اللغة الفارسية، وآستان المنطقة، وحاليًا تدعى سيستان.

٧ ـ **بلاد ما وراء النهر:** وهى الأراضى الواقعة ما بين نهرى جيحون (آموداريا) وسيحون (سرداريا)، ومن مدنها بخارى وسمرقند وطشقند، وحاليًا تقع ضمن جمهوريات تركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان.

---

(١) التعريف بهذه المناطق قام به الدكتور فرست مرعى الدهوكى جزاه الله خيرًا.

٨ ـ **جرجان**: إقليم يقع شرق بحر قزوين، وكان اسمها سابقًا إقليم باكتريا حيث بشّر فيه زرادشت بدعوته.

٩ ـ **خوزستان**: إقليم يقع جنوب غرب الهضبة الإيرانية يحادد العراق العربى، قصبتها الأهواز، أطلق عليه العرب اسم إقليم عربستان، سيطر عليه الشاه رضا بهلوى سنة ١٩٢٥م بعد أن اعتقل حاكمها العربى الشيخ خزعل الكعبى، وهى مشهورة بالنفط.

* * *

المصادر والمراجع

١ - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، بيروت، المكتب الإسلامى، ط٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢ - أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز نور ولى، دار الخضيرى، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٣- أحداث وأحاديث الفتنة الأولى، عبد العزيز صغير دخان، تحت الطبع.
٤ - الأحكام السلطانية، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٥ - أدب صدر الإسلام، واضح الصمد.
٦ - الأدب فى الإسلام فى عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٧ - الأساس فى السنّة وفقهها والسيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٨ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير، أبى الحسن بن على بن محمد الجزرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٩ - أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، دار الرائد العربى، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٠ - أصول الإسماعيلية، لويس برنارد، ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلّو، جاسم محمد الرجب، بغداد مكتبة المثنى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.
١١ - أصول مذهب الشيعة الإمامية، ناصر بن عبد الله الغفارى، دار الرضا للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٢ - أضواء البيان فى تاريخ القرآن، صابر حسن محمد أبو سليمان، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣ - أعلام المسلمين لخالد البيطار.
١٤ - الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبى ربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٥ - الأموال لأبى عبيد.
١٦ - أمير المؤمنين على بن أبى طالب من الميلاد إلى الاستشهاد، د. أحمد السيد يعقوب السيد يوسف الرفاعى، دار الفضيلة، القاهرة.
١٧ - الأمين ذو النورين، محمود شاكر، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٨ - الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى، بيروت: الناشر محمد أمين دمج، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١٩ - أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافى القرشى، المكتب الإسلامى بيروت، مكتبة الحرمين - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٠ - الإبانة فى أصول الديانة، لأبى الحسن الأشعرى، طبعة الجامعة الإسلامية ١٩٧٥م.
٢١ - الإتقان للسيوطى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
٢٢ - إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء، محمد الخضرى، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٢٣ - الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، جامعة أم القرى، معهد البحوث وإحياء التراث.
٢٤ - إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبد العزيز المحمد السلمان، مطابع الخالد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
٢٥ - الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٦ - الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق، د. على محمد الصَّلاَّبىّ، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
٢٧ - الاجتهاد فى الفقه الإسلامى، عبد السلام السليمانى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، طبعة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.
٢٨ - استشهاد عثمان ووقعة الجمل فى مرويات سيف بن عمر فى تاريخ الطبرى دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
٢٩ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٣٠ - الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمى.
٣١ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لتقى الدين ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، طبع مطابع العبيكان الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
٣٢ - البحرين فى صدر الإسلام وأثرها فى حركة الخوارج، عبد الرحمن عبد الكريم النجم، دار الحرية بغداد ١٩٧٣م.
٣٣ - البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٣٤ - البيان والتبيين، للجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، دار الخانجى بمصر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٣٥ - تاريخ الدعوة الإسلامية فى زمن الرسول والخلفاء الراشدين، د. جميل عبد الله المصرى، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
٣٦ - تاريخ ابن خلدون.
٣٧ - تاريخ ابن خلدون، دار النفائس، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٣٨ - تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر الطبرى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٣٩ـ تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٠ ـ التاريخ الإسلامى مواقف وعبر، د. عبد العزيز عبد الله الحميدى، دار الدعوة، الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٤١ ـ تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى، محمد الخضرى، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، الطبعة السادسة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

٤٢ـ تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، الطبعة الأولى، ١٩٣٤م.

٤٣ ـ تاريخ العرب الأدبى فى الجاهلية وصدر الإسلام، نكلسن، رينولد، ترجمة صفاء خلوصى، بغداد: مطبعة المعارف ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

٤٤ ـ تاريخ القضاء فى الإسلام، د. محمد الزحيلى، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٤٥ ـ تاريخ القضاعى، كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضى محمد بن سلام بن جعفر الشافعى، مطبوعات جامعة أم القرى.

٤٦ ـ تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبّة النميرى البصرى، تحقيق: محمود شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة ١٣٩٣هـ.

٤٧ ـ تاريخ اليعقوبى دار بيروت للطباعة والنشر طبعة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٤٨ ـ تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، حسن سليمان محمود، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٦٩م.

٤٩ ـ تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبى هبيرة الليثى، تحقيق: أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، ودار القلم، بيروت ١٣٩٧هـ.

٥٠ ـ تاريخ دمشق، ابن عساكر، ترجمة عثمان رضى الله عنه، تحقيق: سكينة الشهابى، نشر المجلس العلمى بدمشق ١٩٨٤م.

٥١ ـ تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين فى القرآن الكريم، على الصَّلاَّبىّ، دار الصحابة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٥٢ ـ التبيين فى أنساب القريشيين، موفق الدين أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، حققه محمد نايف الدليمى، عالم الكتب، الطبعة الثانية.

٥٣ ـ تجريد أسماء الصحابة، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تصحيح صالحة عبد الحكيم شرف الدين، طبعة شرف الدين الكتبى وأولاده بومباى، الهند ١٣٨٩هـ.

٥٤ ـ تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى، محمد عبد الرحمن المباركفورى، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبى.

٥٥ ـ تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة من روايات الطبرى والمحدثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٥٦ ـ تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، بيروت، دار إحياء التراث.

٥٧ ـ التربية القيادية، منير الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٨ ـ تفسير القرطبى، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، القرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.

٥٩ ـ التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد بن بيلة بن مرهان العجمى، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى.

٦٠ ـ تقريب التهذيب، لابن حجر.

٦١ ـ التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبى بكر المالقى الأندلسى، حققه د. محمود يوسف زايد، دار الثقافة الدوحة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٦٢ ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى، صالح العلى، الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩م.

٦٣ - تهذيب ابن عساكر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٦٤ - تهذيب التذهيب، أحمد بن على بن حجر، دار صادر، بيروت.
٦٥ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٦٦ - الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن، الهند ١٣٧٢هـ.
٦٧ - جمهرة أنساب العرب، على بن أحمد بن حزم الأندلسى، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٣٨٢م.
٦٨ - جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
٦٩ - حذيفة بن اليمان، إبراهيم العلى، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
٧٠ - حروب الإسلام فى الشام فى عهود الخلفاء الراشدين ـ محمد أحمد باشميل ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٧١ - حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد بن سالم، دار المنار، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
٧٢ - الحضارة العربية فى الإسلام، د. واضح الصمد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس ـ لبنان.
٧٣ - حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، الإسكندرية.
٧٤ - الحكمة فى الدعوة إلى الله، سعيد القحطانى، مؤسسة الجريسى، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٧٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى، دار الكتب العلمية بيروت.
٧٦ - الخراج لأبى يوسف، منشورات مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ الطبع.

٧٧- الخراج وصناعة الكتابة، أبو الفتوح قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادى، شرح وتحقيق: د. محمد حسين الزبيدى، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١م.
٧٨- الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٧٩- الخلافة بين التنظير والتطبيق، محمود المرداوى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
٨٠- خلافة عثمان بن عفان، د. محمد بن صامل السُّلمى، مكتبة سالم، العزيزية، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٨١- الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، المستشار سالم البهنساوى، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٨٢- الخلفاء الراشدون أعمال وأحداث، د. أمين قضاة، دار الفرقان، الأردن، طبعة الفرقان الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٨٣- الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
٨٤- الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٨.هـ - ١٩٩٧م.
٨٥- الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨٦- الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، عبد الرحمن عبد الكريم العانى، د. حسن فاضل زغين، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد طبعة ١٩٨٩م.
٨٧- الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاوزن.
٨٨- دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، وموقف السلف منها، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مركز دار إشبليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٨٩- دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، د. عبد الرحمن الشجاع، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، دار الفكر المعاصر - صنعاء.

٩٠ - الدراهم المضروبة على الطراز الساسانى للخلفاء الراشدين فى المتحف العراقى، مجلة المسكوكات، مديرية الآثار العامة بغداد ١٩٦٩م، وداد على القزاز.
٩١ - دماء على قميص عثمان بن عفان، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٩٢ - الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٩٣ - دور المرأة السياسى فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين، تأليف: أسماء محمد أحمد زيادة، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٩٤ - الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات، د. حمدى شاهين، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.
٩٥ - الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
٩٦ - الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدى شاهين، دار القاهرة.
٩٧ - الدولة والسيادة، د. فتحى عبد الكريم، مكتبة وهبة بمصر، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٩٨ - الدين الخالص، محمد صديق حسن القنوجى البخارى، تحقيق: محمد زهرى النجار، مكتبة الفرقان.
٩٩ - ديوان أعشى همدان، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، تحقيق: د. حسن عيسى أبو ياسين، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٠٠ - ذات الصوارى، شوقى أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.
١٠١ - ذو النورين عثمان بن عفان، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بيروت - لبنان.
١٠٢ - ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م.
١٠٣ - الرد على الرافضة لأبى حامد محمد المقدسى، تحقيق: عبد الوهاب خليل الرحمن، الدار السلفية، بومباى الهند، طبعة أولى ١٤٠٣هـ.

١٠٤ ـ الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٠٥ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلى، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة ١٣٨٧هـ.

١٠٦ ـ الرياض النضرة فى مناقب العشرة، لأبى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى، المكتبة القيمة، القاهرة.

١٠٧ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١٣، ١٤٠٦هـ.

١٠٨ ـ الزهد للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتاب العربى، بيروت ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٩ ـ سفراء النبى ﷺ، محمود شيث خطاب، مؤسسة الريان، ودار الأندلس الخضراء، بجدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٩٦م.

١١٠ ـ سنن أبى داود، الإمام أبو داود، تحقيق: وتعليق عزت الدعاس، سوريا ١٣٩١هـ.

١١١ ـ سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزوينى، دار الفكر.

١١٢ ـ سنن الترمذى، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، دار الفكر ١٣٩٨هـ.

١١٣ ـ السنن الكبرى، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقى، طبع دار المعارف، بيروت لبنان، توزيع مكتبة المعارف، الرياض.

١١٤ ـ السنّة والبدعة، عبد الله باعلوى الحضرمى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، طبعة دار القلم الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١١٥ ـ السنّة، أبو بكر أحمد بن محمد الخلاّل، تحقيق، د. عطية الزهرانى، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

١١٦ ـ السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، فان فولتن ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكى إبراهيم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٢ ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

١١٧ - السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، تقى الدين أحمد بن تيمية، دار المعرفة بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م.
١١٨ - السياسة المالية لعثمان بن عفان، قطب إبراهيم محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
١١٩ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ.
١٢٠ - سير الشهداء دروس وعبر، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١٢١ - السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنّة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
١٢٢ - السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، د. مهدى رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١٢٣ - السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
١٢٤ - السيرة النبوية، دروس وعبر، مصطفى السباعى، المكتب الإسلامى، بيروت ـ لبنان، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
١٢٥ - السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، د. على محمد الصَّلاَّبى، دار الصحابة، الشارقة، طبعة أولى ٢٠٠١م.
١٢٦ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الحنبلى، بيروت، المكتب التجارى للطباعة والنشر.
١٢٧ - شرح صحيح مسلم، للإمام النووى، بيروت، دار الفكر، طبعة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٢٨ - الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، د. على محمد الصَّلاَّبى، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.
١٢٩ - شعراء الخلفاء، نبال تيسير الخماش.

١٣٠ - شهيد الدار عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٣١ - الصارم المسلول على شاتم الرسول، لتقى الدين ابن تيمية.

١٣٢ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، أبو العباس أحمد بن على القلقشندى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة بدون تاريخ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.

١٣٣ - صحيح البخارى، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٣٤ - صحيح التوثيق فى سيرة وحياة ذى النورين، مجدى فتحى السيد، دار الصحابة بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٣٥ - صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلى، دار النفائس، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

١٣٦ - صحيح النسائى للألبانى، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣٧ - صحيح سنن ابن ماجه، للألبانى، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٣٨ - صحيح سنن الترمذى، محمد ناصر الدين الألبانى، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٣٩ - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

١٤٠ - الصديقة بنت الصديق، للعقاد، مطبعة المعارف، مصر ١٩٤٣م.

١٤١ - صفة الصفوة للإمام أبى الفرج ابن الجوزى، دار المعرفة، بيروت.

١٤٢ - صلاح الأمة فى علو الهمة، د. سيد بن حسين العفانى، دار الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٤٣ - الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمى، دار الكتب العلمية بيروت.

١٤٤ ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعيد بن منيع الهاشمى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٤٥ ـ عائشة والسياسة، سعيد الأفغانى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٤٦ ـ عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.

١٤٧ ـ عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٤٨ ـ عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ضياء الدين الريس مطابع سجل العرب، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٦٩م.

١٤٩ ـ عثمان بن عفان، الخليفة الشاكر الصابر، عبد الستار الشيخ الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١٥٠ ـ عثمان بن عفان، صادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٥١ ـ عثمان بن عفان، محمد حسنين هيكل.

١٥٢ ـ العشرة المبشرون بالجنة، محمد صالح عوض، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٥٣ ـ عصر الخلافة الراشدة، الدكتور أكرم ضياء العمرى، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥٤ ـ عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد الحميد بخيت، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

١٥٥ ـ عقائد الشيعة، رونلدسن، دوايت تعريب (ع، م) القاهرة، مكتبة الخانجى ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م.

١٥٦ ـ العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب، دار الفكر، بيروت.

١٥٧ - عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن الرسائل المنيرية، للشيخ إسماعيل الصابونى، نشر محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٧٠م.

١٥٨ - عقيدة أهل السنّة والجماعة فى الصحابة الكرام، الدكتور ناصر بن على عايض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض.

١٥٩ - العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريض، د. سليمان بن سالم بن رجاء السحيمى، مكتبة الإمام البخارى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٦٠ - العقيدة والشريعة الإسلامية، جولد تسهير، أجناس ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة، دار الكتب الحديثة.

١٦١ - عمار بن ياسر، رجل المحنة وميزان الفتنة، أسامة أحمد سلطان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٦٢ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى.

١٦٣ - عمرو بن العاص الأمير المجاهد، د. منير محمد الغضبان، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

١٦٤ - عمرو بن العاص، عبد الخالق سيد أبو رابية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٦٥ - عمرو بن العاص، محمود العقاد، الناشر دار الكتاب العربى، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

١٦٦ - العواصم من القواصم، القاضى أبو بكر بن العربى، تحقيق: محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيِّض، دار الثقافة قطر، الدوحة، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

١٦٧ - غزوة الحديبية لأبى فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن.

١٦٨ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى، تحقيق: الأستاذ محب الدين الخطيب، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٦٩ - فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، محمد على الشوكانى، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

١٧٠ - الفتنة الكبرى، عثمان، طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٤٧م.

١٧١ ـ الفتنة الكبرى، على وبنوه، طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.
١٧٢ ـ فتنة مقتل عثمان، د. محمد عبد الله الغبان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١٧٣ ـ الفتنة، أحمد عرموش.
١٧٤ ـ فتوح البلدان، لأبى العباس، أحمد بن يحيى البلاذرى، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٧٥ ـ فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم، نسخة عن طبعة لندن ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢٠م، نشر مكتبة المثنى بغداد.
١٦٧ ـ فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
١٧٧ ـ فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، محمد صالح الغرسى، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م.
١٧٨ ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، لأبى محمد بن حزم الظاهرى، مكتبة الخانجى، مصر.
١٧٩ ـ فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، دار ابن الجوزى، السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
١٨٠ ـ فقه الأولويات محمد الوكيلى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فيرجينيا ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.
١٨١ ـ فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، د. عبد الرزاق أحمد السنهورى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ م.
١٨٢ ـ الفكر الإسلامى بين المثالية والتطبيق، كامل الشريف.
١٨٣ ـ فيض القدير للمناوى.
١٨٤ ـ قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، محمود شيث خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٨٥ - قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيث خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٨٦ - قادة فتح بلاد المغرب، محمود شيث خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٨٧ - القاموس المحيط، للفيروزآبادى، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.

١٨٨ - القواعد الفقهية: مفهومها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، تطبيقاتها، على أحمد الندوى، بيروت، القلم، ط١، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨٩ - القيود الواردة على سلطة الدولة، عبد الله الكيلانى، دار البشير، عمان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٩٠ - الكامل فى التاريخ، أبو الحسن على بن أبى المكارم الشيبانى المعروف بابن الأثير، تحقيق: على شيرى، دار إحياء دار التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٩م.

١٩١ - الكامل فى اللغة والآداب، لأبى العباس محمد بن يزيد، الناشر البابى الحلبى، مصر، طبعة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م، مؤسسة الرسالة.

١٩٢ - كتاب الإمامة والرد على الرافضة لأبى نعيم الأصبهانى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ م.

١٩٣ - الكفاءة الإدارية فى السياسة الشرعية، د. عبد الله قادرى، دار المجتمع، جدة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٩٤ - كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ محمد قطب، دار الوطن السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٩٥ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.

١٩٦ - لسان الميزان، أحمد بن على بن حجر، حيدرآباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م.

١٩٧ - ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح الزينى، منشورات جامعة قار يونس، بنغازى، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

١٩٨ ـ مبادئ الاقتصاد الإسلامى، سعاد إبراهيم صالح، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
١٩٩ ـ المجروحين من المحدثين، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمى، تحقيق: إبراهيم محمود زايد، حلب دار الوعى.
٢٠٠ ـ مجلة البحوث الإسلامية، العدد العاشر.
٢٠١ ـ مجلة المؤرخ العربى، رقم ٢١.
٢٠٢ ـ مجمع الأمثال للميدانى، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
٢٠٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، بتحرير الحافظين: العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت ط٣، ١٤٠٢هـ.
٢٠٤ ـ مجموعة الفتاوى، تقى الدين أحمد بن تيمية الحرّانى، دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
٢٠٥ ـ مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٠٦ ـ المدينة المنورة، فجر الإسلام والعصر الراشدى، محمد محمد حسن شُرّاب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
٢٠٧ ـ مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٢٠٨ ـ مرويات العهد المكى، عادل عبد الغفور.
٢٠٩ ـ مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، خالد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
٢١٠ ـ المستدرك على الصحيحين، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
٢١١ ـ مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامى، بيروت، لبنان.
٢١٢ ـ المعارف لابن قتيبة.

٢١٣ ـ معاوية بن أبى سفيان، صحابى كبير، وملك مجاهد، منير محمد الغضبان، دار القلم دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢١٤ ـ معجم البلدان، ياقوت الحموى، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢١٥ ـ معجم الطبرانى الكبير، لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥م.

٢١٦ ـ معرفة الصحابة لأبى نعيم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ تحقيق: محمد راضى بن حاج عثمان، مكتبة الدار فى المدينة النبوية، ومكتبة الحرمين فى الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢١٧ ـ المعرفة والتاريخ للفسوى، لأبى يوسف الفسوى، تحقيق: أكرم ضياء العمرى، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٩٤هـ.

٢١٨ ـ المغازى، محمد عمر الواقدى، تحقيق: د. مارسدن جونسن، عالم الكتب بيروت، ط٣، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م.

٢١٩ ـ المغنى، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د. عبد الله التركى، د. عبد الفتاح الحلو، دار هجر القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ.

٢٢٠ ـ المنار المنيف فى الصحيح والضعيف، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية.

٢٢١ ـ مناقب الشافعى للبيهقى، تحقيق: أحمد صقر، مكتبة دار التراث، طبع دار النصر طبعة أولى ١٣٩١هـ.

٢٢٢ ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢٣ ـ منهاج السنّة لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

٢٢٤ ـ منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٢٥ ـ منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه، د. السيد محمد نوح، نشرته جامعة الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٢٦ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: حسين الدارانى عبده كوشك، دار الثقافة العربية، دمشق، ط١، ١٤١١هـ.

٢٢٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط للمقريزى، أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين أبى العباس المقريزى.
٢٢٨ - موسوعة التاريخ الإسلامى، أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٦م.
٢٢٩ - الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، بالسعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٢٣٠ - موسوعة فقه عثمان بن عفان، الدكتور محمد روّاس قلعجى، دار النفائس طبعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
٢٣١ - ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، محمد بن عثمان الذهبى، تحقيق: على البجاوى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.
٢٣٢ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٣٣ - نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
٢٣٤ - نشأة الفقه الاجتهادى وأطواره، محمد السايس، مطبعة الأزهر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م مجمع البحوث بالأزهر المؤتمر الرابع.
٢٣٥ - نظام الأراضى فى صدر الدولة الإسلامية، محمد حسن أبو يحيى، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٣٦ - نظام الحكم فى الإسلام، عارف أبو عيد، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢٣٧ - نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، ظافر القاسمى، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٣٨ - نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، حمد محمد الصمد، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٢٣٩ - نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى، الدكتور مصطفى حلمى، دار الدعوة، الإسكندرية.

٢٤٠ ـ النظم الإسلامية، صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة ١٩٨٩م.

٢٤١ ـ النظم الإسلامية، وقائع ندوة أبو ظبى، مكتب التراث العربى لدول الخليج، طبعة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٤٢ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٤٣ ـ الهجرة فى القرآن الكريم، أحزمى سامعون جزولى، مكتبة الرشد الرياض، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٤٤ ـ وجوب التعاون بين المسلمين للسعدى، دار المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

٢٤٥ ـ الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة.

٢٤٦ ـ وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان أبى العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

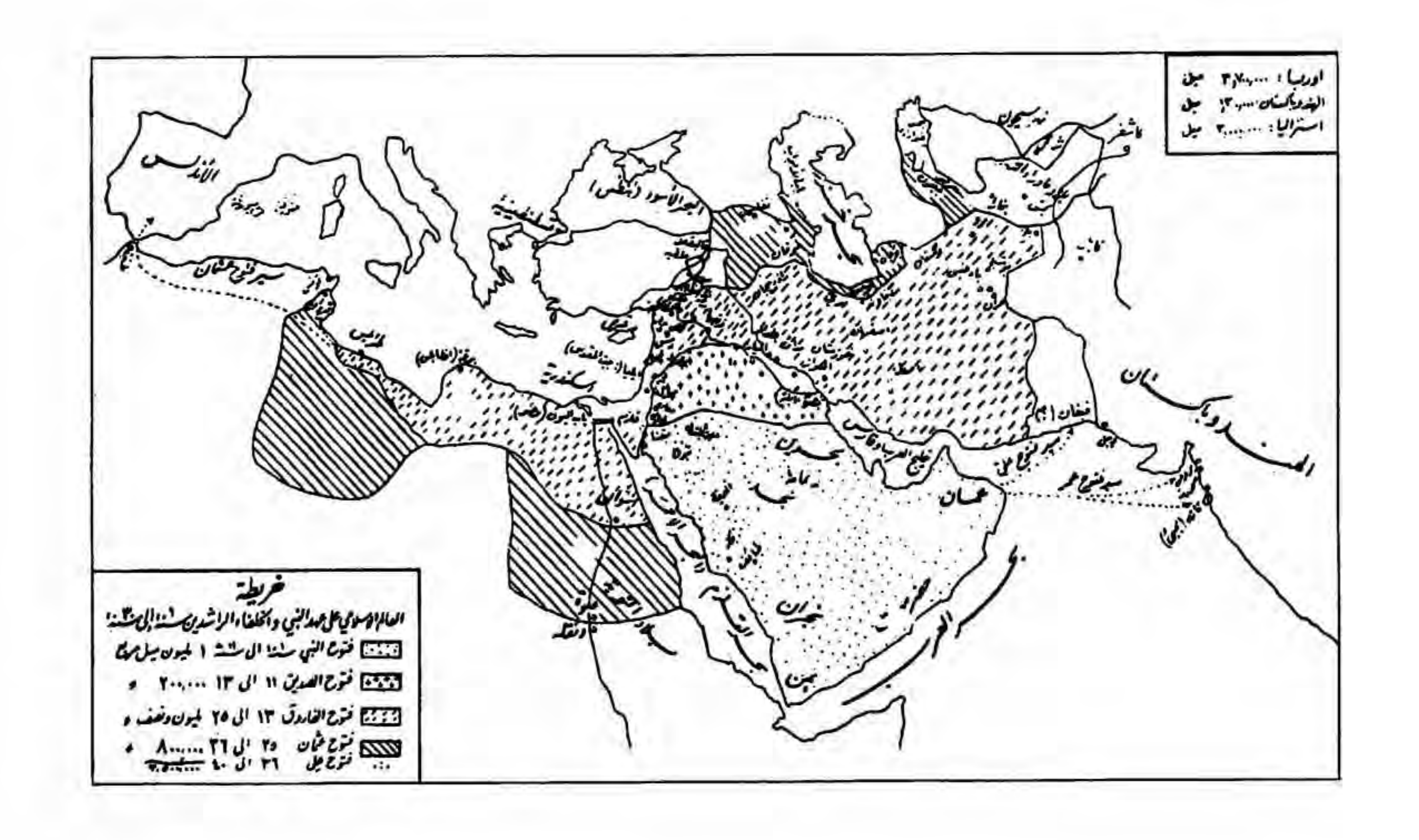
٢٤٧ ـ ولاة مصر، أبو يوسف محمد يوسف الكندى، تحقيق: د. حسين نصار، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٢٤٨ ـ ولاية الشرطة فى الإسلام، د. نمر الحميدانى، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٤٩ ـ الولاية على البلدان فى عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمرى الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٥٠ ـ اليمن فى صدر الإسلام، د. عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر، دمشق.

* * *


اوربا : ٣٬٧٠٠٬٠٠٠ ميل
الهند وباكستان ميل
استراليا : ٣٬٠٠٠٬٠٠٠ ميل
خريطة
العالم الاسلامي على عهد النبي والخلفاء الراشدين سنة ١ الى سنة ٤٠
فتوح النبي سنة ١ الى سنة ١١ مليون ميل مربع
فتوح الصديق ١١ الى ١٣ ٢٠٠٬٠٠٠ «
فتوح الفاروق ١٣ الى ٢٥ مليون ونصف «
فتوح عثمان ٢٥ الى ٣٦ ٨٠٠٬٠٠٠ «
فتوح علي ٣٦ الى ٤٠
الأندلس
سير فتوح عثمان
البحر الأسود (بنطس)
اسكندرية
عمان
سير فتوح عمر
الهند وباكستان
نجران
حضرموت
يمن
بحر العرب
بخارى
كاشغر

فهرس الموضوعات

الموضــــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة

الفصل الثانى

استخلاف ذى النورين ومنهجه فى الحكم وأهم صفاته الشخصية

الموضـــــــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــــــوع | الصفحة

الموضــــــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة


الفصل السابع

مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــــوع الصفحة



3
دار الفجر للتراث
خلف الجـامع الأزهر - بجوار بيت الهراوى
القاهرة - تليفون وفاكس: ٥١٤٧٢٤٨
ت: ٥١٤٧١٧٩ محمول : ٠١٢/٧٤١٨٣٤٨